(الغلاف)

علم واحد ..
وعشرون نجمة

أحمد الشقيري

علم واحد.. وعشرون نجمة

الطبعة الإلكترونية الأولى
1426 هـ
2005 م

- **علم واحد وعشرون نجمة**
- **أحمد الشقيري**
- الطبعة الإلكترونية الأولى 2005 م

التنقيح والتدقيق الفني واللغوي

عبد العزيز السيد أحمد

أ.د. عزمي الصالحي

تدقيق التنضيد والإخراج :-

المؤسسة العربية الدولية للنشر والتوزيع

هاتف: 5650630-6-962+ فاكس: 5668860-6-962+

ب.إ: arab_book@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة. **All rights reserved.**

المحتويات

المقدمة..... 7

– كنا بالوحدة، وبالوحدة سنكون 15

– نحن .. من نحن؟..... 29

– ومن نحن .. مرة أخرى؟ 47

– العيب كل العيب في الحكام، لا في الشعوب 67

– قبل الميلاد .. أربعة آلاف عام من الوحدة 85

– الوحدة العربية – من المدينة المنورة إلى دمشق 107

– الوحدة العربية من دمشق إلى بغداد 129

– الوحدة من بغداد إلى القسطنطينية 149

– دولة الوحدة الرباعية قبل مئة وخمسين عاماً 181

– علماء وزعماء خاضوا معارك الوحدة 205

– هذه الدولة من أقامها، وهذه الحدود من بناها؟ 227

– الوحدة العربية، وكيف نريدها 251

– أولاً وأولاً: جمهورية وادي النيل 269

– علم واحد – وعشرون نجمة 305

– الوحدة العربية – من أين تبدأ وكيف ؟ 319

– درس التاريخ والجغرافيا إلى الملوك والرؤساء 341

– الوحدة العربية وفلسطين – وفلسطين والوحدة العربية 363

-عشر دول وحدوية – ولماذا انتكست 387
- الوحدة العربية والأقليات 419
- الوحدة العربية – وثورة ربيع الأول 439
- الوحدة العربية والاشتراكية المعاصرة 461
- دولة عظمى بين أيدينا 487
الملاحق 519
- المساحة والسكان في الدول العربية 521
- بيان قيام الجمهورية العربية المتحدة 523
- الميثاق الوطني- الفصل التاسع 526
- الوحدة الثلاثية 533
- إعلان بنغازي 564
- الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية 569
- إعلان دمشق- دستور دولة الاتحاد 574
- اتفاقية الوحدة بين شطري اليمن 593
- اتفاق الوحدة الليبية التونسية 600
- قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان 601

المقدمـة

ما هو ..؟ ولماذا .؟

أكتب مقدمة الكتاب بعد أن فرغت من تأليفه ومراجعته، وأنا أحمد الله أن هيأ لي من العافية والصبر والوقت ما أعانني على إكماله، ولست أذيع سرا أن وراء هذا الكتاب سنين من البحث والدرس، وسنين أخرى من التجارب والمعاناة عشتها وأنا أسير في موكب الوحدة العربية منذ طفولتي إلى كهولتي.

والكتاب، كما سيرى المواطن العربي، مجموعة من الفصول، يتناول كل فصل منها جانباً مستقلاً من جوانب الوحدة العربية، ، وبذلك شمل كل فصل منها قضية الوحدة من نواحيها التاريخية والسياسية والدستورية، وحوافزها القومية .. ولم يغفل عن مناقشة الحجج الانفصالية التي يتذرع بها المنتفعون بالانفصال في الوطن العربي.

وفي الجانب التاريخي، على وجه التحديد، يضع الكتاب أمام المواطن العربي مسيرة الوحدة العربية، بدأت منذ فجر التاريخ وقد تمثلت في

الإمبراطوريات العربية التي قامت في عهود المصـــريين القدماء، والبابليين والآشـوريين والفينيقيين والراشـدين والأمويين والعباسـيين والفاطميين، وكلها تمثل خطا وحدويا، انتابته هزات ونكســات، ولكنه ظل يســير على درب الوحدة، من غير انقطاع.

وفي هذا الإطار يشرح الكتاب بشيء من التفصيل عروبة الإمبراطوريات التي قامت قبل الإســلام، وأن الفراعنة والبابليين والآشــوريين والفينيقيين هم من الســلالات العربية التي انطلقت من الجريرة العربية، وأن تلك الأســر الحاكمة تنسـب إلى اسـماء مدن، أو قبائل وأن لفظ الفراعنة، مثلاً، ليس اسـم شـعب ولا أسرة ولا اسم حاكم بالذات، ومعناه السيد، الحاكم، الملك...

كما يؤكد الكتاب على المعنى الحضـــاري والثقافي للقومية العربية كأساس للوحدة العربية، وأن النسابين العرب، وكبار الأدباء والشعراء القدامى في الأمة العربية لم يؤمنوا بصــفاء الدماء ونقاء الأعراق، بل اعتبروا العروبة معنى روحياً لا دما مادياً.. ومن هذا المعنى الروحي جعلوا الاستعراب" مصدراً متمادياً للعروبة، ومن هذا المعنى قســموا العرب إلى عرب عاربة وعرب مســتعربة .. واسـتمر الاسـتعراب منذ أقدم العصـور ولا يزال الباب مفتوحا على مصـراعيه، وإلى يومنا هذا.

وانطلاقاً من هذه النظرة، يعالج الكتاب قضـــية الوحدة إزاء الاقليات الدينية والمذهبية والعنصرية، ابتداء بمشكلة الأكراد في العراق، وأهل الجنوب في السودان، والبربر في شمال إفريقيا، والمذاهب الدينية في الوطن العربي كله.

ويدعو الكتاب إلى إقامة الدولة العربية المتحدة شـــاملة الوطن العربي بأسره، في نظام فدرالي تقوم على رأسـه حكومة اتحادية مركزية تمارس سـيادتها

في الشـئون الخارجية، والعسـكرية، والاقتصـادية، والثقافية وما إلى ذلك، ويكون تحتها عشـرون حكومة قطرية، تتولى الأمور القطرية .. ويكون للدولة علم واحد فيه عشرون نجمة . ومن هنا كان اسم الكتاب.

وفي الكتاب فصـــل خاص عن "الوحدة العربية وفلســطين" "وفلســطين والوحدة العربية" شـرحت فيه المسـيرة الوحدوية التي ناضـل على دربها الشـعب الفلســطيني منذ أوائل العشــرينات، مرحلة بعد مرحلة، وبســطت الرأي في دور الوحدة العربية بشأن القضية الفلسطينية، باعتبار انها قضية قومية أولاً وآخراً.

وكان لا بد أن يكون لدولة " الوحدة العربية " مضـمون اجتماعي " وقد عالجته في فصـــلين مســـتقلين أبرزت فيهما المنابع الفكرية التي يتعين على الاشتراكية العربية أن تنهل منها، مع التوكيد بأن الاشتراكية ليست مستوردة على الحياة العربية ، فكراً ، وتطبيقا، بل إنها متأصـــلة في تراثنا الروحي وســـلوكنا الاجتماعي.

وفي الكتاب فصـــل هام، عنوانه "دولة عظمى تنتظرنا" وهو لا يتحدث عن العظمة بمعناها التقليدي ، ولكنه يربطها بالمعنى الحضـاري الشـامل، حيث يصـــبح وطننا العربي الكبير، الواحد المتحد، بثرواته ومواقعه الاســـتراتيجية وطاقاته البشــرية مصـــدر خير ورفاهية للمواطن العربي حيثما يقيم، ومعين قوة وعزة لكل شـــعب عربي أنى يكون موقعه في الوطن العربي، وينبوعا دافقا يرفد الأمة العربية بأسرها بكل أسباب المنعة والتقدم، لتؤدي رسالتها الجديرة بماضيها وحاضـرها، الكفيلة بمسـتقبلها في شـتى ميادين المعرفة الإنسـانية، ورحاب الحق والعدل، والأمن والسلام، لنفسها وللعالم أجمع.

وكتاب الوحدة هذا، يصـــدر في فترة عصـــيبة من تاريخ الأمة العربية، ففي آفاق هذه الفترة تعلو "العاب نارية" تتدافع في الســـماء العربية، ليتخذ منها الانفصـــاليون ودعاة التجزئة، دلائل جديدة أن الوحدة العربية ســـراب لا يشـــفي غليلاً، وأمل يســتحيل تحقيقه، وان الخير كل الخير، أن ينصـرف كل بلد عربي إلى ما يعنيه ويغنيه!

وتتجســـد "الألعاب النارية" هذه فيما نراه في الوطن العربي من شـــقوق وصدوع في جدرانه، وما نشهده من حرائق في ساحاته، وما نطالعه كل يوم من اقتتال بين أبنائه.. كل ذلك لأغراض باطلة، أو أهداف زائلة..

وتكاد الخلافات والاحتشـادات والانفجارات أن تعم الوطن العربي بأسـره .. والمواطن العربي يرى بأم عينيه، ويســمع بكل أذنيه، ما هو قائم بين الكويت والعراق، وبين العراق وسوريا، وبين سوريا ومصر، وبين مصر وليبيا، وبين ليبيا والســـودان وبين ليبيـا وتونس، وبين اليمن واليمن، وبين المغرب والجزائر وموريتانيا، واخيراً، هذه المذبحة الرهيبة في لبنان، موطن الإخاء والصفاء..

وقد احتشـــدت هذه الأحداث كلها، وكأنها على ميعاد، خلال الأعوام الثلاثة الماضـية، وبعد حرب أكتوبر بالذات، لتعطي الانفصـاليين حججا جديدة لتوكيد مواقفهم القديمة، يغمزون فيها الوحدة العربية، محاولين ســـوق الدليل تلو الدليل، ان الوحدة خيال في خيال، وأنها فكرة رومانســـية ليس لها موقع في دنيا الواقع،وأنها أشـــبه ما تكون بالزهور الاصـــطناعية، جميلة وأخاذة ورائعة، ولكنها من غير روح ولا ريحان.

وأحســـب ان دعاة الانفصـــال، وهم بالطبيعة والمصـــلحة أعداء الوحدة، ولأنهم وحدهم المنتفعون بالانفصـــال ، يســتشـعرون أن الأحداث العربية الســـالفة

الذكر قد سقطت عليهم من السماء، لتزيد "دعوتهم" رواجاً وانتشاراً، وكأنما لسان حالهم يصـــيح، أو لم نقل لكم إن الوحدة خيال في خيال . دونكم الحرب في لبنان، ودونكم هذا الاستنفار والانفجار في معظم بقاع الوطن العربي ..

ولكن .. فات أصـــحاب هذا الكلام ان تلك الخلافات العربية هي حجة للوحدة على الانفصـال.. ذلك أن هذه الخلافات، في التشـخيص الصـحيح هي أعراض متعددة لمرض واحد.. وهذا المرض الواحد هو الانفصـــال والتجزئة. ولولا هذا المرض ما كانت تلك الأعراض، وبالتالي تلك الخلافات...

حقاً، إنه لولا الحدود ما قامت الخلافات على الحدود، ولولا المصـــالح القطرية الضـيقة لما نشـبت الملاحم بين الأقطار.. وفي كلمة موجزة لولا الحكام العشـرون، لما وثب الحكام بعضـهم على بعضـهم .. والأمة العربية بريئة مما يصنعون ..

ولو شـئنا ان ننتقل من التعميم إلى التخصـيص، لوضـح أمامنا، أنه لو كان المشـرق العربي جمهورية واحدة، لما وقعت المذبحة الرهيبة في لبنان، ولما وقع الاسـتنفار العسـكري بين سـوريا والعراق، وهما القطران المؤهلان للوحدة، اليوم قبل الغد ..

ولو كـانـت دولـة المغرب العربي الكبير قـائمـة، لمـا كـانـت الجزائر وموريتانيا ومراكش تعيش الآن على حافة الحرب، وفي عهود الاحتلال نذرت هذه الأقطار نفسها للوحدة بعد الاستقلال.

ولو كانت جمهورية وادي النيل قائمة، تضم السودان ومصر وليبيا لما انفجع المواطن العربي بالأحداث الخطيرة التي اندلعت بين هذه الأقطار الثلاثة، ذات التاريخ الواحد.

والقائمة طويلة.. إذا أردنا ان نستعرض بقية " الاتحادات " وقد تناولناها بالتفصيل في كتابنا هذا، بكل أمانة وجدية وموضوعية.

ولعل دعاة الانفصـــال يجدون في كلمة "لو" و "إذا" مادة جديدة للجدال والحوار .. .. غير أن الواقع أن كلمـة "لو" و "إذا" في مجـال الوحـدة العربيـة ليست من التعابير التي ترسلها أحلام اليقظة، فكل صفحة في هذا الكتاب، بل كـل كلمـة ، تنبئ بـاليقين القـاطع أن الوحـدة العربيـة، حقيقـة علميـة، وحتميـة تـاريخيـة، لا ينقصـــها إلا البنـاؤون الأحرار ليجمعوا هذه الحجارة المبعثرة في الوطن العربي، ويبنوا منها وبها صرح الوحدة ، الأمثل الأكمل..

وكلمة (و) و(إذا) لم تقف عثرة في طريق (الجماعة الأوروبية) التي تعد نفســها في الثمانينات لإجراء انتخابات عامة مباشــرة في أوروبا الغربية، يختار خلالهـا "المواطن الأوروبي الجـديـد" .. "البرلمـان الأوروبي" .. "دولـة أوروبـا الاتحادية" حكومة ورئيسا ..

فإذا كانت شــعوب أوروبا التي غرقت في الماضـــي في حروبها الدامية إلى أذقانها، وتتضـارب مصـالحها الاقتصـادية في الحاضـر إلى أذنيها، فهل من الخيال، وهل من أحلام اليقظة أن تتجمع الشـــعوب العربية في دولة اتحادية واحدة، أو في دول اتحادية متعددة كخطوة أولى على الطريق .. والأمة العربية، مهما وقع فيها في الماضـي، أو واقع بينها في الحاضـر، فأنها لم تقع فيها حرب "المائة عام" كما جرى في أوروبا، ولا الحرب العالمية الأولى، والثانية..

ان تحديات الحاضــر، وآمال المســتقبل تشــد الأمة العربية إلى الوحدة وتدعوها أن تسقط عن أكتافها كل عقبات الوحدة . حتى ولو كانت تلك العقبات تتمثل في عشرين حكومة ونظاماً.

وبعد فان هذا الكتاب، في مجمله لا يقتصـــر على الجوانب العلمية النظرية لإقامة دولة الوحدة العربية، ولكنه يحدد في مواضـــع متعددة المبادئ الرئيســـية لميثاق الوحدة، وبرنامج العمل لتحقيقها، ودور القيادات القومية في الوطن العربي، شـــباباً وطلاباً، وعمالاً وفلاحين، ومثقفين ومناضـــلين، لتعبئة الأمة العربية تحت راية الوحدة، والاندفاع بها على طريق النضـــال، بالكلمة الواعية، والتثقيف العميق، والعزيمة الصـادقة.. وبالقوة الشـعبية في الشـارع، حين لا يبقى في الأمة العربية إلا الشارع .

والوسـائل، كل الوسـائل، متوافرة ميسـورة .. ولا يسـتطيع عشـرون نظاماً عربياً أن يصـــمدوا أمام مائة وعشـــرين مليونا من الأمة الواحدة الباســـلة، حين تصمم في عزم وايمان على إقامة الوحدة.

وفي سبيل هذا الهدف الاسمى تهون التضـحيات مهما عظمت، فالوحدة جهاد واستشهاد وكفاح .. ومعركة بكل سلاح .

هذا هو الكتاب، واني لأرجو أن يجد له مكاناً في المكتبة العامة "لدولة الوحدة العربية"، يومئذ يســعد الكتاب، ويســعد صــاحب الكتاب، إن لم يكن في حياته فبعد مماته، فتلك هي الحياة الباقية .

وتلك هي سنة الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ..

القاهرة في 1 كانون الثاني 1977 **أحمد الشقيري**

كنّا بالوحدة وبالوحدة سنكون

قال لي دبلوماسي عربي، قضى سنين طويلة في الأمم المتحدة ... قال بلهجة هادئة رزينة... لماذا الوحدة العربية.؟

نحن الآن عشرون دولة في الأمم المتحدة، وستصبح فلسطين عما قريب الدولة الحادية والعشرين... لقد أصبحنا قوة دولية، يحسب لها حساب....

لقد كان القرن التاسع عشر هو عصر القوميات، وهذا القرن العشرون هو عهد الدول المستقلة ذات السيادة الكاملة... إن الأمم المتحدة تضم في هذا العام مئة وخمساً وأربعين دولة.. وننتظر ميلاد دول أخرى، وهذه الدنيا أشبه بالمرأة الحامل تجود على العالم من حين إلى حين بمولود جديد ... وبدلا من أن نكون دولة واحدة تملك صوتاً واحداً فقط ، فانه من الأفضل والأجدى أن نكون عشرين دولة نملك عشرين صوتاً في الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة، ونستطيع بهذه الأصوات أن نأخذ ونعطي، ونساوم ونفاوض ونناور ونحاور.

وقال لي صحفي يعالج القضايا العربية في إحدى الصحف اليومية في القاهرة... قال بنبرة الخبير العارف... ولماذا الوحدة العربية؟ المهم وحدة الهدف

والعمل، ما الفائدة من الوحدة الدستورية؟ لقد جربنا الوحدة بين سوريا ومصر متمثلة في الجمهورية العربية المتحدة، وكان نتيجتها الانفصال والفرقة والخصام، وجربنا الوحدة بين سوريا ومصر واليمن متمثلة في "الدولة العربية المتحدة" وكان مصيرها التفكك والانحلال... وجربنا الوحدة متمثلة بالاتحاد الهاشمي بين مملكتي الأردن والعراق، وانحلت بعد سقوط الملكية في العراق واصبح جمهورية... وجربنا الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق فلم تكد تولد حتى ماتت ... وجربنا الوحدة بين مصر وسوريا وليبيا والسودان فلم يكن نصيبها الا الفشل والقطيعة، وكانت آخر تجاربنا الحزينة وحدة بين ليبيا وتونس متمثلة في مشروع الجمهورية الإسلامية العربية، وماتت نطفة قبل أن تصبح جنيناً... إن الوحدة الحقيقية تقوم على التنسيق والتعاون والتضامن... هذا هو الدرس الكبير الذي يجب أن نستخلصه من حرب رمضان.. لقد اشتركت الدول العربية جميعها في هذه الحرب المجيدة، وقدمت كل منها ما تستطيع... هكذا يجب أن نفهم الوحدة.....

وقال لي أستاذ جامعي يغرف كلماته وعباراته من الأدب الماركسي.... قال بمنطق الجدلية الحاسم.... ولماذا وحدة عربية؟ هذا كلام لا يتفق مع منطق العصر وتطلعات المستقبل... الوحدة والقومية هما من نتاج البرجوازية لحماية الرأسمالية... والوحدة العربية التي تنشدونها هي إمبراطورية حديثة، ولقد خلفنا عهد الإمبراطوريات وراءنا منذ زمن بعيد.... الوحدة الحقيقية هي وحدة العمال، والطبقات الكادحة في كل أرجاء العالم ... يظهر أنك لم تقرأ ماركس ولنين وستالين.. العرب شعوب متعددة لا يملكون مقومات الأمة الواحدة.... الوحدة والقومية تطلع إلى الوراء... أما وحدة الطبقات المسحوقة فهي أمل المستقبل،

وعلى الجماهير المسحوقة أن تناضل من أجلها... إن الذي يربطني بالكادحين في روسيا والصين وسائر الدول الاشتراكية أشد مما يربطني بالبرجوازي والرأسمالي العربي... يجب أن تكون نظرتنا إنسانية شاملة .. إن الوطنية السوفيتية هي عروة الحرية والسلام والاشتراكية...

وقال لي أحد شيوخ الأزهر، قال بعبارة فصيحة مليئة بالسحر والعذوبة لماذا الوحدة العربية – نحن لا نفهم الوحدة العربية ولا القومية العربية... الإسلام يقوم على مبادئ أساسية لا يمكن المساس بها... الاخوة الإسلامية هي رابطة المسلمين جمعيا.... والإسلام لا يعرف الحدود ولا الأقاليم ولا اللغات ولا الألوان ولا الأجناس .. إن أخي المسلم في الباكستان أو الهند ، أو تشاد أو الصين هو كأخي في الحجاز أو مراكش أو العراق.. لا فرق بين عربي ولا أعجمي .. الإسلام لا يعرف صراع القوميات ولا اختلاف اللغات و لا تباين الألوان والأجناس ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالعافية والتقوى .. والمسلمون أمة واحدة.

وقال لي وزير عربي، شهد عدداً من مؤتمرات القمة العربية... قال بلغة الواقع المحسوس القائم الملموس لماذا الوحدة العربية؟ .. لماذا نسبح في الخيال... أما آن لنا أن نفكر في الأمور على أسس واقعية .. النظرة الموضوعية العلمية هي التي يجب أن تسود تفكيرنا.. إلى متى نظل نتملق الشارع ونمنيه بالخيال... هنالك وقائع لا يمكن إنكارها .. في العالم العربي ممالك وجمهوريات وإمارات ومشيخات، ولكل منها تاريخ مستقل، وظروف اجتماعية خاصة، ومصالح متباينة... هذا الواقع لا يمكن تغييره إلا بقوة السلاح، وزمن السلاح قد ولى... لقد قامت الوحدة في ألمانيا وإيطاليا

بالحرب... وهذا العصـــر لا يقر الحروب لا من أجل الوحدة ولا من أجل أي هدف آخر.... الوحدة العربية هدف عاطفي لا يمكن تحقيقه، ولا جدوى من التعلق بالأوهام ... الواقع القائم ، أحببناه أم كرهناه، هو أننا عشـــرون دولة ، كل منها ذات سـيادة كاملة، ولا يعقل أن يتنازل ملك أو رئيس أو أمير أو شـيخ عن سـيادته ، وأن يصـبح مواطناً عاديا كسـائر المواطنين في دولة الوحدة كانت اندماجية أو فدرالية أو حتى كونفدرالية...

وقال لي تاجر كبير ممتلئة أوداجه بالكلام الدسم السمين... قال بكثير من المرادفات وثروة من الكلمات :

ولماذا وحدة عربية؟ ومن المحيط إلى الخليج ... وتضـم مئة وعشـرين مليوناً من البشر، يفصل بينهم صحارى وجبال وأنهار؟.

إن الأوضـــاع الاقتصـــادية بين البلدان العربية تحول دون الوحدة... فالبترول في الجزيرة العربية، والقطن في مصـــر، والفوســـفات في المغرب، والاصـــطياف في لبنان... و.... و... كل هذه الثروات هي ملك شـــعوبها، وشـــعار بترول العرب للعرب لا يوازيه إلا شـــعار واحد يمكن أن تطرحه "بترول العالم للعالم"... إن الحقائق الاقتصـــادية، دون ســـواها هي التي تقرر مصائر الشعوب.. وفي هذا العصر السياسة في خدمة الاقتصاد، والعكس غير صحيح.

وقال لي أحد الشـــباب المتخرجين من إحدى الجامعات العربية، وهو معيد فيها لمادة التاريخ العربي .. قال وهو يتحدث من ذاكرة محشـــوة بالأحداث التاريخية متسلسلة عصراً بعد عصر .. ولماذا وحدة عربية ؟ وهل نملك التاريخ المشـترك وهو من أهم مقومات الوحدة .. تاريخ العراق هو سـيرة السـومريين

والأكاديين والأشـوريين والبابليين، وفي الحاضـر فان العراق هو خليط من البدو والحضـر، من الشـيعة والسـنة والصـابئة ، ومن التركمان والاكراد والإيرانيين... وتاريخ سـوريا بما فيها فلسـطين والاردن ولبنان هو قصـة الآراميين والكنعانيين والفنيقيين والمؤابيين والأدوميين واللخميين والغساسنة و.. و... وفي الحاضر فإن ديار الشام هي أشبه ما تكون بالفسيفساء، فيها السريان والكلدان والجركس والأكراد والأرمن والموارنة والسنة والشيعة والاسماعيلية والنصيرية والأرثودكس، وبقايا من القبائل العربية الضـاربة على مشـارف الصـحراء.. وتاريخ مصـر هو تاريخ الفراعنة بحضارتها المتميزة وشخصيتها المستقلة ، والخليط من أهلها من الأتراك والألبان والجركس والأقباط والمسـلمين والنوبيين والأعراب .. أما تاريخ الشـمال الأفريقي فهو قصـة شـعوبه القديمة من البربر ومن خالطهم من الوندال واليونان والرومان والقبائل العربية والأسـر الحاكمة العثمانية، وليس فيهم جامعة واحدة، إلا الدين الإسـلامي. إلى آخر الأقطار العربية التي يتألف منها الوطن العربي.

وقال لي باحث اجتماعي، قرأ كثيراً عن الاجتماع واختلط بالمجتمعات .. قال في حديث طويل تدعمه الخبرة المريرة بالأخلاق العربية وما تنطوي عليه من فردية وقبلية وأنانية...

ولماذا الوحدة العربية؟ .. الأخلاق القبلية متأصـلة فينا .. الرسـول عليه السـلام هو الذي استطاع أن يوحد العرب، وأفلح في حياته ولكن بعد مماته عاد العرب إلى جاهليتهم وعادوا إلى نعراتهم القبلية .. وفي أيامنا أنت ترى العراق وسـوريا يحكمهما حزب الشـعب الواحد، ودسـتوره قائم على الوحدة، ولا وحدة بينهما، وهذه اليمن في الشمال والجنوب، وطن واحد وشعب واحد، ولكنه دولتان

وكل منهما اسمها اليمن .. وهذه الجزيرة العربية وهي وحدة جغرافية واحدة، فيها ســـت دول: المملكة العربية الســـعودية، والكويت، وقطر، والبحرين، ودولة الإمارات وعمان .. وهذا المغرب الكبير فيه خمس دول: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، وهذا وادي النيل فيه دولتان مصـــر والســـودان وبينهما من الروابط ما ليس بين بلدين في العالم، وهما جمهوريتان مستقلتان يتعاقب عليهما الود والجفاء حينا بعد حين .. وعلى هذا فإن الوحدة العربية لن تقوم لها قائمة..

وقال لي موظف في إحدى الدول العربية، قال وشعره مرسل على كتفيه وعباراته تتدلى من سالفيه:

ولماذا وحدة عربية؟ لقد آن الأوان أن نضـع الأمور في نصـابها .. لقد ذقنا الأمرين من "الأجانب" الذين ملأوا بلادنا في جميع الوزارات والدوائر والشركات، من الفلسطينيين والمصريين واللبنانيين والسوريين .. كفى كفى.. لقد أصـــبح منا عدد كبير من خريجي الجامعات، من إنجلترا وأمريكا .. ونحن قادرون أن نملأ الوظائف في بلادنا .. ونحن أحق من "الأجانب" وليخدم كل إنسان في بلده .. وأهل مكة أدرى بشعابها.

وقال لي مدير في احدى دوائر الجامعة العربية .. قال هو يحفظ عن ظهر قلب ملفات الجامعة العربية ووثائقها.

ولماذا وحدة عربية؟ إن الجامعة العربية بميثاقها المتراخي قد فشلت في اقامة تعاون بين الدول العربية ، لقد مضـــى عليها ثلاثون عاماً من غير عمل مجد، ولو أنها عقدت ونفذت اتفاقية واحدة في العام الواحد، لكانت الأمة العربية تنعم بثلاثين اتفاقية. إن ملفاتنا مملوءة بالاتفاقيات في الشـــئون القانونية

والاجتماعية والثقافية والسـياسـية والعسـكرية والمالية .. ولم ينفذ منها إلا النزر اليسير.

وقال لي مواطن عادي .. وقد كفر بالدســاتير العربية التي تنص على الوحدة العربية، وخطب الملوك والرؤســاء التي تتشــدق بالوحدة العربية، من الاستقلال إلى يومنا هذا ..

ولماذا وحدة عربية؟ .. إذا أردت ان أخرج من بلدي في سياحة للأقطار العربية، فلا بد لي من تأشيرة خروج من بلدي، ومعها عشرون تأشيرة دخول إلى الأقطار العربية الأخرى، وبعد ذلك تتحول سـياحتي إلى عذاب وعقاب.. تفتش حقائبي وملابسي، ويفرض علي أن أسجل جوازي في دوائر الأمن العام، وأن لا أقيم في البلد المضـيف إلا شـهراً واحداً، وأن لا أعمل فيه "بأجر أو بغير أجر" كما ختموا على جواز سفري مرة بعد مرة .. لقد رأيت هذا الختم على جواز سفر طفل رضـيع يمنعه من أن "يعمل بأجر أو بغير أجر"، وليتهم ختموه ممنوع أن "يرضـع بأجر أو بغير أجر"، أما مخافر الجمارك فإنها سـبة في تاريخنا المعاصـر. إنهم يعبثون بحقائب السـيدات حتى ملابس الأبدان .. لقد أصـبح الوطن العربي الكبير هو السـجن العربي الكبير يحتوي عشـرين زنزانة لشـعوبنا العشرين، زنزانة لكل شعب، وإذا سافر المواطن العربي من بلد، فإنما يخرج من زنزانة إلى أخرى، وفي النهاية فإنه يظل في سجن الوطن الكبير.

وقالت لي ربة بيت – وهي تشكو في حديث غاضب صاخب .. ولماذا وحدة عربية؟.. الخضـار واللحوم والفواكه بلغت عندنا حدا فاحشـا من الغلاء، وأسـعارها في العاصـمة المجاورة رخيصـة جداً إلى حد الكسـاد .. سـيادة الرئيس في العاصمة المجاورة غضب على سيادة الرئيس عندنا، فاقفل الحدود، فكسدت

البضـاعة في بلده وشـحت في بلدنا ، والشـعب هو الضـحية في البلدين .. ومنذ الاسـتقلال إلى يومنا هذا يكاد لا يمضـي عام أو موسـم إلا بقطيعة بين قطرين شـقيقين، فتتوقف المواصـلات ويمتنع السـفر ويتوقف التبادل .. كل ذلك لأن رئيساً غضب على رئيس، وسقط البلاء والعناء على رؤوس الشعب.

وقال لي ناشر قضى سنين في عالم النشر والتأليف .. قال وهو يندب العلم والثقافة ..

ولماذا وحدة عربية؟ أين هي والكتاب العربي يحارب من الحكام العرب .. الكتاب هو رغيف الشـعب الروحي، وأنه بلا كتاب يصـاب بنقص فكري في الغذاء .. الكتاب لا يصـل إلى القارئ العربي في الوطن العربي .. الرقابة تمنعه، والقيود المالية تقف في وجهه، ومثل الإنسـان العربي فإن الكتاب العربي يعيش في سجن كبير.

وقال لي قس عربي نشأ نشأة قومية .. قال وهو يتحدث بالفصحى بلغة الضـاد كأنه تعلم التجويد القرآني كما درسـناه في عهد الصـبا : ولماذا الوحدة العربية. .. ولماذا النص في عدد من الدسـاتير العربية، أن الإسـلام دين الدولة وأنه مصـدر رئيسـي للتشـريع .. إن المثقفين من المسـيحيين العرب يعتبرون الإسـلام والعروبة مترادفين، ويعتزون بالتراث الإسـلامي على أنه تراثهم، ويعتبرون الرسول العربي باعث الأمة العربية ومؤسس يقظتها وموحد كلمتها .. واليقظة العربية الحديثة نشـأت في بيروت قبل دمشـق وغيرها من الحواضـر العربية ، وعلماء النصـارى البسـتانيون واليازجيون، وغيرهم من أحبار الموارنة، ألم يكونوا الرواد الأوائل في تجديد شـباب اللغة العربية واليقظة العربية .. وماذا نقول اليوم لعامة المسيحيين، وخاصة الذين نشأوا منهم في الإرساليات الأجنبية،

ولا تزال في أذهانهم بعض الذكريات الطائفية التي أوجدتها الصـــراعات الدولية وغذتها الأطماع الاستعمارية..

وقال لي .. وقال لي كثيرون مثل هذه الأقوال والأقاويل وأشـــد منها إيلاماً وعنفا، بعضـها حق، وبعضـها حق يراد به باطل، وبعضـها الآخر باطل ايما باطل، وسمعت ذلك على مدى سنين طويلة من حياتي السياسية، سمعته في مؤتمرات القمة وفي الشـــارع، في الجامعة العربية وفي الأمم المتحدة، في المؤتمرات الشعبية وفي الندوات الصغيرة, في الخطب الصاخبة وفي الهمسات الخافتة .. ولكن .. ولكن هذا كله لا يعدو أن يكون حفنة صـــغيرة تحت أقدام الجبل الشامخ الأشم، أو ذرات صغيرة من السحاب في الفضاء الرحيب الذي لا نعرف حده ولا ندرك مداه ..

وإن هذا كله لن يكون أكبر من الأنهار الكبيرة، ولا أوسـع من البحيرات الواســعة ولا أغزر من الجداول الغزيرة ولا أكثر من الســواقي الكثيرة .. كلها ومعها أمطار السماء على مدى العام كله، تصب في البحر المحيط، ويبقى هو هو البحر المحيط في قيعانه ووديانه، وأجاجه وأمواجه، وحيتانه وأســماكه لا يتغير طابعه، ولا تتبدل طبيعته .. وكذلك الوحدة العربية كالبحر المحيط، تتدفق عليه أنهار من النقد والتجريح والتنديد، وأمطار من الاستنكار والشك والارتياب، ولكنها تظل هي البحر المحيط يســتوعبها كلها.. يتبعها ويحتويها، فتتحول إليه ولا يتحول إليها.

وهذا الشبه قديم بين الوحدة العربية والبحر المحيط، فكلاهما من صنع الطبيعة الأزلية الخالدة، تتعاقب أحداث الزمان في خضـم التاريخ، وتبقى الوحدة هي الوحدة، والمحيط هو المحيط..

ومنذ أن نشـــأت الجزيرة العربية، بعد انتهاء عصـــور الجليد، حبتها الطبيعة، بطبيعة البحر المحيط سوى أنها مصنوعة من صحارى وقفار وجبال، وتفصـــلها عن اليابســـة الأخرى بحار من جهاتها الثلاث، وبحر من البادية في الشمال، حتى قال عنها العرب الأقدمون أنفسهم إنها جزيرة العرب، وقد سميت شبه الجزيرة العربية إلا في عصور متأخرة.

وهكذا صنعتها الطبيعة عالماً مستقلاً بنفسه، قائماً بذاته، لا يستطيع أن يجوزها أحد، لا سائحاً ولا غازياً، ولا عابراً ولا مسافراً، وأصبح شعبها فيها متميزاً بكيانه، منفرداً بأخلاقه، مستقلاً بقسماته ومقوماته، مختلطاً مع نفسه، مندمجاً في داخله، بل متزاوجاً في أهله..

والعرب، كما يقول باحث معاصـــر، من أقدم الأمم على هذه الكرة الأرضـية، ومن أصـفاها عنصـراً، ومن أقلها تعرضـا لغزو الفاتحين، وأجواء الجزيرة العربية وبواديها فرضت على أهلها حياة النجعة ارتياداً للكلأ، وبلد كهذا قلما يطمع فيه الطامعون، أو قلما يتمكن منه الطامعون . وقلما يخضـــع أهله لحكم الفاتحين ..[1]

وعلى هذا، فبالطبيعة أصبح الشعب العربي أقدم شعوب الأرض كياناً، وبالطبيعة أصـــبحت وحدته الوجودية أقدم وحدة على وجه الأرض. ولكي نفهم هذا الذي اسميه "الطبيعة" التي صنعت الشعب العربي والوحدة العربية، ليس على المرء إلا أن يضع أمامه الأطلس العالمي بالحجم الكبير .. وأن ينظر إليه كما ينظر إلى لوحة رائعة معلقة في متحف كبير.

---

[1] الأمير مصطفى الشهابي، **القومية العربية**، ص 20.

وســيرى الناظر، بعد المقارنة والمقايســة، أن شــبه الجزيرة العربية هي الأرض الوحيدة في العالم غير متجاورة مع أرض أخرى، ولا متداخلة مع إقليم آخر، بينها وبين العالم الآخر بحار وبراري وقفار، كأنما صـــنعت لأهلها دون غيرهم، وخصــصــت لشــعبها وحدهم، فلا يدخل عليهم دخيل ولا يطرق عليهم طارق.

ويقول الدكتور فيلب حتى، وهو من المؤرخين العرب المعاصــرين الذين اغترفوا من المصادر الغربية والعربية على السواء: "ليس في خريطة العالم شبه جزيرة تضــاهي (شــبه الجزيرة العربية) حجما، فهي أكبر من شــبه جزيرة الهند، ومساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية وأربعة أضعاف فرنسا، ويرى علماء الجيولوجيا أن الجزيرة عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى أفريقيا والمنطقة الرملية التي تطوق آســيا .. وأما حدود الجزيرة الشــمالية فغير واضــحة المعالم ويمكن اعتبارها خطاً وهمياً، أما من الناحية الجيولوجية فإن صـــحارى الشـــام والعراق بكاملها تعد جزءاً من الجزيرة العربية[1].

وهكذا صــنعت الطبيعة الشــعب العربي وجعلته أقدم شــعب له كيان متميز .. وصـــنعت الوحدة العربية وجعلتها أول وحدة لها مقوماتها .. ولا بأس علينا، لنكون في جانب الاعتدال، أن نقول على وجه اليقين، إن شــعبنا بين شـــعوب الأرض من أقدمها، وأن وحدتنا، بين الوحدات التاريخية، من أعرقها .. وفي هذا كفاية للرد على المنكرين والمتنكرين، والكافرين والمشككين ..

---

[1] الدكتور فيليب حتي، **تاريخ العرب**، ص 15، 16.

ان في عالمنا الذي نعيشـــه اليوم مئة وخمســـاً وأربعين دولة ممثلة في الأمم المتحدة ، ويقع تحت ســـيادة هذه الدول مئات من الأمم والشـــعوب والقوميات والجماعات .. وهذه الدول، إلا بضـــع لا يتجاوز أصـــابع اليد، حديثة العهد في كيانها ووجودها الدولي، نشـــأت في عهد القوميات في القرن التاســـع عشر، أو في عهد الأمم المتحدة في القرن العشرين.

ولكن الأمة العربية، وجوداً وكياناً وتاريخاً وحضـــارة، ووحدة ، ترجع إلى عشـرة آلاف عام ويزيد، ولا يعرف التاريخ أكثر من ثلاث أمم أو أربع تملك مثل هذا الوجود العريق، وهذا التاريخ الحضـــاري الأصـــيل، وهذه الوحدة القومية المديدة...

وما هذا بكلام عاطفي، أو عصـــبية قومية، أو مغالاة بالأنســـاب بعيدة عن الصواب . إنه الحق كل الحق ..

يقول مؤرخ أمريكي منحدر من أصـــل لبناني عربي: كانت اللغة العربية طوال قرون عديدة في العصـــور الوســـطى لغة العلم والثقافة والفكر الراقي في جميع أنحاء العالم المتمدن، وأن ما أُلِّف فيها بين القرن التاســـع والقرن الثاني عشـــر من التآليف الفلســـفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية أكثر مما ألف في أي لغة أخرى[1].

ويقول مؤرخ أمريكي معاصـــر كبير: "ان العرب قد ســـبق لهم أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنســـاني طوال ألفي ســـنة على

---

[1] فيليب حتي، **تاريخ العرب** ، ص 4.

الأقل أيام اليونان، ثم في العصـور الوسـطى مدة أربعة قرون تقريباً، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد".[2]

أن نقود العالم مرة ثانية، كان ذلك ما تنبأ به المؤرخ الأمريكي قبل سنين طويلة، ولعل الكثيرين يومئذ كانوا يعتبرون تلك النبوءة اسـطورة عريقة في الخيال .. أما اليوم في عامنا هذا .. وقد اكتشفنا قدراتنا وثرواتنا، واكتشف معنا العالم طاقاتنا الكبرى، فإن حديث المؤرخ الأمريكي الكبير يكاد يقفز من دنيا النبوءات إلى عالم الحقائق البارزات ..

أجل لقد كانت لنا قيادة العالم مرتين في العصور القديمة، وفي العصور الوسيطة ولكن كان ذلك بالوحدة، وبالوحدة كان ..

وكما تنبأ المؤرخ الأمريكي، سـيكون لنا دور كبير في قيادة العالم مرة ثانية .. أجل سيكون ذلك بالوحدة، وبالوحدة سيكون.

والصفحات التاليات فيها النبأ اليقين والحق المبين.

---

[2] جورج سـارتون- **كتاب الشـرق الأوسـط في مؤلفات الامريكيين**، ترجمة عمر فروخ، ص 55.

نحـن .. من نحـن؟

سؤال لازم من غير لزوم...

نحن أمـة عربيـة واحـدة .. تلـك حقيقـة تـاريخيـة علميـة لا لزوم لإقـامـة الدليل عليها، إلا إذا احتاج النهار إلى دليل كما يقول شـعراؤنا الأقدمون .. ومع هذا فإن طرح السؤال لازم ، لأن الحياة العربية المعاصرة، تسودها مظاهر بارزة

أمام العيان، تصـــرف المواطن العربي في حياته اليومية عن إدراك الهوية الحقيقية الشـــاملة لذاته ولأمته ولوحدته وتتجلى هذه المظاهر البارزة في قيام الحدود بين الأقطار العربية، والحواجز الجمركية، وتباين النظم النقدية، واختلاف التشريعات الاقتصادية، وانعدام الجنسية الواحدة، وتقييد حرية السفر والإقامة والعمل، وما إلى ذلك من الإجراءات القانونية والإدارية، التي تؤدي بالواقع الفعلي إلى جعل المواطن العربي أجنبياً حقيقياً في الوطن العربي الكبير، وأجنبياً حقيقياً عن أمته العربية.

بل إن الأجنبي الوافد من أوروبا أو أمريكا إلى الوطن العربي، يلقي في حله وترحاله، من اليسر والرعاية ، ما لا يلقاه المواطن العربي .. وهذا المواطن العربي، بدوره يلقي في حله وترحاله، خارج الوطن العربي، من الرعاية واليســـر ما لا يلقاه في وطنه الكبير وبين ظهراني أمته.

هذا هو الواقع اليومي للمواطن العربي .. لا يملك، بالممارســـة الفعلية، شـــيئاً من معاني الانتماء إلى أمته العربية والانتســـاب إلى الوطن العربي، إلا شـــعارين عظيمين : أمة عربية واحدة .. ووطن عربي واحد من المحيط إلى الخليج...

ورغماً عن أن هذين الشعارين العظيمين يملكان تاريخاً حضارياً ضخماً عمره سبعة الاف سنة، ووراءهما ثقافة إنسانية رفيعة، وأمجاد وذكريات لا تبلى، وأمامهما مســـتقبل رفيع زاخر بالقوة والمنعة والرخاء .. رغماً عن ذلك كله فإن هذين الشعارين العظيمين خاليان تماماً من المحتوى العظيم والمضمون الكبير اللذين يسكنان في كل كلمة من كلماته، سكنى الروح في الجسد ويسريان في الحياة العربية مسرى الدماء في الأعضاء ..

ومن هنا أصبح السؤال " من نحن؟ " له لزوم بالنسبة إلى الحاضر الشقي، ومن غير لزوم بالنسبة إلى الماضي المجيد السالف، والمستقبل الزاهر الوافد..

ومن هناك، كذلك أصبح السؤال "من نحن؟" لازما لتهديم الحاضر الشقي الذي نعيش فيه، وبناء المستقبل السعيد الذي نتطلع إليه .. ويصبح هذا "اللازم" أكثر لزوماً حين نرى النزاعات الإقليمية والتجزئة والانفصال تمد جذورها في تربة الوطن العربي، وفي حياة الأمة العربية، حتى لتكاد الوحدة العربية تبدو على السطح، أنها باتت يتيمة، تذكر بالنشيد والحنان، كما يذكر الأيامى واليتامى في مواسم الصدقات والإحسان.

بل إن "لزوم" السؤال "من نحن" تفرضه ظروف حلت بالأمة العربية فأحاطت الأمة والوطن بغمامات من المفاهيم الخاطئة كان لا بد أن تترك آثارها في حياتنا العامة واتجاهاتنا الفكرية .. والأمة أي أمة، لا يمكن أن تكون في منأى عن الظروف التي تحيط بها، وتعيش في صميمها ..

وأول هذه الظروف التي حجبت – إلى ما تحت السطح – هوية الأمة العربية الواحدة، سقوط السيادة العربية على الوطن العربي في نهاية الدولة العباسية، ليحل محلها الحكم الأجنبي جاثماً على صدر الأمة العربية جمعاء، وشاملاً الوطن العربي بأسره .. وأن التواريخ والوقائع، على برودتها وجفافها خير ما يضع أمامنا الصورة واضحة المعالم، لتبرز أمامنا هوية أمتنا العربية الواحدة، وما اعتراها عبر العصور ومن خلال الأجيال .. فأعاق مسيرتها، وشل نهضتا، دون أن يدمر وجودها أو يهدم مقوماتها .. وجانب من هذا التاريخ، أن الأمة العربية فقدت سيادتها على نفسها ووطنها، حينما استولى العثمانيون على البلاد

العربية (1517م) باســم الخلافة الإســلامية، وشــمل الحكم العثماني الأقاليم العربية في المشرق العربي، والجزيرة العربية، والشمال الافريقي بأكمله، باستثناء مراكش التي بقيت محتفظة باستقلالها عن الدولة العثمانية.

وليس هنا مجال البحث في أسباب السيطرة العثمانية وظروفها، ولا في أســلوب الحكم قوة أو ضــعفاً في هذا القطر العربي أو ذاك .. المهم أن الحقبة العثمانية التي امتدت قرابة أربعمائة عام (1517- 1917) على معظم الوطن العربي، فقدت الأمة العربية خلالها سيادتها القومية . وفقدان السيادة لا بد أن يترك آثاره القريبة والبعيدة..

وجانب آخر من هذا التاريخ، كذلك، أن الدولة العثمانية نفســـها، وفي أواخر عهدها، قد انســـابت إليها عوامل الضـــعف والانحلال، فطمعت في "أقاليمها" الدول الاستعمارية.. وكانت هذه الأقاليم، هي الوطن العربي، وبذلك، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأمة العربية .. وجاءت موجات من الاحتلالات للوطن العربي، قامت بها معظم الدول الأوروبية.

ففي صــيف 1798 غزت فرنســا مصــر بقيادة نابليون، تحت شــعار الإسلام فلم يكد يصل إلى الإسكندرية حتى أصدر منشوراً إلى المشايخ والقضاة والأئمة والأعيان، في مصــر، يطلب إليهم أن يقولوا لأمتهم ان "الفرنســاوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما و خربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصــارى على محاربة الإســلام، ثم قصــدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين".*

* نص المنشور بكامله أورده المؤرخ المصري الجبرتي في كتابه.

وراح نابليون يتملق الشـعب المصـري ويثني على حضـارته العريقة ، فوجه خطابا إلى الشـعب المصـري قال فيه "إن مصـر بلاد لا نظير لها وهي أخصـب البلاد، وإن العلوم والصـنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد مصر الأول ".[1]

وفي غمرة الصـراع البريطاني الفرنسـي انتهت حملة نابليون، وجلا الجيش الفرنسـي عن أرض مصـر، لتبدأ فرنسـا مرحلة أخرى من الاسـتعمار في المغرب العربي الكبير.

ففي عام 1830 قامت فرنسـا بحملة كبرى على الجزائر، اسـتنادا إلى الذريعة التاريخية الشهيرة، ذريعة المروحة التي ضرب بها حاكم الجزائر القنصل الفرنسـي، وأدى[1] ذلك إلى احتلال الجزائر ثم إعلانها جزءاً من الدول الفرنسـية بموجب الدستور الفرنسي لعام 1848.

وفي عام 1881، تذرعت فرنسـا بوقوع إخلال بالأمن على الحدود الجزائريـة، فوجهت قوة بحريـة وبريـة إلى تونس وأجبرت البـاي تحت وطـأة الاحتلال على توقيع معاهدة الحماية المعروفة، واتفاقات أخرى جعلت السـلطة الفعلية في تونس خاضعة لفرنسا، وكان من بعض مظاهرها اعتبار ممثل فرنسا وزيرا لخارجية تونس!

وفي عام 1912، أكملت فرنسـا سـيطرتها على المغرب العربي، فزحفت بقواتها على مراكش، "لحماية السـطان؟ والرعايا الأجانب والمحافظة على الأمن"

---

[1] عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية في مصر**، ج1، ص ص 106،107.

[1] أحمد الشقيري، **قصة الثورة الجزائرية**، وفيها مجموعة خطبه في الأمم المتحدة.

وفرضـــت على الدولة المراكشـــية معاهدة حماية، كما فعلت مع تونس قبل ذلك بثلاثين عاماً، وحكمتها حكماً مباشراً..

كانت تلك حصـة فرنسـا من الوطن العربي، أما بريطانيا وقد كانت في أوج مجدها الإمبراطوري، فقد اتخذت الذرائع الاسـتعمارية المعروفة نفسـها، فقد نزلت قواتها البحرية على أرض مصر في عام 1882 واحتلتها "حماية للخديوي، والأقليات والمصـالح الأجنبية"، ثم تحول هذا الاحتلال إلى حماية مفروضـة في مطلع الحرب العالية الأولى في 1914 حينما أعلنت حكومة صـــاحب الجلالة البريطانية أنه "بالنظر لحالة الحرب التي سببها عمل تركيا، وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته، وأصـبحت من الآن وصـاعداً من البلاد المشـمولة بالحماية البريطانية . . وســتتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصـــر وحماية أهلها ومصالحها".!

وفي عام 1899، وفي ظروف مليئة بالغدر والخديعة، احتلت القوات البريطانية السـودان، وأصـبح وادي النيل بأكمله تحت السـيطرة البريطانية وبقيت طرابلس بأكملها ولاية عثمانية، كما كانت مصـــر والســـودان وتونس والجزائر، غير أن إيطاليا قد لحقت بالركب الاســـتعماري، فاحتلت ليبيا في عام 1912 مســتهدفة أن تجعل منها وطنا إيطاليا، كما كانت تســعى فرنســا بالنســبة إلى الجزائر.

وبهذا يكون الوطن العربي في الشــمال الإفريقي، في الحقبة الواقعة بين 1830 إلى1911، قد سقطت عنه السيادة العثمانية، ووقع تحت السيطرة الكاملة لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا من خليج السويس إلى المحيط الأطلنطي، وهي مساحة

تقارب ثلاثة أرباع الوطن العربي، وتقوم عليها الان خمس دول عربية: مصـــر، ليبيا، وتونس، والجزائر والمغرب.

ولم ينج الوطن العربي في آســيا من الهجمة الاســتعمارية البريطانية، فكانت عدن بموقعها الاســتراتيجي، هي الهدف الأول، فقد احتلتها بريطانيا في عام 1839 وأعلنتها فيما بعد مســتعمرة تابعة للتاج البريطاني، وبهذا ســيطرت بريطـانيا على مركز يكفل لهـا حمـايـة قنـاة الســـويس وطرق المواصـــلات الإمبراطورية..

وفيما بين 1880- 1914 فرضـــت بريطانيا ســـيطرتها على جنوب الجزيرة العربية وشـــرقها ، من خلال عشـــرات من اتفاقيات الحماية والأمن والحدود، امتداداً من محمية عدن إلى حضـــرموت، إلى عمان، إلى الســـاحل المتصالح، إلى قطر، إلى البحرين، إلى الكويت، جاعلة من هذا الشريط البحري المطل على البحر العربي والمحيط الهندي عشـــرات من الإمارات والمشـــيخات والسلطنات، وما إلى ذلك من المصائب والويلات !!

أما المشـــرق العربي فقد احتلته دول الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية، ناكثة بذلك عهودها باســـتقلال هذه الأقطار، وفرضـــت عليها نظام الانتدابات، فبسـطت فرنسـا سـيطرتها على سـوريا ولبنان، واسـتولت بريطانيا على فلسـطين وشرق الأردن والعراق.

وكانت حصـــيلة هذا التاريخ الموجز، أن الأمة العربية بأســـرها، من المحيط إلى الخليج قد أصـــبحت في أعقاب الحرب العالمية الأولى " 1919" واقعة تحت ســيطرة بريطانيا وفرنســا وإيطاليا، احتلالا، أو حماية أو تحت نظام الانتداب.

وكـان رابع هـذه الأثـافي، أن وقعـت فلســـطين في مخـالـب الحركـة الصــهيونية حين أعلنت بريطانيا وعدها المشـئوم (تشـرين الثاني 1917) بإقامة وطن قومي يهودي في فلسـطين، فأضـاف الاسـتعمار الأوروبي لونا جديداً من ألوان الاستعمار، يهدف إلى إقامة شعب غريب في وطن شعب عربي عريق.

وعلى هذا نرى أنه في خلال مئة وعشـرين عاماً اسـتولى الاسـتعمار الأوروبي على الوطن العربي، قطراً بعد قطر، وعمل جاهداً، بالوســائل القهرية والتشــريعية، على إنهاك الأمة العربية، واضــعاف لغتها وقوميتها، ومقوماتها، والأخطر من ذلك كله، إنكار وجودها كأمة واحدة، ذات تاريخ مشـترك وحضـارة واحدة، وتتطلع إلى وحدة عربية شاملة.

وتحقيقاً لهذه الأهداف الاستعمارية، استخدمت الدول الأوروبية ، إضافة إلى وسائل الاضطهاد والاستبداد والتعسف، جميع الوسائل المدنية" لعزل الأمة العربيـة عن لغتهـا ودينهـا، وتقـاليـدهـا وأهـدافهـا .. عن طريق العلم والعلمـاء، والمستشفيات والأطباء، والمعاهد والمؤسسات، مضافاً إلى محاربة اللغة العربية والتراث الإســلامي، باعتبارهما مصــدر الإلهام الأكبر للأمة العربية، والدعامة الأساسية للحفاظ على وجودها واستمرار بقائها.

وهكذا رأينا المعاهد والمؤسـسـات الإيطالية والإنجليزية والفرنسـية تنتشـر في الوطن العربي، لا لتنشــر العلم من أجل العلم، ولكن لتضــع الأمة العربية بعيداً عن الأمة العربية، وتنصــهر في "الوطن الأم" فرنســا أو إيطاليا أو إنجلترا .. ويا لك قطة أكلت بنيها!!

وحتى روسيا القيصرية لم تتخلف عن هذا المضمار، فقد أقامت لها مدارس في فلسطين، تعلم الشباب العربي اللغة الروسية، وتستخدم المذهب الأرثوذكسي للوصول إلى قلوب الجماهير العربية المسيحية ..

ومن هنا بدأت الثقافة الأوروبية، تستخدم العلم استخداماً ضالاً ومضللاً، عن طريق عدد من المبشرين والمستشرقين والباحثين، لتتسرب إلى التاريخ العربي وتحرفه عن مواقعه، وإلى الأمة العربية فتنفي وجودها الواحد، وإلى مختلف نواحي شخصيتها فتمزقها إرباً إرباً.

ومن هنا، كذلك، انطلق جيش من "النظريات العلمية" عن أصل العرب وتاريخهم، ووجودهم ، فنشأت من ذلك "مدارس" علمية تبحث وتنقب في غياهب التاريخ وبين أكوام الآثار وركام الأحجار، لعلها تعثر على خامات تبني منها نظرية علمية تضعضع مقومات الوحدة العربية وتدفع الأمة العربية إلى التهوين من شأنها والتشكيك في وجودها بالذات.

وجاء القرن التاسع عشر، عصر القوميات في أوروبا، فإذا بهذه المدارس العلمية تنطلق في البحث عن مقومات القومية، تدعم من خلالها نشوء القوميات في أوروبا، وتنكر في الوقت نفسه على الأمة العربية قوميتها، وموجبات وحدتها.

وأطبق المؤرخون والجغرافيون والأثريون والمستشرقون على الوطن العربي، والأمة العربية والتراث العربي، يدرسون ويبحثون وينقبون، ويعملون ويؤلفون، وفي هذا الإطار انطلقت المدارس العلمية والنظريات العلمية.

وبدأوا أول ما بدأوا في الشمال الإفريقي، فهنالك بدأ الاستعمار الأوروبي، وقالوا إن الشمال الإفريقي من ليبيا إلى المغرب لا صلة له بالعروبة،

وإن معظم سكانه من البربر، وهؤلاء ليسوا ساميين، ولهم لغتهم وعاداتهم، وان العرب دخلوا هذه الأقاليم فاتحين، كما فعل من قبلهم الوندال واليونان والرومان، وإن ما يربط بين هذه الأقطار هو الدين الإســـلامي، والدين لا يدخل في عداد مقومات القومية ومكونات الأمة ..

ثم انتقلوا إلى مصر، ووادي النيل في مجموعه، فقالوا إن أهل هذه البلاد ليسوا عرباً، ولا شأن لهم بالعروبة، فالمصريون القدماء من نسل الفراعنة، وما كشفت عنه المقابر والهياكل يدل بصورة قاطعة أن المصريين أمة قائمة بذاتها ، لها حضارتها الخاصة بها، ولغتها وتقاليدها، والفتح العربي لم يغير من طبيعة الشعب وتكوينه شيئاً، ولم يعط مصر إلا اللغة العربية.. واللغة ، كما تدل على ذلك حال الشعوب الجرمانية، والانجلوسكسونية، واللاتينية، ليست دليلاً على وجود الأمة الواحدة ولا تعتبر إحدى مقومات القومية.

ذلك كان حديثهم عن الشـــمال الإفريقي، أما عن المشـــرق العربي فقد تحدثوا عنه قطراً قطراً، وعصراً عصراً..

فقالوا إن العراق هو وطن الســـومريين، وهؤلاء من الجنس الأبيض، وليســـوا من الســـاميين ولا من العرب، وقد توالد عنهم الآشـــوريون والكلدانيون والبابليون فكانت لهم لغتهم وحضـــارتهم، ويكفي أن برج بابل الشـــهير، كان مجتمع الأقوام واللغات والعادات.

وقالوا عن ديار الشام – سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن – انها وطن الكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين والاوريين والموآبيين واليبوســـيين وغيرهم من أشتات الأقوام، وكل قوم له لغته وحضارته وديانته، ولا حصر لها ولا عد.

وأضـافوا، في اجمال شـامل كاسـح، أن الوطن العربي القائم عند ملتقى القارات الثلاث قد شـهد منذ أقدم العصـور موجات من الغزوات والحروب، على أيدي اليونان والفرس والرومان والصـــليبيين والعثمانيين، على مدى عصـــور متعاقبة، ولم يكن العرب إلا جماعة من هؤلاء الغزاة.. وخرجت من قلب أوروبا كتب وكتاب يضـعون "علماً" عن القومية على أسـاس "العرق" أو ما عرف بمبدأ العنصـريات .. وكان من أبرز هؤلاء العلماء المفكر الفرنسـي (جوبينيو) والعالم الإنجليزي (تشمبرلن) .. وتبعهما عدد من المفكرين الألمان.

والمفكر الفرنســـي وضـــع كتاباً عنوانه "عدم التســـاوي بين الأجناس البشـرية" أبرز فيه فكرة (العرق) ونقاء الدم بين الأجناس، وأكد أن لكل عنصـر ثقافته الخاصة به، وأن التقاء الثقافات أو تأثر بعضها ببعض غير ممكن، ودعا إلى لزوم المحافظة على الأجناس نقية بعدم اختلاط بعضـها ببعض عن طريق الزواج، وبلغ في مقالاته في نظرية العرق أنه اعتبر الفرنســـيين من الســـلالة الجرمانية فكان أول مفكر فرنسي ينكر القومية الفرنسية!!

أما الكاتب الإنجليزي "تشمبرلن" فقد أشاد في كتابه (أسس القرن التاسع عشر) بنظرية العرق وأعلن تفوق العنصر التيوتوني الألماني .. وأفضـى ذلك إلى مذهب التعاظم العنصـــري والعودة إلى الأصـــل النقي الواحد، "متمثلاً في الدماء النقية التي ورثتها الأجيال الحاضـرة عن الأســلاف، وينبغي توريثها إلى الأجيال القادمة".

وجاء بعد ذلك المستشرق الفرنسـي رينان فألقى محاضـرة مستفيضـة في جامعة السـربون بباريس شـن فيها هجوماً على "الجنس العربي" مؤكداً سـطحية العقلية العربية وعدم ملاءمتها للفكر الفلســـفي، وأن التراث العربي ليس إنتاجاً

عربياً لشــعوب تعربت بالحضــارة واللغة والولاء،ولكنه إنتاج إســلامي لشــعوب وأجناس غير عربية، مركزاً في النهاية على أن معيار القومية هو صــفاء العرق والجنس، ونقاء الدم.

وفي غمرة هذه الأبحاث العلمية التي كانت تســـتهدف "ترويض" الأمة العربيـة للخروج من عروبتها وتقاليدها وتراثها ودينها، والاندماج في "قوميـة" الدولة المســـتعمرة بوصـــفها الوطن الأم، انبثقت نظرية تتحدث عن أن حوض البحر المتوسط يضم شعوباً متماثلة في تكوينها الإنساني والثقافي والحضاري، وأن هذا الحوض هو "وطن" الشعوب التي تقيم حوله، متميزة عن أية شعوب أو قوميات أخرى.

وعلى الجملة، فقد اســـتمرت هذه الحملة العلمية على الأمة العربية ما يزيد على قرن من الزمان لم تفتر الدول الغربية الاستعمارية خلاله عن جهودها المتلاحقة لغزو ضمير الأمة العربية وعقلها، حتى تنكر عقلها وَتَنكر لضميرها.

ولهذا لم يكد يطل القرن العشــرون، إلا وقد أثمرت هذه الحملة العلمية شــيئاً من الحصــاد.. لا عند الجماهير العربية، فهذه تملك حصــانة طبيعية لا يمكن النفاذ إليها، ولكن لدى بعض المثقفين الذين قرأوا كتب المســـتشـــرقين أو تثقفوا على أيديهم.

ففي الجزائر، مثلاً، وقد طال فيها عهد الاســتعمار الفرنســي، دعا عدد من المثقفين الجزائريين إلى الاندماج في الدولة الفرنســـية والمطالبة بالرعوية الفرنسية والتمتع بحقوقها وواجباتها، ومن ذلك ان السيد عباس فرحات قد بلغ به الأمر، أن كتب مقالاً أنكر فيه وجود وطن جزائري، وكان عنوان المقال "لو أنني عثرت على الوطن الجزائري" أكثر دلالة من المقال نفسه..

وفي مصـر لقيت فكرة حوض البحر الأبيض المتوسـط رواجاً لدى عدد من المثقفين كان في مقدمتهم الدكتور طه حســين، فقد وضــع كتاباً عنوانه "مستقبل الثقافة في مصر" .. ورغماً عن أن عميد الأدب العربي شخصية علمية ضـخمة، إلا أن ذلك لا يكسـبه عصـمة من الخطأ، ولا حصـانة من التأثر بآراء أسـاتذته الذين درس عليهم في السـوربون أيام كان يطلب العلم في باريس .. في قلب أوروبا..

وإن أوروبا هذه هي التي حرفت فكر الدكتور طه حسـين عن موضـعه العربي الأصـيل، فقال في كتابه " ولا ينبغي أن يفهم المصـري ان الكلمة التي قالها (الخديوي) اسماعيل ، وجعل بها مصر جزءا من أوروبا، قد كانت فناً من فنون التمدح، أو لوناً من ألوان المفاخرة وإن كانت مصـــر دائماً(!) جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافة على اختلاف فروعها وألوانها".[1]

ومثقف مصـري آخر هو الدكتور حسـين مؤنس، وضـع كتاباً عنوانه "مصر ورسالتها" أكد فيه "ثلاث حقائق تعين على تحديد مكانة هذا البلد ورسالته العليا في الوجود .. الأولى أن تاريخ مصـر هو تاريخ البحر الأبيض المتوسـط .. والثانية أن تاريخ مصـر متأثر بالبحر الأبيض المتوسـط بصـورة دائمة .. والحقيقة الثالثة هي أن حياة مصـر لا تسـتقيم إلا إذا كانت على صـلة بالبحر الأبيض .. إن علاقات مصـــر بما يليها شـــرقاً كانت قليلة جداً، وإنما كانت علاقاتها المتصـــلة مع البحر الأبيض.. ولم يجن على مصـــر شـــيء، قدر

---

[1] الدكتور طه حسين، **مستقبل الثقافة في مصر**، ص27.

انصرافها عن جبهة البحر الابيض ونحن لسنا من الشرق ولا من الغرب، وإن كان لنا في كل منهما نصيب".[1]

ويتوج الدكتور حسين مؤنس هذه الأخطاء التاريخية، بخطأ أفدح وأفصح حين يقول "نشعر نحن (مشيراً إلى المصريين) شعوراً صادقاً بأنه ليس هناك رابطة حقيقية تربطنا ببني أمية وبني العباس".[2]

وقد سبق إلى هذه الاتجاهات الخاطئة فيلسوف مصري كبير، هو الأستاذ لطفي السيد، حينما كان يدعو إلى الانحسار عن العروبة، والانحصار في الإقليمية المصرية الضيقة، فقط كتب يقول: نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقاً أن ننتسب إلى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا حجازية أو تركية.. أليس إقرار المصري بانتسابه إلى العربية أو التركية لا يدل إلا على أنه يحتقر وطنه وقومه.[3].

وانبرى مؤرخ آخر هو الأستاذ عبد الله عنان يؤكد مصرية مصر، ويعزلها عن العروبة، فقد كتب مقالاً صارخاً، كأن خاطفاً من السماء يريد أن يختطف مصر من الكرة الأرضية فراح يقول: "إن أكابر المفكرين المصرين يكادون أن يجمعوا على وجوب تمسك مصر بقوميتها المصرية ورفض أية فكرة دخيلة مما يدعون إليه .. ما يسمونه القومية العربية .. التي تدعو إلى إلغاء الجنسيات القومية ، واتخاذ العروبة جنسية عامة لمصر وزميلاتها، وإلغاء الحدود والحواجز الواقية، وغير ذلك مما يحقق في نظرهم فكرة الاندماج العربي

---

[1] الكتور حسين مؤنس- **مصر ورسالتها** ص 19-99.

[2] الدكتور حسين مؤنس – مصر ورسالتها ص19-99.

[3] الأستاذ أحمد لطفي السيد، **تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع**، ص 65.

مادة ومعنى ..وانه لا محل أن يتقدم بعض الغلاة من الدعاة فيطلبون إلى مصر أن تنزل عن صفتها المصرية لتنطوي تحت لواء العروبة وتعتنق القومية العربية وتشتري زعامة العروبة بالتنكر لماضيها وتراثها القديم".

ورئيس الجمهورية التونسية، السيد الحبيب بورقيبة، جرى في هذا المجرى الفكري، وهو أصلاً من روافد الفكر الأوروبي، فقال في كتاب "هذه تونس" مشيدا مركز تونس في حوض البحر الابيض المتوسط: "تونس كبيرة بالمركز الذي تحتله في قلب البحر الأبيض المتوسط باعث الحضارات .. ومن واجباتها السعي للتوفيق بين العالم العربي وعالم الغرب.. إن تونس تقع في الوادي الاقتصادي لأوروبا الغربية .. وفي المدن التونسية امتزج البشر، فداخلت الطينة البربرية عناصر متواردة من آفاق البحر الأبيض وشمال أفريقية .. ثم تفتحت العقول للحياة العصرية بفضل اللغة الفرنسية وغنمت القومية التونسية غنماً كبيراً .."

هذه هي الاتجاهات الفكرية "اللاقومية" التي سادت عقول عدد من المثقفين العرب في مصر والمغرب العربي بصورة عامة، وقد انتشر مثلها في المشرق العربي فيما يقارب الحقبة نفسها، ومن المصادر الغربية ذاتها.. وكأنما كان التيار الأوروبي الذي يدعو إلى قومية أوروبا، ولا قومية الأمة العربية، يسير في رافدين متماثلين أحدهما يتجه إلى المغرب العربي، والثاني يتجه إلى المشرق العربي.

ففي المشرق العربي قامت حملات مماثلة ترد الأمة العربية في ديار الشام والعراق إلى أصول غير عربية، وإلى سلالات منقرضة، ولا تقيم وزنا لاعتبار اللغة العربية عاملاً أصيلا في تكون الأمة الواحدة ..وتخلص في

النهاية إلى أن "سـكان" هذه المنطقة ، من البحر الأبيض المتوسـط غرباً إلى خليج العقبة إلى الخليج العربي شـرقاً، هم أخلاط من شـعوب بائدة، كالسـريان والكلدان والفينيقيين والاراميين والحبشة، وازداد "خلطهم" بغزوات الفرس واليونان والصليبيين، والأتراك السلاجقة والعثمانيين..

وبرز في خضـم هذه الدعوات الشـعوبية ، الأسـتاذ انطون سـعادة، وهو مفكر معروف، فدعا إلى القومية السـورية، في معزل عن القومية العربية وإلى الوطن السـوري، في معزل عن الوطن العربي فقال إن " الوطن السـوري هو البيئة الطبيعية التي نشـأت فيها الأمة السـورية، وهي ذات حدود تميزها عن سواها، تمتد من جبال طورس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب إلى الصحراء في الشرق حيث الالتقاء في دجلة".

وربما كان الأسـتاذ أنطون سـعادة، أوسـع فكراً بعض الشـيء، فقد جعل بتحديده السالف الذكر سوريا الطبيعية وطناً واحداً ..وشعبها (غير العربي) شعباً واحداً، على حين أن كتابا لبنانيين آخرين نادوا بلبنان وطناً قائماً بذاته منذ القدم، وأن شعب لبنان ينتمي إلى أرومة خاصة، ذات سمات وقسمات متميزة .

ولا يظن المواطن العربي أن السـاحة العربية قد خلت لهؤلاء المؤرخين والمفكرين العرب في دعوتهم الإقليمية، فقد تصـدى لهم كثير من المفكرين

العرب، وفندوا آراءهم وأظهروا ما فيها من أخطاء علمية وتاريخية وأصـــبحت كتبهم ضياءً مشرقاً في المكتبة العربية.*

ولكن هذا الصــراع الفكري حول القومية العربية، والأمة العربية الواحدة، قد حســـمه رجلان كبيران الأول القائد القومي العربي الرئيس الراحل جمال عبد النـاصـــر، فقد أكد في الميثاق القومي الذي أعلنه في ربيع 1962 المبادئ الآتية:-

"أولاً:- إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها.

ثانياً:- لقد جاوزت هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته.

ثالثاً:- وإن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أســـاســـها مســـتدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية".

أما الرجل الثاني فهو المؤرخ البريطاني العالمي الشهير المستر توينبي فقد قرر حقيقة كاســـحة، جرفت ما قاله بعض المؤرخين والمفكرين العرب من دعاة الإقليمية ، فأعلن في عبارة جلية حاســمة بأنه يغبط أبناء المجتمع العربي بما تضفيه عليهم صفة الأمة العربية من وحدة، حتى يشعر العربي أنه في داره ما دام في بلاد عربية، فالعراقي أو المصـــري أو النجدي أو الحجازي أو المراكشـــي أو التونســـي لا يجد فرقاً في الجو الاجتماعي وروح الحياة العربية

---

* ومن هؤلاء المفكرين الأساتذة- عباس محمود العقاد، ساطع الحصري، عبد الله العلايلي، الأمير مصطفى الشهابي، عبد الرحمن البزاز، مكرم عبيد، الدكتور عبد الرحمن شهبندر، محمود كامل المحامي، شفيق غربال وغيرهم كثيرون.

وعقليتها السـياسـية بين الرباط وتونس والجزائر والقاهرة وجدة ودمشـق وبغداد والبصرة".[1]

ولقد مضـى على الميثاق القومي الذي أعلنه الرئيس عبد الناصـر ثلاثة عشر عاماً وقعت خلالها هزيمة الأيام الستة في عام 1967، وانتصارات حرب رمضـان في عام 1973، وأطلت في ثنايا الهزيمة وأعقاب النصـر الأفكار الإقليمية القديمة .. تدعو إلى التضـامن بديلاً من الوحدة، وإلى التنسـيق بين الدول العربية العشـرين عوضـاً عن الدولة الواحدة تتربع عليها زعامة واحدة.. وبدت قضـية الوحدة مجمدة غير مطروحة، تنتظر" عدة قرون"، حسـب تعبير الرئيس الحبيب بورقيبة، أجرأ حكام العرب في ترسـيخ الانفصـال تحت علم الوحدة ..[2]

ومن أجل ذلك عاد السؤال الكبير يطرح نفسه.. (نحن) ..من نحن؟

ومن أجل ذلك أصبح لا بد أن نعود لتوكيد الجواب من جديد

أجل ... نحن الأمة العربية الواحدة ، من المحيط إلى الخليج ..

لا نؤكدها لعاطفة جياشـة، أو نزوع شـعري، ولكن نعود بها إلى اصـولها منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا.

وحكم التاريخ، كما يتجلى في الصفحات اللاحقات، أن العرب أمة تملك كل مقومات القومية الأصـيلة، وكل مرتكزات الوحدة الكاملة الشـاملة، كأية أمة أخرى في هذا العالم.

---

[1] الدكتور احمد سويلم العمري، **دراسات سياسية**، ص 62.

[2] جريدة العمل التونسية ، **خطاب الرئيس الحبيب بورقيبة** 1972/12/17.

وحين نقرأ التاريخ قراءة رصـينة عميقة، سـنرى أن العروبة أصـيلة، في مصـــر الفرعونية والمغرب البربري، والعراق البابلي، ولبنان الفنيقي، وفلســطين الكنعانية، وســـوريا الأدومية، تماماً كعروبة اليمن القحطانية، والحجاز العدنانية سواء سواء..

وهذا الحكم التاريخي ينتقص منه أنه يقوم على الأمة العربية في هذه الأيام عشــرون ملكاً ورئيســاً وأميراً، فإن مســيرة التاريخ أقوى من هؤلاء جميعاً، والدول العشرون زائلة زائلة، والدولة العربية الواحدة مقبلة مقبلة، ولوكره الكافرون ومعهم العشرون.

ذلك هو حكم التاريخ، وقدر الأمة .. وأنه قدر لا راد له ، ولو كان العشرون بعضهم لبعض ظهيراً ..

ومن نحن؟ مرة أخرى

هذا الوطن العربي، من المحيط غرباً إلى الخليج شـــرقاً، ومن جبال طوروس شمالاً إلى الخط الاستوائي والمحيط الهندي جنوباً، هو قارة بين القارات الثلاث، عنده تلتقي، ومنه تفترق .. وهذا اللقاء وذاك الافتراق هو الذي يجعل الوطن العربي في التحديد الجغرافي المعروف، القارة الســـابعة بين القارات، بل تركه قسماً من آسيا وقسماً من إفريقيا.

ونحن لو قرأنا التاريخ الطبيعي بصبر وأناة لانتصبت حقيقة علمية رائعة تثبت بكل وضـــوح ان الطبيعة قد خلقت الوطن العربي منذ الخليقة ليكون وطناً واحداً لأمة واحدة.

والتاريخ الطبيعي يضعنا أمام حقيقة مذهلة، بل أمام اكتشاف رائع، ذلك أن المرحلة المعروفة بإنحسار البحار عن اليابسة، قد أفضت إلى "ظهور" أرض جافة تمتد من المحيط الأطلســـي إلى الخليج "الفارســـي" وأن في هذه الأرض تشققت عن أنهارنا التي نعرفها : النيل والأردن والعاصي والفرات، وانسابت من منابعها عبر وديانها ومجاريها .. وأن هذه الأرض بانشطارها عن باقي اليابسة قد تكون فيها البحر الأحمر والبحر الميت "والخليج الفارسي"، وأن هذه الأرض، بسبب الانفجارات البركانية التي حلت بها قد تكونت فيها شبه جزيرة سيناء وشبه

الجزيرة العربيـة .. وأن هذه الأرض كلها من المحيط إلى الخليج تجمع بينها وحدة جيولوجية وطبيعية ..[1]

بـل إن علمـاء الجيولوجيا متفقون على أن الجزيرة العربيـة هي تكملـة طبيعية لصـحارى إفريقيا، انشـقت عنها في عصـور ما قبل التاريخ، وأصـبح ينفصـل عنها وادي النيل ومنخفض البحر الأحمر، وان حدود الجزيرة العربية شـمالاً غير واضـحة المعالم، ويمكن اعتبارها خطاً وهمياً يتجه شـرقاً من رأس خليج العقبة حتى نهر الفرات، وان صـحارى الشـام والعراق بكاملها، من الناحية الجيولوجية تعتبر جزءاً من الجزيرة العربية ..[2]

ثم يمضـي علماء الجيولوجيا إلى القول إن جزيرة العرب، والمشـرق العربي من البحر الأبيض المتوسـط حتى الخليج العربي، هو وحدة طبيعية من ناحية التكوين الجيولوجي، ومن ناحية التركيب وبنية الأرض في أسـاسـها الغرانيتي وصخورها الرسوبية والبركانية وتضاريسها الطبيعية..

وتذهب دائرة المعارف البريطانية إلى أن أوجه الشـبه كثيرة جداً بين وادي النيـل، والجزيرة العربيـة من حيـث التركيـب الجيولوجي وبنيـة الطبقـات الأرضية.[3]

ونخلص من هذا كله إلى أن الوطن العربي هو وحدة جغرافية متصـلة تبدأ من المحيط الأطلسـي حتى الخليج العربي، وأن هذا الامتداد الأرضـي

---

[1] المحامي محمود كامل، معتمدا مصادر من العلماء والأثريين، **العرب**، ص 15.

[2] الدكتور حتي، **تاريخ العرب**، ص 16.

[3] المجلد 2 ص 174.

متماثل في تكوينه الجيولوجي، وأنه مهيأ منذ القدم لأن تولد فيه، وتتكاثر على ربوعه، أمة واحدة، تنشأ لها خصائص قومية مشتركة، وحياة اجتماعية واحدة .

وكان طبيعياً أن تنشأ هذه الحياة المشتركة حيث تتوافر أسباب الحياة، وكان من الطبيعي ان تتوافر حيث الأرض والماء، فهما مصدر الحياة، ولم يكن الأمر يحتاج إلى عناء كبير، فإن مصـــادر الحياة في الوطن العربي وجدها الإنســـان الأول في وادي النيل، وبلاد الرافدين، والأطراف الجنوبية في الجزيرة العربية.

ومضت قرون طويلة، في عصر ما قبل التاريخ .. وانسان هذا الوطن العربي ينتقل في حياته البدائية من طور إلى طور حتى استقر في الأرض، وبدأ يســـتخدم التربة والماء، ليعيش ويعيش معه شـــركاؤه في الأرض، ورفاقه في المجتمع، والوطن هو أرض ومجتمع.

ويتحدث علماء التاريخ، عن إنسان ما قبل التاريخ، ويصفون كيف كان الإنســـان في القديم يجفف المســـتنقعات في حوض وادي النيل ليجعل الأرض صالحة للزراعة، وأن سكان وادي النيل أولئك كانوا خليطاً من أهله ومن الوافدين على مصـر من آسـيا الغربية ليؤلفوا المجموعة البشـرية المعروفة بالمصـريين القدماء.[1] وآســـيا الغربية، إذا نظرنا إلى الخريطة العالمية جيداً ، هي الجزيرة العربية ومعها ديار الشام والعراق..

وهنا يطرح السـؤال الكبير نفســه، ما هي هوية هذه الجماعة البشـرية التي استطونت هذا الامتداد الجغرافي الذي أصبح يسمى بالوطن العربي .. وهل

---

[1] دائرة المعارف البريطانية مجلد 8.

هذه الجماعة البشـرية تنتمي إلى أسـرة واحدة ذات سـمات واحدة، وخصـائص مشتركة.

ولقد شـغل هذا السـؤال أذهان الكثيرين من المؤرخين القدامى والمحدثين والكثيرين من المسـتشـرقين والأثريين، وقد التقت دروبهم المختلفة على حقيقة عظمى واحـدة .. أن هـذا الامتـداد الجغرافي الكبير هو الوطن الواحـد للأمـة العربية الواحدة، عاشـت فيه حياتها الطويلة المديدة، متطورة من مرحلة إلى مرحلة، فبنت الحضـارة القديمة، وأنشـأت الدين،واخترعت الكتابة، وأوجدت الزراعة والصناعة، وأسست الدولة، وخاضت الحروب، وقدمت للإنسانية أعظم حضـارة عرفها الإنسـان في يومه ..وبالتالي فقد أنشـأت أعظم إمبراطورية في التاريخ.

وصـحيح أن العلماء كانت بينهم خلافاتهم واجتهاداتهم، ولكن ذلك كله قد أثبت هذه الحقيقة العظيمة من دروب مختلفة، وكما يقول المثل الرائج بأن كل الطرق تؤدي إلى روما، فقد تلاقت دروب العلماء المتشـعبة المختلفة عند هذه الحقيقة .. فما هي دروب العلماء المختلفة وما هي الحقيقة الواحدة ..

يقول فريق من العلمـاء ان أرض بـابـل (العراق) هي المهـد الأول للسـاميين، وقد تأثر هذا الفريق برواية العهد القديم القائلة بأن أقدم ناحية عمرها بنو نوح هي أرض بابل.. والقائلون بهذا الرأي يضـيفون أن قدماء المصـريين كانوا من أصل سامي تفرع من هذه الشجرة .. وأن المصريين أخذوا حضارتهم من البابليين الذين استوطنوا مصر واستعمروها.

ويقول فريق ثان من العلماء إن الموطن الأصـلي لجميع السـاميين هو جزيرة العرب، وإن أواسـط بلاد العرب، ولاسـيما منطقة نجد، هي موطن الساميين، ومنها انطلقوا إلى الهلال الخصيب (العراق والشام).

ويقول فريق ثالث إن إفريقية الشـمالية الغربية هي الوطن الأول للساميين؟ وان منطقة جبال الأطلس بالتحديد هي الموطن الأصلي للساميين. ويقول فريق رابع إن إفريقية الشرقية هي الموطن الأول للساميين وإنهم عبروا من إفريقيا إلى آسيا عن أحد طريقين : طريق سيناء أو طريق باب المندب، حيث دخلوا الجزيرة العربية من مواقع مختلفة من أرض الحبشة والصومال، ويقول فريق خامس إن الوطن الأصلي للساميين هو أرض الأموريين وتشمل هذه الأرض الشام ومنطقة الفرات، والأموريون هم من الشعوب السامية القديمة التي سكنت في فلسطين والشام وإقليم بابل.*

ولقد اختلف هؤلاء العلماء في موطن الساميين ولكنهم اتفقوا على ان الساميين هم العرب، والعرب هم الساميون، وان لفظة سامي ليست تعبيراً عن سلالة أو عنصر، وإنما هي تعبير عن أسرة لغوية هي اللغة السامية.

وسواء كان موطننا الأول الذي نشأت فيه الأمة العربية هو نفس إفريقيا الشمالية، في غربها أو شرقها أو وسطها، أو في العراق أو في الشام، أو في الجزيرة العربية، فهذه كلها أجزاء من الوطن العربي منذ عصور سحيقة قبل التاريخ، وبذلك يكون عمر الأمة العربية الواحدة على هذا الوطن العربي الواحد

---

* وأصحاب هذه الآراء عدد كبير من المستشرقين يتجاوزون خمسين عالماً، يجد القارئ آراءهم ملخصة في كتابين قيمين : تاريخ العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان، وتاريخ العرب قبل الإسلام الجزء الأول لمؤلفه جواد علي.

منذ الخليقة إلى يومنا هذا، وقليلة بل نادرة هي الأمم التي لها هذا الامتداد التاريخي على تراب الأسلاف الغابرين.

والعلماء، على اختلاف رأيهم بالنسبة إلى الموطن الأول، إلا أنهم مجمعون على أن الجزيرة العربية في عصر ما بعد التاريخ، كانت، وعلى مدى أربعة آلاف عام قبل الميلاد، هي "الخزان الأكبر" للأمة العربية، تصدر عنه موجات من الهجرات العربية إلى الوطن العربي بأسره، متجهة شمالاً إلى ديار العراق والشام، وإلى الشمال الغربي حيث وادي النيل والمغرب العربي بكل أقطاره حتى المضيق، وهو الذي عرف بمضيق جبل طارق بعد ذلك بعدة قرون.

والهجرة من الجزيرة العربية إلى باقي أرجاء الوطن العربي، قديمة قدم الجفاف والآفات الطبيعية، وخاصة في أرض مجدبة كثيرة الصحارى عديمة الأمطار، وقد أخذت الجزيرة العربية، كما يقول المؤرخ الإيطالي كاليتاني "تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر الف سنة ..ولما اشتدت بهم (العرب) الحالة ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا إلى بلاد أخصب تربة وأجود جواً وأكثر أمطاراً .. وهكذا بدأت أولى هجراتهم التي حدثت غير مرة .. فإن الآثار التي استخرجت من جوف الأرض ما بين الفرات ودجلة تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد السيد المسيح، على أن هذه الاكتشافات يجب أن لا تنفي فكرة وقوع هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ"[1] ويمضي مؤرخ آخر، في تحديد اتجاهات الهجرة فيقول:-

---

[1] **بلادنا فلسطين** ، القسم الأول ص 379 الأستاذ مصطفى الدباغ اقتباساً من مجلة المقتطف عدد تموز 1944.

" إنه إذا ما زاد سـكان الجزيرة العربية عن احتمال طاقة الأرض.. كان على الفائض أن يبحثوا لهم عن مدى حيوي يعيشـون فيه .. ولا يبقى أمامهم إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربي من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرع عنه شبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل الخصيب، وقد سلك هذا الطريق أو طريق إفريقية الشرقية مهاجرون ساميون حوالي سنة 3500ق.م واستقروا في مصر مع سكانها واختلطوا بهم فكان من نتيجة هذا الاختلاط أن ظهر المصريون القدماء .. وفي تلك الغضـون أو في أواسـط القرن الرابع قبل الميلاد اندفعت إلى الشـمال موجة أخرى من المهاجرين سلكت طريقاً موازياً للآخر واستقرت في وادي الرافدين"[1].

وعلى هذا فإن الهجرة العربية الأولى من الجزيرة العربية قد خرجت منذ سـبعة آلاف عام تقريباً، في اتجاهين كبيرين إلى وادي النيل، ووادي الرافدين، وفيهما نشأت الحضارة الإنسانية الأولى..

ثم جاءت الهجرة الثانية في صـدر الالف الرابع قبل الميلاد، وخرجت القبائل العربية ميممة وجهها شـطر العراق فأقامت فيه واسـتقرت ، وأنشـأت دولاً متعاقبة تولى أمرها ملوك عديدون صـنعوا تاريخ الشـرق الأوسـط، وعرف الفرع الذي نزل منهم في الجنوب بالاكاديين، والذين نزلوا بالشمال الآشوريين..

وبعد ذلك جاءت الهجرة الثالثة، في أوائل الالف الثالث قبل الميلاد، وهي التي عرفت بالهجرة الأمورية الكنعانية، واتخذت طريقها إلى بلاد الشـام، فنزل الأموريون في القسـم الداخلي من البلاد، في سـوريا وشـرق الأردن، ونزل الكنعانيون في الساحل في لبنان وفلسطين.

---

[1] **تاريخ العرب** ، حتي، ص 11.

وفي عام 1900 ق.م نزح فريق من الأموريين إلى العراق وكونوا سلالة بابل الأولى، ومنها ظهر الملك حمورابي (1686–1728 ق.م) وهو صاحب الشريعة الشهيرة.. ونزلت القبائل الأخرى في جنوب سورية وفي شرق الأردن حتى خليج العقبة..

وفي أواخر القرن الثامن عشر ق.م ... استوطنت القبائل الآرامية جنوب العراق ومنها تأسست الدول الكلدانية، وهي آخر إمبراطورية في العراق في العصور القديمة.

وفي نحو القرن السابع عشر قبل الميلاد نزح فريق من الكنعانيين إلى مصر وأقاموا دولة فيها، وهم المعرفون بالهكسوس والرعاة في التاريخ المصري القديم.

وبعد ذلك جاءت الهجرة الرابعة، وهي الهجرة الآرامية وهي تضم القبائل الموآبية والادومية والعمونية، فاستقر الآراميون في شمال سوريا وأواسطها وأنشأوا فيها دولا تجارية مهمة منها دولة دمشق.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد تحركت موجة عربية أخرى وهم الأنباط فنزلوا جنوبي الشام، وجاءت بعدهم هجرة اللخميين إلى العراق والغساسنة إلى الشام.

غير أن فريقاً من الباحثين يرون أن أقدم الهجرات العربية هي التي اتجهت إلى مصر، فقد شرع العرب قبل بدء عصر التاريخ، ينزلون مصر 3500 ق.م، وأنهم دخلوا إليها عن طريق فلسطين فسيناء والدلتا، ثم استقروا فيها وامتزجوا بسكانها الأصليين ، ومنها تكوّن المصريون القدماء، وأن تأثير

العرب الساميين هؤلاء لم يبق مقتصراً على المصريين بل تجاوزهم إلى شعوب إفريقيا وعلى الأخص شعوب أقطارها الشمالية والسودان والحبشة وغيرهما..[1]

ويتعين علينا، ونحن بصـــدد الهجرات العربية هذه، أن نقف قليلاً عند الهجرة الكنعانية الفينيقية لنتبين بوضـــوح حقيقة هذه الهجرة، فلقد تحدثت بعض الكتابات الغربية عن الكنعانيين والفينيقيين حديثاً يشـــكك في عروبتها ويقدم بالتالي، "حجة " علمية أن في ديار الشام وخصوصاً لبنان وفلسطين خليطاً من الأقوام والشعوب، وأن العروبة فيها ضرب من الخيال.

والواقع ان الهجرة الكنعانية الفينيقية هي من أقوى الحجج، إن لم تكن أقواها، لإثبات العروبة لا في المشـرق العربي فحسـب بل في مصـر والمغرب العربي، حيث المزاعم الكثيرة حول الفراعنة والبربر.. وللتاريخ في هذا الموضـوع حديث سهل المنال لا يحتمل الجدال ولا القيل والقال..

وقد يبدو لأول وهلة أن لفظ "الكنعانيين والفينيقيين" بعيد عن القوالب العربية المألوفة في زماننا، ولكن تحديد المعاني ســـرعان ما يزيل الإبهام.. فالكنعانيون ينتســبون إلى جدهم الأعلى كنعان، وهذا هو الأســلوب العربي في الانتســاب إلى شــيخ القبيلة أو جدها الأعلى وهكذا ســميت قحطان وعدنان، ومازن، ونزار، باســـماء شـــيوخها الأوائل، أما فينيقية فهي لفظ يوناني، يعني صـانع الزجاج الملون،وكان هؤلاء الفنيقيون، وهم الكنعانيون أصـلاً، قد اشـتهروا في الصــناعة ..وهكذا غلبت عليهم التســمية اليونانية.. هؤلاء الكنعانيون الذين نزلوا الســـاحل أمام جبل لبنان عرفوا بعد القرن الثاني عشـــر قبل الميلاد بالفينيقيين، فكلهم شعب واحد نسباً ولغة وديناً وتمدنا، انقسم إلى قسمين، سكن

---

[1] الأستاذ مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين** ، القسم الأول ص 280 .

الأول فلسطين، والثاني الساحل الشرقي من مصب نهر العاصي، إلى جنوب الكرمل (فلسطين) ، ومع أن اسم الفينيقيين أصبح أشهر من اسم كنعان إلا أنهم ظلوا محافظين على نسبهم الكنعاني، وبقوا يسمون أنفسهم كنعانيين، ولا يرضون عنه بديلاً . ويحدثنا التاريخ كذلك أن الكنعانيين والأموريين هما فرعان من قبيلة كبرى واحدة تحركت في هجرة واحدة من الجزيرة العربية، وتعد لغة الأموريين والكنعانيين لهجتين من فروع كتلة اللغة السامية العربية، واختلاف اللهجتين هو كاختلاف اللهجات الحاضرة السورية والفلسطينية واللبنانية[1] والدليل على عروبة الكنعانيين لا يستند على أن لفظة "كنعان" شبيهة بأمثال "غسان وقحطان" ولكن المصادر التاريخية غنية بالدليل تلو الدليل .. فقد ذكر المؤرخ هيرودوتس اليوناني (484 –422) الذي ساح بلدان الشرق الأوسط، أن الكنعانيين قد هاجروا من الخليج العربي، وأيد ذلك المؤرخ الروماني "بليني" والجغرافي الروماني "استرابو" وكلاهما عاش في القرن الأول للميلاد.

وقد عثر باحثو شركة الأرامكو، والرحالة جون فلبي على مقابر في "الخرج" "والأفلاج"، من بلاد نجد، تثبت أن الفينيقيين هاجروا من هذه المناطق إلى الخليج العربي.. ومنه كانت هجرتهم إلى فلسطين ولبنان.

يضاف إلى ذلك أن هناك اسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس اسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامي، مثل صور على ساحل عمان، و "جبيل" على ساحل الاحساء وأرواد وهي الاسم القديم لجزيرة المحرق.. وهذه المدن لا تزال قائمة إلى يومنا على ساحل سوريا ولبنان.

---

[1] مصطفى الدباغ ، **بلادنا فلسطين**، ص 388 – 394.

ويقول أمين الريحاني، الرحالة والسياسي والأديب، "أجمع المؤرخون والأثريون ان الفينيقيين مثل العرب ساميون، بل إنهم عرب الأصل.. رحلوا من الشواطئ العربية الشرقية، ومن البحرين إلى سواحل البحر المتوسط في قديم الزمان، ويستنتج من درس الآثار التي وجدت في المقبرة القديمة في البحرين أن هجرتهم كانت في أواخر العهد الصواني، يوم لم يكن الإنسان يحسن شيئاً من الكتابة إذ لا كتابة البتة في مقابر البحرين الكنعانية"[1] .

وقال المؤرخ رولنسون إن أصل الفينيقيين من سكان البحرين في الخليج العربي، خرجوا من هناك إلى ساحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة وانهم عرب بأصولهم، وإن هناك مدناً فينيقية اسماؤها اسماء فينيقية مثل صور وجبيل.[2]

أما المؤرخون العرب، وهم أعرف الناس بتاريخهم، فقد أكدوا عروبة الكنعانيين والفينيقيين وسائر القبائل الأخرى، يوم لم تكن قضية العروبة واللاعروبة مطروحة على البحث والنقاش ..فقد ذكر المؤرخ العربي أبو جرير الطبري (المتوفى سنة 922م) أن الكنعانيين هم من العرب وأنهم يرجعون بأنسابهم إلى العمالقة ..وأن العمالقة أمم تفرقت في البلاد، وكان منهم أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام، وأهل مصر، ومنهم كانت الفراعنة بمصر .. وأن العمالقة عرب، ولسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي وأن جدهم الأعلى عميلق أول من تكلم بالعربية.[3]

---

[1] أمين الريحاني، **قلب لبنان**، ص 433 .

[2] محمد كرد علي، **خطط الشام** 58/1.

[3] تاريخ الطبري، 203، 204، 207.

وكذلك، ابن خلدون، المؤرخ العالمي المعروف قد أكد أن الكنعانيين من العمالقة وأنهم جميعاً يتكلمون اللغة العربية.[4]

وهناك حقيقة في تاريخ الكنعانيين تكشف عن جانب رئيسي في تاريخ المغرب العربي، وفي عروبته الأصيلة...

ونحن نعرف من المصادر التاريخية العربية والأجنبية أنه قد انبثق عن الكنعانيين، أو الفينيقيين، أو العمالقة إذا شئت، ملوك الرعاة أوالهكسوس حسب اللغة المصرية القديمة، (هيك) بمعنى الملك، (وسوس) بمعنى راعٍ.. وقد وصفهم المؤرخ يوسيفوس اليهودي "بأنهم عرب وأنهم رعاة اخوة فينيقيون"[1] ويقول عنهم سارتون أنهم عين الفينيقيين أو العرب أو ينتسبون إليهم ".[2]

ويقول المؤرخ العراقي جواد علي: المعروف أن الهكسوس كانوا من العرب في رأي كثير من العلماء، بل في نظر قدماء المصريين كما حكى بذلك الراهب المصري المؤرخ " مانيتو" في كتابه المؤلف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد، فهؤلاء العرب، الفينيقيون أو الهكسوس نزلوا مصر في نحو عام 1675 قبل الميلاد ونشروا فيها اللغة الكنعانية.

ودام حكم الملوك الرعاة قرابة مائتي عام، وقد كشفت الحفريات ان هؤلاء الملوك كانت تنسب إليهم الأسرة الثانية عشرة، والخامسة عشرة، والأسرة السادسة عشرة، والأسرة السابعة عشرة.[3]

---

(4) **تاريخ ابن خلدون** ، 44/1 – 77/3.

(1) جورجي زيدان، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص 54.

(2) **تاريخ العلم**، 239/1.

(3) **دائرة المعارف البريطانية**، مجلة 12، ص 9.

ولئن كانت بعض المصادر قد ذكرت أن الهكسوس قد (غزوا مصر) إلا أن هذا التعبير ليس دقيقاً، فقد كانت القبائل العربية مستقرة في مصر قبل ذلك بأجيال، وهؤلاء الهكسوس المعروفون بعمالقة مصر، حسب تعبير التاريخ العربي، وفدوا من الأقطار الشقيقة، سوريا وفلسطين وسيناء والجزيرة العربية، وما هذه الغزوات المتبادلة من مصر إلى المشرق العربي وبالعكس إلا صراع على الحكم بين الاسرات الحاكمة في الوطن العربي.

وقد عقد جورجي زيدان أحد رواد التاريخ العربي الحديث فصلاً مسهبا اعتمد فيه على أقوال المؤرخين القدامى من الرومان والعرب، ثم استند إلى الآثار المصرية وخلص في النهاية إلى نتيجة علمية هي ان الهجرة العربية إلى مصر تعود إلى العصر الحجري، وأنها ظلت مستمرة، وأن حكم الهكسوس في مصر هو امتداد للوجود العربي في مصر، مقدمة لموجات عربية أخرى تالية[1].

وبعد جورجي زيدان، جاء العالم الأثري المصري الكبير (الدكتور سليم حسن)، وذكر أنه ثابت بالمراجع العلمية القديمة والحديثة، والآثار والحفريات، أن الوجود العربي في وادي النيل متسلسل منذ أقدم أزمنة التاريخ.. وقبل الفتح الإسلامي بقرون، وأن العنصر العربي متغلغل في الأسر الحاكمة المصرية القديمة ابتداء من عام 3200 ق.م إلى نهاية تاريخ مصر القديم[2].

ولم يكن المغرب العربي، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، في عزلة عن هذه الموجات العربية .. فلقد كتب ابن خلدون في تاريخه الشهير، في عصر لم يكن أمر البربر مشكلة عنصرية، مؤكدا أن السكان القدماء في ليبيا والمغرب

---

(1) جورجي زيدان، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص 50 وما بعدها.

(2) الدكتور سليم حسن، **تاريخ مصر القديم**.

العربي كله هم من الكنعانيين، وأن جدهم الأكبر يسمى مازيغ بن كنعان، ولهذا عرفوا بالأمازيغ، وأنهم ارتحلوا من بلاد الشام إلى شمال إفريقيا عن طريق مصر.

ويقول الجغرافي المعروف ياقوت الحموي في معجم البلدان عن البربر إن منازلهم كانت في فلسطين، فلما أخرجوا منها أتوا المغرب فتناسلوا فيه وأقاموا في جباله .. وقال المؤرخان السعودي وأبو الفدا إن الكنعانيين بعد تفرقهم سارت طائفة منهم إلى المغرب.[1]

ونحن لو انتقلنا من النسب إلى الحسب، لوجدنا ان الفينيقيين العرب هم من مفاخر الأمة العربية، وأن تاريخهم هو نفسه تاريخ الأمة العربية في المشرق والمغرب على السواء .. عبر أجيال مديدة وقرون عديدة.

فهؤلاء الفينيقيون الذين استوطنوا السواحل العربية (السورية اللبنانية الفلسطينية) وأقاموا فيها حضارة مرموقة كانوا سادة البحار في تلك العصور فانطلقوا إلى الشواطئ الشمالية في إفريقيا، وارتحلوا إليها وأقاموا فها عدة مراكز تجارية، وقد بدأوا بالاتصال مع القبائل الليبية التي كانت تقطن في تونس المعاصرة في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد تحدثت دائرة المعارف البريطانية بإسهاب عن "المهاجرين" من صيدا وصور (مدينتان على الساحل اللبناني) وكيف انتشروا في الشمال الإفريقي وأقاموا دولة قرطاجة الشهيرة (850 ق.م) في تونس، التي أصبحت منافسة لروما وراحت تعرف بسيدة البحار .. وامتد سلطانها على الشاطئ الإفريقي بأكمله حتى شواطئ الأطلنطي.[2]

---

[1] **مروج الذهب**، 19/2.

[2] دائرة المعارف البريطانية، مجلد4، ص 944.

وإذا كانت اللغة هي من المقومات الأساسية للأمة، أي أمة، فإن انتشار لغة القبائل الكنعانية العربية، يعطينا دليلا جديدا على عروبة الشـــمال الإفريقي منذ قرون عديدة، فالثابت تاريخيا أن اللغة الكنعانية قد انتشـــرت في البقاع الشمالية من إفريقيا .. ومع أن قرطاجة قد خربت في 146 ق.م وتشتت سكانها، إلا أن اللغة الكنعانية ظلت مســـتعملة مدة طويلة .. إلى ما بعد الميلاد قروناً عديدة.

واللغة الكنعانية هي لغة عربية قديمة بادت، ورغماً عن أن هنالك قرونا متعددة بين الكنعانية القديمة، ولغتنا الحاضرة، لغة القرآن الكريم، واللغات تتطور مع الزمن، إلا أن علماء اللغات قد وجدوا شـــبهاً كبيراً بين الكلمات الكنعانية والعربية الحاضرة، تشابها يجعل العربية امتداداً وتطورا للكنعانية.[1]

ونخلص من هذا العرض التاريخي الموجز، بالحقيقة الكبرى، وهي أن عروبة الوطن العربي من المحيط إلى الخليج أمر لا شـــك فيه، وأن الهجرات العربية التي انطلقت منذ القدم قد عمرت الوطن العربي من المحيط إلى الخليج على مدى أربعة آلاف سنة، موجة بعد موجة، وأنه مهما اختلفت الاسماء، فإن هذه الموجات عربية المولد والمنشأ واللغة والثقافة والحضارة.

ففي المشـــرق العربي نقرأ في المراجع التاريخية اســـماء كثيرة، مثل الآشـــوريين والكلدانيين والبابليين، والمناذرة واللخميين والغســـاســـنة والاموريين واليبوسيين والكنعانيين و الفينيقيين، كل هذه وغيرها اسماء عربية، لقبائل عربية، أو مدن عربية أو لشيوخ العرب الأوائل.

---

[1] مطصفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ص 483 ومابعدها.

وفي مصـــــر، كذلك، نقرأ في المراجع التاريخية اســـماء كثيرة مثل "المصريين القدماء"، "والهكسوس والفراعنة"، واسماء ثلاثين أسرة حكمت مصر وكلها اسماء لجماعات عربية هاجرت من الجزيرة العربية أو من ديار الشام أو من العراق ..

وفي المغرب العربي،كذلك، نقرأ في المراجع التاريخية اســماء كثيرة عن البربر والفينيقيين وغيرهم، وكل هؤلاء و أولئك هم من الجماعات العربية المهاجرة .. لا شك في عروبتها، ولا ريب.

وإلى هنا فإن هذا العرض التاريخي الموجز، الذي افتتحناه بعصـــر ما بعد التاريخ، يقف بنا عند القرن السابع بعد الميلاد، لتبدأ حقبة جديدة مستقلة، حين بدأ الفتح العربي الإســـلامي، وبدأت معه أكبر الموجات العربية فغمرت الوطن العربي مرة ثانية، لا لتفتح أرضـــاً بكراً، أو تغزو شـــعباً عدواً أجنبياً، بل لتحرر الوطن العربي والشعب العربي، من الاحتلال الأجنبي .. من حكم الفرس والرومان الذي كان مسيطراً على الوطن العربي في تلك الحقبة من الزمان.

وبعد الفتح، استمرت الجزيرة العربية، وعلى مدى ثلاثة عشر قرناً، تمد الوطن العربي بقبائلها، تسيح في الأرض العربية وتستقر في مختلف أرجائها، في المدن والقرى، والصحارى والواحات، تمنح اسمها لكثير من المواقع، كم منح أسلافها الاسماء السامية القديمة للمئات من المدن، والآلاف من القرى، وعشرات الآلاف من الأسر العربية، التي يعج بها الوطن العربي.

والمؤرخون من أسلافنا قد وفوا هذا الموضوع حقه، ولم يتركوا قطراً من أقطار العرب إلا وقد كشفوا عن القبائل العربية التي استوطنته منذ الفتح العربي، مع ذكر منازلهم وأحداثهم وحروبهم.

وبالنســبة إلى مصــر وبلاد المغرب، مثلاً، فقد أورد المؤرخ الكبير ابن خلدون في تاريخه المعروف، والقلقشـندي في كتابه "صـبح الاعشـى" والمقريزي شـيخ المؤرخين المصـريين في كتابه الذي يحمل السـجع الطريف "الإعراب عما بأرض مصــر من الأعراب"، وجميعهم من مؤرخي العصــور الوســطى، أوردوا تفاصيل وافية عن عشرات القبائل التي استوطنت أرض مصر وبرقة وسائر بلاد المغرب مع تحديد المناطق التي نزلوا بها، باســماء أفخاذها وبطونها وعائلاتها، واسماء أمرائها وشيوخها.

ومن القبائل المعروفة نذكر على ســبيل المثال: قضــاعة– غطفان – كنانة – مضــــر – الأوس والخزرج – جذام – جهينة – ربيعة – لخم – وأخيراً بنو هلال وبنو ســليم وهما القبيلتان اللتان أثرتا الأدب الشــعبي العربي بالكثير من وقائعهما وحروبهما، وأشــــعار أبطالهما، مما لا تزال تتغنى به الجماهير العربية في سمر الليل في المغرب والمشرق على السواء.

هذا موجز لتاريخ الأمة العربية الواحدة في وطنها العربي الواحد، أضعه أمام المواطن العربي في صـفحات قليلات، يجد تفصـيله الواسـع المسـهب في مجلدات ومجلدات.

ونســـتطيع بعد هذا كله ان نقول بأمانة العلم وصـــدق التاريخ ان هذه الأمـة التي تعيش في زمـاننـا في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ، إنمـا تنتمي إلى الأمة العربية الواحدة، نسباً وحسباً، ونشأة وأصلاً وتاريخاً وحضارة، منذ ســـبعة آلاف عام .. وقليل هي الأمم التي تســـتطيع ان تثبت أصـــالتها وعراقتها، ونشأتها وامتدادها في مثل هذا العمر المديد الطويل.

وأخيراً فإن هنالك حبات صـــغيرة متناثرة في تضـــاعيف هذا التاريخ الطويل، العريض.. إنها أشـــبه بذرات متناثرة مبعثرة عند ســـفوح جبال هملايا الشامخة المتشابكة .

هذه الذرات والحبات ..تتمثل في طوائف من الأرمن والأكراد والســـريان والشـركس تعيش في الوطن العربي وفي صـميم الوطن العربي، بعضـها حديث كالأرمن والشركس، والآخر قديم كالأكراد والسريان.

ولكن ذلك لا ينقص شيئاً من حقيقة الأمة العربية الواحدة، وحدة وقومية .. بل إن القومية العربية بمعناها الأصـيل العريق تشـملهم في إطارها الحضـاري الرحب العريق.

ولسـت اسـتند في هذا إلى العشـرات من الكتاب والمفكرين الذين حددوا مقومات القومية أي قومية .. فنحن لســـنا في حاجة إلى آرائهم ولا تحديداتهم وتعريفاتهم..

لســنا في حاجة إلى ذلك لأن باعث الأمة العربية، وموحد الأمة العربية قد حدد لنا إطار القومية العربية، ومعنى المواطن العربي.

كان ذلك في المســـجد النبوي في المدينة المنورة، حين تســـاءل أحد المواطنين عن عروبة ثلاثة عن أعاجم المسـلمين: سـلمان الفارسـي، وصـهيب الرومي، وبلال الحبشـــي.. فأجاب الرســـول العظيم بما يغني عن كل تعريف.. وكان جوابه خيراً مما كتب الباحثون والدارســـون عبر العصـــور والأجيال.. لقد قال الرســـول العظيم في جوابه "ليســـت العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي باللسـان فمن تكلم العربية فهو عربي"[1].. وبهذه الكلمات القليلات، حدد الرسـول

---

[1] **تاريخ ابن عساكر**، ص 117.

العربي (صـــلى الله عليه وســـلم) الإنســـانية العالمية والقومية العربية بإيجاز وإعجاز، بما لم يقدر عليه أحد، لا من قبل ولا من بعد.

وعلى هذا فليست العروبة ، كما حددها أعظم عربي في هذا الوجود دماً صـافياً ولا نسـباً ثابتاً ولا عرقاً نقياً، ولكنها اللغة العربية بما تملأ صـفحاتها من ذكريـات التـاريخ الواحـد، والآمـال المتكاملـة، والحوافز النفســـيـة المشـــتركـة والخصـــائص القومية المتلاحمة. والتراث الروحي المتســـامي المتنامي .. كل

ذلك في إطار جامع يربط الماضي بالحاضر ويدفع الحاضر إلى المستقبل..

هذه هي الأمة العربية الواحدة، التي نشأت في الماضي المجيد، وتعيش في الحاضر المتحفز. وتتطلع إلى المستقبل القريب، والبعيد البعيد..

العيب كل العيب ..
في الحكام لا في الشعوب

في شـهر كانون الأول (ديسـمبر) من عام 1972 كانت السـماء تمطر على أرض تونس أزهاراً وثماراً، وترسل لأهلها طعاماً شـهياً ورطباً جنياً . . وفي ذلك الوقت بالذات كان الرئيس الحبيب بورقيبة ينتزع من جراب التاريخ حجارة صـماء يقذفها في وجه الوحدة العربية، دون أن يرعى حرمة للعلم الصـحيح، أو يقيم وزناً للتاريخ الحق.

كان ذلك في ندوة خطابية عقدت في العاصـــمة التونســـية في الخامس عشـــر من ذلك الشـــهر، وكان محور الندوة حول الوحدة العربية في ماضـــيها وحاضرها ومستقبلها.

وفي تلك الندوة ألقى الرئيس بورقيبة خطاباً مطولاً تعرض فيه لتاريخ الأمة العربية، وعرض نظرة ســـريعة على أحوال الدول العربية في ظروفها الراهنة، مستعرضاً ما بينها من خلافات، وما بين شعوبها من تناقضات، ومركزاً في تضـــاعيف خطابه على العقبات التي تقف في طريق الوحدة، وأنها لا يمكن تحقيقها إلا بعد "عشرات السنين والقرون"، وهذه كلماته لا كلماتي..

والحق أن خطاب الرئيس بورقيبة قد تميز "بفضـــيلتين" كبيرتين: التعبئة الكاملة، والجســارة الحاســمة .. ذلك أن الرئيس بورقيبة، بالنســبة إلى الفضــيلة الأولى فقد عبأ جميع الشواهد التاريخية والأسانيد الواقعية التي تشن على الوحدة العربية في هذه الحقبة المعاصرة، وبالنسبة للفضيلة الثانية، فإن الرئيس بورقيبة قد عبر عن آرائه بجســـارة واضـــحة، وكانت في الوقت نفســـه تعبيراً عن آراء زملائه ممن لا يملكون جســـارته، فيلوذوا بالموافقة الصـــامتة، أو التغني بالوحدة أمام الجماهير، تزلفا ورياء.. وتلك بعض مهارات الحكم العربي المعاصر!!

والمواطن العربي يعرف، بالفطرة العفوية، أن زملاء الرئيس بورقيبة في الوطن العربي الذين أعنيهم، هم الملوك والرؤســـاء ومن تحتهم من الوزراء وقد أصـــبح هؤلاء جميعاً طبقة محددة يمكن أن توصـــف بأنها طبقة المنتفعين بالإقليمية العربية المتمثلة بالتجزئة والانفصـــال، بديلاً عن الدولة العربية المتحدة حين تقوم على الوطن العربي بأسره، من المحيط إلى الخليج.

والواقع أن الرئيس بورقيبة، وليس لنا أن ننكر جهاده الطويل في سـبيل اسـتقلال تونس، لا يؤمن أصـلاً بالوحدة العربية، وهو يرى أن الوطنية الإقليمية هي حقيقة تاريخية ثابتة، وأن الخلافات العربية، السياسية والعنصرية والمذهبية، لا يمكن معها الوصـول إلى الوحدة العربية، وأن الانتقال الفكري من الوطنية المحلية إلى القومية العربية،وبالتالي إلى الوحدة العربية يحتاج، في تعبيره، "إلى تغيير الأدمغة.. وهذا العمل يتطلب عشرات بل مئات السنين."!!

وواضح أن موضوع "مئات السنين" كفيل بقتل الوحدة العربية إلى الأبد، إذا يكفي أن يصـدق المواطن العربي هذه " الفرضـية" العلمية ، فيسـترخي ويسـتريح، ويترك لمئات السـنين أن تحقق الوحدة العربية، وأنّى لها بعد ذلك أن تتحقق .. ومن يدري فلعل "مئات السـنين" تأتينا بالوحدة العالمية، بديلاً عن الوحدة القومية..

وقد رأيت أن أكرس هذا الفصـل لمناقشـة الرئيس بورقيبة في الآراء التي طرحها .. لا تنديداً بموقفه أو تجريحاً لشـخصـه، ولكن مناقشـة لآراء جميع الإقليميين في الوطن العربي ومن جاراهم من الشـعوبيين أو الأمميين الذين لا يؤمنون بالقومية العربية، ويرون ان العبث كل العبث في العمل من أجل الوحدة العربية.

والواقع أن الرئيس بورقيبة، يمثل في قضـية الوحدة العربية، معسـكر الخصـم كله سـواء في المشـرق العربي أو المغرب العربي معسـكراً في وجه الأحداث القومية العارمة، كما جرى أثناء حرب السويس، وحرب رمضان، ولكنه بعد انحسـار الأحداث يعود ليقف منتصـباً برأسـه، مندلعاً بلسـانه، يندد بالوحدة،

ويفلســـف الانفصـــال "بلغة علمية ولهجة موضـــوعية".. وتحت مظلة "الوحدة المدروسة" في كثير من الأحيان.

ومن هنا، يبدو واضحاً ان مناقشة الرئيس بورقيبة هي مناقشة لمعسكر الخصـــم كله، وأن هزيمته، بالعلم الرصـــين والتاريخ الثابت، هي هزيمة لذلك المعسكر بما يحمل من مواقف التجزئة ومبررات الانفصال.

ومن أجل أن تكون هذه المناقشة عادلة ومنصفة، فلم أكتف بمقتبسات من خطاب الرئيس بورقيبة كما نقلتها وكالات الأنباء، ولكني طلبت من السـفارة التونســية في القاهرة أن تزودني بالنص الرســمي لخطابه، لأقرأه قراءة متدبرة، وأضعه أمامي حين أكتب ما أكتب..

ووصـلني الخطاب منشـوراً بجريدة العمل التونسـية، وعلى رأسـها كتب بالخط العريض "لمؤسس الجريدة الحبيب بورقيبة" وقرأته المرة تلو المرة.. ولست أرى من الإنصـاف أن ألخص آراءه بعباراتي وكلماتي بل بعباراته وكلماته.. وها هي مرتكزاته الأساسية.[1]

يقول الرئيس بورقيبـة.. "أعني بـالوطن، الوطن التونســـي لا الوطن العربي، لأن تونس كانت لها شـخصـيتها منذ الآف السـنين.. وقد عشـنا مع بعضـــنا في نطاق الحدود جيلاً بعد جيل.. الحدود ليســت حديثة من صـــنع الاسـتعمار الفرنسـي والإيطالي.. لقد كانت الحدود موجودة من قبل الاسـتعمار. وانتســـاب الجزائري إلى الجزائر، والتونســـي إلى تونس والليبي إلى ليبيا، كان معروفاً قبل الإسـلام .. وكذلك الشأن بالنسبة إلى مصر فقد كانت وضعية تلك البلاد متميزة عن غيرها في وقت الفراعنة .. والعراق وما أدراك ما العراق، ومن

---

[1] **جريدة العمل التونسية**، تاريخ 1972/12/17.

منكم لا يذكر كلمة الحجاج فيه .. وأضف إلى ذلك سوريا والاختلافات فيها بين المسيحيين والدروز والمسلمين، بين سنيين وشيعة وعلويين .. وما كان العالم العربي يمثل أمة موحدة حتى في عهد النبوة.. وبمجرد أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى نشبت الفتنة بين المهاجرين والانصار، لأجل التفرد بالحكم.. ثم تشتتت صفوف المسلمين إلى فرق مختلفة من علويين وعباسيين وأمويين ثم تشتتت صفوف المسلمين إلى فرق مختلفة من علويين وعباسيين وأمويين وكانت الحروب متوالية .. وفي تونس نفسها التي خدمتها طوال خمسين سنة وسعيت إلى توحيد صفوفها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، رغم خدمة نصف قرن فإن العروشية والقبلية ما زالت بها لها آثار أثناء الانتخابات.. فهؤلاء همامة وأولئك فراشيش، وهذا من السند، والآخر من المرازيق أو من أولاد دياب.. فتونس نفسها محتاجة لتتم عملية الانسجام والامتزاج.. إلى غير ذلك من الحجج التي لها بريق سطحي، وروعة ظاهرية، مثل بريق الندى وروعته، لا يلبث أن يجف حين تمسه الشمس بأشعته النافذة".

ونحن لو بدأنا، أولاً، بموضوع الشخصية المتميزة لرأينا أن الأمر يدعو إلى الوحدة لا إلى الفرقة، فالشخصية المتميزة هي من طبيعة الحياة في عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد، حتى في الأسرة الواحدة من هذه العوالم الأربعة.. فالعائلة الواحدة في عالم الإنسان فيها الطويل والقصير، والاسمر والأشقر، والذكي والغبي، والشجاع والجبان، والسليم والسقيم، ولكن ذلك لا ينفي أنهم من عائلة واحدة، ومن بطن واحد وظهر واحد.. وأسرة الكلاب في عالم الحيوان، فيها شخصيات متمايزة في أفرادها فهي متباينة حجماً وشكلاً وطبيعة، منها كلب الصيد وكلب الحراسة، وكلب الزينة، الكلاب والشهيرة بقص الأثر،

وهي مع هذه الشخصية المتميزة في كل فصيل من فصائلها، تنتمي كلها إلى أسرة واحدة، والورود في عالم النباتات، مختلفة حجماً ولوناً عطراً وشوكاً، وكلها تنتمي إلى أسرة واحدة.. والصخور في عالم الجماد، متباينة صلابة ومرونة وتركيباً ولمعاناً، ولكنها كلها تنتمي إلى أسرة واحدة تجمع بين خصائصها المشتركة.

ولو دققنا على التحديد في المجتمع البشري لوجدنا أن تمايز الشخصية هو ضرورة الحياة ومظهر طبيعي لا سبيل لإنكاره ولا حاجة لاستنكاره، ولا يؤخذ دليلا على التجزئة والفرقة.. فالمجتمع البشري كان وكائن وسيكون مجموعة من الأمم والدول، وفي كل دولة أقاليم.. محافظات مديريات مقاطعات.. وفي كل أقليم مدن، وحول كل مدينة قرى، وفي الدولة ، كوحدة ، آلاف من الأسر والعائلات، وربما من القبائل والعشائر.

وحين نقترب من الصور أكثر فأكثر، فإننا سنجد أن الدولة الواحدة لها شخصية كبرى تميزها عن الدول الأخرى، وأن المحافظة في الدولة الواحدة لها شخصية تميزها عن المحافظات الأخرى، وأن المدينة الواحدة لها شخصية تميزها عن المدن الأخرى، وكذلك الحال بالنسبة إلى القرية ثم بالنسبة إلى الأسرة.

بل إن المدينة الواحدة، ولنأخذ القاهرة مثلاً، تشمل تباينا وتمايزاً في مختلف أحيائها، فنحن نجد فرقاً حضارياً عمره ألف سنة، بين حي الزمالك وحي الأزهر، في العادات والتقاليد والملابس، ولكن ذلك لا ينفي أن القاهرة واحدة، وأن التباين بين أحيائها يحول دون أن تكون العاصمة الواحدة للدولة الواحدة.

والشـــخصـــية المميزة ليســـت قاصـــرة على أقاليم الوطن العربي، فهي موجودة، كانت وسـتظل، في المجتمعات الدولية لا فرق بين متحضـرة ومتطورة وأخرى متخلفة.. ففي فرنسـا مثلاً وهي من أعرق الشـعوب، ولها دولة واحدة، لا متحدة ، يجد المرء تبايناً في مقاطعاتها في الشـــمال والجنوب، في اللهجات والأزياء والعادات والأعياد.. والمذاهب.. ومثل ذلك تجده في باريس العاصـــمة الواحدة حيث يلاحظ التباين في أحيائها وضـــواحيها.. وكل ذلك لا ينفي أن الشعب الفرنسي أمة واحدة، له دولة واحدة، وعاصمة واحدة..

أما من ناحية الأصل والعنصر والعرق، فلا يستطيع فرنسي، عادي أو عبقري، أن يثبت على وجه التحديد أصـــله وفصـــله، أو حســـبه ونســـبه، فعلى الأرض التي تعرف فرنســـا اليوم، اختلطت دماء وعروق، وامتزجت شـــعوب، وانجبلت قبائل، بحيث لم يبق أصـــل ولا عنصـــر، ففي فرنســـا الليفوريون، والرومان، والسـليتون، والنورمانديون، وقد رأينا أن المفكر الفرنسـي "جوبينيو" قد اعتبر الفرنسيين من السلالة الجرمانية، ولهذا الرأي سند قوي في التاريخ!!

ومثل ذلك في الألمان، وهم الذين ابتدعوا نظرية نقاء الدماء وصـــفاء العرق، فإن فيهم الرومان والفرنسيين والصقالبة وعدداً من السلالات الأخرى!!

ثم يأتي، ثانياً، موضـوع الحدود بين الأقطار العربية، وأنها موجودة قبل الاســتعمار، وأن المواطنين العرب قد عاشــوا في نطاق الحدود جيلاً بعد جيل، وأنهم ينتســبون إلى هذه الأقطار قبل الإســلام، وهذه الحجة كســابقتها كأوراق الخريف سـرعان ما تتسـاقط بين يدي الرياح.. فهذه الوقائع التي سـردها الرئيس بورقيبة، هي حقائق من غير شـــك، ولكنها مبتورة عن أصـــولها، ممزقة عن أطرها، منزوعة عن ســـياقها.. ذلك أن الحدود أي حدود، هي ظاهرة طبيعية،

فهي تعريف لهذه الدولة لتفصلها عن تلك، وتمييز لهذا الإقليم أو ذاك، كما هي تعريف بهذه المدينة أو تلك القرية، ولا تعرف هذه الوحدات الإقليمية إلا بحدودها، والحدود كذلك تنظيم للخدمات والواجبات وسائر ما تتطلبه ظروف الحياة، ولذا فإن وجود أقطار عربية متعددة لا ينفي أنها كلها مشمولة في وطن عربي واحد، تماماً مثل تعدد المديريات أو المحافظات والمقاطعات في الدولة الواحدة فذلك لا ينفي أنها دولة واحدة.

ثم إن الأقطار العربية العشرين لا يفترض أن تقوم فيها عشرون دولة بديلا عن الدولة العربية المتحدة، فهذه "الأقطار" هي اسماء ذات تاريخ معروف للذين يعرفون التاريخ. فالشام مثلاً معناها الشمال _ واليمن معناها اليمين_ والحجاز معناها الحاجز بين الشام واليمن، وكذلك "قرطاج" التي أشار إليها الرئيس بورقيبة معناها باليونانية القديمة، "المدينة الجديدة" التي أنشأها الفينيقيون العرب قبل ظهور الإسلام بمئات السنين.

وكذلك فإن الانتساب إلى الأقطار العربية ليس له مدلول قومي عام.. فالانتساب قد يكون إلى الإقليم مثل: التونسي، الحجازي، العراقي، اليماني، الشامي، المصري، النجدي، وقد يكون انتساباً إلى مدينة مثل المقدسي، الفاسي، البغدادي، الصفدي، البصري، الطبري، الإسكندري، الدمياطي، الغزي، الحموي، الحلبي، وقد يكون انتساباً إلى أجداد العرب المشهورين مثل الهاشمي، البكري، الخطابي، الحسيني، الخالدي، الأيوبي، العدناني، ولا تدل هذه الاسماء على نسبته إلى القومية والإقليمية ولكنها مجرد تحديد للتعريف، وللتعريف فقط، واننا لنجد هذه الاسماء في بلد واحد.. فهذه الاسماء بعينها موجودة في القاهرة، وفي تونس العاصمة على السواء.. وقد ذكرت لفظ العاصمة، لأن تونسي تعنى

العاصـــمة، كما تعني الإقليم كله.. وهذا مثل آخر على أن هذه الاســـماء هي للتحديد والتعريف.. إنها اسماء جغرافية إذا شئت، ليس لها مدلول قومي عام.

ثم يأتي: ثالثاً: حكاية وضـــع "مصـــر المتميز عن غيرها منذ عهد الفراعنة"، وموضـوع الفراعنة أصـبح ينطوي على أخطاء شـهيرة شـائعة، تتحمل المناهج المدرسية العربية مسئولية كبرى بشأنها، مع أن الحق فيها واضح وبسيط وحاسم.. فالفراعنة جمع لفرعون وهذا اللفظ، باللغة المصرية القديمة معناه "البيت العظيم او السيد العظيم" وبكلمة بسيطة – السلطان –، فالفراعنة اذن ليسوا شعبا ولا أمة ولاقبيلة ولاحتى أســرة.. ومعناها ســلاطين مصــر، ولذلك فالكلام عن مصـر بأنهم فراعنة كلام لا معنى له إطلاقاً.. فالشـعب المصـري الذي عدده في أيـامنـا هـذه (1975) أربعون مليونـاً، ولا نعرف عـدده قبـل أربعين قرنـاً، ليس فراعنة، لأن الفراعنة هم الســـلاطين فقط.. وهؤلاء حددهم التاريخ بأنهم يؤلفون نحوا من ثلاثين سلالة حاكمة، وقد حكمت السلالة الأولى والثانية من 3200 – 2980 ق.م، وحكمت الســلالة الثلاثون من 379 – 342 قبل الميلاد.. وكانت هذه الســلالات عربية في مجموعها، ومنها دولة الرعاة الذين جاؤوا مصــر من المشرق العربي ويرجعون بأصولهم إلى الجزيرة العربية، ومنهم أسرة الليبيين من القطر المجاور لمصر _ ليبيا_.

ونحن لا نخـالف الرئيس بورقيبـة أن المصـــريين، القـدمـاء منهم والمعاصرين، لهم مميزاتهم الخاصة في حياتهم وأمزجتهم وتقاليدهم ولكن ذلك لا ينفي أن المصريين هم جزء من الأمة العربية الواحدة منذ أقدم عصور التاريخ.. والأمـة الواحدة لا تعني ان تكون "واحدة " في كل جانب من جوانب حياتها.. فنحن لا نعرف أمة على وجه الأرض مصـــنوعة في قالب واحد.. حتى اليونان

والجرمان والفرس وهم من أقدم شـــعوب الأرض، تتمايز أقاليمهم ومدنهم وقراهم الواحدة عن الأخرى، في العادات والتقاليد، وحتى في مواســـم الأفراح والأتراح.. تلك طبيعة الحياة، بل هي تلك سنة الله في خلقه "ولن تجد لسنة الله تبديلا".

أما عروبة مصـــر فهي حقيقة تاريخية قاطعة، وان كان بعض المثقفين من المصـــريين لا يعرفونها، كما لا يعرف مثقفون آخرون عروبة الأقطار التي نشـــأوا فيها.. ولكن هؤلاء وأولئك، قليلا ما يقرأون ويتعلمون، وكثيراً ما يهرفون بما لا يعرفون!!

فالمؤرخ البحاثة– برســتد – وهو من مشــاهير علماء الآثار المصــرية والتاريخ المصــري القديم، يقول "إن جماعات من الليبيين والجالا والصــومال قد اســتوطنوا مصـــر منذ أقدم الأزمنة.. وإن أقواماً ســاميين من غرب آســيا قد اســـتوطنوا كذلك وادي النيل، وعمموا فيه لغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصـــرية القديمة، وإن لغتهم حافظت على ســاميتها بالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف، وإن تاريخ الهجرات السامية الأولى إلى مصر يرجع إلى ما قبل العصـــور التاريخية المعروفة، وإن هذه الهجرات قد تكررت مراراً في العصـــور التالية، وإن الطريق الذي سلكته هو من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الإسلام[1].

ويقول الدكتور حسن كمال، وهو من المؤرخين المحققين، إن السودانيين والمصـــريين هم من أصـــل واحد، وقد جاؤوا إلى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصـــومال، كما تدل البحوث والاســـتقراءات ، ونقل الدكتور كمال عن تيودور الصـــقلي وهو من المؤرخين القدماء قوله: إن المصـــريين القدماء هم من

---

[1] ترجمة حسن كمال، **تاريخ مصر القديمة من أقدم العصور**، ص 17.

بلاد العرب الجنوبية نزلوا شـــواطئ أثيوبيا ثم تقدموا نحو الشـــمال حتى دخلوا مصر.[2]

وجاء في كتاب "الأثر الجليل لسكان وادي النيل" إن أصل المصريين القدماء هو من الجنس الســـامي، وأنهم قد أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس".

ويقول العالم الأثري المعروف أحمد كمال: ان المصـــريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم (بون) كمال كانوا يعتقدون ان أصلهم من تلك البلاد.

ويقول المؤرخ التركي أحمد رفيق ناقلاً عن مصـــادر ألمانية عديدة، إن معظم المتخصصين بتاريخ مصر يقرون أن المصريين القدماء جاؤوا من آسيا الغربية (المشـــرق العربي) منهم من جاء عن طريق باب المندب من الجنوب، ومنهم من جاء عن طريق برزخ الســويس في الشــمال، وان بين لغتهم واللغات السامية في المفردات والصرف والنحو تشابهاً كبيراً[1].

ويقول الأســـتاذ جورجي زيدان، من رواد التاريخ العربي المحدثين "إن الساميين نزحوا إلى مصر منذ عهد قديم جداً، وإن الاكتشافات الأثرية تدل على أن العصر الحديدي قد بدأ بدخول الساميين إلى مصر، وأن أحد الدلائل على ذلك تشطب اسم "فتاح" السامي، وهو أقدم آلهة العرب".[2]

---

[2] **تاريخ السودان القديم**، ص 5-12-45-48.

[1] **التاريخ العام الكبير**، ج 1، ص 55 – 56.

[2] **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص 67.

ويقول العالم الأثري سليم حسن، "إن أهم العناصر التي استوطنت وادي النيل جاءت من شــبه جزيرة العرب، اما عن طريق البحر، أو عن طريق أعالي وادي النيل، أو عن طريق فلسطين فسيناء فالدلتا.. وإن كل المصادر التاريخية تدل على أن الملك (مينا) الذي استمرت البلاد تحت صولجانه من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط هو من هذه العناصر".[3]

وجميع هذه المقتبسات التي تتحدث عن الساميين، إنما تعني العرب فقد أجمع علماء اللغات السامية والباحثون في التاريخ القديم، على أن الساميين هم العرب، والاسمان المرادفان لمسمى واحد، هو الأمة العربية الواحدة، وقد اتفقت كلمة المستشرقين على ذلك، وفي مقدمتهم العالم الألماني سبرانجر.[1]

وقد ســـرد المؤرخ العراقي المعروف جواد علي آراء طائفة كبيرة من المستشرقين وعلماء الساميات حول موضوع نشوء الساميين وهجراتهم ولغتهم وخلص من ذلك كله إلى أن الساميين هم العرب والعرب هم الساميون.[2]

ثم يأتي، رابعاً قول الرئيس بورقيبة ان العالم العربي لم يكن يمثل أمة واحدة حتى في عهد النبوة، مشــيراً إلى اختلاف المهاجرين والأنصـــار بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حول من يتولى الحكم وما نشب بسبب ذلك من الفتن والحروب بين العرب والعرب ..

وهنا لا يمكن الاختلاف مع الرئيس بورقيبة حول هذه الوقائع التاريخية التي سردها .. ولكن .. ولكن هذه الأحداث لا يمكن أن تثبت أنه لم يكن هناك

---

[3] **مصر القديمة**، ص 140 -145.

[1] الأمير مصطفى الشهابي ، **القومية العربية**، ص 21.

[2] جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج 1 ، الفصل الثالث.

أمة عربية واحدة حتى في عهد النبوة .. فالخلافات موجودة، والصـــراع على الحكم موجود، وإلى جانب ذلك فالأمة العربية الواحدة موجودة.. وهذه الصراعات دليل وجودها وحيويتها.. فلم تخلق على وجه الأرض الأمة الواحدة التي لا توجد فيها خلافات وصـــراعات.. ولا نعرف أمة في التاريخ لم تنشـــأ فيها صـــراعات وخلافات وفتن وحروب.. فالحرب والإنسـانية مشـيا في موكب واحد منذ الخليقة إلى يومنا هذا، وكما تكون الحرب بين الأمم بعضـــها مع بعض، فما أكثرها في الأمة الواحدة بين مختلف فئاتها وطوائفها، حتى أن القانون الدولي قد ميز بين الحروب الخـارجيـة والحروب الـداخليـة، ووضـــع لكـل منهمـا قواعـد مقررة.. والحروب الداخلية هي التي تنشـب في داخل الأمة لأسـباب شـتى.. لو أننا قرأنا تاريخ أوروبا لوجدنا أن الحروب الداخلية قد غمرت معظم شـعوبها في عصـور مختلفة، والحرب الداخلية لا تنفي قومية الأمة الواحدة أو تنفي وجودها، ولكنها تنقلها إلى طور آخر في حياتها العامة، وكثيراً ما كان ذلك على حساب المذابح الرهيبة من أبناء الأمة الواحدة، وهي أشـــهر من أن تذكر.. وكما كانت حروب الردة التي وقعت في صـــدر الإســـلام في عهد أبي بكر، وهي ألتي أشـــار إليها الرئيس بورقيبة، حرباً عادلة لتثبت دعائم الأمة وتوطيد وحدتها، فقد كانت الحروب الداخلية كذلك في أمريكا وإيطاليا وألمانيا في القرن التاسع عشر حروباً مقدسـة لإقامة الوحدة القومية في أمريكا وإيطاليا وألمانيا، وكذلك الثورة الفرنسـية فقد أعطت لفرنســـا وللعالم أجمع أرفع معاني الحرية والإخاء والعدل، رغماً عما وقع فيها من أهوال الدماء والدمار..وفي عصـــرنا الذي نعيشـــه شـــهدنا حروباً داخلية بين الأمة الواحدة، في كوريا وفيتنام ولاوس، وكائنة ما كانت الأســـباب والعقائد التي تحركها، فإن تلك الحروب لم تحجب الحقيقة الثابتة، أن المتحاربين

ينتمون إلى أمة واحدة، وأن الخلاف بينهم ليس قائماً على وجود الأمة ، وعلى وحدتها، ولكن على النظام الاجتماعي والســـياســـي الذي يجب أن تقوم عليه الأمة، والوحدة معاً..

ثم يأتي خامساً، الطوائف الدينية، والفرق المذهبية في الأمة العربية .. والواقع الذي يجب أن نكرره هو أن الطوائف والفرق في الأمة العربية أكثر بكثير مما ذكر الرئيس بورقيبة، فنحن نعرف أن الفرق الإســـلامية تتجاوز الســـبعين، والطوائف المســـيحية لا تقل عن ذلك، ومعظم هؤلاء وأولئك موجودون في الأمة العربية. ولكن ذلك لا ينفي أن هذه الأمة واحدة.. والاختلاف الديني سواء كانت جذوره عقائدية او سياسية، ظاهرة طبيعية في المجتمعات البشرية .. وليس على وجه الأرض أمة واحدة لا تحتوي خلافات دينية أو مذهبية، وحتى الأمة ذات الدين الواحد لا تخلو من فرق وطوائف لا يقل الخلاف فيما بينها عما هو قائم بين دين ودين، بل إن طائفة ما تؤثر طائفة من دين آخر، على طائفة أخرى من دينها.. ليس في الوطن العربي فحســـب، بل نجد هذا في أوروبا وأمريكا، حيث الحضـارة بلغت سـدرة المنتهى.. وليسـت الخلافات الدينية وقفاً على الأمة العربيـة انفردت بهـا في تـاريخ طويـل فلا تخلو أمـة من هذه الخلافـات، والأمـة الألمانية فيها الكاثوليك في مقاطعة بافاريا، والبروتســـتانت في بروســـيا، وتحت هذين المذهبين فرق وكنائس متعددة، والأمثلة على ذلك كثيرة في ســـائر الأمم والشعوب، في جميع القارات، وفي جميع العصور والأزمنة..

ثم يأتي، سادساً، موضـوع تعاقب الدول العربية، الأمويون والعباسيون والفاطميون والأيوبيون وسـائر الدول العربية.. وهذه حقائق تاريخية لا سـبيل إلى إنكارها، ولكن الذي ننكره، وينكره معنا الواقع التاريخي أن هذه الحقائق هي جزء

من الحقيقة الكبرى وهي أن الأمة العربية واحدة. وأن تعدد اسماء الدول العربية، لا يعني إطلاقاً أن هذه الدول قد قامت بين أمم متعددة، غريب بعضـــها عن بعض..

وحتى القراءة السـطحية للتاريخ العربي لا تفضـي إلى هذا الاسـتنتاج السـاذج، فهذه الاسـماء هي اسـماء الأسـر المالكة، كما جرى في أوروبا وآسـيا، حيث كانت اسماء الأسرة المالكة لا تنبئ عن اسماء شعوب، وإنما عن الاسماء الشخصية، لأولئك الملوك. فالأمويون أسرة عربية مالكة تنتمي إلى جدها الأعلى أمية، وملكها الأول هو معاوية بن أبي سـفيان (661 م)، وأيضـاً العباسـيون، إنهم ينتمون إلى العباس ابن عم الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم)، وأول ملوكهم أبو العباس السـفاح (750م)، والفاطميون ينتسـبون إلى فاطمة الزهراء، بنت النبي (صـلى الله عليه وسـلم)، وأول ملوكهم المهدي بالله (909م)، والأيوبيون ينتسـبون إلى جدهم أيوب، وأول ملوكهم صـلاح الدين الأيوبي (1169م)، وفي العصر الحديث قامت حكومات عربية عرفت باسماء حكامها، السعودية تنسب إلى مؤسـسـها محمد بن سـعود (1724)، والعلوية نسـبة إلى محمد علي باشـا الكبير (1769 – 1849)، والمملكتان الهاشميتان في العراق والأردن نسـبة إلى فيصـل الأول أول ملك في العراق وعبد الله بن الحسـين أول ملك في الأردن، وهذه ظاهرة عامة في الأسـرة الملكية، سـتزول بزوال النظم الملكية وقيام النظم الجمهورية مكانها، وسـتخلع عليها اسـماء أخرى، لا تمت بصـلة إلى الأفراد والأسرات..

ويأتي بعد ذلك، ســـابعاً: مشـــكلة القبلية، وقد طرحها الرئيس بورقيبة بقصد تعطيل الوحدة: أو تأجيلها لمئات السنين، وهي، كموضوع، مشكلة قائمة في الوطن العربي كله، بل في إفريقيا وآسيا لا في تونس وحدها..

الحياة البدوية بكل تقاليدها هي من مخلفات الماضي السحيق، وتحضير البدو مســتمر في الوطن العربي منذ زمن غير قليل.. وان كان عالم أميركي قد وضـــع أخيراً كتاباً نادى فيه ببقاء المجتمع القبلي إلى جانب مجتمع الحضـــر مشيداً بفوائده وضرورة استمراره.

وكائناً ما كان الأمر فإن النزعات القبلية لا يمكن أن تكون عقبة في سبيل الوحدة، والوحدة الشاملة هي الحل الوحيد لهذه المشكلة، ففي ظل الوحدة الشـــاملة تملك الدولة الواحدة موارد أوفر، وقدرة أكبر على حلها.. بل إن الحياة القبلية هي الفراش الوثير لنزعات الانفصال ومؤامرات التجزئة.

وهذه نيجيريا أمامنا، أكبر مثل على الوحدة.. إنها دولة متخلفة، وشعبها مجموعة من القبائل، مساحتها تقارب مليون كيلومتر مربع، وسكانها يتجاوزون ستين مليون نسمة، وتمثل قبائل الهوسا 18 في المائة، والأيبو 16 في المائة واليوربا 14 في المائة والفولاني 10 في المائة، كما يمثل المسلمون فيها 48 في المائة والمسيحيون 23 في المائة، والباقون لا يعرف لهم دين أو مذهب..[1]

وقد وقعت في نيجيريا فتنة انفصـــالية أدت إلى حرب داخلية بين الحكومة الفدرالية وإقليم بيافرا، ورغماً عن أن أربعاً من الدول الإفريقية قد اعترفت اعترافاً واقعياً بدولة بيافرا، وكذلك فعلت فرنســـا والكنيســـة الكاثوليكية وبريطانيا، إلا أن حرب الوحدة قد استمرت وانتصرت، وعادت بيافرا إلى الدولة

---

[1] **دائرة المعارف البريطانية**، مجلد عام 1972.

الأم نيجيريا.. دون أن تنتظر قروناً عديدة لتحضـــير القبائل وبناء الوحدة من جديد، ونيجيريا تزيد عن تونس أضعافاً مضاعفة أرضاً وبشراً!!

يأتي بعد ذلك، ثامناً، وأخيراً أســـطورة تغيير "أدمغة الشـــعوب لإقامة الوحدة العربية بعد عدة قرون"، وهذه أســـطورة حقاً لأن شـــعوب الأمة العربية بخير، وأدمغتها بألف خير ولا حاجة لتغييرها، وإنما الذي بحاجة إلى تغيير أدمغة الحكام العرب الذين لا يعرفون التاريخ العربي ولا يدركون مضمون الوحدة العربية، فهم يعرفون من التاريخ العربي الحروب، وقيام الأســـر الحاكمة على أنقاض بعضـها البعض.. ويفهمون الوحدة العربية كأنها قطعة من قماش مطرز على أشكال هندسية متماثلة خرجت من المصنع بالامس القريب، دون ان يعلموا ان الامة – أي امة – إنما تتطور في مضمار الحياة مدفوعة بعوامل الاختلاف والتباين، في الافكار والأحاســيس والنوازع والحوافز، وأن تصـــارع ذلك كله هو الذي يصعد بالأمة على سلم التقدم في مختلف جوانب الحياة وفي إطار الوحدة على الدوام..

ونحن لو أننا جمعنا عشــرين مواطناً عربياً من الدول العربية العشــرين ليجلسوا في مقهى أو ناد، لوجدنا عقولهم وضمائرهم تنطلق من أحاسيس واحدة واتجاهات مشـــتركة.. ومثل هذا الجمع يؤلف قمة عربية تمثل الأمة العربية أصدق تمثيل.. على حين لو أننا جمعنا عشرين ملكاً أو رئيساً في حفل واحد، كما يحدث في اجتماعات القمة العربية، لوجدنا أنهم مختلفون عقلاً وضميراً في أمور كثيرة وقمتهم هذه لا تمثل تطلعات الأمة العربية أو ارادتها. وبذلك تكون قمة الملوك والرؤســـاء بعيدة عن تمثيل روح الأمة العربية، ويكون رأس التباين

بين الأمة العربية، وملوكها ورؤســـائها، أن الأمة تؤمن بوحدتها، ولكن الملوك والرؤساء لا يؤمنون.

وإنه من اليسـير أن أحيل المواطن العربي إلى حشـد كبير من تعريفات القوميـة الواحـدة ومقومـاتهـا، كمـا وردت في دائرة المعـارف البريطـانيـة..ودائرة المعـارف الاجتمـاعيـة، أو عنـد العلمـاء، أوربـاخ، وايفـانوف، وزاونجـل، وموير، وتتيشـني، وفيدير، ودوركهايم، وغيرهم كثير، وهم من مفكري القرن التاسـع عشـر الذين ألفوا الكتب المطولـة في القوميـة ومقومـاتهـا، وكـان لمـا كتبوا أثر كبير في نشوء عدد من القوميات في أوروبا.

لا أحيل المواطن العربي إلى أحد من هؤلاء العلماء، ولكني أحيله إلى كاتب عربي عبقري، سبق هؤلاء جميعاً بأحد عشر قرنا، وجاء بتعريف للقومية، أرفع حضارة، وأروع إنسانية، وفاق كل ما قاله العلماء والفلاسفة من بعده.

والعربي العبقري هو الجاحظ (775 – 868) فقد نشـــب خلاف بينه وبين الفتح بن خاقان حول "عروبة" الأمة العربية وتصـنيفها كما فعل النسـابون العرب إلى فريقين: العرب العربـاء، وهم المنتســـبون إلى قحطـان، والعرب المسـتعربة وهم المنتسـبون إلى عدنان، وكان جواب الجاحظ فصـل الخطاب في ابعاد العروبة عن الدماء الصافية والعروق الخاصة فقال: في تعريف العربي:–

"إن العرب لما كانوا أمة واحدة فاسـتووا في التربة، وفي اللغة والشـمائل والهمة، وفي الأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسـجية فسـبكوا سـبكاً واحداً وأفرغوا فراغاً واحداً، وذلك يقوم مقام الولادة والأرحام الماسة".[1]

---

[1] **رسائل الجاحظ**، ص ص6،7. ورسائل الجاحظ نشرها فان فلوتن (ليدن) ص ص5،6.

وهذه كلها هي الخصـــائص المشـــتركة للقومية، والمقومات الأســـاســـية للوحدة، سبكها الجاحظ سبكاً واحدا وأفرغها إفراغاً واحدا، في إيجاز وإعجاز.

وتعريف الجاحظ هذا، لا تبقى معه حاجة إلى تغيير الأدمغة العربية، إنما الذين تحتاج أدمغتهم إلى تغيير فهم الملوك والرؤساء.. بل إنهم هم بأنفسهم يحتاجون إلى التغيير لا عقلاً وضميراً فحسب.. بل بقاء ووجوداً، ورياح التغيير، كالقضاء والقدر، لن تبقي ولن تذر.

قبل الميلاد..

أربعة آلاف عام من الوحدة

نعم .. أربعة آلاف عام من الوحدة العربية، وقبل الميلاد، وإن التاريخ، هو أحكم الحاكمين، بعد رب العالمين..

ذلك أن الوحدة والنزوع إليها، والجهاد في سبيلها، وقيام الدولة العربية الواحدة تجسيد لها، كل ذلك وجدته في التاريخ المليء بالكنوز.. والوحدة أغلى الكنوز وأبقاها على وجه الزمان.

وبعد أن وجدت تلك الكنوز، أصبحت كالفيلسوف اليوناني أصيح في أعماق نفسي "لقد وجدتها".. "لقد وجدتها".. وها أنا أعرض مع المواطن العربي كنوز الوحدة الرائعة التي وجدتها مطمورة تحت ركام من وقائع التاريخ وأحداث الزمان.

والباحثون في التاريخ العربي، كالمنقبين عن الآثار، كل يبحث عن ضالته، فالأدباء والشعراء يبحثون عن روائع النثر والشعر، والفقهاء يجدون في طلب الأصول والفروع في القرآن والسنة والإجماع، والعامة يلهثون وراء القصص الشعبي وسيرة الأبطال، والوحدويون يسيرون في ركاب التاريخ، عصراً بعد عصر ليخرجوا بصورة كاملة عن الوحدة العربية عبر التاريخ.. وأنا كوحدوي من غير فخر ولا تواضع، كلفت منذ شبابي في قراءة التاريخ العربي من زاوية الوحدة العربية.. وما أشرفت على كهولتي حتى وجدتها.. وحقاً وجدتها..

وأنا مع المواطن العربي، في أن تاريخ الأمة العربية مليء بالنكبات والفواجع التي لم يكن لها سبب إلا الفردية الطاغية، والقبلية الجامحة، وهي أخلاق أورثتنا أياها طبيعة الصحراء الضارية الشرسة. وكان ما نعرف من اقتتال الأخوة فيما بينهم، وتناحر الآباء والأبناء بعضهم بعضاً، على أبشع صور الصلب من الأعناق، وسمل العيون، وسحل الأجساد وإحراق الجثث، وإغراق القتلى وخنق الأطفال، وغيره مما تقشعر له صفحات التاريخ.

ولكن هذا التاريخ المظلم قد بدده التاريخ المشـــرق.. بل إن تلك الظلمة هي التي جاءت بالإشراق.. فإن الصراع القبلي والنزعة الفردية والحمية الجاهلية، هي التي أطلقت عزيمة الوحدة، والنضال من أجلها، وإقامة دولة الوحدة، خلاصاً من القبلية والفردية والجاهلية.

وليس هذا حديث الحب، الحب للوحدة، حين يرى المحب في "ليلاه" من المحاسن والمفاتن. ما فيها وما ليس فيها..

أبداً، ليس هذا حديث الحب، ولكنه حديث التاريخ.. ولندخل محراب التاريخ.. ولكن من غير حقد ولا بغضاء، ولا شعوبية عمياء ولا أممية رعناء..

وأول ما يطالعنا به التاريخ أن أقدم كيان وحدوي عرفه الإنســـان، كان في وادي النيل، أحد مواطن العرب العريقة العتيقة. والتاريخ هنا هو ما دونه المؤرخون القدامى وما كشفته الآثار والمقابر والهياكل والأحجار.. وموجز القول أنه قامت في مصر في الألف الرابع قبل الميلاد أربع "دول" في الأقاليم الشمالية والجنوبية، وكان لكل منها إله خاص، وكانت لهذه الدول رموز خاصـــة بها تتألف من النخلة، والبوصـــة والثعبان والنســر، وهذه الدول، برموزها وآلهتها تلك أشبه ما تكون "بدولة المدينة" التي قامت في أقطار أخرى في العالم القديم..

وكان "الشــعب" في هذه الدول الأربع، مؤلفا من الســكان القدامى الذين ينتسـبون إلى لويبي أفريقيا الشـمالية، وإلى آسـيا الغربية (المشـرق العربي) وإلى أهل الجزيرة العربية الذين جاؤوا إلى مصر عبر سيناء.

وإذا كانت ظروف الحياة البدائية قد بررت قيام هذه الدول الأربع في وادي النيل، في ذلك العهد الســـحيق، فقد تقدم الزمن لتتقدم معه النزعة إلى الوحدة، فاتحد كل جارين في دولة واحدة.. وأصـــبحت الدول الأربع دولتين.

وتألف من النخلة والبوصــة دولة، ومن الثعبان والنســر دولة.. وكانت تلك بداية الوحدة..

ووفدت على وادي النيل موجة أخرى من الموجات التي كانت تقذفها الجزيرة العربية إلى مصــر واســتوطنت حيثما طاب لها المقام، في غير عنف، كما يذكر التاريخ[1] شــيمة المواطن العربي، حينما ينزل أهلا ويطأ ســهلاً.. وقد اســتقرت هذه الموجة العربية في مصــر واســتطاعت بمواهبها الفذة أن تقيم دولة ثالثة كان رمزها –كما كشفت الآثار– الصقر.. وكان اختيار الصقر ينم عن قوة تلك الدولة ونزوعها إلى الوحدة.. فتغلبت على الدولتين الاخريين، وقامت دولة الوحدة الأولى في وادي النيل، تحت صولجان واحد، وكان (مينا) أول ملوكها..

وكانت الوحدة هي طابع هذه الدولة، فقد أشارت جميع المراجع التاريخية إلى ذلك العهد من التاريخ المصري بأنه عهد (المملكة المتحدة القديمة الأولى).. ولم تكن هذه الوحدة قصــيرة الأجل بل امتد عمرها ما يزيد على ســبعمائة عام.. فتأمل وتبصر.. (3200 – 2475 ق.م).

وقد تعاقب على حكم المملكة المتحدة ســت أســر، وهو نظام قديم في الحكم لا تزال آثاره باقية إلى اليوم، وكان ملوك هذه الأســـر يلقبون أبناء حور ويتخذون الصقر رمزاً لهم[1].. وواضح ان الاسم عربي والصقر رمز عربي، وقد اتخذته دولة الاتحاد بين مصـــر وســـوريا وليبيا، رمزاً لعلمهما في 1971 بعد خمسين قرنا من الزمان...

---

[1] سليم حسن، **مصر القديمة**، ج1، ص 207، 275، 385.

[1] سليم حسن، **مصر القديمة**، ج1، ص 207، 275، 385.

وقد عكف المؤرخون والأثريون على دراســـة تاريخ هذه الدولة العربية المتحدة، من خلال سيرة ملوكها ونظام الحكم فيها، فانكشفت للأمة العربية حقبة مشرقة من تاريخها العريق، وتجلى للعيان ما تستطيع أن تفعله دولة الوحدة من ازدهار وعمران وحضارة.

وفي المجلد الثاني من كتاب المؤرخ المصري الكبير الدكتور سليم حسن فصــول مســتفيضــة عن حضــارة تلك المملكة المتحدة ومآثرها، فشــرح كيف أصبحت دولة عظمى بسطت سلطانها على الوجهين القبلي والشمالي من وادي النيل ثم تجاوزتا إلى بلاد النوبة في الجنوب، وإلى ســيناء وفلســطين وفينيقية (ســوريا ولبنان) في الشــمال.. وأفاض في ذكر أجهزة الحكومة المتنوعة من قضائية وإدارية ومالية وعسكرية وملاحية وزراعية وصناعية... وأسهب في شرح النواحي الصــناعية وخاصــة صــناعة الحلي والمعادن والأحجار الكريمة وورق البردي والنسيج والنحت والتصوير والنقش وصناعة التماثيل الحجرية والخشبية والمعدنية، وغير ذلك كثير.

وبالإضــافة إلى النشــاطات العلمية والرياضــية والطبية والفلكية والكتابة والآداب والقصــص، فقد كانت لهذه الدولة العربية المتحدة، أســاطيل تمخر في البحر الأبيض المتوســط، وكذلك في البحر الأحمر الذي أطلق عليه المؤرخون "البحر العربي".[1]

وعلى خلاف حال القيود والحدود العربية في القرن العشــرين، فقد كان المواطنون يتمتعون بحرية كاملة في الســفر والإقامة والعمل والتجارة في جميع أرجاء الدولة العربية المتحدة من بلاد النوبة إلى ديار الشام.

---

[1] جواد علي ، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج2، ص 286.

وفي مجال العمران تم في عهد الدولة العربية المتحدة إنشـاء أبي الهول وعدد من الأهرامات التي تعتبر من عجائب الدنيا على مر العصـور والأجيال .

وقد اقتضـى اتسـاع هذه المملكة المترامية الأطراف، في إفريقيا الشـرقية وآسـيا الغربية أن توطد دعائم الأمن وتحمي السـيادة على أراضـيها وتصـون وحدتها الإقليمية، كما نتحدث في لغتنا المعاصرة، ويسرد التاريخ وقائع كثيرة..

ففي عهد (دمر) رابع ملوك الدولة المتحدة، قام هذا الملك بحملة على شـبه جزيرة سـيناء فأعاد الهدوء إلى نصـابه بعد أن قام البدو بغارات الغزو، حسب تقاليدهم المعروفة، ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

وجاء من بعده الملك سـمرخت خامس ملوك الأسـرة الأولى فقام بحملة أخرى على سـيناء فالزم البدو بالطاعة والسـكينة، واسـتخرج النحاس من مناجم سيناء.[2]

وقام خوفو أول ملوك الأسـرة الرابعة بالإغارة على القبائل التي تعرف باسـم بني عوف وكانت تعيث فسـاداً في سـيناء وفلسـطين، وقد عثر على نقش في مناجم الفيروز في سيناء فيه اسمه وخبر حملته.[1]

وجهز الملك سـمورع ثاني ملوك هذه الأسـرة حملة بحرية على سـواحل الشـام، وحقق أسـطوله انتصـاراً كبيراً وفرض سـيطرته على البلاد، كما سـير أسـطولاً إلى البحر الأحمر ومنه إلى خليج عدن، وبلاد اليمن وحضـرموت، المعروفة في الآثار المصرية باسم (بنت).

---

[2] **تاريخ مصر من أقدم العصور**، برستد ، ترجمة حسن كمال، ص 24 – 32.

[1] أحمد كمال، **العقد الثمين**، ص 25 – 28.

وقام بيبي الأول رابع ملوك الأسرة السادسة بحملات عديدة بقيادة قائد اسمه (وني) لرد غزوات وقعت على فلسطين من الشرق، وكانت أشهر المعارك في منطقة "أنف الغزال"، وهو موقع جبل الكرمل عند حيفا، ونحن الذين نعرف هذا الموقع لا نستطيع ان نجد وصفاً له أجمل من "أنف الغزال".

وتعاقبت الأسر الحاكمة فيما بعد على هذه الدولة ، يتنافس الحكام عليها، ومن جملتهم الأسرتان التاسعة والعاشرة، وهما من ليبيا، والأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة من النوبيين [2]، وبذلك تتوافر الشواهد على عروبة هذه الدولة المصرية، يتعاقب على حكمها الليبيون والنوبيون على السواء.

وقد كشفت الآثار أن (حور) هو إله لهاتين الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، شأن العرب السابقين، واستطاع ملوك هاتين الأسرتين أن يوطدوا دعائم الدولة وأن يمدوا سلطانهم إلى فلسطين وسورية وفينيقية في الشمال، وإلى بلاد الشلال لثاني في بلاد النوبة من الجنوب وإلى الصحراء الليبية من الغرب.

وفي هذا العهد ازدهرت التجارة والصناعة والزراعة، وأنشئت بحيرة الفيوم لتنظيم الري، وشيد البناء الضخم العظيم الذي كان يحتوي على 3500 غرفة وقاعة، وهو المعبد الجنائزي.

وقد حكمت هاتان الأسرتان العربيتان قرابة أربعماية عام (2160-1788) ق.م وقد ضمت في كيانها الوحدوي عدة أقطار عربية في الشمال الإفريقي وآسيا الغربية.

وتعاقبت الأسر في الحكم إلى أن جاء عهد الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، وبدأ هنا من جديد عهد آخر تجسد فيه الحكم العربي الوحدوي

---

[2] **مصر القديمة**، ج 1، ص 406 -414.

في مزيد من من الوضـوح والجلاء.. ذلك هو عهد الهكسـوس العربي الذي أمتد ما يزيد على خمسمائة عام (2214– 1703ق.م).

وقد أجمع المؤرخون والأثريون أن الهكســـوس وهم المعروفون كذلك بالشاسو أو دولة الرعاة، هم من العرب، وكان أول دخولهم إلى مصر في أوائل القرن التاسـع عشـر قبل الميلاد، وأخذوا يتكاثرون فلما أشـتد سـاعدهم وثبوا على الحكم.. وهو كالانقلابات العسـكرية التي تحدث في هذه الأيام وفرضـوا حكمهم على الدلتا والوجه البحري ثم امتد إلى مصر الوسطى ثم إلى الوجه القبلي...

وقـد عقـد المؤرخ المحقق جورجي زيـدان فصـــلاً ومطولاً عن هؤلاء الهكسوس سرد فيه أقوال المستشرقين والمؤرخين القدامى والمحدثين، فكشف عن صـفحة مشـرقة في التاريخ العربي، كانت خافية على الكثيرين من العرب وغير العرب.[1]

وقد ثبت على وجه التحقيق، أن هؤلاء الهكســوس او الشــاســو كما يســـميهم قدماء المصـــريين ومؤرخو اليونان هم عرب أقحاح يعرفون بالعمالقة نســـبة إلى جدهم القديم عميلق، وأنهم بعد أن خرجوا من الجزيرة العربية راحوا يتنقلون في سيناء وبادية مصر الشرقية، ويجوسون خلال وادي النيل، في الألف الرابعة قبل الميلاد منذ عهد الملك مينا أول ملك عرف في التاريخ القديم.

ويقول جورجي زيدان إن هذه الجماعات العربية ظلت دهوراً في وادي النيل حتى سنحت لهم الفرصـة فوثبوا على مصـر وملوكها، وأنه فيما يقارب هذه الحقبة استولى العمالقة على الحكم في العراق، وان هذه الحركة في جملتها تمثل نهضة عربية منذ نيف وأربعة آلاف سنة تشبه نهضة العرب في صدر الإسلام.

---

[1] جورجي زيدان، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص 66 وما بعدها.

ويذكر مؤرخو اليونان أن هؤلاء العمالقة قد بنوا عاصـــمة جديدة لهم – افاريس– بجوار بحيرة المنزلة (مصر) وكانت الحامية فيها مؤلفة من 240 ألفاً.

وإلى جانب مدونات المؤرخين فقد أثبتت الآثار المصرية أن الهكسوس عرب قدموا من البلاد العربية قديماً، وأنهم كانوا على جانب من الحضـارة، وأنهم جلبوا معهم الخيل والمركبات، ولم تكن معروفة في وادي النيل من قبل.

ثم خلص المؤرخون إلى القول بـأن هؤلاء العمـالقـة جـاءوا في القرن الأربعين أو الخمســين قبل الميلاد إلى بوادي الشــام والعراق وســيناء ومصــر، فســـكن بعضـــهم المدن، وظل البعض الآخر في حالة البداوة حتى أتيح لهم الاسـتيلاء على العراق في القرن الخامس والعشـرين، ثم مصـر في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وهكذا كان حكم العمالقة من وادي النيل إلى وادي الفرات حكماً عربياً وحدوياً.. وكان هذا العمل العملاق جديراً بأولئك العمالقة.

وفي عهد هذا الحكم اتســـع نطاق التجارة بين البلاد العربية، ووفد كثير من أهل الشام على مصر فاستقروا ودخلوا في الجيش ومختلف مصالح الحكومة والأعمال الحرة[1] وليس هذا قائماً اليوم بين البلاد العربية بعد ســـتين قرناً من ذلك العهد الزاهر !!

وإذا ذكر عهد الهكســوس العربي في مصـــر.. كان علينا أن نذكر أن شـــكـل أبي الهول المجنح هو من مبتكراتهم[2].. وذلـك فخر للأمـة العربيـة جمعاء.. ولتلك الدولة العربية الوحدوية..

---

[1] تشارويم ، **الكافي**، ج 1 ، ص 60، 67، 80، 119، 156.

[2] أحمد كمال ، **العقد الثمين**، ص 74، 80، 155.

وجاءت بعد ذلك صـــفحة رائعة في التاريخ العربي الوحدوي، أعظم إشراقاً وسناء، وكان ذلك في عهد الأسرة الثامنة عشرة التي حكمت قرابة مائتين وخمسين عاماً (1580 –1340) ق.م ففي ظل هذه الأسرة اتسع نطاق الوحدة العربية وامتدت أرجاؤها من حوض دجلة والفرات شـــمالاً، بما في ذلك العراق وجزيرة الفرات وبلاد الشـام – إلى الشـلال الرابع في بلاد النوبة جنوباً، أضـف إليها الصحراء الليبية الغربية، وبلاد اليمن وحضرموت.. وكانت تلك أوسع رقعة شملتها الوحدة العربية قبل الإسلام.

وكان لهذه الدولة الوحدوية جيش كبير مجهز بأحســـن ما تجهز به الجيوش في ذلك العهد، ولم يكن هذا فحسب بل كان لهذه الدولة حضارة رفيعة، فقد أنشأ ملوكها منشآت ضخمة رائعة دينية وغير دينية في مختلف أنحاء البلاد وخارجها، مما لا يزال يثير إعجاب العالم أجمع، ويعتبر من روائع الحضـــارة الإنسـانية، من ذلك المعابد والمقابر والهياكل في الكرنك والأقصـر، مضـافاً إلى التقدم العلمي في الطب والرياضة والفلك إلى جانب مختلف فنون النقش والرسم والزخرف، وبهذا لم تكن تلك الدولة الوحدوية مجرد فتوحات في البلاد بل كانت فتحاً في مجالات الحضارة والمعرفة الإنسانية.

ومما يذكره التاريخ عن عهد هذه الأســـرة أن جماعات من الكنعانيين (العرب) كانت منازلهم في فلسـطين وشـرق الأردن والشـام وفدوا على مصـر وســـكنوا في منطقة أبي الهول وأطلقوا اســـم إلههم "برحور" على أبي الهول واعتبروه رمزاً لهم، وتطورت كلمة "برحور" مع الزمن فصـــارت "أبو الهول".. ولكن الآلاف من العرب الـذي يزورون (أبو الهول) لا يعرفون هـذا المعنى الوحدوي و(أبو الهول) من طبعه أنه لا يتكلم!!

وقد تمكن تحتمس الأول (1530 ق.م) ثالث ملوك هذه الأســـرة أن يبسط سلطان الدولة على السودان، حتى الشلال الرابع، وعلى بلاد الشام حتى نهر الفرات، ثم قامت حركات انفصـالية في المشـرق العربي في عهد تحتمس الثالث (1501 – 1447ق.م) وبلغ عدد الأمراء في ديار الشـــام 330 أميراً، فنازلهم في معركة مجدو الشـــهيرة في أرض فلســطين والحق بهم هزيمة كبرى وغنم غنائم وفيرة[1].

وقد أســـهب المؤرخ المحقق (برســـتد) في وصـــف أنباء هذه المعركة التاريخية، وأشـــاد بمزايا تحتمس الثالث الحربية، باعتباره أول رجل في التاريخ أسـس إمبراطورية حقيقية وأقدم بطل معروف على الأرض، واسـتحق بحق لقب نابليون الشـرق، كما وصـفه مؤرخو الغرب الذين عكفوا على دراسـة تلك الحقبة التاريخية المجيدة...

وقد شـملت هذه الإمبراطورية العربية القديمة، شـواطئ ليبيا، وهضـاب الصومال، وشلالات النيل العليا، وسوريا، وأعالي الفرات، وجزائر البحر الأبيض المتوسط.

"ونابليون" العربي هذا أقام دولة الوحدة على أحسـن الأسـس العسـكرية والسـياسـية، فقد عين نائباً عنه في المشرق العربي، وجعل غزة المركز الرئيسـي للإدارة، وكـان مبعوثو الملـك يســـافرون إلى جميع تلـك البلاد لربط أطراف الإمبراطورية.. وكان ناقلو البريد يحملونه إلى مئات الأميال بعيداً عن مصـــر وهم آمنون على أنفســهم، وكان يســتقدم أبناء أمراء الشـــام إلى مصـــر يعلمهم ويدربهم حتى يديروا الحكم في بلادهم خلفاً لآبائهم.

---

[1] **تاريخ مصر إلى الفتح الفارسي**، ص 192.

وكان (تحوتي) فاتح مدينة يافا (فلســطين) في عهد نابليون العربي أول حاكم لسوريا، وكان يلقب "حاكم البلاد الشمالية" وهو تعبير أعيد إلى الحياة بعد خمســـة آلاف ســـنة، حينما قامت الجمهورية العربية المتحدة في عام 1958 وسميت سوريا "بالإقليم الشمالي".

ومن أشـــهر ملوك هذه الأســـرة رعمســـيس الثاني الذي جرد حملات عســـكرية متعددة على المشـــرق العربي لتوطيد دعائم الوحدة، وإعادة الأمن والنظام إلى ربوع البلاد، وقد سجل بعض الأخبار عن انتصاراته على لوحة عند نهر الكلب، في الشمال من بيروت، العاصمة اللبنانية، وقد قام بحملات مماثلة في بلاد النوبة وليبية ووطد سلطان دولة الوحدة على كافة الأرجاء.

وذكر المؤرخ الكبير برستد أنه في عهد رعمسيس الثاني قويت الصلات بين مصـــر والشـــام، وكانت القوافل التجارية تغدو وتروح بكثرة فاقت ما كانت عليه في أيام الأسرة السابقة.. وأن الأثاث السوري الجميل قد امتلأت به قصور الأعيان في مصـــر، وقام في (منف) عاصـــمة الدولة حي خاص بالتجار السوريين، وازداد الاختلاط بين السوريين والمصريين في القاهرة وكان لهم شأن عظيم في البلاط الملكي ودواوين الدولة، وأن الملك رعمســـيس قد زوج أبنه من بنت ضابط بحري سوري اسمه أبن أنات[1] وبهذا لم تكن الوحدة شعاراً ودستوراً، وعيدا ونشيداً، كما هي اليوم، ولكنها كانت وطناً واحداً ودولة واحدة.

وقد تعرضت هذه الدولة في عهد أحد ملوكها رعمسيس الثالث (1198-1167 ق.م) إلى هجمات على سواحل سوريا ومصر من قبل الايجيين (بحر إيجه في البحر الأبيض المتوسط)، فنهض إلى صدهم في معركة برية وبحرية

---

[1] **تاريخ مصر القديمة من أقدم العصور**، ترجمة حسن كمال، ص 67 وما بعدها.

شهيرة، وقد ظهر في الآثار المصرية مشهد من الصور الناتئة تمثل صوراً لهذه المعركة التي جرت على الساحل السوري.. وهي أول معركة بحرية مصورة عرفت في التاريخ العالمي، وقد ظهرت فيها كل الحركات الحربية التي جرت خلال المعركة بشكل رائع.[1]

ويمضي التاريخ بعد ذلك يستعرض تاريخ الأسر المتعاقبة حتى يصل بنا إلى الأسرة الثانية والعشرين فإذا بنا أمام ملك اسمه (شيشق) ينحدر من أصل شامي أو عراقي، قدم أهله إلى مصر في زمن الأسرة العشرين، وقد امتد حكم هذه الأسرة نحوا من مائتي عام (940 – 720ق.م)[3] .

ويذهب مؤرخ آخر إلى أن رأس هذه الأسرة هو ليبي الأصل من الجماعات التي استوطنت في مصر واستقرت فيها في زمن الأسرتين التاسعة عشرة والثامنة عشرة.[3]

وأيا كان هو الصواب، سواء كان أصل الأسرة شامياً أو عراقياً أو ليبياً، فهو عربي في هذه الاحتمالات الثلاثة، وتكون الوحدة في ذلك قد بلغت الذروة في عراقتها: حاكم عربي في الدولة العربية الواحدة، كائناً ما كان أصله ونشأته في الوطن العربي.

وقد قامت هذه الدولة العربية الواحدة، في عهد ملكها البطل (شيشق) بحملة كبرى على فلسطين، وفرض سلطانه على اليهود في فلسطين، وقد عرفت أخبار هذه الغزوة من نقوش وجدت على بوابة معبد في طيبة (الأقصر).. وهذا

---

[1] أحمد كمال، **العقد الثمين**، ص 152، 153.

[2] تاريخ مصر إلى الفتح الفارسي، ص323–324.

[3] سليم حسن، **مصر القديمة**، ح 9، ص 75 وما بعدها.

ما عجزت عنه الدول العربية العشــرون في هذا الزمان.. ولا ســبب لهذا العجز إلا أنهم عشرون..

ثم ينقلنا التاريخ إلى الأســرات الثالثة والعشــرين، والرابعة والعشــرين والخامسة والعشرين، فإذا بآثارهم وإشاراتهم تنبئ أن معظمهم ليبيون[1].

وثبت مرة أخرى ان المواطن العربي، يمكنه أن يحكم حيث يستطيع في الوطن العربي من غير تفرقة ولا تمييز.

وتقول دائرة المعارف البريطانية إن كثيراً من الليبيين كانوا يقيمون في مصر، وإن عددا كبيراً منهم كان يخدم في الجيش، وإن قادتهم كانوا يسكنون في المدن، وقد جمعوا ثروات طائلة، وإنهم اســتولوا على الحكم من غير مقاومة تذكر، شأن المواطن في وطنه وبين ظهراني أمته.

إلى هنا فقد رأينا دولة الوحدة العربية تبدأ وتنمو وتتســع في وادي النيل وتمد سلطانها من أطراف ليبيا إلى بلاد الرافدين شاملة فلسطين وسورية وشرق الأردن، واليمن وحضــرموت.. ولكن الوحدة أملا وطموحاً، كياناً ودولة لم تكن قاصــرة على وادي النيل، فقد لعبت ديار الشــام والعراق دورها في هذا الميدان المقدس، وليس علينا إلا أن نقرأ التاريخ بشــيء من الروية، فلا نضــجر من العودة إلى الماضي السحيق، فان فيه حوافز الماضي والمستقبل معاً..

ويحدثنا التاريخ أن التطور الإنساني في بلاد الرافدين قد بدأ على النسق نفســه الذي تم في وادي النيل، وفي حقبة تاريخية متقاربة، فقد كان للموجة العربية من الجزيرة العربية في القرن الرابع قبل الميلاد، رافدان، اتجه أحدهما نحو مصر، والآخر نحو العراق.

---

[1] سليم حسن، **مصر القديمة**، جزء 9،ص 393 – 452.

وبدأت الحياة في العراق كما بدأت في مصر: مئات من المشيخات أو الممالك الصغيرة، تتصارع فيما بينها، إلى أن تم توحيد البلاد على يد سرحون الأول (3800 ق.م) ومعناه الرئيس المختار، واتسع سلطانه هو وأبناؤه فامتدت الدولة من بلاد الفرس في الشرق إلى البحر الأبيض المتوسط وجزيرة سيناء في الغرب، وعرفت هذه الدولة بالآشوريين نسبة إلى عاصمتها آشور، وقد بلغت هذه الدولة الوحدوية ذروة مجدها في القرنيين الثامن والسابع عشر قبل الميلاد، حين وطدت سلطانها على المشرق العربي بكامله.

ويرى بعض المؤرخين أن سرجون، رأس هذه الدولة، ينحدر من قبيلة عربية أصلها من اليمن، وقال آخرون إنها من نجد.

وكان من أقوى ملوكها تفلات الأول (1117 – 1080) الذي قام بحملات على ديار الشام، فأخضع ملوكها وأمراءها، واقترب من حدود وادي النيل، فلم يسع فرعون مصر وهو مؤسس الأسرة الحادية والعشرين المصرية إلا أن يخضع له من غير قتال، فقد ضعف الحكم العربي في وادي النيل في عهد تلك الأسرة، وبذلك قامت وحدة عربية كاملة شاملة من وادي الرافدين إلى وادي النيل في هذه الحقبة، كما قامت قبل ذلك من وادي النيل إلى وادي الرافدين، فليس المهم في الوحدة أن تبدأ من بغداد أو من القاهرة.. المهم أن تبدأ الوحدة من حيث تبدأ

وفي القرن التاسع قبل الميلاد، تفسخ الكيان العربي في ديار الشام مرة ثانية، وقامت فيها ممالك وإمارات ومشيخات، وقد وقع عبء التوحيد على كاهل شلمنصر الثالث ملك آشور، فقد قاد هذا الملك حملة عسكرية على ملك دمشق

وحلفائه الذين بلغ عددهم أثني عشر ملكاً، ومعهم أمراء الفينيقيين "وجندب" ملك العرب، كما كشفت عن اسمه إحدى الكتابات الأثرية.

وقد وقعت هذه المعركة عند مدينة قرقر شمال حماة (سوريا) في عام 853 ق.م، وانتصر فيها الملك شلمنصر على ملوك وأمراء الشام وأنزل بهم خسائر فادحة، وبذلك انتصرت الوحدة على الانفصال وزال الملوك والممالك، والأمراء والإمارات..

وفي القرن الثامن قبل الميلاد قامت تحركات واضطرابات في أعالي الحجاز، فنهض الملك سرجون الثاني (722 – 705 ق.م) لتوطيد دعائم الوحدة، فأوغل في الجزيرة العربية وأخضع من فيها من الملوك والأمراء، وقد وجدت " قرميدة أثرية" ذكرت فتوح هذا الملك في مصر والشام، وجاء فيها قوله "ووضعت الجزية على فرعون مصر، وشمسية ملكة العرب، وأخذت حاصلات الذهب من جبالهم.. إن قبائل العرب من سكان البادية، كل هذه الأسر قد غلبتها باسم أشور الهي"..[1].

وفي القرن التالي، قام الملك أسرحدوت (681 – 668 ق.م) بما قام به أسلافه ووطد سلطان الآشوريين على بلاد الرافدين ووادي النيل، وقد كشفت الآثار عن فتوحاته، مع تفصيل كامل باسماء المدن التي فتحها، والملوك الذين انتصر عليهم، ومنها صورة لملك مصر وهو أسير، وبلغت فتوحاته بلاد العرب[2]، وبهذا أصبحت الجزيرة العربية والشام والعراق في نطاق الدولة الوحدوية الواحدة..

---

[1] جورجي زيدان ، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص 112.

[2] المصدر نفسه ص 112.

ووقعت في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد أحداث تاريخية خطيرة كانت لها دلالتها على أصـــالة الوحدة وعراقتها في الأمة العربية، وخاصـــة في غمرة الأزمات، ففي تلك الحقبة اجتاحت وادي النيل غزوة من الجنوب وأقامت حكمها في البلاد، متمثلا بما يعرف بالتاريخ المصـــري القديم بملوك الأســرة الأثيوبية، وهنا بدأت معارك الوحدة لصد هذا العدوان..

ووقع العبء الأكبر على الدولة العربية (الآشـــورية) فتصـــدت لملوك الأثيوبيين وامتد الصـراع أعواماً طويلة كانت الحرب فيها سـجالاً، وفي النهاية تم النصـر للآشـوريين على يد بانيبال الآشـوري (627 – 608 ق.م) [1]، وانهزمت الأسرة الأثيوبية وانتهى حكمها على البلاد.. ونصب الأشوريون (بسماتيك) ملكاً على مصـر، تحت سـيادتهم، وامتد الملك في ذريته وعرفت بالأسـرة السـادسـة والعشـرين التي اسـتمرت في الحكم حتى عام 535 ق.م.. وبهذا أثبتت الوحدة العربية وجودها الأصـــيل في دفع العدوان عن الوطن العربي، وتثبيت الحكم العربي في مصر.

ومما يجب التنبيه إليه أن دور العراق في تلك الحقبة التاريخية لم يكن قاصـراً على الغزوات والفتوح في مصـر والشـام وغيرهما من البلاد العربية، فقد كانت الأمة العربية في وادي الرافدين تنشـيء حضـارة رائعة كما كانت تفعل في وادي النيل، وقد اختلف الأثريون أيهما كان أســـبق عهداً، وأيهما كان امتداداً للأخر.. ولكن الذي لا خلاف عليه أن هذه الحضارة العربية القديمة في الواديين قد أعطت العالم الأســـس التي قامت عليها الحضـــارة الغربية التي تنعم الدنيا بإنجازاتها الكبرى ، في هذه الأيام..

---

[1] دائرة المعارف البريطانية، مجلد 8 ص 6.

وعلينا أن نذكر، ونحن نشير إلى حضارة وادي الرافدين، معلماً عظيماً، وفاتحاً كبيراً هو حمورابي (2123 – 2081 ق.م) فقد أعطى العالم شـــريعة مفصلة تقع في 282 مادة تتناول سائر مناحي الحياة، وعثروا على نسخة منها في بلاد السوس..

ومما يؤثر عن مبلغ التقدم في تلك الحقبة، أنه اكتشـــف في آثار زيبارا أنقاض مدرســـة لتعليم الأطفال، وفيها قرميدات عليها دروس للأطفال في الحساب والهجاء وجداول الضرب[1]، وبهذا تكون الأمة العربية قد سبقت العالم بأسره بإنشاء هذا النوع المختص من مدارس الأطفال.

وفي ذلك العهد، كذلك كانت المرأة متمتعة بحريتها واســـتقلالها وكان النســـاء يتعاطين المهن التعليمية، وانخرطت جماعة منهن في خدمة الدواوين والمصالح الحكومية...

كان ذلك كله، منذ أربعة آلاف عام، وعلى يد دولة عربية، هي دولة حمورابي، قامت كل الدلائل الأثرية واللغوية والتاريخية على عروبتها الخالصـــة بما في ذلك تحقيقات المستشرقين بلا استثناء[2]. فلم تكن دولة وحدة فحسب، بل كانت دولة الحضارة والشرائع..

وفي القرن السادس قبل الميلاد وقع الوطن العربي تحت الحكم الفارسي، وتلاه حكم اليونان، ومن ثم حكم الرومان، ولكن هذا الاحتلال الأجنبي للوطن

---

[1] جورجي زيدان، ص 62.

[2] المصدر نفسه ص 64 وما بعدها.

العربي لم يمض ســاكناً هادئاً، فقد قامت الأمة العربية بوثبات تحريرية للتخلص من نير الحكم الأجنبي ولإعادة الوحدة من جديد.

وقد شــاء القدر أن تنطلق أبرز هذه الحركات التحريرية، من تدمر وهي مدينة عربية قديمة واقعة في أطراف البادية التي تفصــل الشــام عن العراق..، وتبعد 50 ميلاً إلى الشــمال الشــرقي من دمشــق، وكانت قد دخلت في نطاق الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني بعد الميلاد، شأن أجزاء أخرى في الوطن العربي.

ورغماً عن ذلك فقد كانت تدمر تتمتع باســتقلال ذاتي كبير، وتحكمها أســرة عربية، وكان من أبرز رجالها أذينة بن حيران، وقد امتدت ســلطته على ديار الشام وما يليها.. وأخذ يستأثر بالسيادة عن روما، ويتصدى للفرس لدفعهم عن البلاد، حتى أصبح يلقب ملك الملوك.

وفي ذروة هذا المجد الأمثل، مات أذينة مقتولا وهو في حمص (سوريا) ولعل روما، كما يذكر بعض المؤرخين، هي التي دبرت مقتله.

وآل الأمر بعده إلى زوجته زينب، الزباء أو زنوبيا، وهي من أسرة عربية معروفة وكانت على جانب عظيم من الذكاء و والشجاعة والمقدرة، وكانت تتكلم الآرامية والقبطية واليونانية، وانطلقت بعزيمة فذة تعيد الســيادة العربية إلى الأقطار العربية، فرفرفت أعلامها في مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى إلى أنقرة، وأصبحت تعرف بملكة الشرق، وتحدت روما التي كانت أكبر عاصمة في ذلك الزمان..

وهكذا دخلت مصر في حوزة مملكة تدمر في القرن الثالث بعد الميلاد، لتتألق الوحدة العربية من جديد، منطلقة هذه المرة من قلب بادية الشــام كما

انطلقت قبل ذلك بقرون من وادي النيل ووادي الرافدين، وتوغل جيشها في أرجاء مصـــر وفتح الإســكندرية وكانت أعظم مدن الإمبراطورية الرومانية بعد روما، ونادت الملكة زينب بابنها ملكاً على مصــر، وضــربت المســكوكات خالية من رأس الإمبراطور الروماني، كما كانت العادة حتى ذلك العهد، فكان ذلك مظهراً من مظاهر التحرير والوحدة..

وكذلك فقد كانت تدمر المدينة، بمبانيها الرائعة وهياكلها الفخيمة والأعمدة الضخمة الراسية في شوارعها وساحاتها، تنطق بالوحدة العربية، ذلك أن حجارتها التي اســتخدمت في مبانيها كانت من الغرانيت نقلت من الشـــلال الأول في مصر، وهي مسافة تزيد عن الف ميل[1].

هذه ســيرة أربعة آلاف عام من تاريخ الأمة العربية قبل الميلاد، كانت المســيرة خلالها على درب الوحدة العربية، كياناً ونظاماً ودولة، تشــمل الوطن العربي بأسره منطلقة مرة من وادي النيل، ومرة أخرى من وادي الرافدين، ثم من جوف بادية الشــام.. فعواصــم الوحدة تنقل من بلد إلى بلد، ولكن الوحدة تظل باقية هي هي... وتحت أعلامها تعيش الأمة العربية...

وقد بقي علينا أن نتابع مســيرة الوحدة قرابة الفي عام بعد الميلاد لنرى أمامنا موكباً كاملاً مشـــى في ركاب التاريخ ســبعة آلاف عام من غير كلل ولا ملل.

وقد يقول قائل إن هذه الوحدة العربية كانت وليدة الحروب والغزوات قادها رجال ونســـاء امتلأت صـــدورهم بالطموح.. طموح الأبطال.. وليس هذا القول في حاجة إلى جواب طويل.. فالوحدة في كل من إيطاليا وألمانيا وأمريكا

---

[1] الدكتور حتي، **تاريخ العرب** ، ص 100.

قامت في القرن التاسع عشر بعد الميلاد، وبالحرب قامت .. وهي حرب مقدسة وعادلة ...

ولقد شغل العالم ثلاثة أعوام بالحرب الداخلية في نيجيريا، أكبر دولة في أفريقيا، فقد كانت حرباً عادلة ومقدسة لتوطيد الوحدة ودحر الانفصال، وكذلك فإن الحرب لتوحيد الأمة العربية، إذا تيسرت، ولم تتيسر أسباب أخرى، فإنها حرب عادلة ومقدسة...

أما الطموح، فقد كان ولا يزال أنبل حافز لدفع مسيرة التاريخ إلى الأمام، ودائماً إلى الأمام، وفي سبيل الوحدة، فإن طموح الرجال هو أنبل القيم الروحية في حياة الرجال..

والتاريخ يتطلع إلى أجيالنا الصاعدة والوافدة، وهو يبحث عن طموح الرجال، يبنون الوحدة العربية من جديد.

الوحدة العربية من المدينة المنورة إلى دمشق

في القرن الســـابع بعد الميلاد، عادت الوحدة العربية من جديد لتمتد ثلاثة عشـــر قرنا، وكانت امتداداً للدولة العربية الوحدوية التي قامت قبل ذلك على مدى أربعين قرناً من الزمان، في وادي النيل، وحوض الرافدين وديار الشام.

وتمثلت هذه الوحدة العربية الجديدة في دولة عربية كبرى امتدت في الوطن العربي كله، من البصــرة إلى طنجة، أو كما نحدده في هذا العصــر من المحيط إلى الخليج.

وقامت تلك الدولة العربية الواحدة في غمرة ملحمة تاريخية مجيدة كانت بحق فصلاً رائعاً من فصول الحياة الإنسانية.

وروى التاريخ للأجيال كلها كيف قامت الدولة العربية الواحدة وما قدمت للحضارة العالمية من علم وفن، وتقدم وعمران...

وموجز التاريخ، أن القرن السادس قبل الميلاد، قد شهد الحكم العربي في وادي الرافدين، وديار الشام، ووادي النيل وهو يتفكك شيئا فشيئا، ويضعف رويداً رويدا ليقع تحت السيطرة الأجنبية ، فإن الضعف السياسي والاجتماعي أنّى كان وفي أي عصر وجد لا بد أن يغري الدول المجاورة بالغزو والاحتلال.

وكانت دولة الفرس، أولى الدول المجاورة في المشرق العربي وثوبا على الوطن العربي، ففي عهد الملك كورش قضى الفرس على الدولة البابلية العربية (538 ق.م)، وخلفه من بعده ولده الملك قمبيز، فامتدت غزواته حتى بلغت مصر بعد بضع عشرة سنة (525 ق.م).

وجاءت بعد ذلك حملة الاسكندر المقدوني (عام 333 ق.م) فاستولى على بلاد الأناضول، ومنها زحف على ديار الشام، ووادي النيل، واتجه بعد ذلك إلى وادي الرافدين، وزالت عن الوطن العربي دولة الفرس لتحل محلها دولة اليونان.

وبعد وفاة الاسكندر قامت في مصر دولة البطالسة، نسبة إلى بطليموس من كبار قواده، وامتد هذا الحكم الأجنبي إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد (312 – 30 ق.م).

وبعد اليونـان، اســـتولـت الـدولـة البيزنطيـة على البلاد العربيـة، وهم المعروفون في التاريخ العربي بالروم، وامتد حكمهم إلى أواسط القرن السابع بعد الميلاد.

وخلال هذه الحقبة، كذلك، قام الأحباش بغزوات على الجزيرة العربية وبهذا تعاقب على الوطن العربي عدوان أجنبي رباعي: الفارســـي اليونـاني الروماني الحبشـــي في فترات متعاقبة، وفي هذا القطر من الوطن العربي أو ذاك..

وإنه لصـحيح أن هذا الحكم الأجنبي قد امتد قرابة اثني عشـر قرناً، إلا ان الأمة العربية بقيت مســتقرة في وطنها، بلغتها وتقاليدها وحياتها الاجتماعية، ووجودها القومي، ولم تترك اللغات الأربع لهؤلاء الغزاة الأربعة على مدى الف ومايتي عام، أكثر من ألف ومائتي كلمة فارسية أو يونانية أو إيطالية أو حبشية في اللغة العربية على أكثر تقدير.. وقد تم حصـــر هذه المفردات الأجنبية في المراجع اللغوية.

وكذلك فإن هذه الحقبة الطويلة لم تمر هادئة ســـاكنة، فقد قامت في الوطن العربي حركات ثورية تستهدف تحرير الأمة العربية من السلطان الأجنبي والعودة إلى الوحدة العربية.

ففي مصـر، كان أول من قاد حركة تحريرية ضـد الحكم الفارسـي زعيم عربي اسـمه خبيش (486 ق.م) من ذرية الأسـرة الحاكمة المصـرية، فأعاد السـيادة العربية على مصـر مغتنماً فرصـة الصـراع بين الفرس واليونان.. وجاء بعده أمير عربي آخر اسـمه أنياروس من الأسـرة نفسـها، فاسـتولى على الحكم وطرد الحاميات الفارسية، ونهض الشعب معه في هذه الحركة التحريرية..

وبعد ذلك قام زعيم آخر اسمه امرتيوس فقاد انتفاضة شعبية ضد الحكم الفارسي وبايعه الشعب ملكاً، وكان هذا الزعيم من إحدى مدن الدلتا حيث يتكاثر العنصر العربي.. وبرز زعيم آخر اسمه نفرتيس (400 ق.م) واستطاع أن يفرض سلطاته على مصر وامتد حكم أسرته عشرين عاماً وهي أسرة عربية من الدلتا، وقد تحالف مع القيروان لضمان حكمه فتجلى التضامن العربي في مقاومة الاحتلال الأجنبي.. وتصدى زعيم آخر لمقاومة الاحتلال الفارسي من سمنود، إحدى مدن الدلتا (382 ق.م) اسمه "بخت حورحب" وقد جرد الفرس عليه حملة لقمع حركته فسارع إلى لقائها وتمكن من هزيمتها قبل أن تطأ أرض مصر، واستمرت هذه الثورات التحريرية إلى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد حين قام الاسكندر الكبير بحملته المعروفة على الفرس...[1]

وكان ذلك موجز الحركات التحريرية التي قامت في مصر ضد الحكم الفارسي، ولم يكن العرب في المشرق العربي أقل نهضة في مقاومة الاحتلال الفارسي، ويقول المؤرخون إن العرب "قد شقوا عصا الطاعة على الفرس وطمعوا في الخروج إلى بلاد فارس من البحرين، فسار منهم جمع غفير من قبيلة عبد القيس، عبروا خليج العجم إلى بلاد فارس، وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم، وغلبت قبيلة أيار على سواد العراق فمكثوا فيه حينا لا يغزوهم أحد"[2].

أما مقاومة الحكم اليوناني والروماني معاً فقد تجلت على يد دولة الأنباط العربية، وكانت قائمة في شرق الأردن فقد أغار عليها اليونان (312

---

[1] أحمد كمال، **العقد الثمين**، 209-215.

[2] ابن الاثير، ج 1، ص 172.

ق.م) وارتدوا عنها، وفي محاولة أخرى تعرضـــت دولة الأنباط لحملة يونانية فأبادوا رجالهم عن آخرهم، ثم حاصـــرهم اليونان في محاولة ثالثة، وصـــمد المقاتلون العرب في حصـونهم، وأطل أحد المقاتلين العرب من الحصـن وصـاح في وجه الغزاة قائلاً "إذا بيتّم إطالة الحصـــار فلن تناولوا غير التعب والفشـــل، لأنكم لن تجدوا ســبيلا إلينا ونحن في هذا الحصـــن المنيع، وإذا قدم لكم الظفر فلن تنالوه إلا بعد أن نموت جميعاً، ولا يبقى لكم غير هذه الصـــخور الصـــماء وأنتم لا تسـتطيعون سـكناها" [3] ولم يجد الغزاة بديلا عن الانسـحاب فانسـحبوا يجرون أذيال الهزيمة.

كما تصدت دولة الأنباط لليونان، فقد تصدت هذه الدولة العربية الباسلة للرومان، ففي عهد ملكها الحارث الثاني استولى على دمشق (86 ق.م) بعد أن هزم عاهل الرومان انطوخيوس، ومد ســـلطانه على جنوب ســـوريا وجزء من فلسطين، وبذلك أحاط باليهود من ثلاث جهات للانقضاض عليهم.[1]

وقد بلغت مملكة الأنباط من الاتسـاع فشـملت جزيرة سـيناء من الغرب وحوران إلى حدود العراق من الشـــرق، وإلى وادي القرى في الجنوب، ودخل في حوزتها أعالي الحجاز، والمدن الرئيســـية في شـــرق الأردن.. عمان، جرش، الكرك، الشوبك، العقبة،.. كما تشهد بذلك النقوش الكتابية التي عثروا عليها بين أنقاض تلك المدن..

أما الانتفاضـــة التحريرية الكبرى ضـــد الاحتلال الأجنبي فقد تجســـدت رائعة وشـامخة في الوثبة المجيدة التي نهضـت بها المملكة العربية، زينب، التي

---

[3] المصدر نفسه ص 86. و جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، جزء 3 ص 17.

[1] جورجي زيدان تعليق الدكتور حسين مؤنس، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص 89.

انطلقت من عاصمتها تدمر، وتصدت للحكم الروماني، وبسطت سلطانها على المشـــرق العربي كله وعلى وادي النيل وطردت الحاميات الرومانية من أرض الكنانة..

غير أن النهضـــة الكبرى لتحرير الوطن العربي من الســيطرة الأجنبية، وإقامة الدولة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج، فقد كان مقدراً لها أن تبدأ في الثلث الأول من القرن الســابع بعد الميلاد، وأن تعيش بعد ذلك ثلاثة عشــر قرناً متصلة، صامدة أمام الحروب والفتن والقلاقل، إلى أن أخذت السيادة العربية تسقط شيئاً فشيئاً في عهد الاستعمار، ويأتي بعد زواله عهد الاستقلال، ولكن في ظل الانفصال ممثلاً في قيام الدول العربية العشرين، وهو عهد تتطلع الأمة العربية إلى إزاحته، وإقامة الدول العربية المتحدة..

وغني عن القول أن هذه النهضـــــة العربية الكبرى من أجل التحرير والوحدة يعود الفضل الأكبر فيها إلى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) مجدد شــباب الأمة العربية، وباعث نهضــتها، وموقظ حوافزها، ومفجر طاقاتها وقدراتها، وفي حياته المليئة بالمثل العليا، والقيم الروحية الســـامية إلى جانب دعوته الدينية، معالم كثيرة تظهر بأجلى وضـوح أن الرسـول العربي، كان يعمل على توحيد القبائل العربية في الجزيرة العربية، وعيناه تتطلعان إلى الوطن العربي في كل أرجائه تحقيقا للواجبين المقدسين المتلازمين : التحرير والوحدة.. والشواهد كثيرة..

نقرأ أولاً في القرآن والحديث، أروع ما نقرأ، عن الإســـراء والمعراج إلى بيت المقدس، وسـواء كان الإسـراء بالروح وحده، أم بالروح والجسـد، فانه توكيد

بتحرير المســـجد الأقصـــى "الذي باركنا حوله" "وحوله" كما ذكر أبو القاســـم السهيلي، تعني الشام..

ونقرأ ثانياً، الحديث النبوي، "إن الله ســيفتح عليكم الشـــام من بعدي من العريش إلى الفرات"..[1] ومن يتأمل خارطة الوطن العربي، يدرك أن فتح الشـــام إنما هو المقدمة للفتوح العربية الأخرى فان الشـــام هي الباب الرئيســـي للوطن العربي في المشرق والمغرب.

ونقرأ ثالثاً، رســائله إلى هرقل الروم، وكســرى فارس، ومقوقس مصــر، والحارث الثاني ملك الحيرة، والحارث الحميدي ملك اليمن، والنجاشـــي ملك الحبشـــة، وإلى ملك عمان، وإلى ملك اليمامة، وإلى ملك البحرين، وإلى الحارث الثاني ملك الغســاســنة.. وهذه الرســائل كلها تنبئ عن يقين أن الرســول العربي (صــلى الله عليه وسـلم) كان يذكر أصــحابه بالفرس والروم، ويلقي على أكتافهم العبء المقدس في تحرير الوطن العربي، ويذكرهم كذلك بالدويلات العربية القائمة، للعمل على توحيدها والخلاص من ملوكها، وأمرائها..

ونقرأ رابعاً، أن الرســـول العربي (صـــلى الله عليه وســـلم) قد أوفد في حياته جيشـــاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل (629.م) تحت قيادة "ولده بالتبني"، زيد بن حارثة، إلى (مؤتة) في شـــرق الأردن للتصـــدي للروم.. فكانت هذه الحملة أشبه ما تكون بالرصاصة الأولى في المعركة الكبرى للتحرير والوحدة.

ونقرأ خامساً، أن الرسول العربي (صلى الله عليه وسلم) قد قاد بنفسه حملة تبوك في أعالي الحجاز، في الســـنة التالية (630م) ليكون ذلك توكيداً للتصدي للاحتلال الأجنبي بكل مظاهره.

---

[1] **الأنس الجليل**، ج1(راجع تفصيل ذلك في الفصل السابق) ص 2،3.

وهكذا توفي الرســـول، بعد أن ملأ قلوب أصـــحابه بالعزيمة والإيمان، وثبت أبصـارهم على الوطن العربي ليؤدوا الواجب الاسمى في التحرير والوحدة، وإننا نلاحظ بكل وضـوح أنه كان يضـع أمام رجاله صـورة للوطن العربي بأسـره محرراً، وهذا حديثه يقول "يجند الناس أجناداً، فجندا بالشـــام وجندا باليمن وجندا بالعراق، وجندا بالمشـــرق، وجندا بالمغرب[1] وكانت هذه الأرجاء العربية تحت النفوذ الأجنبي.. وهذه هي حدود الوطن العربي في يومنا هذا..

ووقع هذا العبء الأكبر بعد وفاته، على صـــحابته الذين قامت منهم الدولة العربية الأولى في العاصـــمة الأولى المدينة المنورة، وعرفت في التاريخ بدولة الخلفاء الراشـــدين، ومضـــى التاريخ يروي الملحمة الرائعة، وهو ما يزال مزهوا بما روى .

وما أن توفي الرســول العربي (صــلى الله عليه وســلم) (623م) حتى انطلقت القوات العربية من المدينة المنورة، شمالاً، إلى ديار الشام، لتنجز حلمه الكبير، حلم الوحدة والتحرير، كما كان يجول في فؤاده، وبدأت الحملة الكبرى لتحطيم ســلطان الرومان والفرس، في المشــرق العربي، وكان على رأس القوات العربية عباقرة أبطال من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسـعد بن أبي وقاص، وغيرهم من الذين تحدث مؤرخ كبير عن "نبوغهم وتفوقهم في أســـاليب القتال"، وخلدت اســـماؤهم مع اســـماء نابليون وهانيبال ويوليوس وقيصـــر والاسكندر[1].

---

[1] ابن عساكر، **تهذيب التاريخ**، ج1، ص 27.

[1] حتي، **تاريخ العرب**، ص 194.

وبدأت الفتوح وتوالت، ففي عام 634م فتح العرب دمشق وكانت عاصمة الدولة البيزنطية في سوريا، وكانت حدود سوريا يومئذ من جبال طوروس حتى سيناء.. وبعد دمشق سقطت بعلبك وحمص وحماه وحلب وإنطاكية وسواها من المدن.. وفي عام 636م نشبت معركة اليرموك، وهي من المعارك التاريخية الفاصلة، فكان النصر للعرب، ولما بلغ خبرها هرقل الروم رحل عن البلاد إلى قسطنطينية وهو يقول مودعاً الشام: "عليك يا سورية السلام" .

وكان النصر في موقعة اليرموك نهاية لدولة الروم في الشام، فتحرر بيت المقدس (638) على يد أبي عبيدة الجراح، واستلم مفاتيحها عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، في يوم تاريخي فريد، أعطى فيه لأهل الذمة أعظم ميثاق إنساني في تاريخ الحروب، وسقطت بعد ذلك سائر المدن الفلسطينية واحدة بعد الأخرى.

وحين كانت القوات العربية تدك معاقل الروم في ديار الشام، كانت قوات عربية أخرى بقيادة سعد بن أبي وقاص توجه هجماتها على الفرس لتحرير وادي الرافدين، وفي عام 638 انتصر العرب على الفرس في معركة القادسية، على مقربة من الحيرة، وانطلق الفاتحون في سهول العراق ثم قاموا بالعبور الكبير على نهر دجلة، إلى بلاد فارس نفسها، وكان ذلك العبور من أعظم الإنجازات الحربية، حتى أعتبره المؤرخون المسلمون الأوائل نصراً من السماء لا من الأرض.

وهكذا تم تحرير ديار الشام ووادي الرافدين في خلال ثلاثة أعوام (635 – 638)، وزال سلطان الفرس والروم وهما أعظم دولتين في ذلك الزمان،

وأصبح المشرق العربي من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي متحرراً من النفوذ الأجنبي، لا سلطان فيه إلا للأمة العربية.

ولم تكن هذه الحملة للتحرير فحسب، ولكنها كذلك كانت لإقامة الكيان العربي الواحد، فقد كانت ديار الشـــام والعراق، وإلى عهد بعيد تعج فيها المنازعات القبلية وتقوم فيها الدويلات العربية الصـــغيرة، هذه تحت جناح دولة الفرس، وتلك تحت جناح دولة الروم.

ففي الشام قامت دولة الغساسنة، وهؤلاء الغسانيون رحلوا من اليمن إلى الشـــام حيث أقاموا دولتهم وكانت عاصـــمتهم بصـــرى في حوران، وتعاقب عليها اثنان وثلاثون ملكاً على مدى ستمائة عام، وقد اتخذهم الروم عمالا لهم يستعينون بهم في صراعهم مع دولة الفرس، وكانوا وثنيين في أول هجرتهم ثم اعتنقوا النصرانية، ومنهم تحدرت الأسر النصرانية العربية في المشرق العربي، في سوريا ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين ..

وفي العراق، كانت دولة اللخميين والمناذرة، وهم من القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية، وكانت عاصـــمتهم الحيرة، على ثلاث ليال من الكوفة، وتعاقب على هذه الدول اثنان وعشـــرون ملكاً، وتولوا الحكم قرابة 364 سنة، ومعظمهم ينحدرون من آل لخم، وكما كان الغساسنة عمالاً للروم، فقد كان اللخميون عمالاً للفرس يستعينون بهم على الروم.

وفي شمال الحجاز ،كانت دولة كندة، وهي تنسب إلى القبائل العربية في اليمن، نشـــأت في القرن الخامس بعد الميلاد، وتعاقب على حكمها أربعة ملوك كان آخرهم الشاعر العربي الشهير أمرؤ القيس، وكانت هذه الدولة تعيش تحت كنف سلطان الروم.

وفي الجنوب الشـــرقي من فلســـطين، قامت دولة الأنباط، وعاصـــمتها الشـــــهيرة مدينة (بطرا) (بترا) وأهلها من القبائل العربية القديمة، وتعاقب على حكمها تسعة عشر ملكاً، وقد اتسعت مملكة الأنباط حتى شملت جزيرة سيناء من الغرب، وحوران إلى حدود العراق من الشـــرق، ووادي القرى في الجنوب .. ووقعت تحت سلطان الروم بعد حروب ضارية.

وفي بادية الشـــــام قامت دولة تدمر ونشـــــبت بينها وبين دولة الروم صـــولات وجولات كانت الحرب فيها ســـجالاً إلى أن خضـــعت في النهاية إلى سلطانهم كسائر الدول العربية الأخرى..

وواضـــح من هذا العرض التاريخي أن الفتح العربي للشـــام والعراق كان يســـتهدف أولاً إزالة الحكم الأجنبي ممثلاً في الفرس والروم، وثانياً الخلاص من هذه الدويلات العربية المتصارعة فيما بينها، والمتعاونة مع السلطان الأجنبي.

وواضـــح كذلك أن الفاتحين العرب، لم يفتحوا أرضـــاً غريبة عنهم، فهي وطن أجدادهم منذ القدم، وأهلها هم من قدماء العرب، ومن أجل ذلك فقد كان ســـكان الشـــام وفلســـطين وهم ســـاميون، يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنســـــهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الأجانب الغاصـــــبين، وكذلك رحب أهل العراق بالفاتحين ترحيباً لا يقل عن ترحيب الفلاحين الســـــوريين، إذ كان العراقيون الســـاميون يحســـبون أســـيادهم الإيرانيين أجانب ممقوتين، ويرون الفاتحين أقرباء لهم.. وما حدث في الشـــــام بعد اليرموك حدث في العراق بعد القادسية فأخذ الكثير من القبائل العربية تتدفق على البلاد.[1]

---

[1] حتي ، **تاريخ العرب**، ص 194 – 210.

ويجدر بالتنويه على سبيل المثال أن الفاتحين العرب حينما كانوا يحاصرون دمشق وجدوا عوناً كبيراً من أهلها داخل الأسوار، وكان على رأس المتعاونين منصور بن سرجون القائم على إدارة المال في دمشق ومعه أسقف المدينة، واستقبل أهل دمشق الفاتحين بالترحاب،وكذلك الحال بالنسبة لأهل شيمنزر، بالقرب من حماة، فقد استقبلوا الفاتحين بالمغنين وضاربي الطبول.[2]

وما أن وضعت الحرب التحريرية أوزارها في الشام العراق حتى بدأ التنظيم السياسي والقضائي والإداري في الدولة العربية الأولى .. فإنشأ عمر بن الخطاب الدواوين، وأصبحت المدينة المنورة عاصمة الدولة، دولة الوحدة العربية الأولى بعد الإسلام، وأصبحت تضم الشام والعراق كولايتين تابعتين لعاصمة الدولة في كل شئونها، وكان معاوية بن أبي سفيان أول وال على الشام ومقره دمشق، وسعد بن أبي وقاص أول وال على العراق، واتخذ الكوفة عاصمة له، فبنى فيها دارا فخمة للحكم، ونقل أبواب المدائن إلى الكوفة، افتخارا بالنصر الكبير على الفرس، بعد أن حكموا الوطن العربي عدة قرون !!

وفيما كانت الجيوش العربية في المشرق تدك سلطان الفرس والروم توجهت حملة كبرى للتصدي للدولة البيزنطية التي كانت تبسط سلطانها على وادي النيل والشمال الأفريقي كله، وكان على قيادة هذه الحملة أحد دهاة العرب المعروفين، عمرو بن العاص، ووصل الجيش العربي إلى العريش واشتبك مع الروم في لفرما، وهي مدخل مصر الشرقية، فدمر حصونها وأنزل بالروم خسائر فادحة، وواصل فتحه إلى بلبيس إلى الشمال الشرقي من القاهرة فاحتلها وسائر المدن الأخرى في وادي النيل، ثم استولى على حصن بابليون،

---

[2] حتي، **صانعو التاريخ**، ص 81.

ومنها واصلت القوات العربية زحفها إلى الإسكندرية وكانت عاصمة مصر وقاعدتها البحرية، فسقطت بعد حصار وقتال عنيفين (641م).

وكانت الإسكندرية، بأسوارها وأبراجها، وكنائسها ومكتبتها وعمود السواري القائم في ميدانها، من أعظم مدن العالم، في ذلك العصر، ولم يتمالك عمرو بن العاصم، البدوي العربي إلا ان يكتب إلى عمر بن الخطاب الملتف بمرقعته في المدينة المنورة، قائلاً : "أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك"[1] هذا بالإضافة إلى رسالة سابقة تعد تحفة رائعة في الأدب العربي، وصف فيها مصر وصفاً ينبض بالجمال والجلال .. وكما أصبح العراق والشام ولايتين عربيتين تحكمان من المدينة المنورة العاصمة العربية الأولى، فقد أصبحت مصر ولاية ثالثة تابعة للدولة العربية الواحدة يحكمها أول ولاتها عمرو بن العاص، يدير أمرها ، ويجبي خراجها وينصب قضاتها.

ولقد تم هذا الفتح كله، في حقبة لا تتجاوز عشرين عاماً، تم معظمه في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .. وأصبحت مصر والعراق والشام والجزيرة العربية تحت سيادة الدولة العربية الواحدة التي عرفت في التاريخ بدولة الخلفاء الراشدين (632 – 661م).

وإذا كان علينا أن نعطي وصفاً حديثاً لتلك الدولة أمكننا القول إنها دولة واحدة، تتركز فيها السلطة في الحكومة المركزية في العاصمة، ويتمتع ولاتها بسلطة محلية واسعة، ويتولى الخليفة بالتشاور مع الصحابة تصريف شئون

---

[1] ابن عبد الحكم، **فتوح مصر** ، ص 82.

الدولة السياسية والعسكرية والقضائية ، وبيت المال فيها هو خزانة الدولة العامة .. وكان دستورها كما عبر أحد المؤرخين "اشتراكياً قوامه العروبة".[1]

وحدثت أحداث وانتهى حكم الخلفاء الراشـــدين، "الحكم الجمهوري"، وقامت مقامه الملكية ممثلة بالدولة الأموية يرأســـها ملكها الأول معاوية بن أبي سفيان، وينتمي إلى أسرة بني أمية، وجدها الأعلى أعطى لهذه الدولة هذا الاسم الجديد، وانتقلت العاصـــمة من المدينة المنورة إلى دمشـــق، ووقع على هذه العاصـمة العربية العبء الأكبر في اسـتكمال مهمة التحرير والوحدة في الوطن العربي، وإقامة الدولة العربية الكبرى الواحدة من المحيط إلى الخليج.

واستمرت الدولة العربية الواحدة، باسمها الجديد، دولة الأمويين في مد الفتح الذي تحقق على أيدي الخلفاء الراشدين إلى الشمال الإفريقي حتى ساحل الأطلنطي، فقامت القوات العربية بمطاردة الروم في قواعدهم البحرية، فأنشـــأ العرب أســـطولاً حربياً فهاجموا الروم في قبرص (649) واســـتولوا عليها، وفي الســـنة التالية فتح العرب أرواد (مقابل الســـاحل الســـوري)، وفي الأعوام التالية غزوا رودس، وفي عام 655 اشـــتبك الأســـطول البحري العربي مع الروم في المعركة الشـهيرة بذات السـواري، فألحقت بهم هزيمة كبرى، وقضـــي على الروم في بحر الروم، كما كان يعرف البحر الأبيض المتوســـط في ذلك العهد .. وأصبح بعد هذا النصر العظيم بحيرة عربية ..

وهكذا امتد الفتح العربي غرباً في الشـمال الأفريقي، ووصـل الفاتحون العرب إلى برقة وطرابلس(ليبيا) ومنها إلى ســـائر أطراف إفريقية، قرطاجنة (تونس حالياً) التي كانت عاصمة الشمال الأفريقي.

---

[1] حتي ، **تاريخ العرب**، 230.

وكـان عـامـل معـاويـة في إفريقيـا عقبـة بن نـافع فبنى مـدينـة القيروان (في تونس) (670م) واتخذها قاعدة لأعماله الحربية في الشـــمال الأفريقي، ومضـى هذا البطل العربي الكبير بمطاردة الروم في معارك متلاحقة إلى أقصـى الغرب حتى اقتحم بفرسـه أمواج الأطلنطي، وهو يصـيح : " اللهم أشـهدك ان لا مجاز، ولو وجدت مجازاً لجزت"[1] وفي إحدى هذه المعارك سـقط البطل عقبة شـهيداً (683م) قرب بكرا في الجزائر ، في القرية المعروفة اليوم سـيدي عقبة، وقبره اليوم مزار ديني وقومي.

وبعد البطل الشـــهيد، تولى الإمارة على إفريقية حســـان بن النعمان الغساني وقامت بينه وبين الروم وقائع حربية ضارية واستعان حسان بالاسطول العربي فقضـــى على آخر فلول الروم وأخرجهم من قرطاجنة (698م) وانتهى سـلطان الروم على الشـمال الإفريقي إلى الأبد وعادت السـيادة العربية على المغرب العربي كاملة شاملة..

وتولى أمور الشـمال الإفريقي البطل العربي الفلسـطيني، والذي ولد في إحدى قرى الخليل بفلســطين، مقاليد الأمور في شـــمال إفريقية وكان مقره القيروان، وإليه يرجع الفضل في الاستيلاء على طنجة من قبضة الروم لتصبح الدولة العربية ممتدة من البصـــرة على الخليج إلى طنجة على المحيط، والبطل هو موسى بن نصير الذي أصبح فيما بعد فاتح الأندلس.

وكما كان تحرير المشـرق العربي شـرفا عظيما لدولة الخلفاء الراشـدين، فقد كـان مجداً أثيلاً للدولـة الأمويـة أن تم على يديهـا تحرير المغرب العربي، وأصـبحت الدولة الأموية التي امتد حكمها تسـعين عاماً، تبسـط سـلطانها على

---

[1] ابن الأثير ، ص 42.

الوطن العربي الذي راح يحدد بعد ثلاثة عشـــر قرناً، بذلك بالتحديد المثير، "من المحيط إلى الخليج"..

ولم يكن فتح الدولة الأموية للشمال الأفريقي استيطاناً جديداً، فقد كانت هذه الأرض عربية منذ القدم، وكان الشـــعب فيها عربياً منذ القدم، من البحر الأحمر على امتداد البحر الأبيض المتوسط، إلى ساحل المحيط الأطلنطي.*

وعلينا أن نذكر على وجه التحديد بالإضـافة إلى السـلالة العربية التي حكمت مصـــر على مدى أربعين قرنا، دولة قرطاجة التي أنشـــأها الفينيقيون العرب في عهد الملكة ديدون أخت ملك صـــور (لبنان) في القرن التاســـع قبل الميلاد، وامتد سلطانها في الشمال الأفريقي أجمع ، ونشأ فيها قادة عظماء من أمثال هانيبال، قادوا الحروب التاريخية الشهيرة في قلب أوروبا وكادوا أن يقضوا على دولة روما نفسها..

وقد وصلت سيطرة قرطاجة حتى شواطئ صقلية واسبانيا، وفي المعاهدة الشهيرة التي عقدت بين روما وقرطاجة (509 ق.م) خصصت إيطاليا للرومان والشواطئ الافريقية لقرطاجة، وبقيت صقلية محايدة.[1]

ولا يغيب عن البال كذلك أن ننوه أن الأقباط في مصـــر قد رحبوا بالفاتحين العرب، وفي معركة الإســكندرية وغيرها من المواقع التي نشــبت بين العرب والروم، كان الأقباط عوناً للفاتحين العرب.[2]

---

* راجع الفصول السابقة من الكتاب.

[1] دائرة المعارف البريطانية، مجلد 4، ص 945.

[2] تبلر، **فتح العرب لمصر**، ص 187 – 269.

وكما لم يكن الفاتحون العرب غرباء عن العراق والشـام يوم أزالوا عنهما حكم الرومان والفرس، كذلك لم يكونوا غرباء في مصـر والشـمال الأفريقي حينما أطاحوا عنهما حكم الرومان.

لقد كان هذا الفتح في المشرق والمغرب تحريراً للوطن وللأمة، وتوحيداً لكيانها ممثلاً في قيام الدولة الواحدة، أول دولة عربية كبرى بعد دولة الخلفاء الراشدين.

ولم تكن الدولة الأموية دولة قتال واقتتال، وصـحيح أنه نشـب في أوائل عهدها أكبر تصـدع في الجماعة العربية بسـبب الحرب بين علي (رضـي الله عنه) ومعاوية .. ولكن هذه الدولة العربية كانت دولة تقدمية حضـارية دفعت عجلة التاريخ إلى الأمام بالنسـبة إلى الأمة العربية وللعالم أجمع .. والشـواهد على ذلك كثيرة ..

فقد قامت هذه الدولة أولاً "بإزالة آثار العدوان"، في تعبير هذا اليوم، فاقتلعت معالم عدوان الفرس والروم مبتدئة بتعريب الدواوين، فجعلت اللغة العربية مكان اللغة اليونانية في الشـام، والفهلوية في العراق، وجرى سـك النقود باللغة العربية، فقد كانت النقود الفارسـية متداولة حتى في الحجاز من أيام الجاهلية، وكذلك فإن نقود الروم كانت متداولة في البلاد العربية، وكان عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بني أمية أول من ضـرب (659م) الدنانير الذهبية والدراهم الفضية من النوع العربي الصرف، وبهذا أصبح لهذه الدولة نظام نقدي واحد، وللعرب اليوم عشـرون نظاماً من الجنيه إلى الليرة ، إلى الدينار إلى الدرهم إلى غير ذلك...!!

وقامت الدولة ثانياً، بإصـــلاح ما خربه الســـلطان الأجنبي في الوطن العربي، فقد قامت الدولة ببناء المدن وتخطيطها على أحســـن وجه، وشـــادت القصور، وجعلت من دمشق عاصمة رائعة لدولة متحضرة، ببساتينها وشوارعها ومدارسـها، وتوجت ذلك ببناء المسـجد الأقصـى وقبة الصـخرة في بيت المقدس والمســـجد الأموي في دمشـــق وهما من أروع روائع الفن العربي في الهندســـة والزخرفة والبناء.

وقامت الدولة ثالثا، بتنظيم الضـرائب مباشـرة، وبتولي جباية الضـرائب المختلفة في كل أرجاء الدولة حسب قواعد مقررة ..

وكان "مال العرب للعرب" شعاراً حقيقياً، تمليه الوحدة الأصيلة، فقد بني الحرم الشريف في بيت المقدس، في عهد عبد الملك بن مروان من خراج مصر لسبع سنوات .. وهذا مثال واحد فقط. وفي هذا العهد أنشئت دائرة جديدة، بيت القراطيس، وهي أشـــبه بالإمانة العامة للدولة تتولى حفظ وثائق الدولة ومراسلاتها..

وقامت الدولة رابعاً: بإنشـاء الجيش، بقواته البرية والبحرية على أفضـل تنظيم، تموينا وتسليحا وبلغ عدد الجيش في هذا العهد ستين ألف جندي، وكان "عطاؤهم السنوي (راتبهم) ستين مليون درهم وهو يشمل عطاء العيال"[1].

وقامت الدولة رابعاً بحفظ اللغة العربية، فهي التي حفظت مقومات الأمة العربية في غمار ما حل بها من تحديات .. ففي هذا العهد وضـع العلماء الصـــرف والنحو، كما وضـــعت علامات الإعجام في الخط العربي للتمييز بين

---

[1] **تاريخ المسعودي**، ج 5، ص 195.

الحروف، وبهذا بقيت اللغة العربية حية مزدهرة، لتصـــبح فيما بعد لغة العلم والعرفان على مدى قرون وقرون..

وقامت الدولة خامســاً، بإطلاق الحرية الدينية والاعتماد على الســماحة في علاقات الدولة بالمواطنين، فقد لقي أهل الذمة أبناء الأديان المنزلة كل رعاية، وكانت قضــاياهم في الأمور المدنية والجنائية القضــائية مرتبطة بالفعل برؤسائهم الروحيين.[2]

وأطلقت الدولة ســادســاً، الحرية الفكرية، ففي عهدها ظهرت المدرســة الفلســفية التي اعتمد أصــحابها على العقل دون النقل وبحرية الإرادة للإنســان وكان مؤسس هذه المدرسة واصل بن عطاء (المتوفى سنة 748) وهي تهدف إلى تحكيم العقل دون سواه..

ويســرت الدولة ســابعاً، الحوار الحر حتى في أخطر الأمور العقائدية ففي ظل هذه الدولة عقد القديس يوحنا الدمشـقي حوارا مع علماء المسـلمين في موضوع الوهية السيد المسيح وحرية الإرادة البشرية، وكانت بعض هذه الندوات تعقد في حضرة الخليفة نفسه، وألف القديس يوحنا كتاباً في موضوع هذا الحوار، كما وضع كتابا آخر لإرشاد النصارى في مجادلاتهم المسلمين.[1]

وهكذا، استطاعت الفتوحات العربية، تحرير الوطن العربي من الاحتلال الأجنبي، وأن تعيد إليه الوحدة العربية متمثلة في دولة عربية واحدة مترامية الأطراف، تمتد من غرب آسيا إلى غرب إفريقيا ..

---

[2] حتي، **تاريخ العرب**، ص 301.

[1] حتي، **تاريخ العرب**، ص 314.

ويروي التاريخ للأجيال العربية المعاصرة أنه كان لهذه الدولة ملك واحد، وجيش واحد وتشريع واحد، ونظام واحد، وفي إطار قومية عربية حضارية تعيش فيها الأمة بكل طوائفها وعقائدها بأخوة ومساواة.

وكانت الفتوحات التي أنشـأت تلك الدولة الواحدة، كما عبر عنها مؤرخ نصراني لبناني أمريكي" انقلاباً اجتماعياً وسياسياً استرد به الشرق الأدنى مجده السـامي الغابر، وجاء الإسـلام مهيباً بالشـرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب".

ولقد زالت الدولة الأموية وأصـبحت فصـلا مشـرقا من فصـول التاريخ العربي المجيد، ولكنها تركت لنا نموذجا باقيا للدولة العربية الوحدوية، تعيش تحت أعلامها فئات عنصـرية وطوائف مذهبية، وأقليات لغوية، وكلها نعمت في ظل الوحدة بالعدل والمسـاواة والمواطنة الكاملة..وفي سـيرة معاوية أمثلة رائعة على أصالة الوحدة في دولة الوحدة.

فقد كانت ميسـون زوجة معاوية عربية سـورية من قبيلة كلب، وكانت نصرانية على مذهب اليعاقبة واليها ينسب الرواة البيتين الشهيرين:

ولبس عباءة وتقر عيني

أحب إليّ من لبس الشفوف

وبيت تخفق الأرياح فيه

أحب الي من قصر منيف

وكان منصور بن سرجون، من أسرة سورية نصرانية يتولى شئون بيت المال، وكانت ولاية المال في الإسلام أهم الوظائف بعد قيادة الجيش.

وكان ابن اثال النصــراني العربي الطبيب الخاص لمعاوية وقد ولاه فيما بعد على خراج حمص ..

وكان الأخطل الشاعر النصراني الشهير من بني تغلب، شاعر الدولة، وكان يدخل على الخليفة والصليب يتدلى على صدره، ولحيته تقطر خمراً ..

وكان معاوية يقضـــي بين اليعاقبة والموارنة كلما نشـــب الخلاف فيما بينهم وكثيراً ما نشـــب الخلاف وكثيراً ما قضـــي بالعدل والحكمة والموعظة الحسنة.

وذكر أحد مؤرخي اليونان أن معاوية بنى كنيســة للنصــارى في منطقة الرها (اورفا) وهي مدينة بين النهرين.

وفعل مثل ذلك خالد القســري أحد ولاة الأمويين في العراق، فقد كانت أمه نصرانية فبنى لها كنيسة تتعبد فيها برا بها واحتراما لدينها.[1]

وغير ذلـك كثير وكثير ممـا يقف اليوم، دليلا قـاطعـا أن الأقليـات العنصـــرية والدينية واللغوية التي تعيش معنا في الوطن العربي، هي جزء لا يتجزأ من الأمة العربية بالمعنى الحضـــاري والثقافي للقومية العربية وأن دولة الوحدة العربية هي لجميع أبنائها ، من غير تمييز ولا تفريق فلا عصـــبية ولا طائفية ولا عنصرية.

وبعد فقد كانت تلك الدولة العربية الواحدة، رؤية صادقة للرسول العربي حين قال لأصــحابه وهم لا يزالون في المدينة المنورة "يجند الناس اجناداً، فجنداً بالشام، وجنداً باليمن وجندا بالعراق، وجنداً بالمشرق، وجنداً بالمغرب".

---

[1] ابن خلكان، ج 1، ص 302.

وإنها رؤية صـــــادقة حقاً، ما أجلها وما أعظمها، ولم يبق على الجيل الصـــــاعد والوافد، إلا أن يقيم دولة الوحدة، ومن جديد، وأن يجاهد لتحقيقها .. وإذا دعا الأمر، أن يستشهد من أجلها.

الوحدة العربية ..
من دمشق إلى بغداد

في ربيع عام 750م وقع انقلاب دموي خطير في الوطن العربي، ولكن دولة الوحدة العربية بقيت ماضـــية في طريقها تؤدي رســـالتها في مضـــمار الحضـارة والتقدم، وتضـيف إلى المعرفة الإنسـانية ثراء سـخياً من الثقافة العالمية في مختلف ميادين العلوم والفنون.

وكـان هذا الانقلاب الرهيب على الدولـة الأمويـة، لتقوم مقامها الدولـة العباســية، في صــراع رهيب عنيد على الحكم، بين أســرتين عربيتين عريقتين، الأســرة الأموية وقد حكمت الوطن العربي فترة بقي لها اشـــهر معدودات لتكمل التسعين عاما، والأسرة العباسية يملؤها الحقد والحسد، ويحفزها النسب والحسب إلى انتزاع الســلطة، وإقامة دولة تحمل اســم بني العباس، ويرون في بني أمية غاصبين ومعتدين.

وبعد تهيئة وتعبئة وتدبير، قام اتباع الدعوة العباســية بالانقلاب مبتدئين بالعراق ثم اســتســلمت دمشــق عاصــمة الأمويين ،وزحفت القوات الثائرة على فلسطين وهناك دعا قائد الانقلاب ثمانين رجلاً من الأمويين إلى مأدبة غداء في قرية من قرى فلسـطين تقع على نهر العوجا، وفي أثناء المأدبة أمر أن تضـرب رؤوسـهم فقتلوا جميعاً، ثم طرحت عليهم البسط وهم بين ميت ومحتضر، وجلس

القائد وصـــحبه للطعام، وشـــبع من شـــبع، وكأن شـــيئاً ما وقع. وتعقبت القوات الثائرة آخر خلفاء بني أمية الهارب، فقبض عليه وهو خارج من كنيسـة بوصـير من أعمال مصر، وقتل لساعته، وأرسل رأسه وشارات الخلافة إلى زعيم الدعوة العباسـية، أبي العباس، فلبس بردة النبي (صـلى الله عليه وسـلم) وبايعه الناس على الخلافة، وقال في خطبة الجمعة "أنا السـفاح" ولحق به لقب السـفاح إلى يومنا هذا.

ولقد ضج التاريخ العربي، وهو يصف صنوف الإرهاب التي وقعت في تلك الحقبة الخطيرة، وما فيها من نبش قبور الأمويين وصـــلب جثثهم وإحراقها، وغير ذلك مما تقشـــعر له الديدان قبل الأبدان، والتاريخ مليء بأمثال هذه الأحداث، بل وأشنع منها وأبشع، وقعت في أمم أخرى قبلنا وبعدنا.

وفي القرن العشرين الذي نعيشه اليوم شهدنا انقلابات وصراعات على الحكم لا تقل بشـاعة وشـناعة عما فعله العباسـيون بأبناء عمومتهم الأمويين، فكل هؤلاء وأولئك ينحدرون من قريش..

وقد شـــهد جيلنا أهوالا من الدماء والدمار في الحروب المعاصـــرة، بين كوريا الشـــمالية والجنوبية، وفيتنام الشـــمالية والجنوبية، وشـــهدنا أخيراً التقتيل والترويع بين التشـيلي والتشـيلي، والحبشـة والحبشـة، كل ذلك في صـراع على الحكم، وبهذا فانه لا يضـير الوحدة العربية أنها عبرت في بركة من الدماء حتى وصلت إلى أيدي العباسيين.

وكائناً ما كان أمر هذه الحرب الداخلية في الأمة الواحدة، وعلى أرض الوطن الواحد، فقد رســـت الأحداث في النهاية على الحقيقة الكبرى، وهي أن مسيرة الوحدة العربية بقيت ماضية في طريقها، وأن الدولة العربية الواحدة، التي

بدأت في عهد الخلفاء الراشـــدين، ومن بعدهم الأمويين، قد انتقلت الآن إلى العباسيين، فحلت أسرة عربية محل أسرة عربية أخرى، وبقيت دولة الوحدة قائمة ناهضــة .. صــامدة أمام الأحداث في الداخل والخارج على مدى خمســة قرون وثمانية أعوام (750 – 1258م).

وما أن اســـتتب الأمر لبني العباس، حتى راحت دولة الوحدة تدفع بالمجتمع العربي إلى مضـــمار البناء والإنشـــاء، ورفع مســـتوى الحياة للوطن والمواطن، وكان أول ما قامت به الدولة أن وضع المنصور ثاني الخلفاء الحجر الأساسي لبغداد لتكون العاصمة الجديدة، فقد استوفت دمشق عاصمة الأمويين حظها من الازدهار والعمران .. ومضت الوحدة في سبيلها، بفارق واحد هو أن العاصمة قد انتقلت من بلد عربي، إلى بلد عربي.

وبدأت تعبئة شــاملة للوطن العربي بأســره لانشــاء العاصــمة الجديدة، فقامت بغداد شــامخة بأبوابها وأســوارها وقصــورها ومســاجدها ومســتشــفياتها ومدارســها وحماماتها، بعد أربعة أعوام من الجهد المتصــل، على أيدي مئة ألف من المهندسين والصناع والعمال جمعوا من كافة أرجاء الوطن العربي، وأموا ل وفيرة قاربت خمسماية مليون درهم من خراج الوطن العربي .. وأصــبحت بغداد عاصــمة الدنيا بأســرها .. وأنى لبغداد أن يتحقق لها ذلك المقام الرفيع لولا أنها عاصمة الوحدة على الوطن الواحد والأمة الواحدة ..

والواقع أنه لولا الوحدة ما كانت بغداد بســـحرها الذي أســـر العالم، ولا حضارتها التي أثرت المدنية الإنسانية، ولا بأساطيرها في الف ليلة وليلة التي لا تزال تبهر القارئين في كل زمان ومكان..

وحقاً إنه لولا الوحدة، لكانت بغداد مدينة أخرى من مئات المدن المغمورة لا يعرف ساكنوها تاريخها.

ودائرة المعارف البريطانية المعروفة بتحفظها واتزانها لم يسعها إلا أن تشيد ببغداد بأنها " كانت حقاً جديرة باسمها وهو " دار السلام " وأنها كانت موئلاً للعلماء ممن أسدوا خدمات جلى للعمل في خلافة مستنيرة مما جعلها مركزا للعالم الإسلامي في وقت كان فيه الإسلام يمثل أرفع مدنية في الغرب"[1] وهذا المقام المرموق لبغداد والدولة العباسية إنما هو نتاج إبداع الأمة العربية في ظل الدولة الواحدة.

والمنصور الذي بنى هذه العاصمة الأسطورية، لم يكن رمزاً للوحدة في بناء عاصمته الساحرة فحسب ، ولكنه كان رمزاً للوحدة في مولده، ذلك أن أمه كانت من البربر[2] فكان المنصور بعاصمته ومولده مثلا آخر يضاف إلى حشد كبير من الأمثلة تنبض كلها دليلا على الوحدة في الوطن العربي من المشرق إلى المغرب.

والواقع أن المواطن العربي يجد في الدولة العباسية أعظم إنجازات الوحدة العربية ومزاياها، ذلك ان وحدة القدرات والثروات والطاقات العربية هي التي أضفت على الدولة مكانتها المرموقة وجعلت بين يديها مقومات التقدم والأزدهار، وضمنت لها كل أسباب الحضارة.

ففي مجال العلاقات الدولية، أطل القرن التاسع الميلادي كما يقول المؤرخون، فإذا بالزعامة السياسية العالمية يتقاسمها اثنان: شارلمان في الغرب،

---

[1] دائرة المعارف البريطانية، مجلد2 ، ص 934.

[2] **تاريخ اليعقوبي**، ج3، ص 436 .

وهارون الرشيد (العباسي) في الشرق، وليس من شك في أن الرشيد كان أقوى الاثنين وأرفعهما ثقافة. وفي شيء من المقارنة يبدو أن الرشيد وشارلمان كانا يمثلان العملاقين في العصور الوسطى، كما يمثل الاتحاد السوفيتي وأمريكا العملاقين في العصر الحديث.

وثمة مقارنة ثانية، وهي أن العملاقين في العصور الوسطى، الرشيد وشارلمان، كانا يقومان على دولتين اتحاديتين تماماً كما تمثل روسيا وأمريكا نظامين اتحاديين في عصرنا الحديث.

وهناك مقارنة ثالثة وهي أن "عظمة" أمريكا وروسيا ترجع في المقام الأول إلى طاقاتهما الموحدة في نظام اتحادي، تماماً كما كانت عظمة الرشيد وشارلمان منبثقتين من النظام الوحدوي الذي جعل المشرق تحت سلطان الرشيد، والمغرب تحت سلطان شارلمان، ولولا هذا النظام الاتحادي للدولتين العملاقتين في العصور الوسطى، وللدولتين العملاقتين في العصر الحديث، لكان هؤلاء العمالقة الأربعة "أقزاماً" بين الأقزام الكثيرة في التاريخ، لا يعبأ بهم أحد، ولا دور لهم في ميدان الحضارة والعرفان.

ولم تكن الدولة العباسية في عزلة، فقد اتصلت بالشرق إلى أقصى الشرق، وقامت علاقات سياسية وتجارية بين دولة الوحدة العربية والصين، وحينما وضع أبو جعفر المنصور، وهو ثاني الخلفاء العباسيين، وجد الخلفاء الخمسة والثلاثين الذين حكموا بعده، حجر الأساس لبغداد قال "هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء .[1]

---

[1] استنادا إلى مصادر تاريخية ذكرت في، **تاريخ العرب**، للدكتور حتي ص 421،422.

وقد صح كلام المنصور، فقد نشأت علاقات تجارية واسعة مع الصين، خاصة في تجارة الحرير، واستورد التجار العرب الحرير من الصين ليصدروه إلى الغرب كأغلى وأنفس صناعة في ذلك الزمن، وقد أشتهر الطريق الذي سلكه التجار العرب إلى الصين "بطريق الحرير العظيم".

ثم بدأ تبادل السفارات بين دولة الوحدة العربية والصين، وذكرت المدونات الصينية التي تعود إلى ذلك العصر أن أبا العباس الخليفة الأول كان يعرف بالصينية "أبو لوبا" وأن الرشيد كان يعرف "ألون".

ولم تكن أيام الدولة العربية هادئة صافية فقد كانت على حدودها الشمالية دولة معادية طامعة، وهي دولة بيزنطة وعاصمتها القسطنطينية، وكان البيزنطيون، الذين يسميهم مؤرخو العرب "الروم" يحقدون على العرب انهم أخرجوا الروم من ديار الشام وهزموهم في المعركة الحاسمة الكبرى عند نهر اليرموك.. وشهد العهد الأموي غزوات متتالية بين العرب والروم، ثم انتقل الأمر إلى العباسيين، واستمر الصراع بين الجانبين زمنا طويلاً، وعرفت في التاريخ العربي غزوات الشتاء والربيع والصيف حتى أصبحت موسمية في كل عام. وكانت أهم الغزوات هي التي قادها هارون الرشيد نفسه (872م) وكان يومئذ ولياً للعهد، ووصلت القوات العربية إلى مضيق البوسفور حتى مشارف القسطنطينية واضطر الروم أن يطلبوا الصلح وفق شروط مذلة، وفي أعقاب هذا النصر، أصبح يعرف هارون باسم "الرشيد"، جزاء وفاقا لحسن بلائه وجهاده في توطيد سيادة الدولة العربية وكسر شوكة أعدائها.

كان ذلك شـــأن الدولة العربية في علاقاتها الخارجية، أما في المجال الداخلي فقد نعم الوطن والمواطن بثمار الوحدة العربية في جميع مجالات الحياة العامة.

وكانت النعمة الكبرى أن هذه الدولة الواحدة كانت تقوم على أســـاس اللامركزية الواســـعة، وهو النظام المتبع في معظم الدول الواحدة والاتحادية في العصـر الحديث.. فقد كان الوطن العربي مقسـما إلى ولايات إدارية، وعلى رأس كل مقاطعة منها أمير يتمتع بسـلطة واسـعة في دائرة الشـئون المحلية، ويتم تعيينه من قبل الوزير الأول في الدولة بموافقة الخليفة، وكانت ســـلطة الأمير تشـمل أمور الجيش وتنصـيب القضـاة وجباية الخراج وحفظ الأمن، وشـئون الشـرطة، وكان إيراد المقاطعة ينفق على شـئونها المحلية، وما زاد عن الحاجة يرسل إلى بيت المال في بغداد[1] ويصبح جزءا من "ميزانية الدولة العامة".

وكانت هذه المقاطعات والولايات، هي التي تقوم على أرضـــها اليوم عشـرون دولة عربية.. فقد كانت ولاية "إفريقية" أكبر الولايات، وكانت صـحراء ليبيا، وفيها اليوم ثلاث دول عربية مستقلة ليبيا وتونس والجزائر.. وكانت مصر هي المقاطعة الثانية.. وكانت ســـوريا المقاطعة الثالثة وفيها اليوم ثلاث دول: المملكة الأردنية الهاشـمية والجمهورية العربية الســورية، والجمهورية اللبنانية، وكانت اليمن هي المقاطعة الرابعة وتشمل جميع الجزء الجنوبي للجزيرة العربية، وفيها اليوم جمهورية اليمن الديمقراطية وجمهورية اليمن، وكانت المقاطعة الخامســة هي الحجاز واليمامة وأواســط الجزيرة العربية، وهي اليوم مشـمولة بالمملكة العربية الســعودية، وكانت المقاطعة الســادســة هي البحرين وعمان

---

[1] الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص47 وما بعدها.

وعاصمتها البصرة، وفيها اليوم ست دول الكويت وعمان وقطر والبحرين ودولة الإمارات المتحدة، والمقاطعة السابعة هي السواد "العراق" وعاصمتها بغداد، والمقاطعة الثامنة هي الجزيرة وعاصمتها الموصل.. وأجزاء من هذه المقاطعة تقع اليوم في الجمهورية العراقية، وأجزاء أخرى في الجمهورية السورية!!

وبذلك تكون الدول العربية العشرون أو معظمها على الأصح، بحدودها وملوكها ورؤسائها ووزرائها هي المقاطعات الثماني التي تتألف منها دول عربية واحدة، عاصمتها بغداد، ونظام الحكم فيها يقوم على أساس اللامركزية الواسعة.

وطبيعي أن ثروة هذه المقاطعات كلها، كانت ثروة للوطن أجمع، وللمواطنين أجمعين. وهذا ما يفسر لنا الكلمة التاريخية الشهيرة التي نطق بها الخليفة هارون الرشيد، وهو ينظر إلى سحابة تمر فوق سماء بغداد، فقال لها: اهطلي حيث شئت فإن خراجك سوف يأتينا. وديوان الخراج: كان بمثابة وزارة المالية للدولة بكل مقاطعاتها من المحيط إلى الخليج.. ومن هذا الخراج كانت تدفع "أرزاق الجيش وتبنى المساجد والمستشفيات والمدارس وتعبد الطرق والسكك وتنشأ الجسور وسائر المرافق العامة في البلاد"[1]

ولا حاجة إلى المقارنة بين ما كان وما هو كائن في الوطن العربي، فإن ثروة كل "دولة" عربية في هذه الأيام تحتكر للدولة العربية نفسها، وإذا قدمت من مالها شيئاً لدولة عربية أخرى فهو مساعدة إنسانية. ويستطيع المواطن العربي المعاصر أن يدرك لنفسه اليوم أن ثروة العرب في العصور الوسطى كانت للعرب، من غير شعار.. والشعار الذي يردد اليوم "بترول العرب للعرب" كلام جميل.. ولكن مضمونه هزيل وذليل.

---

[1] **مقدمة ابن خلدون**، ص150 ، 151.

وقد خلف التاريخ، للمواطن العربي المعاصر، للعبرة والذكرى، إحصاءات عن الواردات التي كانت تتجمع في "وزارة المالية المركزية" في بغداد .. فقد كان يحمل إلى بغداد من السواد (جزء من العراق) قرابة 28 مليون درهم .. ومن مصر 24 مليون درهم، ومن سوريا وفلسطين 15 مليون درهم .. وفي تقرير آخر بلغت واردات السواد (جزء من العراق).. 130 مليون درهم، ومن مصر 37 مليون درهم، ومن فلسطين وسوريا 29 مليون درهم[1] وعلينا أن نستثني من جميع هذه الأرقام الغلات العينية التي كانت ترد على بيت المال، وكانت أثمانها تقدر بملايين الملايين.

أما مجموع الواردات من كل الأمصار فقد تجاوزت 380 مليون درهم، ينفق منها ما ينفق، والباقي يرصد في "الاحتياطي" في ديوان الخراج، فقد ذكر لنا المؤرخون أنه حين مات الخليفة هارون الرشيد كان في بيت المال ما يزيد على ستمائة مليون درهم.[2]

والمواطن العربي، حي يقارن ظروف العصور الوسطى بظروف العصر الحاضر، يستطيع أن يجزم أن ثروة الدولة العربية الواحدة التي كانت تحصى بملايين الدراهم، تقدر اليوم بملايين بل ببلايين الجنيهات والدولارات. والأهم الأهم أن تلك الثروة العظمى كانت للدولة الواحدة.. تنفقها على الأمة الواحدة وفي الوطن الواحد.. لا في بغداد وحدها أو في العراق وحده.. والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة..

---

(1) المادردي، **الأحكام السلطانية**، ص 366 وما بعدها.

(2) **تاريخ الطبري**، ج 3، ص 764.

ومن هذه الشـواهد أن هارون الرشـيد كان فكر في إنشـاء قناة السـويس قبل فاتحها الفرنسـي الحديث (دي لسبس) وبألف سنة[3]، ولكن ظروفا قد حالت دون تحقيق هذه الرغبة، ولو أنها تمت في عصـر العباسـيين لوفرت على الأمة العربيـة كثيراً من الأزمـات التي واجهتهـا، وفي مقدمتهـا الاعتـداء الثلاثي على مصر في عام 1956.

ومن الشـواهد، أن الدولة العباسـية قد أنفقت أموالاً لإنشـاء شـبكة من الطرق تربط بغداد بجميع أمصـار الدولة، وكانت تعرف بالسـكك، منها سـكة ربطت بغداد بالموصـل، وسـكة أخرى ربطت بغداد من ناحية الشـمال الغربي بدمشق وسواها من المدن السورية عن طريق الأنبار والرقة، وسكة ثالثة للحجيج من بغداد إلى مكة عن طريق الكوفة والبصرة، ومنها على الطريق إلى الحجاز.. وعلى الطريق أنشأت الدولة خانات وفنادق، وحفرت كثيراً من الأبار تيسيراً على الحجاج.. وبلغ من عنايـة الدولـة بالطرق العامـة أنها جعلت في مركز البريد ببغداد لوائح تدل على "السـكك" التي تخترق أمصـار الدولة مع بيان المحطات والأبعاد.. وكان رجال الدولة والتجار والحجاج يسـتعينون بهذه اللوائح، كما أصـبحت فيما بعد مرجعاً موثوقاً للكثير من المؤرخين والجغرافيين.. ولم تكن خدمة البريد قاصـرة على بغداد العاصـمة، بل كانت مراكز البريد في عواصـم الأمصار المختلفة.[1]

وعلى صـعيد النظام القضـائي، فقد أحدثت الدولة العباسـية سـابقة لم تظهر في الدول الأخرى إلا بعد قرون، فقد استحدثت منصب قاضي القضاة في

---

[3] **تاريخ المسعودي**، ص 98 وما بعدها.

[1] ابن خرداذبة، **في صفحات مختلفة**.

بغداد، وكان أول من تولى هذا المنصب هو القاضي الشهير أبو يوسف، وأصبح قاضي القضاة هو الذي يعين القضاة في الأمصار، بعد أن كان يعينهم الولاة في الأمصار، وكان للقاضي راتب عال يزيده حصانة وعفة، حتى أنه بلغ ما كان يتقاضاه القاضي بمصر أربعة آلاف درهم شهرياً[2] وهو راتب ضخم لا يتقاضاه القضاة في هذه الأيام. وبهذا تكون الدولة العربية الواحدة قد منحت القضاة استقلالا وحصانة، ووحدة، في جميع الوطن العربي، وهذا ما لا تتمتع به الأمة العربية المعاصرة تحت الحكومات العربية العشرين.

وكان في هذه الدولة الوحدوية دائرة هامة يرأسها "صاحب البريد والأخبار" وذلك هو لقبه الرسمي وهو ما يقابل "دوائر المخابرات" في الدول العربية المعاصرة، وكان يعنى بالبحث عن سلوك الموظفين وأعمالهم في جميع الأمصار وفي مقدمتهم الوالي نفسه.. وكان يعتمد في هذا المجال على التجار والدلالين والمسافرين، وعلى النساء الطاعنات في السن، لمعرفة كل ما يهم الدولة.. وكان المئات من الرجال والنساء يتجسسون أخبار العدو في الخارج وخاصة في بلاد الروم، متنكرين في زي التجار والأطباء وأهل الرحلة والأسفار. وفي مجال المباحث أو المخابرات، نجد اليوم أن الدول العربية العشرين الوحدوية تتبادل المعلومات فيما بينها بالقدر الأدنى على حين كانت الدولة العباسية الوحدوية تملك دائرة مركزية كبرى تحت تصرف الدولة الواحدة.

وتمتاز الدولة العباسية بإنها وضعت الوحدة العربية في إطارها الثقافي الحضاري، فكانت العروبة عندها بعيدة عن التمييز العنصري غير مبالية بصفاء الدماء أو عراقة الأنساب أو نقاء الأصول.. وقصة البرامكة في الدولة

---

[2] السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج2، ص100.

العباسـية، شـاهد على ذلك، وإن لم يعالجها كثير من المؤرخين من هذه الزاوية ..

والبرامكة تولوا الوزارة لسـنين طويلة في عهد الخلفاء: المنصـور، والمهدي، والهادي، والرشـيد. وكان جدهم خالد بن برمك فارسـيا شـيعياً، وبرمك معناها سـادن المعبد البوذي، وكانت تلك وظيفة والد خالد في بلخ.. عاصـمة ولاية خراسان.

والواقع أن البرامكة أصـبحوا عرباً بالاسـتعراب، فكانوا على جانب عظيم من العلم والكفاءة والثراء، فبنوا القصور والمدارس والجوامع، وأغدقوا على العلماء والشـعراء، وامتلأت كتب التراث العربي بأخبار مكارمهم وعظيم أفعالهم، وقامت بينهم وبين الخلفاء صـلات من الود والتعاطف، ونشـأت بين أولادهم أخوة الرضاعة، ولهذه الرابطة عند العرب حقوق وواجبات.

وفي عهد هارون الرشـيد وقعت على البرامكة الواقعة وهي التي عرفت في التاريخ العربي بنكبة البرامكة، وبكاها المؤرخون والشـعراء على السـواء.. فقد غضـب الخليفة على يحيى البرمكي وأولاده، وصـادر ضـياعهم وقصـورهم وغلاتهم، ومعها أموالهم التي أربت على ثلاثين مليون دينار.[1] وقضـى يحيى نحبه في السجن ومعه ابنه الفضل.

وذكر المؤرخون طائفة من الأسـباب عن نكبة البرامكة، والكثير منها غير صـحيح.. والصـحيح أن البرامكة لم ينكبوا بسـبب أصـلهم الفارسـي، أو معتقدهم الديني، ولكنه الصـراع على الحكم هو الذي أودى بهم، فقد بلغوا من النفوذ بحيث أنهم أصـبحوا يشـاركون الخلفاء ملكهم.. وإذا كانت قد وقعت حرب

(1) **تاريخ الطبري**، ج 3 ص 680.

أهلية بين الأخوين المأمون والأمين نزاعاً على الخلافة ولم ينته هذا الخلاف الدموي إلا باغتيال الأمين (813) واعتلاء المأمون على العرش، أصبح من اليسير علينا أن ندرك أن البرامكة العرب المستعربين، جنى عليهم نفوذهم وسلطانهم، لا حسبهم ولا نسبهم، ولا أصلهم الفارسي ولا مذهبهم الشيعي..

وكائنا ما كان الأمر فإن قيام البرامكة في موقع السلطة العليا في بغداد هو ممارسة فعلية للمعنى الحضاري للوحدة العربية، بعيداً عن العصبية العنصرية..

والواقع أن الدولة العباسية قد أكدت هذا المضمون الحضاري للقومية العربية، وهو مفهوم أصيل سبق العباسيين بأجيال.. إنه جزء من التراث العربي منذ أحقاب عريقة.. ذلك أن العرب قد عرفوا أنفسهم بأنفسهم منذ القدم بأنهم قسمان.. العرب العاربة وأبوهم قحطان، والعرب المستعربة وأبوهم عدنان.. ولذلك حديث طويل لا مجال لسرده.. ولكن المهم أن الاستعراب قديم في الأمة العربية وهذا ما لم تفعله أمة أخرى. وأن الاستعراب ظل ولا يزال "عملية" قائمة مستديمة... واعتلاء البرامكة أعلى مناصب الدولة كان من أبرز مظاهر الحكم العربي الوحدوي في الدولة العباسية .. وسيظل مصدر الهام للأجيال العربية المتلاحقة.

ومن غير أن يكون للدولة العباسية دستور مكتوب فلم يكن للتمييز العنصري أو الطائفي كذلك أي مكان في الحياة العامة، فقد بقيت الجماعات غير العربية في الدولة محافظة على تقاليدها ولغاتها الأصلية، وبهذا استمرت اللغة السريانية في سوريا والعراق متداولة إلى زمن غير قليل، وعاشت اللغة القبطية في مصر حقبة يسيرة ..

هذا بالنسبة للأقليات اللغوية، أما بالنسبة إلى الأقليات الدينية فإن الأمر كان واضحاً كل الوضوح، فقد تقلد النصارى واليهود مناصب هامة في دوائر الدولة وفي مجال المهن الحرة، وكانت الحرية الدينية متوافرة إلى أبعد الحدود، تشهد على ذلك النقاشات الدينية التي كانت تجري في قصور العباسيين، ومثل واحد على ذلك أن بطريق النساطرة ألقى دفاعا عن النصرانية أمام الخليفة العباسي المهدي، والنص الكامل لهذا الدفاع موجود في المراجع التاريخية القديمة .. ومثلها مناظرة جرت عام (819) في حضرة المأمون للمقابلة بين محاسن الإسلام والنصرانية[1]، وفي النصف الثاني من القرن التاسع تولى عدد من النصارى مناصب وزارية، وفي عهد الخليفة المنتصر تولى نصراني معروف رياسة المكتب الحربي للجيش[2] وهو منصب خطير ينم عن ثقة الدولة بالمواطن، وإخلاص المواطن للدولة.

وكذلك فقد كان لليهود مقام مرموق في الدولة، ويكفي أن نعلم أنه كان في بغداد، حسب رواية الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي، عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرون كنيسا، كما وصف كيف كان يعامل بالاحترام والتقدير رئيس الملة الإسرائيلية في بغداد، وما كان يملك من قصور ودور ومزارع وأموال وافرة، وكيف كان يذهب إلى الخليفة في موكب رسمي كبير يحيط به رهط من الفرسان، وأمامه حاجب يصيح بأعلى صوته "افسحوا دربا لسيدنا ابن داود".[3]

---

(1) **رسالة عبد المسيح بن اسحاق الكندي.**

(2) ياقوت ، **أدباء**، ج 2، ص 259. **الفرج بعد الشدة ج** 2، ص 149.

(3) **رحلة بنامين التطيلي، طبعة بغداد**، ص 120 وما بعدها.

كان لا بد أن ننبش هذه الوقائع من جوف التاريخ جواباً عن السؤال الذي يتردد على الدوام كلما ثار البحث عن الوحدة العربية: وماذا تفعلون بالاقليات في الوطن العربي..؟ لقد أجاب التاريخ الغابر على هذا السؤال المعاصر..

ولكن أعظم انجازات الدولة العباسية، وأخلدها في صفحات التاريخ الإنساني، كان في مجالات العلم والثقافة والفنون على الصعيد العالمي، وكانت بغداد العاصمة هي قطب الرحى في هذه الإنجازات الخالدة.. وهي من غير شك حصيلة الثورة الفكرية والبشرية والمالية التي كانت تحت تصرف الدولة الوحدوية.. وماكانت لتكون لولا الوحدة..

ولسنا في حاجة إلى توكيد هذا المعنى، ونحن لا نقوله تعلقا بالوحدة، أو غراماً بها، أو اسرافاً في مزاياها.. فإن الدارس الباحث للإنجازات العلمية الضخمة التي قامت بها الدولة العباسية وخاصة في عهد المأمون (813) لا يستطيع أن يجد تفسيراً عاقلاً لهذه النهضة الفكرية إلا أنها "المجموع" العام لقدرات الأمة الواحدة، والدولة الواحدة.. وحسبنا أن نتخيل للحظة واحدة ان بغداد المأمون كانت عاصمة العراق وحده.. إذن ما استطاعت أن تحقق عشر معشار تلك النهضة الفكرية العالمية، التي أصبحت فيما بعد قاعدة كبرى للحضارة الإنسانية المعاصرة.. ولكن بغداد كانت يومئذ عاصمة للوطن العربي كله، وللأمة العربية بأسرها، وبهذا، وبهذا وحده استطاعت أن تحقق ذلك الإنجاز بل الإعجاز في ميادين العلم والمعرفة.

ولا يتسع المقام للكلام المفصل عن النهضة الفكرية الضخمة التي نمت في عهد الدولة العباسية ، فالمؤلفات العربية والأجنبية في هذا الموضوع

تزين جدران المكتبات العامة، ويكفي في كلمة موجزة أن نشـــير إلى أن الثقافة القديمة اليونانية والهندية والفارســـية التي كانت مطمورة في الأديرة والمخازن المتنوعة، قد جمعت في بغداد، وترجمت وهذبت، ولخصـت ثم توجت بأصـناف علمية بارعة.. وأصبح ذلك كله فيما بعد أساساً لليقظة الفكرية في أوروبا.. ومن أوروبا كان الأشعاع إلى اقطار الأرض.

وكما اجتذبت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية النخبة الرفيعة من علماء الألمان واســـتخدمتهم في مجالات العلم المختلفة، فكذلك بغداد في العصـور الوسـطى، فقد اسـتقدم الخلفاء العباسـيون العلماء والمترجمين من كل الأرجاء وبدأت حملة كبرى للترجمة والتأليف امتدت طيلة قرن من الزمان.. وأنشـــأ المأمون على وجه التحديد معهداً كبيرا أســـماه "دار الحكمة" في بغداد (830) للقيام بهذا النشـاط العلمي الضـخم، وألحقت به مكتبة كبرى ودار للعلم، فكانت دار الحكمة من أكبر المعاهد العالمية التي عرفها تاريخ الفكر الإنساني.

وكان أولئك التراجمة من طبقة العلماء.. فهذا شـيخهم حنين بن اسـحاق (809 – 873) كان من أكابر علماء الطب، وقد اسند إليه المأمون رياسة دار الحكمة وعمل معه في هذا الجهد الجليل ابنه وابن أخته وكان تحتهم مئات من النقلة والكتاب، وروي عن المأمون أنه كان يعطي رئيس دار الحكمة، بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب[1]. والحكام العرب المعاصـرون لا يعطون ما زنته ذهباً ولا حطبا، ويكفي أن ينجو المؤلفون من القيود والحدود.

وفي هذا المناخ العلمي الذي أوجدته الخلافة العباسية تفجرت العبقريات العلمية متجاوزة حدود الدولة وزمانها، فظهر الرازي وابن ســـينا وهما من أكبر

---

[1] ابن أبي أصيبعة، ص187.

علماء الطب في ذلك العصر، ولهما صورتان كبيرتان تزينان القاعة الكبرى في مدرســـة الطب بجامعة باريس، وقد ترجمت كتبهما إلى اللغات الأوروبية وظلت تدرس في الجامعات الغربية إلى القرن السابع عشر.. ونبغ الكندي الذي أصبح يلقب "فيلسوف العرب" وكان فيلسوفاً ممتازاً وعالماً بالفلك والبصريات والموسيقى وانتشـرت كتبه في الغرب وتأثر بها علماء أوروبا إلى حد بعيد.. وكذلك الفارابي الذي أصـبح يعرف "المعلم الثاني" بعد أرسـطو.. وكذلك البتاني أعظم فلكي في الإسـلام. والبيروني أعظم بحاثة وعالم في العلوم الطبيعية والرياضـية، دراسـة وابتكارا.. والخوارزمي أبرز شـخصـية في تاريخ الرياضـيات القديم واحد كبار المفكرين العالميين.. وغير هؤلاء كثيرون ممن قدموا للإنسـانية ثروة ضـخمة في مختلف المجالات العلمية.. وممن يصـــح اعتبارهم أعمدة النهضـــة الفكرية التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية المعاصرة.

ولقد كانت هذه النهضـــة العلمية الكبرى من صـــنع التراجمة والعلماء والباحثين والدارسين.. وهؤلاء جميعاً من صنع الخلفاء العباسيين.

وهؤلاء وأولئك هم نتـاج الوحدة العربيـة ممثلـة في دولـة واحدة ووطن واحد، وأمـة واحدة، ولولا الوحدة ما كان ذلك كله.. ولولا الوحدة لتأخر انبثاق الحضـــارة المعاصـــرة إلى قرون أخرى وأجيال، وبهذا كانت الوحدة العربية خيراً على العرب وعلى العالم أجمع.

ولقد هدمت بغداد عام 1258 على يد التتار[1] وهدمت معها قصـــورها الرائعة وبســـاتينها اليانعة، وحماماتها البديعة، ودار الحكمة ومعها الجامعتان الشـهيرتان النظامية والمستنصـرية، واشـتعلت الحرائق في بغداد فلم تترك عامراً

---

[1] ابن أبي أصيبعة، ص 187.

إلا وقد أنزلت به الخراب، ولكن الذي لم يســـتطع التتار أن يبيدوه ويحرقوه هو التراث العلمي العالمي الذي صـنعته بغداد.. واسـتطاعت بغداد أن تصـنعه في ظلال الوحدة.. ومن غير الوحدة لم يكن ميسـورا للأمة العربية أن يكون لها ذلك التراث الضخم، وذلك الدور الطويل العريض العميق في حضارة الإنسان.

وقد يلاحظ المواطن العربي أنني أشــرت إلى الوحدة عند كل مقطع في هذا الفصـــل وان عبارة الوحدة تكررت مرات ومرات.. ولســـت أنكر هذه التهمة الكريمة، ولنا الأســـوة الحســـنة في القرآن الكريم أعظم تراث عربي على وجه الأرض .. ففي سورة الرحمن وردت آية "فبأي آلاء ربكما تكذبان" إحدى وثلاثين مرة، والسورة في مجموعها سورة قصيرة..

وما أجدرنا أن نكرر للمشـــككين والمنكرين الوحدة العربية مرة بعد مرة، بل أن نصيح في اسماعهم وقلوبهم" فبأي آلاء ربكما تكذبان.." أما على الصعيد الداخلي فقد أصـيبت الدولة العباسـية بنكسـات متواليات ألحقت بالوحدة العربية شـروخاً شـديدة، فقد أخذ الأمراء في الأمصـار يوطدون سـلطانهم ويجنحون إلى "اللامركزية" في تعبير اليوم ثم إلى الانفصـــال.. وفي إطار هذا المناخ نشـــأت دويلات في الوطن العربي: دولة الأدارسـة في المغرب وعاصـمتها فاس.. ودولة الأغالبة في تونس وعاصـمتها القيروان والدولة الطولونية وبعدها الأخدشـية في مصر. والدولة الحمدانية في شمال سورية...

ورغماً عن موجة الانفصـــال هذه فقد بقي الخليفة العباســـي يتمتع بنفوذ ديني كبير، ويخطب باسـمه الأئمة بالمسـاجد، وتضـرب النقود باسـمه.. فضـلا عن أن بعض الامصـــار قد عادت إلى حوزة الدولة العباســـية من حين لآخر، وأصـــبح وضـــع الدولة العباســـية في أواخر أيامها أشـــبه بالنظام الفدرالي أو

الكونفدرالي. ولم يكن ذلك النظام معروفاً في ذلك العهد، بل لم يكن القانون الدولي موجودا.

غير أن أكبر وأخطر انفصال أصاب الدولة العباسية هو قيام الدول الفاطمية في الشمال الأفريقي ومصر (909 – 1171) فقد نشأت خلافة إسلامية جديدة ينتسب أصحابها إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) منافسة للخلافة العباسية في بغداد.

وفي هذه الحقبة وقعت الحروب الصليبية، واحتل الفرنج ديار الشام من طوروس إلى العقبة على البحر الأحمر، وأقاموا فيها دولا وإمارات، وأوغلوا في غزواتهم حتى وادي النيل، وكان الوطن العربي تتنازعه خلافتان: الفاطمية في القاهرة، والعباسية في بغداد، وعدد من الملوك والأمراء في ديار الشام.. وكان طبيعياً والوطن العربي تسوده تلك التجزئة الرهيبة، أن يكون النصر للإفرنج وأن تكون الهزيمة للعرب.

ولكن الوحدة العربية عادت من جديد على يد البطل العبقري صلاح الدين الأيوبي، فأطاح بالدويلات والإمارات العربية، وقامت الدولة الأيوبية باسطة سلطانها على برقة ومصر والسودان والجزيرة العربية والشام والعراق، وأنزل صلاح الدين بالإفرنج هزيمة كبرى في معركة حطين الفاصلة (1187) فاسترد بيت المقدس وأعادها إلى الحظيرة العربية، وجاء هذا النصر المؤزر دليلا آخر على أن الوحدة هي طريق النصر، كما كانت التجزئة سبب الهزيمة.

واستكمالا للوحدة، فقد ألغى البطل المجاهد الخلافة الفاطمية وأعاد الأمر إلى الخلافة العباسية، ونعم الوطن العربي بالوحدة بعد أن حرم منها زمناً غير قليل.

ونزل صـــلاح الدين الأيوبي في التاريخ العربي بطلا من أبطال الوحدة والتحرير، كما عرفه التاريخ العالمي كأعظم شـــخصـــية عالمية في العصـــور الوسطى.

ويكفي أنـه ترك للأمـة العربيـة تراثاً في تمجيد الوحدة وتوكيد مزاياها، نجده في تضاعيف الرسائل التي كان يبعثها إلى الخليفة العباسي في بغداد، من ميـدان المعركـة وهو يصـــــارع الإفرنج، يـدك قلاعهم وينزل بهم الهزيمـة تلو الهزيمة. ولعل أروع ما جاء في تلك الرســـائل قوله: ".. ولو أن أمور الحرب تصـلحها الشـركة لما عز علي أن أكون كثير المشـاركين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة".[1]

وفي رسالة أخرى إلى الخليفة العباسي يقول صلاح الدين، بعد أن توحد الوطن العربي بين يديه : " ولما لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا، أو يد مطيع لنا، كان من شـكر هذه النعمة أن تصـرف القوة للإفرنج الملاعين، ننازلهم وننازعهم، فنطهر الأرض المقدسة من رجسهم بدمائهم.."

وهكذا كان، فقد اســـتطاع صـــلاح الدين بعد الوحدة أن ينازل الإفرنج ويطهر الأرض المقدســة بدمائهم. وقد انتصــر صــلاح الدين بالوحدة، وبالوحدة وحدها انتصـــــر[2] وكان ذلك الدرس الرائع هو أعظم ما قدمه التاريخ إلى الأمة العربية ..ما أعظم صلاح الدين، وما أهون الحكام المعاصرين.

---

[1] ابو شامة، **كتاب الروضتين**، ص 48.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص49.

الوحدة العربية ..

من بغداد إلى القسطنطينية

في أوائل القرن السادس عشر للميلاد شهد التاريخ موكب الوحدة العربية ينتقل من بغداد على ضفاف دجلة إلى القسطنطينية على ضفاف البسفور، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأمة العربية وامتدت اربعمائة عام من غير زيادة ولا نقصان، كأنها في حساب مع الزمان.

وقد يعجب المواطن العربي أشد العجب حين يقرأ هذا العنوان الصارخ، يباغته من غير مقدمة ولا ديباجة، ويصيح في أذنه بأن الوحدة العربية قد ارتحلت من بغداد واستقرت في القسطنطينية.

ومع العجب تثور طائفة من التســـاؤلات تتلجلج في صـــدر المواطن العربي وهو يجهد عقله باحثا عن جواب عاقل رشـيد.. كيف يمكن لهذه المدينة التي بناها الإغريق من قديم الزمان وكانت مقر الدولة البيزنطية لعدة قرون، أن تصبح في جرة قلم، وبعنوان مثير، عاصمة للوحدة العربية؟؟

وكيف يمكن أن تصبح القسطنطينية مقرا للوحدة العربية وهي التي بناها قسطنطين الأكبر في القرن الرابع للميلاد وسميت يومئذ باسمه، وأصبحت فيما بعد عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية.. هذه القسطنطينية كيف يتصور العقل أن تغدو عاصـــمة للوحدة العربية، بعد أن كانت في المدينة المنورة أيام الخلفاء الراشدين، وفي دمشق أيام الأمويين، وفي بغداد أيام العباسيين..

ولكن الوقائع التاريخية تبدد العجب مهما كان ثقيلا، بل إنها لتضـــع المواطن العربي أمام حقيقة أخرى، وهي أن القسطنطينية لم تكن عاصمة الوحدة العربية فحســـب بل كانت آخر عواصـــمها، ومن بعدها بدأت مرحلة التجزئة والانفصال التي لا نزال نعيشها إلى يومنا هذا..

وليس يكفي أن نعود إلى "حوادث" التاريخ لنعرف موقع القســـطنطينية من الوحدة العربية، وإنما يجب علينا أن نعود إلى "روح التاريخ" كما تتجلى في ضمير البشر الذين صنعوا ذلك التاريخ، وبذلك نستطيع أن نتحسس جوارحهم، نتجسس على خلجات قلوبهم.. ونحن إن لم نفعل ذلك يصبح التاريخ بلا جدوى ولا معنى!!

ومن هنا يتعين علينا أن نتعرف على مشـــاعر أمتنا العربية في تلك الحقبة التاريخية، مشاعرها التي عاشتها وأحست بها وتفاعلت معها ونتج عن ذلك محور تفكيرها وتدبيرها، وقاعدة سلوكها القومي العام.

ومن هنا، كذلك، يكون السـؤال العادل مطروحا على الوجه الآتي: هل كانت أمتنا العربية تنظر إلى القسـطنطينية كعاصـمة للوحدة العربية، في تلك الحقبة من الزمان؟

والسؤال مهم من غير شك، ولكن الجواب أهم.. لا من الناحية العلمية المجردة فحسـب .. بل من الناحية القومية العليا.. فإن الجواب سـلباً أو إيجابا، يتصل بناحية هامة لا يمكن إغفالها، بعد أن أمعن كثير من الباحثين والدارسين في النظر إليها من غير روية.. وكان القارئ العربي هو الضـحية الهينة البريئة..

وحتى أولئك المؤمنون الصـادقون بالوحدة العربية، من الخطباء، والكتاب، لا يفتأون يسـردون على التعاقب الغزوات التي حلت بالأمة العربية فيذكرن الأحباش والفرس واليونان والرومان ثم يضمون إلى القافلة "والعثمانيون".. كأنما انتهت السيادة العربية في أيام العثمانيين وانتهت بذلك الوحدة العربية..

وقد يبلغ الجهل ببعض الكتاب في مصـر، فيقول من باب التفاخر إن مصـر كانت دائماً مقبرة للغزاة، وهضـمتهم واحدا بعد واحد كما جرى مع الفرس واليونان والرومان "والعرب" والعثمانيين ..

ويبلغ التباهي ما هو أشـنع من الجهل حينما يصـيح كتاب آخرون ويقولون، إن الرئيس عبد الناصر كان أول انسان مصري حكم مصر منذ عهد الفراعنة، وهو بهذا يلغي من تاريخ مصـر مئات من السـنين كان الحكم فيها عربياً، بل مصرياً في الصميم وفي أضيق معاني مصر والمصرية..

ومن أجل ذلك وجب علينا ان "تنسـل " من أثوابنا وبيئتنا ومناخنا ومن كل الظروف العقلية والوجدانية التي نعيشـها اليوم لنعود إلى أمتنا في تاريخها

الماضـــي، ونعيش مع أســلافنا "نتســلل" إلى ثيابهم فنلبســها ونعيش في بيئتهم ومناخهم ونضع أناملنا على نبضاتهم لنتعرف على أحاسيسهم هم وخواطرهم .. ففيها القول الفصل، وليس بعده من قيل أو قال ..

وخواطرهم هم، أسـلافنا، إزاء القسـطنطينية مرت بمرحلتين متناقضـتين تناقض الســـواد والبياض، ففي المرحلة الأولى كانت الأمة العربية تنظر إلى القســطنطينية نظرة عداء بالغ، تماماً كمشــاعرنا اليوم إزاء إســرائيل. فقد كانت القســطنطينية من حواضــر اليونان، ثم أصــبحت عاصــمة البيزنطيين (الروم) وهؤلاء وأولئك احتلوا الوطن العربي قرونا عديدة، ولما خرج العرب من جزيرتهم في مسيرتهم الكبرى على درب الوحدة والتحرير لم يجدوا مناصا من أن يطاردوا الروم المنهزمين أمــام الزحف العربي، ويضـــــربونهم في عقر دارهم، في القسطنطينية، لا ثأراً وانتقاما، بل استئصالا لشرهم إلى الأبد.

ففي عهد معاوية الخليفة الأموي الأول زحفت القوات العربية عبر بلاد الأناضول مستهدفة احتلال القسطنطينية، ووقعت حول أسوارها مع الروم معارك ضارية سقط أثناءها الصحابي أبو أيوب الأنصاري شهيدا عند أبوابها الخارجية، ولم تحقق الحملة هدفها، وتوالت الحملات العربية بعد ذلك من الأمويين إلى العباســيين حتى بلغت خمســاً كان آخرها في عهد هارون الرشــيد حين عبرت القوات العربية مضيق البوسفور وأحدقت بالقسطنطينية دون ان تستطيع اقتحامها واحتلالها.. وبذلك انتهت هذه المرحلة دون أن تفلح الأمة العربية في تحقيق أهدافها، ومضـــت على ذلك عدة قرون، والتطلع إلى القســـطنطينية يتأجج في الصـدور، يملؤها فيض من المشـاعر الدينية تبعثها أحاديث نبوية شـتى تتحدث عن فتح القسطنطينية على يد المسلمين،.. ولا يهمنا في هذا المقام أن ننكرها أو

نثبتها، فالواقع أن عامة الناس كانوا يثقون بتلك الأحاديث ويتوقعون وقوعها عاجلاً أم آجلا.

وجاءت المرحلة الثانية في أواسط القرن الخامس عشر (1453) حين "تحققت" الأحاديث النبوية، وتم فتح القسطنطينية واحتلالها على أيدي العثمانيين، وعمت البهجة أرجاء الوطن العربي، وتنادت الأمة العربية بالبشائر أن تم الأمر أخيرا بهزيمة الروم وزوال دولتهم واحتلال عاصمتهم، وكان ذلك في عهد أحد سلاطين آل عثمان، لقب بالفاتح، وهو لقب ينطوي على معانٍ عميقة في نفوس الأمة العربية، زاد من روعته أن ذلك السلطان يحمل اسما عربيا مجيدا هو "محمد الثاني" وجده الأعلى "عثمان" اسم عربي له تاريخه..

ولم تكن أخبار هذا الفتح ولا أخبار أولئك العثمانيين غريبة عن اسماع الأمة العربية وعواطفها، فمنذ القرن العاشر للميلاد بدأت أخبار هؤلاء العثمانيين تنساب إلى الوطن العربي، منذ ان كانوا قبائل نزحت من أواسط آسيا واعتنقوا الدين الإسلامي، وراحوا يقومون بالغارات تلو الغارات على بلاد الروم أعداء العرب التقليديين.

وقد زاد من مشاعر التعاطف بين العثمانيين والعرب، بالإضافة إلى الأخوة الدينية التي جمعت بينهما ولا ننسى أثرها الكبير في ذلك العصر، أن راح العثمانيون وهم يزحفون على بلاد الروم، العدو المشترك، يمدون حبال الود إلى "إخوانهم" العرب، فيبعثون إليهم بالرسل والرسائل يحملون إليهم البشائر والهدايا كلما فتحوا بلدا من بلاد الروم أو دكوا حصنا من حصونهم.

وكانت هذه الرسائل باللغة العربية، مكتوبة بلغة الدواوين الفصحى خلفها التاريخ بعضها للدرس والتأمل. ومنها كتاب من السلطان مراد الثاني،

معنون إلى "عزيز مصـــر الملك الأشـــرف" يبشـــره بفتح إحدى القلاع في نهر الدانوب، (1427) يقول فيه: ".. فتوجه السلطان – متوكلا على الله مع عساكر الموحدين المجاهدين إلى الجهاد، وأعلاء كلمة الحق ونصـــرة الدين.. وســـار العساكر المحمدية إلى جزيرة في وسط ماء "طونة" (الدانوب) وبنصر من الله وفتح قريب فتحوها.. وخربوا دورهم وقصـــورهم.. وقذفوا في قلوبهم الرعب .. وفروا (العدو) إلى أقصى بلادهم.. كما أن الشيطان يفر من ظل سيف عمر، رضي الله عنه، وملك (الأعداء) لما سمع خبر جهاد عساكر الموحدين.. مات فجأة، ببركة معجزة محمدية، وهيبة صيت إسلامية.." وتلت هذه الرسائل تسع رسائل أخرى تم تبادلها بين السلطان مراد الثاني وعزيز مصر الملك الأشرف، وكلها بشائر بالفتوح والانتصارات.

ولكن البشرى الكبرى جاءت يوم فتح القسطنطينية فقد بعث محمد الفاتح إلى عزيز مصر رسالة تفيض بالفخر يستشهد فيها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويصف أسلافه بأنهم "مجاهدون في سبيل الله".. ويقول بعد الديباجة المنمقة بالســـجع المألوف" ..فهممنا هذا العام.. إلى أداء فرض الفداء في الإســـلام.. وجهزنا عســـاكر الغزاة والمجاهدين في البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً والتي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً، ما ظفروا بها أســـلافنا العظام.. مع أنهم جاهدوا حق الجهاد.. وهي قلعة عظيمة مشـــتهرة في ألسنة أهل الأرض، باسم القسطنطينية.. ولا يبعد أن تكون هي التي نطق بها صـــحاح الأحاديث النبوية والأخبار المصـــطفوية.. ولقد جرى القتال بيننا وبينهم أربعة وخمســـين يوماً وليلة.. وبالحكم الصـــديقي وبركة العدل الفاروقي

وبالضـــرب الحيدري لآل عثمان قد من الله بالفتح قبل أن ظهرت الشـــمس من مشرقها..

وكذلك فقد بعث السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة، يبشر بفتح القسطنطينية ويرسل إليه هدية من غنائم الفتح ، ويقول في الرسالة، بعد التفخيم والتعظيم لشـــريف مكة وللحرمين الشـــريفين، وبعد شـــرح النصـــر المؤزر، وتسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية.. "وبعثنا لكم خاصة ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والمعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلوري آخر إلى الفقراء في المكة المعظمة والمدينة المنورة..".

ثم يجيب شريف مكة برسالة إلى السلطان محمد الفاتح.. بأنه قرأ رسالة الفاتح "مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب.. وشـــاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رســـول الله خاتم النبيين، وما هي إلا فتح القســـطنطينية العظمى وتوابعها.."[1]

ونســتطيع أن نتصــور حقاً، بعيداً عن الخيال المجرد، أن الأمة العربية قد اعتبرت فتح القســـطنطينية نصـــرا كبيرا لها، وأن تصـــبح أخبارها وبطولاتها قصصا شعبياً يسمر به الناس في الليل والنهار.

وكان عبور البوسفور من قبل العثمانيين إلى الضفة الأوروبية، إذا شئنا المقارنة بالحاضر، شبيها بالعبور المصري العظيم في حرب رمضان المجيدة وما فجر من مشـــاعر الغبطة والابتهاج والاعتزاز، مع اختلاف الظروف والأهداف...

---

[1] ســـاطع الحصـــري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ص 20، وما بعدها وهو نقلها عن المراجع التركية.

وقد زاد من هذا السـرور أن آل عثمان قد ابتدعوا للقسـطنطينية اسـما مثيراً يبعث على الفخر والاعتزاز فقد كان اسـمها الإغريقي القديم اسـتانبول فجعلوه (إسـلام بول) أي مدينة الإسـلام، وكان لهذا الاسـم الجديد فعل السـحر في صـفوف الجماهير العربية في عصـر كان للدين فيه سـلطان جارف على النفوس.

وبلغت العواطف ذروتها حينما قام ابن محمد الفاتح (با يزيد الثاني) (1481) لنجدة الدولة العربية في غرناطة، فأرسل أسطوله إلى شواطئ إسبانيا، فأنزل الخراب والدمار في موانيها وحصونها.

ومن الأحداث المثيرة، كذلك، أن سـلاطين آل عثمان كانوا يبعثون بأسرى الحرب إلى البلاد العربية ليعرضوا أمام الجماهير، ومن ذلك أن السلطان با يزيد أرسل عددا من الأسرى إلى السلطان ضاهر سيف الدين برقوق سلطان مصـر، وقد جرى في أسـواق القاهرة اسـتعراض كبير لهؤلاء الأسـرى وهم بكامل أسلحتهم ومعداتهم[1] ..

ومضـت مائة عام على هذا الحال.. إلى أن جاء الصـيف من عام 1517 ليشهد حدثاً هاما سجل منعطفا تاريخيا في حياة الأمة العربية والعثمانيين معاً فقد نشبت حرب بين الفرس والعثمانيين، وهب سلطان مصر قانصوه الغوري لنجدة حلفائه الفرس، وخرج بجيش كبير من مصـر ومعه الخليفة العباسـي المتوكل على الله، ولكن سرعان ما نشبت المعركة بين سلطان المماليك وسلطان العثمانيين، وهي المعركة الشـهيرة في التاريخ المعروفة بمعركة مرج دابق، وهو موقع على مسـيرة يوم من حلب شـمالاً.. وانتهت المعركة بانتصـار كبير

---

[1] زين نور الدين، **نشوء القومية العربية**، ص 175.

للعثمانيين، ودخل السلطان سليم إلى حلب واحتفلت الجماهير بمقدمه، احتفالا منقطع النظير.

ولم تمض إلا أيام حتى سقطت حماه وحمص ودمشق، واجتازت الجيوش العثمانية صحراء سيناء واشتبكت مع المماليك في معركة الريدانية وكان النصر فيها حليف العثمانيين، وبعد بضعة أيام وقعت القاهرة في قبضة أيديهم، وانتشرت السيادة العثمانية بعد ذلك انتشار المروحة على البلاد العربية، فشملت العراق (1534) وعدن (1547)، والحسا (1556م) ووهران وتلمسان في الجزائر (1556).

وبدأت مرحلة جديدة للعثمانيين، فقد ذكرت جميع المصادر التاريخية أن آخر الخلفاء العباسيين في مصر، المتوكل على الله قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم العثماني.. وان شريف مكة قد بادر إلى تسليم مفاتيح الكعبة ومعها الآثار النبوية إلى السلطان العثماني، وبهذا انتقلت الخلافة الإسلامية من أيدي العباسيين إلى أيدي العثمانيين، وأصبحت القسطنطينية العاصمة الجديدة للخلافة، وانطلق الخطباء في المشرق العربي ومغربه، يدعون للخليفة العثماني في المساجد في صلاة الجمعة مرددين ألقابه الفخيمة، ومنها "خادم الحرمين الشريفين وحامي بيت المقدس الشريف".

والواقع أن الأمة العربية كانت مبتهجة بانتقال الخلافة إلى العثمانيين الذين كانوا يمثلون القوة والمنعة، ثم النصر تحت راية الإسلام، وكذلك فإنها رأت فيهم المنقذ من ظلم المماليك الذين كانوا يحكمون معظم البلاد العربية وأنزلوا فيها الوهن والانحطاط.. ونحن نقرأ ما قاله أحد المؤرخين القدامى عن سلطان مصر أن "مدة سلطنته على الديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة

وتسعة أشهر وخمسة وعشرون يوما، فكانت هذه المدة على الناس، كل يوم منها كألف سنة مما يعدون.." [1]

والواقع كذلك ان الأمة العربية كانت متعاونة مع العثمانيين لتحقيق النصر للعثمانيين ولم تر في ذلك غزواً أو احتلالاً للوطن العربي.

ومن الشواهد على ذلك أن حاكم حلب قد انضم ومعه قواته العسكرية إلى السلطان العثماني أثناء المعركة الفاصلة في مرج دابق، وكذلك فعل حاكم حماه[1]، وفي لبنان رحب الأمير فخر الدين الأول وزعماء لبنان الآخرون بالسلطان سليم ترحيباً حاراً، ويذكر التاريخ أن الأمير اللبناني قبل الأرض أمام السلطان سليم وألقى بين يديه خطاباً حماسياً بليغا أعلن فيه الولاء[2]، ومثل هذه الحفاوة البالغة جرت في جميع الأرجاء العربية في ديار الشام ووادي النيل.

أما بالنسبة للشمال الإفريقي فقد قامت الخلافة العثمانية بدور كبير في تحرير الجزائر وتونس وطرابلس الغرب من السيطرة الإسبانية التي كانت تعاود الكرة عليها من حين إلى حين، ففي السنة التالية لفتح مصر، (1518) هاجم خير الدين بربروس بأسطوله الضخم الجزائر وأجلى الأسبان عنها وأعلن ضمها إلى الدولة العثمانية، وتبع ذلك ضم تونس وطرابلس الغرب[3]، وكانت الأخيرة تحت سلطة فرسان القديس يوحنا من مالطة، فأخرجهم العثمانيون منها.

---

[1] ابن اياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، مجلد3، ص 58-68.

[1] المصدر نفسه، ج 5، ص 156،157.

[2] **تاريخ الأمير حيدر الشهابي**، ص 561.

[3] ساطع الحصري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ص 45.

ذلك كله جعل الأمة العربية متعاطفة مع الدولة العثمانية، وراضـــية أن توضـع الخلافة بين يديها، ناسية أو متناسية الشرط الديني المعروف بأن يكون الخليفة عربياً وقرشياً وهاشمياً، فإن الانتصارات التي حققها العثمانيون تحت راية الجهاد لم تترك مجالاً للنقاش حول شروط الخلافة ومؤهلات الخليفة .. فالنصر هو الفتوى حين تتقدم الفتوى .. واكتشـــفت الجماهير العربية أن شـريف مكة السـيد بركات قد سـلم مفاتيح الكعبة إلى السـلطان العثماني، ولا زيادة بعد ذلك لمستزيد...

ولذلك لم يكن غريباً أن يعتبر العرب أن الدولة العثمانية هي دولتهم وأن الخلافة هي خلافتهم، وأنهم هم رعاياها المفتخرون بانتصـــاراتها ..وقد أكد هذه المشـاعر أن "العرب والترك" قد أصـبحوا يعرفون "عثمانيين" من غير تمييز ولا تفريق، ذلك أن اسـم "عثمان" يروق للفريقين، فهو اسـم ثالث الخلفاء الراشـدين عند الفريق الأول، واسـم مؤسـس الدولة العثمانية عند الفريق الثاني، وكلاهما تجمعهما الرابطة الدينية الواحدة.

وإلى جانب الرابطة نشـــأت رابطة أخرى .. فقد أعتنق الترك الأبجدية العربية إلى جانب اعتناقهم الدين الإســـلامي، والأتراك منذ أن كانوا قبائل رحل في آسـيا الوسـطى لم تكن لهم أبجدية ، فلم يكن أمامهم إلا أن يتخذوا الأبجدية العربية، وهكذا كتبوا التركية بالعربية، ولولا ذلك لم يكن لهم علم ولا حضـــارة ولا تاريخ، وربما ذهبت حروبهم وانتصاراتهم من غير تدوين..

وبدأت اللغة العربية تغزو اللغة التركية بالآلاف من المفردات، وأقبل علماء الترك على تعلم اللغة العربية ليتفقهوا في الدين، وراح الشـــعراء الأتراك يتسـابقون في اسـتعارة التعابير العربية تجميلاً لقصـائدهم وإظهاراً لفصـاحتهم،

وكان السلطان سليم الأول قد فكر جدياً في جعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة العثمانية[1]، ولو أن تلك الخطوة قد تمت لاستعرب الأتراك، كما استعرب آخرون قبلهم وبعدهم، ولكان قد تغير تاريخ الدولة العثمانية وتغير معه تاريخ الأمة العربية.

واستقر في وجدان الأمة العربية أن الوحدة العربية قد اتخذت طابعاً جديداً في إطار الدولة العثمانية.. فقد أصبح الوطن العربي كله مشمولا بسيادة دولة واحدة، بعد أن تمزق الوطن العربي إلى دويلات وإمارات متباغضة متحاربة في أواخر عهد الدولة العباسية، وأصبح المواطن العربي ينتمي إلى دولة واحدة، وعلى الأخص إلى دولة قوية توغلت في أوروبا، فاستولت على مدينة بلغراد، وغزت هنغاريا واحتلت عاصمتها بودابست، وضربت الحصار على أسوار فينا.

وكان واقع السيادة العثمانية على الوطن العربي، غير غريب عن المواطن العربي، فقد بقي الحكم عربياً في الأقطار العربية، وكان أشبه بالاستقلال الداخلي ويتمتع بالسلطات الكاملة، فقد قامت على مدى أجيال متعاقبة شخصيات وأسر عربية أو مستعربة وتولت الحكم في الوطن العربي تحت الراية العثمانية التي تحمل في صدرها الهلال يضم النجمة بين طرفيه..

ففي مصر ظلت "سناجق" مصر الأثنا عشر تحت إدارة حكامها المحليين السابقين، وكان من أشهرهم علي بك الكبير (1769) وهو حامل لقب "سلطان مصر وحاكم البحرين (الأبيض والأحمر)"، وجاء من بعده أبو الذهب، وحكم من بعدهما محمد علي باشا الكبير (1805) وأسرته واستمرت في حكم

---

[1] دائرة المعارف البريطانية، مجلد 22، ص 593.

البلاد إلى أن جاءت ثورة يوليو الشهيرة التي قادها الرئيس الراحل المرحوم جمال عبد الناصر.

وفي سوريا أصبح الغزالي حاكم حماة نائباً للسلطان العثماني على ولاية سورية بأكملها، وفي أوائل القرن الثامن عشر تولى آل العظم الحكم في سورية ، ولا تزال قصورهم في دمشق وحماة من الآثار التاريخية المعروفة.

وفي لبنان تولى الحكم الأمير المعني فخر الدين الأول، وجاء من بعده الأمير المعني فخر الدين الثاني، وكان أعظم شخصية في تاريخ لبنان العثماني.. وبعدهما تولى الأمراء الشهابيون والمعنيون ينحدرون من أصول عربية.

وفي فلسطين قامت أسر محلية وحكمت المناطق التي تعيش فيها، كآل طوقان وعبد الهادي في أواسط فلسطين، وفي الثلث الأول من القرن الثامن عشر برز الشيخ ضاهر العمر وهو من الأسر القروية في البلاد وحكم المناطق الشمالية من فلسطين ولعب دورا بارزاً في تاريخ البلاد.

وفي العراق، كما كان الحال في مصر، تولى الحكام المحليون إدارة البلاد، وكان من ولاتها المشهورين مدحت باشا الذي عرف بإدارته الأمنية الحازمة، وهو صاحب المنشآت المعروفة باسمه حتى اليوم في العراق وديار الشام .. وقد اقترن الدستور العثماني باسمه، وكان " عثمانياً" أكثر منه تركيا، وقد شجع تأسيس الحركات العربية الحديثة..

وفي اليمن قامت إمامية دينية حكمت البلاد عدة قرون، وكان آخرها الإمامية المتوكلية ومن أئمتها الأمام يحيى حميد الدين (1904)، وخلفه من

بعده أحد أولاده الإمام أحمد، وكان آخر آل حميد الدين وانتهى أمرهم بعد الثورة التي قادها المشير عبد الله السلال.

وفي الحجاز تولى الحكم أسرة الأشراف المنتسبين إلى الرسول فقاموا على إدارة مكة والمدينة المنورة، وكان أخرهم الشريف حسين الكبير الذي انضم إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، بعد أن أعلن الثورة على العثمانيين ..

وفي نجد وأواسط الجزيرة العربية تولت الأسرة السعودية حكم البلاد وكان أولهم محمد بن سعود (المتوفى 1865) واستطاعت في عهد الملك عبد العزيز أن توحد معظم أجزاء الجزيرة العربية ..

وفي حائل كان الحكم لآل الرشيد... وفي عسير كان الحكم للأدارسة، وفي طرابلس الغرب كان الحكم لأل القرمنلي.. وكذلك الحال في تونس والجزائر، يحكم الباي وأسرته في الأولى، والداي وأسرته في الثانية.. أما في أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية وفي مناطق الخليج العربي، فقد تولى الحكم شيوخ وأمراء، وأسر معروفة، منها آل الصباح، وآل خليفة، وآل سعيد وغيرهم كثيرون.

ويتبين من هذا كله أن الأقطار العربية كانت تحكم نفسها بنفسها في ظل الدولة العثمانية، ولم تكن العلاقة بين الأمة العربية والأتراك علاقة حاكم ومحكوم بالمعنى الاستعماري الأوروبي المعروف، بل كانت علاقة متساوية تجمعها رابطة "العثمانية" في مواطنة واحدة ، ليست عربية منفصلة ولا تركية منفصلة، وهي أشبه ما تكون بالدولة الثنائية، يكون فيها الحكم للشعبين.

وقد كان هذا المعنى واضحاً في ذهن الشعب "التركي" نفسه.. حتى السنين العشر الأخيرة من الدولة العثمانية (1908 – 1918) حينما اشتدت الوقيعة والقطيعة بين الشعبين اللذين تتألف منهما الدولة العثمانية..

ففي خلال الأربعة قرون التي عاشتها الدولة العثمانية، كانت لفظة "تركي"، تعني الفلاح في ريف الأناضول، وكانت تعتبر هذه اللفظة إهانة لسكان القسطنطينية مثلا.. فالمواطن يعرف نفسه عثمانيا لا تركياً..[1] "عثمانلي" بالتركية.

ومن ناحية المواطن العربي، فلم يكن يضيره أن يعتبر نفسه مواطنا عثمانياً، فهو ينتمي إلى دولة تدين بدينه، ويسمى ملوكها الستة والثلاثون باستثناء – أورخان– باسماء عربية ومنهم ستة خلفاء حملوا اسم محمد .. والرايات التي ترفع على الأسطول العثماني مكتوب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وعلى الزوايا الأربعة اسماء الخلفاء الراشدين الأربعة.. يضاف إلى هذا أن هذا المواطن العربي العثماني، حينما يكون زائراً في بلاد الأناضول كان يلقاه أهلها بالترحيب والاحترام ويتبركون به باعتبار أنه من الأمة التي أنجبت الرسول العربي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، وقد أطلق الترك على العرب "عنصر نجيب" وهو تعبير تركي وعربي معاً، فلم يكن في اللغة التركية الفقيرة تعبير آخر!!

وكانت حصيلة هذه الوقائع والأحداث أن استقر في وجدان الأمة العربية، أن الدولة العثمانية ما خلا السنين الأخيرة فيها، تمثل الوحدة العربية كيانا ووجوداً، من غير دستور مكتوب، فإن الممارسة الفعلية، والمشاعر

---

[1] زين نور الدين، **نشوء القومية العربية**، ص 176 هامش رقم 9.

الوجدانية،تنبئ عن ذلك بما لا تستطيع النصوص الدستورية أن تفعل أفضل منه.

ففي أوائل القرن العشرين، وبانتشار موجة القوميات التي بدأت في أوروبا في القرن التاسع عشر، حذر عدد من قادة العرب ومفكريهم من انفصال هذه الوحدة العثمانية التي تجمع بين العرب والترك، ومن هؤلاء الصحفي المسيحي اللبناني المصري الأستاذ فارس نمر، فقد ندد ببعض قادة العرب الذين" أصابوا بإيقاظ النفوس لطلب الحرية، ولكنهم اخطأوا بتمزيق الجامعة الإسلامية"[1].

والواقع أن الوحدة العربية في إطار الدولة العثمانية، قد اتخذت طابع الحركة الإصلاحية في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وكانت حركة ضمت في صفوفها، العرب والترك على السواء، ففي عام 1865 تأسست في الاستانة جمعية سرية باسم جمعية العثمانيين الجدد0 (يكي عثمانلي)، وقد ضمت قادة الإصلاح من الترك والعرب وكان برنامجها دستورياً ثم أصبح ثورياً.

وحينما شن عدد من الاستعماريين الأوروبيين من أمثال المسيو هانوتو، واللورد كرومر واللورد غراي، حملة على الدولة العثمانية،وعلى الجامعة الإسلامية واعتبارها بؤرة للتعصب الديني وتستهدف تحدي الدولة الأوروبية انبرى الأمام الشيخ محمد عبده للدفاع عن الدولة العثمانية، وعن السلطان عبد الحميد نفسه.[1]

---

[1] **المقتطف**، مجلد 26، ج 2، ص 258.

[1] **مجلد المنار**، مجلد 10، ج 3، ص 208.

وقد بلغ بالســـيد جمال الدين الأفغاني، وهو الذي نفخ روح الثورة في العرب والمسـلمين وفي الشـرق بأسـره، أنه دعا الأتراك أن يسـتعربوا وأن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة. وأنهم لو اســـتعربوا لأصـــبحوا أغنى مملكة من دول الأرض ، ونحا هذا المنحى رفيقه وتلميذه الإمام الشـــيخ محمد رشـــيد رضـــا، اللبناني المصـــري في مجلة المنار، التي طفحت بالمقالات الداعية إلى الوحدة العربية ضـــمن الرابطة العثمانية، وعلى وجه لا يخل بســـيادة الدولة العثمانية، ويتمنى على ســـلاطين آل عثمان أن يفكروا في جعل اللغة العربية لغة الدولة كما فكر السـلطان سـليم الأول، وأن يجعلوا الولايات العثمانية كالولايات المتحدة الأمريكية، تستقل كل ولاية في إدارتها الداخلية، ويكون حكامها منها ..[2]

ولم يقتصـر الشـيخ محمد رشـيد رضـا نشـاطه على كتابة المقالات في تأييد الدولة العثمانية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك كله فكان أحد مؤسسي جمعية الشـورى العثمانية (1898) وكما يدل عليها اسـمها فإنها "عثمانية" ولا تسـتهدف الانفصـال والاسـتقلال، وقد انضـم إليها عدد من العثمانيين من الأتراك والأرمن والجركس.

وفي مجلس المبعوثـان (البرلمـان) في الاســـتـانـة كـان النواب العرب يتخذون مواقفهم على أســاس المواطنة العثمانية، لا على أســاس الشــخصــية العربية المسـتقلة، وكانت مطالبهم قاصـرة على إصـلاح الدولة العثمانية وسـيادة الدسـتور العثماني، وقد قادوا حركة المعارضـــة في داخل المجلس، ومعهم فريق من النواب الأتراك، ومن نواب الأرمن الـذين يمثلون بيروت وحلـب .. ومن النواب العرب الذين كـان لهم دور نشـــيط فعال: نـافع الجابري نـائب حلب،

---

[2] **مجلد المنار**، مجلد 3، ج 4، ص 73، ومجلد 6، ج 11، ص 432.

ويوسف ضيا الخالدي نائب القدس وخليل غانم نائب بيروت، ونيقولا نوفل نائب طرابلس الشام..

وقد بلغ من قوة المعارضة العربية، أن يوسف ضيا الخالدي ألقى بياناً شديد اللهجة موقعاً عليه من ستة عشر نائبا، سرد فيه المخالفات الدستورية التي اقترفتها الحكومة العثمانية مما اضطر السلطان عبد الحميد إلى تعطيل مجلس المبعوثان إلى أجل غير مسمى.

وتأججت المشاعر العثمانية عند الجماهير العربية في عام 1909 حينما حدث انقلاب في الدولة العثمانية أدى إلى خلع السلطان عبد الحميد وإلى عودة الدستور العثماني بعد أن مضى على تعطيله قرابة ثلاثين عاما.. وكان العرب أكثر "عثمانية" من الترك أنفسهم، فتفجرت في الوطن العربي بأسره موجة غامرة من الأفراح والمباهج لم يشهدها التاريخ منذ أن تم تحرير بيت المقدس على يدي صلاح الدين الأيوبي.. وانطلق الخطباء والشعراء يمجدون هذه المناسبة المجيدة، وراح الناس يهنئ بعضهم بعضاً تغمرهم مشاعر عميقة صادقة، وكأنما الدستور دستورهم والدولة دولتهم والخليفة الجديد خليفتهم، وأصبحوا على استعداد للتضحية حتى بقوميتهم على مذبح الوحدة العثمانية التي لا تفرق بين الترك والعرب.[1]

ولم يقف الأمر عند إقامة الزينات ولا المهرجانات، بل تجاوز ذلك إلى تأييد عملي للدولة العثمانية، فقد قام السوريون في الأرجنتين بفتح اكتتاب عام للتبرع بسفينة حربية هدية منهم للأسطول العثماني، وشكل أهالي بيروت حرساً وطنياً خاصاً لمساعدة الجيش العثماني، واشترى طالب بك النقيب، من أبرز

---

[1] توفيق علي برد، **العرب والترك**، ص 76.

زعماء العراق، مركبا بخاريا وأهداه للدولة للقيام بأعمال الحراسة في شط العرب، كما تولى الإصـــلاح بين الأمير مبارك الصـــباح قائمقام الكويت والحكومة العثمانية[2].

ولم يكن زعماء الترك أقل تجاوبا مع هذه الموجة العارمة من الابتهاج فقد خطب جلال الدين عارف، وهو من كبار أحرار الأتراك ، يوم إعلان الدســـتور وقال "..إننا اليوم تنازلنا عن كلمة "ترك" وهي محبوبة لنا، فكلنا عثمانيون.. ولا فرق عندنا بين الترك والعرب[3] وبهذا أصـبحت القومية العربية ومعها الوحدة العربية مندمجة في الدولة العثمانية، كما اختار الترك إذابة الشخصية التركية في الرابطة العثمانية.

وكان من المظاهر الســياســية البارزة التي تجلت فيها " ثنائية" الدولة العثمانية بين العرب والترك، أن عدداً من زعماء العرب، الذين قادوا القضـــية العربية في ذلك العهد، قد انضـــموا إلى جمعية الاتحاد والترقي، وهي الجمعية التي كانت توجه سـياسـة الدولة العثمانية في الداخل والخارج، ومن هؤلاء القادة العرب: رفيق العظم، وحقي العظم، ومحســن الســعدون، وياســين الهاشــمي، وطالب النقيب، وعزيز علي المصري، وعبد الرحمن شهبندر، وسليم الجزائري، وكثيرون آخرون من السياسيين والعسكريين المعروفين في الشام والعراق.[1]

وقام الشـــيخ شـــيد رضـــا بدور كبير في الدعوة لتأييد جمعية الاتحاد والترقي، فألقى خطبا مستفيضة في جوامع طرابلس الشام ودمشق داعياً إلى

---

[2] المصدر السابق.

[3] **العرب والترك**، توفيق علي برد، ص 76، الهامش يذكر المصادر المعتمدة.

[1] **المنار**، المجلد 12، ص 13، 915.

تأييد الدولة العثمانية، وإلى انتخاب المبعوثين العرب المرشحين من قبل رياسة الاتحاد والترقي..

وحتى في مصر، وكانت في ذلك العهد خديوية مستقلة منفصلة عمليا عن الدولة العثمانية، كانت الفرحة بالدستور العثماني بالغة حد الروعة، وقد نشط حزب الإصلاح الدستوري برياسة الشيخ على يوسف للمطالبة بإيفاد ممثلين عن مصر في مجلس المبعوثان العثماني.

وكانت القاهرة في عهد السلطان عبد الحميد مقرا للأحرار العثمانيين، العرب والترك، ويندون باستبداد السلطان عبد الحميد ويعملون على إسقاطه وقد بلغت الصحف العثمانية تركية وعربية، في القاهرة أربعين صحيفة .. فكانت وحدة شاملة في ميدان النضال لبلوغ الحرية ومناهضة الظلم..

وفي العام الأول لذكرى إعلان الدستور بدت القاهرة كأنها الاستانة سواء بسواء، فقد أقيمت فيها الزينات والاحتفالات تمجيداً لهذه المناسبة السعيدة، وطفحت الصحف بأخبارها، وأصبح مقر الحزب الوطني وفروعه في المديريات، كأنه ناد عثماني يتبادل الناس فيه التهاني، وكان زعيمه مصطفى كامل ورفيقه في النضال محمد فريد يتوليان الهاب مشاعر الشعب المصري في إظهار عواطف الولاء نحو "الدولة العليا"، وهو اللقب الشائع للدولة العثمانية..

وطلعت جريدة اللواء، وهي جريدة الحزب الوطني، تشيد بالدولة العلية، وتوجه التحية إلى القسطنطينية من مصر "هذا البلد العثماني"[1] كان ان وفدا يمثل الحزب الوطني يرأسه محمد فريد ذهب إلى القسطنطينية للاشتراك في

---

[1] **جريدة المؤيد**، 1908/10/21م.

احتفالات الدستور، ولقي من رجال الدولة حفاوة بالغة اشغلت صحف مصر لعدة أسابيع.

وتحركت خواطر أمير الشعراء شوقي فنظم في هذ المناسبة قصيدة مهنئاً بالدستور.

أما في الشام وفي العراق فقد سجل لنا أديب كبير المشاعر العارمة التي تفجرت عنها العواطف، وقد عاش تلك الحقبة بكل جوارحه، فقال: وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين وأبناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يعد لها مثيل، فعقدوالحفلات الباهرة في الوطن والمهجر.. ولا نبالغ إذا قلنا أنه ما من حدث حرك الأقلام العربية كهذا الحدث العظيم.. خذ سوريا ولبنان مثلا وراجع صحفهما لذلك العهد فتدرك بحق ذلك الانفجار الأدبي فيهما، ويكفي ان نلمح الى قصائد عبد الله البستاني، ومحي الدين الخياط، وشكيب ارسلان، والياس فياض، ونقولا فياض، وفارس الخوري وأمين ناصر الدين، وعبد الرحمن سلام، ومصطفى الغلاييني، وشبلي ملاط، وبشارة الخوري وسواهم من شعراء الوطن، وسعيد شقير، وأسعد رستم، والشاعر القروي، وشبل دموسي، ونعوم مكرزل، وأمثالهم في مصر والمهاجر الغربية .. وفي العراق هناك الزهاوي، والرصافي، والدجيلي، والعبادي، والشيبي، والهنداوي، والازري، والعبيدي.. وقد رسم لنا الزهاوي يومئذ صورة لبغداد تعد مثلا صادقا لجميع المدن العثمانية: قال :

وقفت والعين تبكي من مسرتها

أمام شعب من الأفراح عجاج

أمام بحر من الأفكار مضطرب

أمام جيش من الأصوات رجراج

إن الشعوب إذا هاجت عواطفها

كـالبحر يضـــرب أمواجـا بـأمواج[1]

وبـإعلان الدســـتور قم مجلس المبعوثـان من جديد، ودخـل مبعوثو الولايات العربية إلى المجلس ليشـــاركوا في أعماله كنواب عثمانيين عن ولايات عثمانية، وشـــاركوا في الحياة الســياســية العامة في القســطنطينية باعتبار إنها عاصـمتهم، وبدأت مرحلة إنشـاء الأحزاب السـياسـية وكان للنواب العرب نشـاط كبير، ففي خريف عام 1909 تأســـس حزب الأحرار المعتدلين وكانت غالبية أعضـائه من العرب: رشـدي الشـمعة مبعوث دمشـق، نافع باشـا الجابري مبعوث حلب، وعبد الحميد مهدي مبعوث كربلاء، وخضـــير بك مبعوث دير الزور، وشكري بك العسلي مبعوث دمشق، ورضا الصلح مبعوث بيروت وغيرهم.. وقد ركز برنامج الحزب على "الوقوف سـداً منيعاً أمام الأفكار التي تؤدي إلى تجزئة الدولـة العثمـانيـة وتفككها مثل نظريـة الفدراليـة، والعمل على جمع العنـاصـــر العثمانية في وحدة عثمانية واحدة"[1]وهكذا بلغ الحرص على الوحدة العثمانية، ان المبعوثين العرب كانوا يعارضـــون الفدرالية، مؤثرين الوحدة الاندماجية على الفدرالية الاتحادية.

وقام مبعوثون آخرون بتأسـيس حزب الأهالي، وكان من أبرز أعضـائه العرب مبعوث طرابلس الغرب فرهارد بك، فقد أكد الوحدة العثمـانية ولكن دعا

---

[1] أنيس الخوري المقدس، **الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث**، ص 34- 37.

[1] توفيق علي، **العرب والترك**، ص 264.

إلى اللامركزية الإدارية، وهي خطة على طريق السلطة المحلية ولكن في إطار الدولة العثمانية.

وكان ذلك كله في داخل مجلس المبعوثان، أما النشاط العربي خارج المجلس فقد كان واضحاً في الجمعيات والأحزاب التي تألفت بعد إعلان الدستور، فقامت جمعية المنتدى الأدبي في الاستانة (1910)، وضمت الشباب الجامعيين في الاستانة الوافدين من كل الأقطار العربية، وكان من أبرز أعضائه عبد الكريم الخليل من أبناء جبل عامل في لبنان، واستمر المنتدى في نشاطه السياسي يركز على الرابطة العثمانية، إلى أن تفجر الموقف بين الأتراك والعرب في أواسط الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918).

وفي عام 1911 تأسست جمعية "العربية الفتاة" في باريس على يد الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في فرنسا، واصبح هؤلاء الطلاب من قادة الأمة العربية فيما بعد، وهم: محمد رستم حيدر (بعلبك)، عوني عبد الهادي ورفيق التميمي (نابلس)، جميل مردم (دمشق) محمد الحمصاني (بيروت)، عبد الغني العريس (بيروت)، توفيق السويدي (بغداد) وكان شعار الجمعية في أول تكوينها النهوض بالأمة العربية وعدم الانفصال عن الترك.[1]

هذا في مجال العمل العلني، أما في النطاق السري، فقد قامت جمعية سرية عربية عرفت بالجمعية القحطانية (1909) وكان من أعضائها البارزين: عزيز على المصري (مصر) الأمير عادل أرسلان (لبنان) سليم الجزائري، الدكتور عزت الجندي (حمص) حسن حمادة (لبنان) أمين الحافظ (دمشق) علي النشاشيبي (القدس) وكثيرون من الضباط العرب، وكان هدف هذه الجمعية

---

[1] أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 1، ص 9.

جعل الدولة العثمانية مملكة اتحادية تركية عربية، على غرار دولة النمســـا – المجر الاتحادية، وان يحمل السلطان العثماني التاج المزودج العربي..التركي.. رمزا للوحدة.

وفي خريف 1911 وقع عدوان خطير على الدولة العثمانية فكان امتحانا حاســـما تجلى فيه الولاء للوحدة العثمانية، فقد قامت إيطاليا باحتلال طرابلس الغرب، وكانت إلى ذلك العهد ولاية عثمانية، ولها مبعوثون في مجلس المبعوثان في القســـطنطينية.. فتأججت عواطف الأمة العربية في أرجاء الوطن العربي، وتوالت النجدات العربية لمســـاندة الدولة العثمانية في حربها مع الطليان.. وأنهى الأمام يحيى حميد الدين امام اليمن نزاعه مع الدولة العثمانية وأرسل برقية إلى الاستانة معلنا استعداده لإرسال مائة ألف مقاتل إلى طرابلس الغرب للتصدي للقوات الإيطالية، وأرسل الأمير (الملك، عبد العزيز آل سعود برقية إلى الخليفة العثماني يقول فيها: إن مقاطعة نجد تفتخر اليوم من كل جوارحها بأنها مقاطعة عثمانية.. وإن قبائلنا مســـتعدة للزحف في ظل العلم التركي لرد العدوان الإيطالي"[1] وهب المتطوعون من البلاد العربية للدفاع عن طرابلس الغرب، وخاصة من السودان ومصر، وعلى رأسهم عدد من الضباط العرب، كما تطوع في هذه الحملة من الرجال العســـكريين في الدولة العثمانية أنور باشا، وعزيز علي المصري ومصطفى كمال (باشا) هذا بالإضافة إلى المجاهدين الطرابلســـيين، وبهذا أصـــبحت الحرب في الواقع بين إيطاليا والأمة العربية ممثلة في الدولة العثمانية.

---

[1] **تاريخ العرب**، محمود كامل، ص 265.

وقد برز هذا المعنى العربي العثماني في الخطاب الحماسي الذي ألقاه المبعوث العربي خالد البراري (حمص) في مجلس المبعوثان فقال: "..إنه لا يشغل بال الأمة اليوم غير شاغل الحرب (الإيطالية) واجتماعنا هذا الاستثنائي هو لأجل الحرب. طرابلس الغرب قد فتحها عمرو بن العاص، وقد مر عليها الأن ألف وثلاثمائة سنة وهي بيد الأمة الإسلامية، واختم قولي بأن طرابلس الغرب باقية وستبقى بيد الأمة العثمانية إلى الأبد"[1].

ونشأت، بسبب العدوان الإيطالي على طرابلس الغرب ومعه أسباب أخرى، فكرة نظام اللامركزية عند قادة العرب، كوسيلة لتقوية الدولة العثمانية وتمكينها من الصمود أمام الأطماع الأجنبية، فتأسس في أواخر عام 1912 حزب اللامركزية العثماني، ونصت المادتان الأولى والثانية من برنامج الحزب بأن كل ولاية من الولايات العثمانية جزء لا يتجزأ من الدولة، وتكون إدارة الولايات على أساس اللامركزية الإدارية، وكان من جملة مؤسسي هذا الحزب الشيخ رشيد رضا ورفيق العظم واسكندر عمون، ومحب الدين الخطيب والدكتور شبلي شميل.

وبعد عام 1913 قامت الجمعية الإصلاحية في بيروت وأعلن برنامجها الدعوة لقيام الإدارة اللامركزية في إطار الوحدة العثمانية، وضمت هذه الجمعية عدداً كبيراً من زعماء بيروت، من بينهم :سليم علي سلام، أحمد مختار بيهم، الدكتور أيوب ثابت، الشيخ أحمد طبارة ، البير سرسق، سليم طبارة، كامل الصلح ، محمد فاخوري، بترو طراد، جميل الحساس، حسن ناطور،حبيب فرعون وغيرهم كثيرون..

---

[1] نقلا عن جريدة "**تقويم وقائع**" التركية الرسمية، تموز سنة 1912.

وعلى غرار ما جرى في بيروت، فقد تأسست جمعيات إصلاحية في دمشق وفي بغداد كان هدفها الدعوة إلى الإصلاح الداخلي في الدولة العثمانية على أساس اللامركزية، وكان الدكتور عبد الرحمن شهبندر (دمشق) والسيد طالب النقيب (بغداد) من قادة الحركة الإصلاحية.. وقد تجسدت الوحدة العثمانية في جميع هذه النشاطات الإصلاحية، فقد نصت لائحة الجمعية الإصلاحية في البصرة، على سبيل المثال، في المادة الأولى "أن يكون وطننا العزيز ملكاً عثمانياً خالصاً تحت راية الهلال[1].

وفي حزيران 1913 عقد مؤتمر عربي في باريس اشتركت فيه وفود من بلاد عربية شتى ومن مهاجري العرب في المكسيك وأمريكا، تحت رياسة السيد عبد الحميد الزهراوي، وحضره جمهور غفير من الجالية العربية في باريس، وكانت الخطب التي القيت، والمقررات التي اتخذت، لا تتحدث عن الانفصال عن الدولة العثمانية من قريب أو بعيد، بل تلح على الإصلاح الداخلي والأخذ بمبدأ اللامركزية، ومن ذلك أن السيد عبد الغني العريس صاحب جريدة المفيد البيروتية، وأحد الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا بعد ذلك بثلاثة أعوام، قال في المؤتمر "إن الدولة العثمانية لم تفتح بلادنا بالسيف بل استولت عليها برضانا.. ونحن قاعدة هذه الدولة من قبل ومن بعد" وتكلم الشيخ احمد طبارة فقال: إن العرب يطلبون الإصلاح.. وإنهم ولدوا عثمانيين ونشأوا عثمانيين ويريدون البقاء عثمانيين ولا يرضون عن دولتهم بديلا"[2]

---

[1] **جريدة المفيد**، 1913/9/10.

[2] توفيق علي برد، **العرب والترك**، ص 515- 518.

ولم تكن هذه المواطنة العثمانية والتعلق بها قاصراً على المسلمين، فقد خطب السيد اسكندر عمون نائب رئيس المؤتمر، من موارنة لبنان، خطابا قويا أكد فيه هذا المعنى فقال "توهم بعض أنصار النظام المركزي من إخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة، وهو أمر بعيد عن الصحة.. نحن نطالب بالحكم على قاعدة اللامركزية.. ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا.. إن العرب لا يريدون الانفصال عن الأتراك.. وإنما نريد استبدال نظام الحكم الحاضر.. ويكون لمجموع الأمة العثمانية سلطة عليا نيابية.. ومعنى ذلك اننا نريد حكومة عثمانية، لا تركية ولا عربية، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات"[1]

وبعد أن انفض المؤتمر العربي بباريس ببضعة شهور، تأسست جمعية العهد بزعامة عزيز على المصري، وكان يومئذ من كبار ضباط الجيش العثماني وقد انضم إليه عدد كبير من الضباط، وكان برنامجها ينص على السعي للاستقلال الداخلي للبلاد العربية على أن تظل متحدة مع حكومة الاستانة كاتحاد المجر مع النمسا[2] وكان ذلك أقصى ما وصل إليه الفكر العربي في تحديد علاقة الأمة العربية بالدولة العثمانية.

وكان من نتائج المؤتمر العربي بباريس أنه تمت اتصالات بين قادة العرب والترك في محاولة لتلبية المطالب العربية، وانتهت تلك الاتصالات إلىعقد اتفاقية وقع عليها طلعت بك الذي كان من كبار حكام الأتراك، والسيد عبد

---

(1) زين نور الدين، **نشوء القومية العربية**، ص 101.

(2) **الثورة العربية الكبرى**، أمين سعيد،ج 1، ص 46.

الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي ومعتمد الشبيبة العرب، وقد نصت الاتفاقية على منح الولايات العربية قســـطاً كبيراً من الحكم الذاتي وأن يكون في الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل، وخمسة ولاة وعشرة متصرفين، ويعين في مجلس الأعيان اثنان من العرب عن كل ولاية عربية، بالإضـــافة إلى نســبة مقررة من الموظفين العرب في مختلف دوائر الدولة.[1]

وكل هذا الذي ســـردته من الوقائع الموجزة ليس تاريخا للدولة العثمانية فما قصدت إلى هذا، ولكن قصدت من هذا التسلسل الوثائقي عبر اربعمائة عام أن أثبت وأؤكد بما لا يرقى إليه الشك، أن الوحدة العربية لم تسقط بسقوط الدولة العباسية، ولكنها استمرت وامتدت حياتها في إطار الدولة العثمانية "متقمصة" كيانها الدولي..

ولم يكن هذا "التقمص" روحيا فحسب، ولكنه كان واقعياً تمثل في حقائق الحكم، فقد كان العرب شـــركاء في الدولة لا مجرد رعايا مغلوبين، فقد كان لهم خمســـة وســـتون نائباً في مجلس المبعوثان العثماني، وكان روحي بك الخالدي مبعوث القدس نائباً لرئيس المجلس.. وكان عزت باشا العابد (دمشق) والشيخ أبو الهدى الصـــيادي (حلب) من كبار رجال القصـــر، حتى ان نفوذهما تجاوز سلطة الحكومة، ومن لبنان وحده كان سليم باشا ملحمة وزير التعدين والغابات والزراعة، وأخوه نجيب باشا ملحمة الموفد السياسي الخاص للسلطان.

وفي التاريخ العثماني حادثة شـــهيرة تدل دلالة عميقة على مدى تغلغل الوجود العربي الوحدوي في الدولة العثمانية، تدبيرا ومصـــيراً، فقد كان محمود شـوكت باشـا العراقي المولد والنشـأة رئيس أركان الجيش العثماني، وهو الذي

---

[1] النص **الكامل للاتفاقية البلاد العربية والدولة العثمانية**، نشره ساطع الحصري، ص 134.

تحرك بقواته التي كانت معسكرة في سلانيك، وزحف على القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد تنفيذا لخطة الانقلاب التي وضعتها جماعة الاتحاد والترقي..

ولا ننسى في هذا السياق (الفريق) عزيز علي باشا المصري الذي لعب دوراً كبيراً في حروب العثمانيين في البلقان وطرابلس الغرب، وكان من قادة الحركة العربية، واعتبره الكولونيل لورنس "بأنه كان معبود الضباط العرب وأنه منافس لأنور باشا[1] وكان هذا رجل الدولة الأول بعد السلطان".

وكان الأمير شكيب أرسلان وهو من كبار القادة العرب في العهد العثماني، لا يفتر عن دعوة الأمة العربية إلى استمرار وحدتها في الدولة العثمانية، وله في ذلك خطب وقصائد ومقالات، ومنها قصيدة شهيرة ألقاها في القسطنطينية في العام الذي سبق اندلاع الحرب العالمية الأولى (1913) قال فيها:

وليس لنا غير الهلال مظلة
ينال لديها العز من هو آمله
سيعلم قومي إنني لا أغشهم
ومهما استطال الليل فالصبح واصله

ولقد بقيت عواطف الوحدة هذه تملأ صدور الأمة العربية حتى بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى وانهزم فيها الأتراك.. فقد بكى شاعر العراق الرصافي يوم سقطت بغداد بيد الإنجليز، وأعلن وفاءه للعثمانيين وان كان بقلبه منهم جراح أيما جراح.. فقال:

أنا باق على الوفاء وإن كانت بقلبي ممن أحب جراح

---

(1) Lawrence, Seven Pillars of Wisdom p 59

وقد بقيت الوحدة العربية تعيش في كيان الدولة العثمانية، وكان من الممكن أن تتطور العلاقة بين العرب والترك إلى دولة فدرالية أو حتى دولة عربية وأخرى تركية لولا أن جماعة الاتحاد والترقي الذين استلموا الحكم بعد السلطان عبد الحميد قد استهدفوا تتريك العرب واذابتهم في الطورانية التركية التي كانوا يدعون إليها، وتبع ذلك اضطهاد قادة العرب، بالنفي والتشريد والإعدام، أثناء الحرب العالمية الأولى...

ولم تكن إقامة دولة عربية متحدة مع الدولة التركية خاطرة عابرة، فقد عبر قادة الأتراك من جانبهم على السعي من أجل تحقيقها، فقد كتبت السيدة خالدة أديب وكانت من قادة السياسة التركية بأن العرب يتقدون وطنية، ولكن كان إلى جانب ذلك فكرة تعزى إلى محمود شوكت باشا – العربي – جديرة بالاعتبار وهي إقامة ملكية مزودة تركية عربية يكون مركز الحكومة فيها حلب.. كما ان السيد ضياء ألب، وهو الأب الروحي للقومية التركية، كان قد اقترح قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى إقامة دولة مزوجة تسمى الدولة التركية العربية.. وفي عام 1918 اقترح أيضاً إقامة وحدة أو اتحاد يضم دولتين مستقلتين هما الأناضول التركي وعربستان[1] غير أن جماعة الاتحاد والترقي قد وأدوا ذلك التطور التاريخي المحتوم في مهده، واختطوا سياسة مدمرة قضت على الدولة العثمانية، وأدت إلى وقوع البلاد العربية تحت الاحتلالات والانتدابات المعروفة، وإلى قيام إسرائيل في قلب الوطن العربي، وهي أكبر كارثة حلت بالأمة العربية في تاريخها الطويل..

---

[1] زين نور الدين، **نشوء القومية العربية**، ص 91.

وجماعة الاتحاد والترقي هذه كما وصفها باحث غربي شهير بأنها "غير تركية وغير إسلامية، فليس بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف، فأنور باشا هو ابن رجل بولندي مرتد، وجاويد (دافيد) من الطائفة اليهودية المعروفة "دونمه"، وكراسو من اليهود الاسبان القاطنين في مدينة سلانيك.. وكان طلعت باشا بلغاريا من أصل غجري، أما أحمد رضا فكان نصفه شركسياً ونصفه الآخر مجرياً.. وأما أصحاب العقول المحركة وراء الحركة فقد كانوا يهودا، أو من مسلمين من أصل يهودي، والعون المالي كان يأتيهم عن طريق يهود سالونيك الأثرياء، كما كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية من فينا وبودابست وبرلين.. وكان يهود سالونيك، ويعرفون بالدونمة (أي المرتدون) شركاء في الثورة التي قام بها جماعة الاتحاد والترقي.[1]

وهكذا كان اليهود .. المندسون والمؤسسون لجماعة الاتحاد والترقي، سبباً في تحطيم الوحدة العربية في ذلك العهد، كما تؤدي إسرائيل في هذه الأيام الدور نفسه في تعطيل الوحدة العربية...

وصحيح أن الوحدة العربية في عهد الدولة العثمانية لم تكن عربية خالصة، ولكن الجيل الذي سبق جيلي مباشرة كان يؤمن بعقله وضميره أن الدولة العثمانية كانت نموذجا آخر للوحدة العربية، وهذا الحشد من الوقائع التي سردتها عن قادة العرب الأوائل يفضي إلى تأييد هذه الحقيقة.

وثمة سبب آخر حملني على "تعبئة" هذه المواقف التاريخية فنحن نرفض التهمة القائلة بأن الوطن العربي كان تحت الاحتلال العثماني قرابة

---

(1) The rise of natioality in the balkans; by setton watson p 135 – 136

ســـتمائة عام.. لأن ذلك الحكم كان مشـــاركة لا ســـيطرة. ونرفض كذلك الزعم القائل بأن الوحدة العربية قد غابت عن مسرح تلك الأعوام الستمائة فقد كانت

الوحدة العربية قائمة بالممارسة في إطار الدولة العثمانية.

وذلك أكرم بالقومية العربية، وأشـــرف للوحدة العربية .. أليس كذلك يا أخي العربي...

دولة الوحدة الرباعية..

ـــــــــــــــــــــــــــــ قبل مئة وخمسين عاماً

أرجو أن لا يعجب المواطن العربي وهو يقرأ هذا العنوان المثير، فمنذ مئة وخمسين عاما قامت في الوطن العربي دولة وحدوية، عاصمتها القاهرة، وامتد سلطانها من أعالي النيل جنوباً إلى جبال طوروس شمالاً، ورفرفت أعلامها على الأقطار العربية الأربعة، مصر، والسودان والجزيرة العربية وديار الشام.. تلك هي الحقيقة التاريخية فلا داعي للعجب، وما أحكم أسلافنا حين قالوا: إذا عرف السبب بطل العجب!!

وكان ميلاد هذه الدولة وســـط دوامة عاتية من الأطماع الدولية تســـتهدف تمزيق الوطن العربي، واقتســـام خيراته، والســـيطرة على مواقعه الاســـتراتيجية واحتكار خاماته وأسواقه، والتحكم في مصيره.

وكان الوطن العربي، يومئذ، جزءا من الدولة العثمانية، أو في تعبير ذلك العصـــر، جزءاً من "الرجل المريض" وهو الاســـم الذي أطلقته الدولة الأوروبية على الدولة العثمانية وكانت الدول الأوروبية تنتظر نهاية "الرجل المريض" لتقتسم تركته فيما بينها، حينما يسقط "بالضربة القاضية" أو بالأجل المحتوم.

وكما تتحكم في عصـــرنا الحاضـــر، الدول الخمس العظمى المعروفة، فقد كانت كذلك دول خمس عظمى في القرن التاســـع عشـــر تتحكم في مصـــائر الشعوب، وهي بريطانيا العظمى، روسيا القيصرية، فرنسا، النمسا،بروسيا، وعلى مائدة هذه الدول العظمى "التركة، التي تجمعوا حولها يتشـــاورون ويتحاورون كيف يتقاسمونها"..

وكانت مصـــر بالذات هي محور النزاع الذي يدور حول هذه التركة، فهي مالكة زمام البحرين الأبيض والأحمر، وعندها تلتقي القارات الثلاث وهي في موقع القلب من المشـــرق العربي والمغرب العربي . فإذا تم انتزاعها من الوطن العربي، تيسر سقوط الأطراف العربية الأخرى.. وعلى أساس هذا التقييم انطلقت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون (1798) للاستيلاء على مصر، وتبعتها الحملة البريطانية (1807).

وكانت مصـــر في ذلك العهد جزءا من الإمبراطورية العثمانية، فتدفقت القوات العثمانية من كل الأرجاء إلى مصـــر للدفاع عنها وإجلاء المحتلين عنها.. وكان في غمرة هذه القوات العسكرية العثمانية ضابط صغير مغمور،

في الثلاثين من عمره، وصل إلى مصر مع الفرقة الألبانية المسلمة، اسمه محمد علي، أرادت الأقدار أن يعيش في مصر ستين سنة أخرى، فيتمصر، ويستعرب، ويصبح بطل ملحمة تاريخية كبرى، ومؤسس دولة عربية ضمت أربعة أقطار عربية، وأطلق عليها المؤرخون اسم الإمبراطورية العربية.

وشأن كل وحدة أو اتحاد عبر التاريخ، فقد كان الطموح والالهام وراء قيام هذه الإمبراطورية العربية الوحدوية، وكان محمد علي يجيش صدره بطموح الأبطال، وشجاعة الرجال.

وقد رأي بثاقب فكره، بعد سنوات من النزال مع القوات الفرنسية والبريطانية، أن الدول الأوروبية لن تتخلى عن أطماعها في مصر، وأنها ستغتنم الفرصة الأولى حين يتثاءب "الرجل المريض" أو يغمض عينيه، للانقضاض على مصر، وعلى الأقطار العربية من بعدها.. فأصبحت مصر شغله الشاغل، وأصبح الدفاع عنها قدره ومصيره.

وقاده خوفه على مصر، إلى التفكير والتدبير، والخوف عند الشجاع يقود إلى الإعداد والاستعداد، وكان أول ما فكر فيه، (1809) أن يضم ديار الشام إلى حكمه، فإنه يتقوى بها، وبها يدافع عن مصر وعن الشام. ولكن السلطان العثماني أبى أن يتخلى عن الشام.. فطواها محمد علي باشا في نفسه، وبقيت ديار الشام في صدره هدف الأهداف يسعى إلى تحقيقه حينما تلوح الفرصة الأولى..

وقد لاحت الفرصة فعلاً، وكأنها سقطت بين يديه من السماء، ففي عام (1807) قام الوهابيون بالإغارة على الحجاز فخلعوا شريف مكة، وتشدد رجالهم في محاربة البدع، فهدموا القبور والقباب، وفرضوا على الجميع قيوداً صارمة،

وفزع المسلمون على مصير الحج، وخاصة بعد أن خرج أمير الحج الشامي عبد الله باشـا العظيم، ولم يكد يغادر ضـواحي دمشـق حتى قفل راجعاً، فقد علم ان الطريق غير آمن، وأن القبائل الوهابية له بالمرصـاد، وإزاء هذا كله أصـدر السلطان العثماني أمره إلى محمد علي باشا بأن يجرد حملة على الجزيرة العربية ويسـتخلص الأماكن المقدسـة من أيدي الوهابيين، ووجد محمد علي باشـا أن أبواب السـماء قد انفتحت أمام آماله الطموحة، وان الجزيرة العربية هي الطريق إلى بلاد الشام.

واندفع محمد علي باشـا بعزيمة خارقة وإعداد محكم لاغتنام الفرصـة حتى الثمالة، فخرجت الحملة المصرية (1811) بقواتها البرية والبحرية صوب الجزيرة العربية، فاحتلت ينبع، والمدينة المنورة، وبدر وجدة، ومكة المكرمة والطائف.. واخترقت بعد ذلك هضـبة نجد، وبعد معارك ضـارية مع القوات الوهابية استطاعت الحملة المصرية أن تقتحم الدرعية (1818)، وهي عاصمة الوهابيين، فدمرت حصـونها وأبراجها وشـتتت شـمل القوات الوهابية، وخضـعت الجزيرة العربية للسيادة المصرية، وكان يقود هذه الحملة في أكثر مراحلها، إبراهيم باشا، أكبر أنجال محمد علي باشـا، أبدى خلالها شـجاعة خارقة ودراية واسـعة في الحرب.

وقد امتد نطاق الحملة المصـرية، فشـمل بعض أجزاء اليمن ومناطق الخليج العربي، وأصـبحت الجزيرة العربية جزءا من الدولة العربية الناشـئة تحت إمرة محمد علي باشـا، وكان نصـيب إبراهيم باشـا أن حاز لقب شـيخ الحرم المكي، واستتب الأمر في الجزيرة العربية من خليج السويس إلى الخليج العربي.

والباحث في تاريخ هذه الحملة، سيجد من غير شك، أن السواحل الحجازية قد سقطت على أيدي القوات المصرية من غير قتال، وأن عددا من القبائل العربية كانت متعاطفة مع الحملة المصرية، وأن المعارك الضارية كانت قاصرة على نجد، ومع القوات الوهابية بالذات، ذلك أن الناس كانوا يرون في محمد علي باشا قائدا مسلماً يستهدف توطيد الأمور والاستقرار في البلاد، وصون الحرمين الشريفين، وتأمين سلامة الحجيج.. وازداد هذا المعنى وضوحا وتأكيدا حينما تسامع أهل الجزيرة العربية بأن القوات المصرية قد امتنعت عن قصف المدينة المنورة خوفاً على قبابها أن تتصدع، واكتفت بنسف أحد جوانب السور، فأحدثت فيه ثغرة كبيرة، ومن خلالها استولت على المدينة المنورة .

وكان على رأس هذه الأسباب كلها في ذلك العهد أن العروبة والإسلام لفظان مترادفان، وان الألباني العثماني محمد علي باشا وأولاده هم مسلمون وكفى.. وأنه لا فرق بينهم وبين الوهابيين إلا بالعافية والتقوى.

وازينت مصر لهذا النصر المبين، وأقامت الأفراح والليالي الملاح، وزاد من أفراحها أن مفاتيح المدينة المنورة قد وصلت إلى القاهرة، واستلمها محمد علي باشا في حفل كبير، يحمل في طياته المعنى الكبير في اتحاد الجزيرة العربية ومصر في دولة واحدة تحت راية واحدة.

وتطلع محمد علي باشا بعد الجزيرة العربية، إلى الجنوب، إلى السودان.. فإن الحفاظ على مصر وصد المطامع الأوروبية عنها يقتضي حتماً ان يكون وادي النيل كله كيانا متماسكاً، فالسودان هو العمق الاستراتيجي لمصر، ومصر هي الامتداد الطبيعي للسودان، وهذا هو الكلام الدارج اليوم.. ولكن محمد علي باشا جعل من هذا الكلام حقيقة قبل أن ينطلق هذا الكلام بمئة وخمسين عاماً.

وكان السودان في ذلك الزمن، أشبه بالمناطق المجهولة تتفشى فيه الأمراض والأوبئة، ويسوده الاضطراب والفوضى، ويكثر فيه "الملوك" يتنازعون السلطة فيما بينهم.

وأصبح السودان مسئولية مصر، فوثبت دواعي الوحدة التاريخية بين شطري وادي النيل، وجهز محمد علي باشا حملة مصرية على السودان، وكان انطلاقها من أسوان، وسارت جنوبا، برا وبحرا، والأمل يحدوها في أن تصبح السودان جزءا عزيزا من الدولة العربية الناشئة، كما أصبحت الجزيرة العربية.

وبدأت الحملة سيرها، ولا نقول قتالها، فإنها لم تجد مقاومة تذكر، فإنها مع أهلها وفي وطنها، وتم الاستيلاء على بلاد دنقلة كلها.. وواصل الجيش زحفه واقتتل مع "الشابقية" في معركة كورتي (نوفمبر 1820) وكان هؤلاء معروفين بشجاعتهم وبسالتهم، وانتهى الأمر بإخضاعهم، وانتظموا فيما بعد بالجيش المصري، ورأوا في رابطة وادي النيل عروة أوثق من القبيلة الجاهلية.

واستمرت الحملة المصرية في زحفها فاحتلت "برير" وقدم ملكها نصر الدين خضوعه، وتم بعد ذلك احتلال "شندي" وقدم ملكها نصر ولاءه، ثم حلفاية، وأم درمان، واستمر الزحف إلى أن تمكنت الحملة من فتح مملكة سنار، وقدم ملكها "بادي" خضوعه، ودخلت القوات المصرية إلى سنار عاصمة المملكة، وأصبحت البلاد كلها من جنوبي وادي حلفا إلى سنار في قبضة الجيش المصري.

وكان فريق آخر من الجيش المصري قد اتجه صوب كردفان وكانت تابعة "لسلطان" دارفور، وبعد معركة حامئة استطاع الجيش المصري احتلال

"الأبيض" عاصـمة كردفان..وواصـلت الحملة إلى بلاد فازوغلي فلم يمض وقت طويل حتى تم احتلالها وقدم ملكها، الملك حسن طاعته وولاءه.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية، أن الحملة المصرية قد توغلت في شرقي السـودان حتى وصـلت شـواطئ البحر الأحمر واسـتولت على ميناءي مصـوع وســـواكن[1] كما اســـتولت ابان الحملة الحجازية على ميناءي جدة وينبع على سواحل الجزيرة العربية، وبذلك أصبح البحر الأحمر بحراً عربياً بشاطئيه.

وقد ذكرت المراجع التاريخية الأســباب التي حفزت محمد علي باشــا إلى فتح السـودان، ومنها الوصـول إلى مناجم الذهب في الجنوب، ومنها اكتشـاف منابع النيل، ولكن السـبب التاريخي الأصـيل كان يكمن في النزوع إلى الوحدة وتوطيد الكيان السياسي الواحد في وادي النيل، جنوبه وشماله لخير أهله أجمع.

ويذكر المؤرخ المصـري المعروف الأسـتاذ عبد الرحمن الرافعي في كتابه "عصـر محمد علي باشـا" أن بريطانيا بعد أن أخفقت في احتلال مصـر من الشمال في عام (1807) كانت ترمي إلى السيطرة على مصر من الجنوب، وأن فتح السـودان هو حرب قومية بحتة، والغرض منها اسـمى أغراض الحروب وأنبلها قصـداً، إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة وادي النيل[1] وقد كشـفت التفاصـيل التاريخية، أن الحرب لم تكن وحدة لوادي النيل في مجموعه فحسـب، بل توحيد للسودان نفسه بعد أن كثر فيه الملوك والمماليك.

ولكن الوحدة بين مصر وسوريا كانت هدفاً قديماً يضمره محمد علي باشا في نفسـه حتى قبل الحملتين على الجزيرة العربية والسـودان، فمنذ (1810)

---

[1] مجلد 8، ص 77.

[1] عبد الرحمن محمد الرافعي ، **عصر محمد علي**، ص 130 .

والفكرة تختلج في نفسه، فقد كتب قنصل فرنسا في مصر رسالة إلى حكومته في سنة (1811) يقول فيها "إن محمد علي يطمع في ولاية سورية وأن جميع الاستعدادات التي يعدها الباشا للحملة التي يعدها للوهابيين تستهدف اختراق الصحراء ومنها إلى سورية..[1]

ويزداد هذا المعنى وضوحاً حينما نقرأ ما كتبه الدكتور كلوت بك في هذا الصدد، تعبيراً عن رأي محمد علي باشا نفسه، حين قال "إن ضم سورية إلى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات الباشا، فمنذ أن تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة بإعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست في السويس بل في طوروس".

والواقع أن محمد علي باشا كان قد أعاد طلبه من السلطان العثماني بأن يضم سوريا إلى ولايته، ولكن السلطان رفض أن يجيبه إلى ذلك.. ولم يجد محمد علي باشا مناصاً أن يلجأ إلى السلاح استكمالا لوحدة دولته الغنية.. وقد أصبحت الحرب فيما بعد هي طريق الوحدة،كما جرى في حروب الوحدة في أمريكا وألمانيا وإيطاليا في أخريات القرن التاسع عشر، ويعتبر محمد علي باشا الفارس الأول في هذا المضمار .. ومعلم الوحدويين في أمريكا وأوروبا!!

وكانت ديار الشام تتطلع إلى الوحدة، تماما كما جرى قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، فقد كانت الجماهير تنظر بعين الإكبار إلى الانتصارات التي حققها محمد علي باشا في الجزيرة العربية، والسودان، وخاصة أن علاقات من الود قد توثقت بين محمد علي باشا

---

[1] جورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ص 87.

والأمير بشير الشهابي الذي كان حاكماً على لبنان وبين عدد من زعماء سوريا وفلسطين، حتى أن وفوداً قدمت سراً من الشام إلى القاهرة، لتعلن ولاءها وتأييدها[1] وكأنما التاريخ قد كرر نفسه بعد مئة وخمسين عاماً حينما تعاقبت الوفود من دمشق، سرا وعلنا تضم العسكريين والسياسيين ليلحوا على الرئيس الراحل عبد الناصر أن يبادر إلى إنشاء الوحدة بين سوريا ومصر.

وبدأت الحملة المصرية لتوحيد سوريا ومصر في خريف(1831) وخرجت القوات البرية من القاهرة مارة ببلبيس لتجتاز الطريق الحربي التاريخي القديم إلى ديار الشام الذي استخدمه الفاتحون والغزاة من مصر وإليها.

وكانت خانيونس أول تخوم الشام فاحتلتها القوات المصرية، وتابعت زحفها واستولت على غزة ويافا، واستقبل الأهلون القوات الفاتحة بحفاوة وترحيب عظيمين.

وحينما كانت القوات البرية تخترق صحراء سيناء وتدخل الأراضي الفلسطينية، كان الأسطول المصري ينطلق من ميناء الإسكندرية يحمل بقية الجيش المصري ومدفعيته وذخائره، وعلى رأس ذلك جميعاً القائد العام للحملة إبراهيم باشا ومعه أركان حربه، ومنهم سليمان باشا الفرنساوي، صاحب التمثال المعروف في ميدان سليمان باشا في القاهرة، ووصل الأسطول المصري إلى يافا، وهي ميناء معروف، ومنها واصل الأسطول المصري سيره إلى حيفا، وتم احتلالها، وفيها التقت القوات البرية والبحرية، واتخذها إبراهيم باشا قاعدة لأعماله العسكرية، وقد استقبله الأهلون استقبال الأبطال الفاتحين.

---

[1] جورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ص 87.

وشـــرع إبراهيم في مهاجمة عكا، وتملك هذه المدينة التاريخية موقعاً استراتيجياً هاماً، فهي مفتاح بلاد الشام، فمن فتحها فتح بلاد الشام، وقف إبراهيم باشـا أمام قلاعها وأسـوارها، كما فعل من قبله نابليون منذ نيف وثلاثين عاماً، فقذفها بالمدافع براً وبحراً، فاستعصت عليه، فضرب حولها الحصار ومضى إلى فتح مواقع أخرى في بلاد الشـام، فدانت له بلاد القدس وجبال نابلس وشـمال فلسطين، بينما تولت قوات مصرية أخرى فتح صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعلبك.

وعاد إبراهيم باشـا إلى عكا فشـدد عليها الحصـار، وواصـلت المدفعية المصرية ضرب أسوارها وأبراجها، واستبسل المهاجمون والمدافعون، ووقعت بين الفريقين معارك حامئة، ولكن القوات المصـرية اسـتطاعت في النهاية أن تفتح ثغرات كبيرة في الأسوار فاحتلت المدينة واستسلم قائد الحامئة عبد الله باشا والي الدولة العثمانية.. وسـقطت القلعة الشـامخة التي كان قد ارتد عنها نابليون يوم قال قولته الشهيرة "عند أسوارك أضعت مستقبل حياتي.."

وكان لانتصـار إبراهيم باشـا دوي عظيم تجاوب في الشـرق والغرب، واحتفلت مصـر بهذا النصـر المجيد ثلاثة أيام متواليات، فرقصـت وغنت، وزغردت، وأصبح إبراهيم باشا يعرف بنابليون العرب.

وقد سرد المؤرخون طائفة من الأسباب لفتح عكا على يد إبراهيم باشا بعد أن عجز نابليون، ولكن شيئاً واحداً قد فاتهم جميعاً، وكان له الفضل الأول في حسم المعركة لصالح القوات المصرية، وذلك أن أهل البلاد كانوا يرون في انتصار إبراهيم باشا انتصاراً لهم، وأن المعركة هي معركة الوحدة.. وآية ذلك

أن "العرب والدروز والموارنة" قد ســـاعدوا إبراهيم باشـــا طائعين مختارين في معركة عكا، كما يشهد بذلك التاريخ، وهو شاهد حق وصدق..[1].

وثمة سبب آخر يتصل بالسبب الأول هو أن إبراهيم باشا لم يكن غريباً عن الأهل والوطن،فقد كان يتكلم العربية، وتمثلته العروبة وهو يقاتل في الجزيرة العربية، وها هو يقف على أسوار عكا ويسأله السائلون إلى أي مدى تصل فتوحاته بعد أن يتم له الاستيلاء على عكا، فيجيب سيواصل الزحف إلى آخر حد يستطيع فيه أن يتكلم اللغة العربية وأن يتفاهم مع الناس من خلالها، وذلك ما رواه مرجع تاريخي فرنسي، لا مجال للشك في روايته ونزاهته[2].

وكانت هذه المشاعر القومية العربية هي التي كان يملكها إبراهيم باشا، ولم يكن يملكها بطل فرنسا فانتصر نابليون العرب وانهزم نابليون الغرب.

ومن عكا واصل إبراهيم باشا زحفه صوب دمشق، ولم تستطع القوات العثمانية الصمود طويلاً فاحتلت المدينة، ودخل إبراهيم باشا إلى عاصمة الأمويين فاستقبله الأهلون، وفتحت غوطة دمشق ذراعيها لأهلها الفاتحين، وصلى إبراهيم باشا في المسجد الأموي بين تهليل الجماهير وتكبيرهم، والذين شهدوا من جيلنا استقبال دمشق الرئيس عبد الناصر في عهد الوحدة، يستطيعون أن يدركوا كيف كان استقبال إبراهيم باشا في عاصمة الأمويين وأوجه الشبه بين العهدين كثيرة..

---

[1] عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص 198.

[2] **كتاب حرب مصر ضد الباب العالي في سوريا والأناضول** سنة 1831 – 1833 ص 412.

وواصلت الحملة سيرها في اتجاه حمص، وهي مدينة أخرى ذات موقع استراتيجي، تقع على الشاطئ الأيمن من نهر العاصي، وهي على طريق بعلبك ودمشق جنوباً، وطريق إنطاكية وحلب شمالاً.. وكان الجيش التركي معسكراً جنوبي حمص وتحت أسوارها وعلى مقربة من نهر العاصي، فقامت القوات المصرية بهجوم كاسح امتد إلى حدائق المدينة، حيث نشب قتال عنيف بين الفريقين انتهى بانهزام القوات التركية، واعتبرت معركة حمص أول معركة جرت فيها مواجهة مباشرة بين القوات المصرية والتركية.. وخسرت الدولة العثمانية سمعتها العسكرية الكبرى التي كانت قد وصلت إلى قلب أوروبا قبل ذلك بثلاثة قرون !!

وبعد موقعة حمص، راحت القوات المصرية تضرب في الأرجاء الشمالية من ديار الشام فاحتلت حماه، وحلب، والاسكندرونة واللاذقية، وإنطاكية وعمت الفرحة الكبرى جماهير الشعب، وبلغت الحماسة بأهل حلب أنهم رفضوا أن يسمحوا للجنود الأتراك المنسحبين أن يدخلوا مدينتهم فأغلقوا أبواب الأسوار، ولم يسمحوا بالدخول إلا للجنود الجرحى والمرضى.[1]

وبالاستيلاء على ديار الشام من العقبة إلى جبال طورس، أصبح هذا القطر العربي الرابع جزءا من الدولة العربية المتحدة، شأنه في ذلك شأن مصر والسودان والجزيرة العربية، واستتب الأمر في ديار الشام، ولكن الاستعمار الأوروبي لم يستقر له قرار.. فأخذ يتحرك لضرب الوحدة، وتدمير الدولة العربية المتحدة كما فعل بعد مئة وخمسين عاماً، في عهد الوحدة السورية المصرية التي تجسدت بقيام الجمهورية العربية المتحدة.

---

[1] عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ص 206.

وموجز ذلك أن الدول الأوروبية قد رأت نفسها أمام حالة خطيرة لم تكن تتوقعها، فقد كانت حساباتها تقوم على أساس اقتسام البلاد العربية فيما بينها، فجاءت دولة الوحدة الفتية وجعلت منها ما سماه المؤرخون "إمبراطورية عربية" فاختطفت الوطن العربي من براثن المطامع الأوروبية.. وقد ازدادت المخاوف الاستعمارية حينما توغل إبراهيم باشا في بلاد الأناضول، واحتلت القوات المصرية اطنة وطرطوس حتى قونية، حيث نشبت معركة فاصلة بين الجيش المصري والجيش التركي حققت فيها القوات المصرية نصراً باهراً" ديسمبر 1832.

وتضاعفت مخاوف الدول الأوروبية حينما رأت ان إبراهيم باشا قد واصل انتصاراته فاحتل كوتاهية وازمير وأصبح على مقربة من القسطنطينية، وتدخلت الدول الأوروبية للإبقاء على ما بقي من الدولة العثمانية، وللحفاظ على التوازن الدولي، فأبرم الصلح بين الدولة العثمانية ودولة الوحدة العربية، وكان إبراهيم باشا يومئذ في معسكره بكوتاهية وباسمها سميت اتفاقية كوتاهية (إبريل 1833) وكان أهم نصوصها أن تخلت الدولة العثمانية عن سورية وإقليم أطنة، مقابل ان يجلو الجيش المصري عن باقي الأناضول.. ونتيجة لهذا الاتفاق، أصدر السلطان العثماني فرمانا في (مايو 1833) أعلن فيه تثبيت محمد علي باشا على مصر وإسناد ولاية سورية إليه، وتجديد ولاية إبراهيم باشا على الحجاز وإدارة إقليم أطنة.. وبهذا أصبحت حدود دولة الوحدة العربية تمتد من صحراء سيوة شرقا إلى الخليج العربي غرباً، ومن السودان جنوباً إلى ما وراء جبال طورس في جوف الأناضول شمالاً.. ولكن..

ولكن الدول الأوروبية وخاصـــة بريطانيا، لم تكن مســـتريحة لقيام دولة الوحدة بهذه الحدود المترامية، فلم تفتر عن تحريض الدولة العثمانية على الدولة العربية، وتحركت القوات التركية في أواخر الثلاثينات من القرن التاســع عشــر فنشبت المعركة الشـهيرة المعروفة بمعركة نصـيبين (يونيو 1839) عند الحدود الســـورية التركية، حيث حلت بالقوات التركية هزيمة ســـاحقة وظفرت القوات المصرية بنصر باهر..

وكان من أعظم نتائج هذه المعركة أن استسلم الأسطول العثماني الضخم بســـفنه الحربية ومدافعه وقواته إلى دولة الوحدة الفتية، وكان مشـــهداً تاريخيا فريدا، حينما دخل الأسطول التركي مياه الإسكندرية، واستلمه محمد علي باشا، وأصبحت الدولة العربية المتحدة دولة قوية برية وبحرية، يحسب لها ألف حساب وحساب.

ومع هذه الانتصـارات الباهرة التي حققتها دولة الوحدة، نشأ في التاريخ ما يعرف "بالمسـألة المصـرية" ومعها "المسـألة الشـرقية" فقد ثارت مخاوف أوروبا ورأت في دولـة الوحـدة الجديـدة قوة عربيـة تحول دون مطـامعهـا، بـل قوة كبرى توشك أن تعيد الخلافة الإسلامية إلى القاهرة ويصبح العالمان العربي والإسلامي يدوران في فلك الدولة العربية المتحدة وكل ذلك يهدد الاســـتعمار الأوروبي في صميم أطماعه كما يهدد التوازن الدولي بأكمله.

وإزاء ذلـك كلـه فقد عقدت الـدول الأوروبيـة مؤتمرهـا في لنـدن (يوليـه 1840)، وبعد مداولات ومناورات انتهى المؤتمر بعقد معاهدة فرضـــت على محمد علي باشـا الجلاء عن الجزيرة العربية وإقليم أطنة وسـائر البلاد العثمانية وإعادة الأسطول العثماني.. وأن يخول محمد علي باشا حكما وراثياً في مصر،

وأن تكون له في مدة حياته المنطقة الجنوبية من سورية، تبدأ حدودها من رأس الناقورة شمال عكا إلى نهر السيسبان في شمال بحيرة طبرية، ومع شاطئيها الغربي والضفة اليمنى لنهر الأردن، فالشاطئ الغربي للبحر الميت ومن نهايته يمتد على خط مستقيم إلى رأس خليج العقبة على البحر الأحمر، فالشاطئ الغربي لخليج العقبة، إلى الشاطئ الشرقي لخليج السويس حتى مدينة السويس نفسها. ومعنى ذلك جلاء محمد علي باشا عن البلاد الشامية وإعطائه فلسطين..

كانت تلك هي الحدود التي وضعتها الدول الأوروبية في داخل الوطن العربي، في عام 1848 وكانت سابقة دولية لحدود أخرى وضعتها الدول الأوروبية نفسها في اتفاقية سايكس بيكو 1917، وفي قرار التقسيم أشار إليها القرار المشئوم رقم (242) الصادر من مجلس الأمن بعد حرب الأيام الستة.

وتولت بريطانيا تنفيذ معاهدة لندن بالقوة الحربية مستهدفة تحطيم دولة الوحدة، ففي خريف عام 1840 بدأ الأسطول البريطاني بضرب الثغور السورية تمهيدا لاحتلالها، فقصفت بمدافعها مدينة بيروت، واشتركت معها السفن الحربية النمساوية والتركية، ونزلت القوات البرية المتحالفة في ميناء جونية شمال مدينة بيروت، واستولت على جبيل ثم على البترون، وسقطت بأيديهم حيفا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية، وأصبحت الثغور السورية في يد القوات البريطانية وحلفائها..

وجاء الدور على عكا، ونشبت حول أسوارها معركة ضارية، ولم تستطع الصمود طويلاً فاستسلمت الحامية المصرية بعد أن قصفها الأسطول البريطاني بالمدفعية فأنزل الخراب في أسوارها وفي أحيائها.. وبسقوط عكا، سقطت فلسطين بأكملها في يد الحلفاء. وتوجه الأسطول البريطاني صوب الإسكندرية

فيما يشـــبه المظاهرة العســـكرية حتى يذعن محمد علي باشـــا لمطالب الحلفاء ويتقوقع في مصـر ولا شـأن له بالبلاد العربية، وحاول محمد علي باشـا الصـمود ولكنه أصــبح يواجه قوى الحلفاء مجتمعة، ومعهم الدولة العثمانية فلم يســعه إلا ان يصـدر الأمر لابنه إبراهيم باشـا أن ينسـحب بجيشـه من سـوريا، وانسـحب الجيش المصري كذلك من الجزيرة العربية، وكانت بريطانيا وقتئذ قد احتلت عدن ورأت في بقاء الجيش المصـــري في جزيرة العرب ما يتعارض مع خططها الاستعمارية!!

وهكذا أفلح الاســتعمار متحالفا بكافة قواه العســكرية والســياســية على بضـرب دولة الوحدة الفتية، وما أكثر أوجه اشـبه بين ما وقع على الأمة العربية في القرن التاسع عشر على أيدي الاستعمار السافر، وما وقع في القرن العشرين على يد الاسـتعمار المقنع..وجيلنا يذكر كيف جرى العدوان الثلاثي على مصـر في عام 1956، واشـــتركت فيه القوات البرية والبحرية والجوية من قبل بريطانيا وفرنسـا وإسـرائيل.. كما يذكر جيلنا إنزال القوات البرية الأمريكية على السـواحل اللبنانية في عام 1958 للتصـدي للثورة العربية العارمة التي تفجرت بعد سـقوط العرش الهاشمي في العراق وقيام الجمهورية العراقية.

وما هو جدير بالتنويه أنني ســـردت الأحداث التي جرت في عهد محمد علي من زاوية واحدة تتصـــل بقيام دولة الوحدة العربية فقط، وهذا ما حرصـــت على إبرازه دون الالتفات إلى الجوانب الأخرى.. من حروب محمد علي باشا في بلاد اليونان لنصرة الدولة العثمانية، وغير ذلك من الأحداث ..

ولكني أحذر المواطن العربي أن يظن للحظة واحدة، أن حديثي عن دولة الوحدة في عهد محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا صادر عن غرام الوحدة، وهو غرام اعترف به واعتز، ولكنه الحقيقة التاريخية خالية من أي مبالغة أو خيال.

فالواقع التاريخي الذي تؤكده المصـــادر الأجنبية قبل العربية، أن الدولة التي أنشأها محمد علي باشا وشملت مصر والسودان والجزيرة العربية والشام الكبرى هي دولة عربية وحدوية، قامت بهذه الصـفة، وسـقط على دربها ألوف الشهداء، وتحملت الأمة العربية من أجلها كثيراً من التضحيات الجسام.

وكذلك لم تكن الدولة حصـيلة طموح عبقري تمخض عن صـدر حاكم متعطش إلى الحكم الواسـع والسـلطان الكبير، ولكن ذلك الحاكم العبقري كان يهدف إلى إقامة دولة عربية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .. وفي خزائن التاريخ وثيقة منسية تثبت ذلك بأجلى بيان.

هذه الوثيقة هي كتاب وضـعه السـفير البارون بوالكونت الذي أوفدته الحكومة الفرنسـية في ذلك العهد لدراسـة خطط محمد علي باشـا وسـياسـته.. والتقى السـفير الفرنسـي بإبراهيم باشـا بالقرب من طرطوس وأجرى معه حديثا مطولا.. وكتب السـفير الفرنسـي يقول "ان إبراهيم باشـا يجاهر علناً بأنه ينوي احياء القومية العربية، وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة أو الجيش وأن يجعل منهم شـعباً مسـتقلا.. وتتجلى فكرته هذه في منشـوراته ومخاطباته لجنوده العرب في الحرب الأخيرة بسـورية، فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد.. وقد قال لي إن أباه يحكم مصـر والسودان وسورية والجزيرة العربية ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه، وهو في صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ويعد نفسه عربياً"..

ويمضـي السـفير الفرنسـي ويذكر أن إبراهيم باشـا كان يطعن في الأتراك وأن أحد جنوده سـأله بحرية واسـتغراب، كيف يطعن بالترك وهو منهم... وأن إبراهيم باشـا أجابه قائلاً "أنا لسـت تركياً، فاني جئت مصـر صـبياً، ومنذ ذاك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً".[1]

ولعمري فان هذا التعريف للعروبة وقد مضـى عليه أكثر من مئة وخمسين عاماً، لا يزال ينبض بالحياة والصدق إلى يومنا هذا.

وقد التقى السفير الفرنسي بضـابط آخر من ضـباط الحملة المصـرية كان قضـى سـتة أعوام في فرنسـا ويجيد الفرنسـية كأبنائها، ودار حوار بين السـفير والضـابط فقال الضـابط، وهو من أصـل تركي، "إن معظمنا قد قد ولد في تركيا ولكن إقامتنا في مصـر قد أعطتنا حق التجنس بالجنسـية المصـرية، إن القانون الفرنسـي، يكتفي بعشـرة أعوام يسـتطيع الأجنبي بعدها ان يتجنس بالجنسـية الفرنسـية، أما نحن فقد قدمنا إلى مصـر في سـن الطفولة، ولذلك لم نعد أتراكاً قط.. إننا الآن ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنوراً، إلى هذا الشعب العربي الذي سبق أوروبا في الحضارة وزين تاريخه بإقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التي غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادي النيل"[2].

وثمة مرجع تاريخي آخر لمؤلف عربي مسيحي عاصر تلك الأيام، ويقول في كتابه شـارحاً أسـباب معاداة بريطانيا لدولة الوحدة ويقول".. ولا مشـاحة أن دولة الإنجليز أكثر الدول اسـتعماراً، وكأنها أوجسـت خيفة من الدولة المصـرية التي أصـبحت في مصـاف الدول المرتقبة، وكأنما(بريطانيا) لحظت أن محمد

---

(1) كتاب **مهمة البارون بوالكونت**، ص 248 ، 249.

(2) المصدر السابق ص ص 240 ،255.

علي باشـــا يطمع في إحياء الدولة العربية القديمة وإرجاعها دولة عربية إسلامية.."[1].

وفي مرجع تاريخي معروف عن إبراهيم باشـــا، قال المؤلف الغربي ".. إن مصـر بفتح تلك الأقطار العربية كانت ترمي إلى وضـع أسـاس لدولة فاستيقظت من سبات العصور الوسطى وخطت خطوتها الأولى في سبيل رقيها الحديث، وكذلك أنشـأ محمود نامي بك مجلس شـورى بيروت وديوانا للصـحة وآخر للتجارة"..[2].

وإنجازات دولة الوحدة في ميادين الزراعة والتجارة والصـناعة أكثر من أن تحصـــى، ولكن إنجازا واحدا حققته دولة الوحدة لا يمكن أن نغفله في المرحلة الراهنة.. مرحلة التجزئة والانفصال التي تسود الوطن العربي اليوم، ونراها ماثلة أمامنا في قيام عشـرين دولة تمارس السـيادة على أمة واحدة تعيش في وطن واحد.

هذا الإنجاز الكبير يقدم الجواب الكبير عن سـؤالين يطرحان دوما كلما طالب المواطن العربي بقيام الدولة الاتحادية في الوطن العربي.

والسؤال الأول، يطرحه دعاة الانفصال قائلين: كيف تقوم الوحدة بين دول متباينة في نظمها الاقتصـادية وثرواتها الطبيعية .. وقد أجابت دولة الوحدة عن هذا السـؤال بما قام من التكامل الاقتصـادي بين أقطارها في السـودان ومصـر والجزائر والشـام، ويذكر لنا التاريخ" أن دخل الولايات الشـامية كان أقل من

---

[1] الدكتور ميخائيل مشاقة، **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**، ص 126.

[2] الدكتور أسد رستم، **مجلة الكلية**، مجلد 12، ص 130.

نفقاتها، وخاصة لما يقتضيه الإنفاق على الجيش..فكانت الخزانة المصرية تسد عجز الميزانية من مالها.[1]

أما السؤال الثاني، ويطرحه دعاة الانفصال قائلين: كيف تقوم الوحدة في الأمة العربية، وهي أشبه ما تكون بالفسيفساء في كثرة طوائفها الدينية، وجماعاتها المذهبية وأقلياتها العنصرية، ويذكر لنا التاريخ أن دولة الوحدة قد أجابت عن السؤال بالتطبيق والممارسة جواباً يفحم الانفصاليين أجمعين.. فقد أكد قنصل فرنسا في مصر، في عهد الوحدة، المسيو (بنديثي) "أن العدل كان يسود الدولة في جميع أقطارها سواء في وادي النيل إلى أقاصي حدود السودان أم في سورية وجزيرة العرب.." ويقول المؤرخ السوري الكبير الأستاذ محمد كرد علي، وهو من أصل كردي كما يدل عليه اسمه، "إن معاملة الرعايا في بلاد الشام كانت تقوم على أساس المساواة والعدل، لا تفاوت بين طبقاتهم ومذاهبهم"[2] وقال سليمان أبو عز الدين وهو من أعيان الدروز وأدبائهم، "من التغيرات الاجتماعية التي نشأت في سوريا إطلاق الحرية الدينية، ونشر روح الديمقراطية، وان استخدام بعض السوريين في الحكم أنشأ صلة أدبية دائمة بين القطرين"..[3].

على ان أروع الأمثلة ينتصب أمامنا شامخاً حينما نقرأ في تاريخ تلك الحقبة أن زمام الأمور في البلاد الشامية كان بيد واحد من كبار أعيان

---

(1) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي باشا**، ص228.

(2) **خطط الشام** ج 3، ص 57.

(3) كتاب **ابراهيم باشا في سوريا**، ص 139.

النصـارى، واسـمه حنا بك بحري، وهو على جانب عظيم من الكفاءة، وقد كتب في هذا الصدد مؤرخ مسيحي عاصر تلك الحقبة فقال:

"..لقد أرسل محمد علي باشا تفويضا إلى حنا البحري في سن النظامات لحكومة سـوريا على النمط الحديث .. وكان حنا البحري على جانب عظيم من أصـالة الرأي، وله القدح العالي في السـياسـة المدنية، وكان العدل والإنصـاف شأنه، والنزاهة زمامه، لا فرق عنده بين القوي والثري والضعيف الفقير أو المسلم أو الذمي، وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد علي باشا.."[1].

هكذا كانت دولة الوحدة قبل مائة وخمسـين عاماً . قد شـهد لها مؤرخ درزي، وآخر كردي، وآخر مسيحي، وآخر فرنسي..

وهكذا نريد الوحدة ان تكون اليوم، للمواطنين جميعاً سواء بسواء.. وعلى الانفصـاليين ودعاة التجزئة، وعلى المنتفعين بالتجزئة والانفصـال أن يسكتوا إلى الأبد. عربية إسلامية عظيمة قلبها النابض مصر"..[2].

وصـاحب كتاب يقظة العرب، وهو عربي مسـيحي كان له دور معروف في الحركة العربية المعاصرة، قد عقد فصـلا مستقلا عن سيرة محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشـا وأشـار في أكثر من موضـع إلى "إقامة إمبراطورية عربية تحطمت فيا بعد أمام عناد اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا".[3]

وأنا أضـع هذه المراجع التاريخية، وغيرها كثير ،لأثبت ان دولة محمد علي باشا وأبنه ابراهيم باشا هي دولة الوحدة العربية، وأن بطليها استعربا بالحياة

---

(1) ميخائيل مشاقة ، **مشهد العيان في تاريخ سوريا ولبنان**، ص 102.

(2) **بيركرابيتس** ، ترجمة محمد بدران، ص 42.

(3) جورج انطونيوس، **يقظة العرب** ، ص 81 وما بعدها.

والنشأة والتلاحم، وقد قضيا من عمريهما ما يربو على خمسين عاما في الوطن العربي، وأنهما كما قال إبراهيم باشا نفسه، قد " مصرتهما شمس مصر وغيرت دمهما وجعلته دماً عربياً".. والتاريخ العربي نفسه ينبئنا أن القبائل الحجازية نفسها كانت من الدوحة المستعربة، وقبل الإسلام بأجيال.

وليس يضير دولة الوحدة تلك أنها قامت بالحرب، فقد كانت الحرب ولا تزال طريق الوحدة .. ففي القرن التاسع عشر، قامت الحرب بين إنجلترا واسكتلندا لتحقيق الوحدة، وقامت الحرب بين الولايات المتحدة الشمالية والجنوبية في أمريكا من أجل الوحدة.. وقامت الوحدة الإيطالية بالحرب، وكذلك الوحدة الألمانية، وكان محمد علي باشا هو الفارس الأول لكل تلك الحروب الوحدوية، فقد سبقهم إليها جميعاً.

وفي عصرنا الحاضر لا نزال نشهد الصراع الدموي في فيتنام وكوريا. إنه صراع من أجل وحدة الشمال والجنوب للوطن الواحد والشعب الواحد، وسواء انتصر الشمال أو الجنوب فإن النصر سيأتي بالوحدة كائناً ما كان النظام السياسي والاجتماعي الذي ستقوم عليه دولة الوحدة المرتقبة.

وبقي أن يعلم المواطن العربي أن دولة الوحدة التي أقامها محمد علي باشا قد أعطت للأمة كل ثمرات الوحدة وانجازاتها الكبرى.. إذ لم يكن الهدف إقامة حكم واحد تحت علم واحد وكفى .. ولكنها كانت وحدة تقدم وبناء وحضارة وازدهار.. والشواهد التاريخية كثيرة..

ففي السودان مثلا استتب الأمن، وانتهى عهد الملوك الخمسة الذين كانوا يحكمون البلاد، وقامت محلهم إدارة مدنية، وقسمت البلاد إلى مديريات، ودخل السودانيون في الجيش المصري مع إخوانهم المصريين تحت راية واحدة، وقام

محمد علي باشا بنفسه برحلة إلى السودان واصطحب معه طائفة من المهندسين والباحثين للنظر في شـئون البلاد ومرافقها العامة، كما يفعل ولي الأمر في بلده ومع شـــعبه، وفي عهده بنيت مدينة الخرطوم.. وهي الآن عاصـــمة جمهورية السودان، وكان في موقعها بضعة أخشاش، وأنشئت كذلك مدينة كسلا عاصمة الســودان الشــرقي، ونشــطت الزراعة والتجارة والمهم في كل ذلك أن مصــر والسـودان عادا بلدا واحدا، وكما يقول مؤرخ مصـر الحديثة، "لم ينظر المصـري إلى السودان كمستعمرة للاستغلال، بل نظر إليه كجزء من مصر، فعني بعمرانه كما عني بعمران الغربية والدقهلية وسـائر مديريات القطر المصـري"[1] وهذا هو المعنى الأصيل للوحدة .

وفي ديار الشــام، وهي الآن جمهوريتان وملكية بالإضــافة إلى فلســطين المحتلة، فقد كانت إنجازات الوحدة بالغة حد الروعة، فقد توطدت دعائم الأمن، وخطت البلاد خطوات واســعة في مضــمار التقدم، واتخذ إبراهيم باشــا مدينة إنطاكية مقرا للحكم ورتب شــئون البلاد فعين أحمد بك اليوســف حاكما على دمشـق، وأنشـأ ديوان المشـورة، مؤلفا من أعيان البلاد للنظر في الشـئون العامة، فكان أشــبه بســلطة محلية، وفي بيروت كان محافظ بيروت محمود نامي بك قضــى فيها سـبع سـنوات (1833 – 1840) تنشـقت بيروت خلالها، كما يقول مؤرخ معروف، "نسيما منعشا من الغرب المتمدن".

---

[1] عبد الرحمن الرافعي ،**عصر محمد علي**، ص 148.

علماء وزعماء..

خاضوا معارك الوحدة

كانت الوحدة العربية، في زمن الدولة العثمانية، قوة ساكنة في ضمير الأمة العربية، وهي أشبه ما تكون بالبركان الهادئ، " مؤهل" للانفجار حينما تدعوه ظروف طبيعية في جوف الأرض، إلى الحركة والانتفاض.

وكذلك كان شأن الوحدة العربية مع الدولة العثمانية، إنها لم تكن غائبة، أو معدومة كما يزعم بعض الكتاب والمؤرخين جهلا أو عمدا .. فلقد كان الوعي بالقومية العربية والوحدة العربية قديماً قدم الأمة العربية، ولم ينشأ كما نشأت القوميات والوحدات الأوروبية في القرن التاسع عشر، إن الشعور القومي في الأمة العربية وقيام الدولة العربية الوحدوية، يرجع إلى أقدم عصور التاريخ.

وكان هذا الشعور ساكناً في زمن الدولة العثمانية، وخاصة حينما كانت في أوج قوتها العسكرية، فقد كان العرب يرون في هذه الدولة دولتهم، يشاركون في الدفاع عنها، والذود عن أقطارها.. والأقطار العربية هي أغلى ما فيها.

ولكن سرعان ما تبدل هذا الشعور الساكن، وانقلب إلى حركات وثورات وانتفاضات حينما بدت عوامل الضعف والانحلال على الدولة العثمانية وما تلا ذلك من تآمر الدول الأوروبية على الوطن العربي، والسعي لتمزيقه واقتسامه.

وفي أواخر عهد الدولة العثمانية، أحست الأمة العربية بالخطر الأوروبي يحدق بها، وأيقنت أن الدولة العثمانية قد أصبحت غير قادرة على الدفاع عن وطنها الصغير، فضلا عن الوطن الكبير، وأن الدولة العثمانية باتت تعيش لا بسبب قدرتها على البقاء ولكن لأن الطامعين فيها لم يتفقوا بعد كيف ومتى يتقاسمونها، وأنها لا محالة زائلة يوم يتفقون..ويومئذ سيكون الوطن العربي هو الضحية..

كانت هذه المخاوف تساور ضمير الأمة العربية وأهل الرأي فيها .. ولم يكن مناص ولا خلاص إلا بالنزوع إلى الوحدة، ومن هنا بدأت الحركات والانتفاضات والثورات في أرجاء متعددة من الوطن العربي.. بدأت في نجد ثم في ليبيا، وبعدها في مصر، والسودان، ومنها إلى الشام.

وكان الطبيعي أن يصبح الدين وعاء هذه الحركات، فالدين في جوهره ثورة، وهو القوة الدافقة الدافعة التي تعبئ الجماهير إلى ميدان المعركة لبلوغ احدى الحسنين.. النصر أو الشهادة.

وقد تمثلت هذه الحركات الوحدوية، في الوهابية في نجد، والسنوسية في ليبيا، والعرابية والمهدية في مصـــر والســـودان، والثورة العربية التي انطلقت من مكة وأصبحت دولة وحدوية..

ولا شـك أن معظم هذه الحركات اسـتهدفت الإصـلاح الديني، والعودة بالإســـلام إلى صـــفائه ونقائه، غير أننا نظلمها أفدح الظلم إن لم نعطها حقها النضـالي في سـبيل الوحدة العربية.. والتاريخ حافل بالدلائل على " وحدوية" هذه الحركات الإصـــلاحية، وقد أغفل كثير من الباحثين والدارســـين هذا الجانب المشرق في سيرتها .. وألغوا فصلا مضيئا في تاريخ الوحدة العربية.

وإذا كان الطابع الديني بارزا في الوهابية والســـنوســـية والمهدية، فإن الطـابع القومي الوحدوي كـان بـارزا في الثورتين العرابيـة، والعربيـة.. والحركـات الخمس تشترك كلها في إطار الوحدة العربية.

وكان قادة هذه الحركات أبطالا عباقرة، ناضـــلوا في ظروف صـــعبة قاسـية، لم يكونوا يملكون، هم وأمتهم، إلا الإيمان والعزم، والصـبر على المكاره، ووقفوا حياتهم على بلوغ هدف الوحدة بكل ما أوتوا من شجاعة وإخلاص.

وصـــحيح أن أولئك القادة لم يســـتطيعوا أن يحققوا الهدف الكبير الذي ناضـــلوا من أجله، إلا الثورة العربية التي أقامت أول دولة عربية وحدوية في العصر الحديث وعاشت عمرا قصيرا في ديار الشام. إلا أن جهادهم يظل حلقة أصـــيلة في ســـلاســـل الوحدة العربية، ومرحلة جليلة في تاريخها يلهم الأجيال العربية بالنضـال تلو النضـال حتى يتم تحقيقها . دولة عربية اتحادية في الوطن العربي بأسره.

ولكن أعظم ما في قصـة أولئك القادة العباقرة أن دعوة الوحدة العربية قد انطلقت من الأقطار العربية بأسرها، متعاقبة مترادفة، فلم تكن قاصرة على قطر بذاته، لكنها كانت شـــاملة الأقطار كلها ، والأمة بأســـرها.. وفي ذلك الدليل القاطع على شمول الوحدة، دعوة وحركة ونضـالا، والرد الحاسم على الشعوبيين الذين ينكرون وجود الأمة العربية، وعلى الانفصـــاليين الذين مهروا في الدفاع عن الانفصال في إطار من فصاحة الوحدة !!

وهنا يتسـاءل المواطن العربي: كيف نشـأت تلك الحركات الخمس، وهل كـانـت الوحـدة العربيـة هدفهـا ، حقيقـة لا مجـازا .. وعنـد التـاريخ الخبر اليقين والجواب الصادق الأمين.

والحركة الوحدوية الأولى تتمثل في الدعوة الوهابية التي بدأت في القرن الثامن عشـــر، ويعود الفضـــل في قيامها إلى محمدين اثنين: محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن ســـعود، الأول الداعية الديني، والثاني القائد الســـياســـي والعسكري.

وقد نمت هذه الدعوة وترعرعت في الجزيرة العربية، وأصـــبحت الدعوة دولة وجدت ســـلطانها في أواســـط الجزيرة العربية وفي شـــرقها حتى الخليج العربي.. وكان قوام هذا الدولة الوهابيين المقاتلين، فاجتاحوا كربلاء في العراق عام (1801)، وفي 1803 فتحوا مكة، وفي عام 1804 اســـتولوا على المدينة المنورة، وفي السنة التالية هاجموا سوريا والعراق ووسعوا مملكتهم من تدمر حتى عمان، وبلغوا دمشـــق وحلب في ســـنة 1811، وحملوا الدولة العثمانية أن تعقد معهم صـلحاً، وبلغ من اعتزاز الدولة الوهابية بقوتها أن الأمير محمد بن سـعود

قد أمر بقطع الخطبة عن السـلطان العثماني سـليم الثالث، وأن تكون الخطبة باسمه في الصلاة الجامعة..

ولست أؤرخ الآن للدعوة الوهابية، ولا للدولة السعودية، فلقد تطرقت إلى هذا الحدث التاريخي من الزاوية الوحدوية .. ذلك أن الدولة الوهابية وقد بسطت سـيادتها على الجزيرة العربية قد أثارت الحماسـة في الجماهير العربية في كل مكان، وهذه رأت فيها بداية لانبثاق دولة عربية واحدة تبسـط سـلطانها على الوطن العربي أجمع .. والتاريخ يمدنا بصـورة مشـرقة عن الانتفاضـة الروحية التي سادت الأمة العربية في ذلك العهد.

وهذا قنصـل فرنسـا في بغداد كتب إلى وزارة الخارجية الفرنسـية عن الانتفاضـة الوهابية يقول " .. إن روح الفتح اسـتأثرت بقلوب الجماهير فراحت تسـتعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد القديم، وأخذت الأحلام تراودها برؤية أمرائها متربعين على كرسـي الحكم . وأمس قال لي أحد الوهابيين : لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة .. وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت نير مغتصب".[1]

والخلافة، وان كانت قد فقدت معناها الحقيقي، اليوم، بما تراكم عليها من الاجتهادات الزائفة والممارسات الضالة،إلا أنها في جوهرها سلطة وحدوية، تنبئ عن الحاكم الواحد لجميع المسـلمين وقيام خلافتين أو أكثر يتنافي مع جوهر الخلافة، فلا بد أن تكون إحداهما باطلة أو متمردة تجب محاربتها، وإقامة الخلافة الواحدة مكانها..

---

[1] زين نور الدين ، **نشوء القومية العربية**، ص 45.

وبهذا تكون الدولة الوهابية من هذه الناحية ، وفي معزل عن الجوانب الدينية، حركة وحدوية تتمثل في النزوع إلى إقامة خلافة عربية تمارس سيادتها على الوطن العربي أجمع، والأمة العربية بأسرها، والخلافة بالإضافة إلى اختصاصاتها الدينية، هي سلطة سياسية تشمل شئون الدولة بمختلف جوانبها.

وكائنا ما كان الأمر، فإن الدولة الوهابية، لم تستطع أن تستكمل مسيرة الوحدة، لأسباب لا مجال لذكرها، فتقلص "وجودها" في العراق وسوريا، وحتى في الجزيرة العربية.. ولم تستأنف العمل الوحدوي إلا في القرن العشرين في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، بعد أن أخضع عشرات المشيخات والإمارات ودخلت كلها فيما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية.

وجاء محمد "ثالث" (1791 – 1859) ليقوم بانتفاضة وحدوية أخرى، ولكن في الشمال الإفريقي هذه المرة، وعن طريق الدعوة الدينية، شأن الدعوة الوهابية، فقد كان الدين هو المدخل الرحب لكل دعوة إصلاحية أو ثورة سياسية واجتماعية.

وكان هذا الداعية هو محمد السنوسي، غرست الأسفار في نفسه نوازع الوحدة، فقد ولد في الجزائر، وعاش سنوات في فاس، وسافر إلى مصر، ومنها انتقل إلى الحجاز، ثم عاد إلى الجزائر، واستقر به المقام أخيراً في بنغازي ببرقة.

وقد كان لهذه الرحلة الطويلة في الوطن العربي الأثر الأكبر في توجيه حياة السيد السنوسي، فقد أدرك أن الدولة العثمانية في طريق الانحلال وأنها لم تستطع رد العدوان الفرنسي عن الأرض العربية الإسلامية في الجزائر.. وأنه لا

بد من إقامة خلافة عربية يتولاها شريف قرشي .. وبذلك تقوم إمبراطورية روحية واسعة الأرجاء.[1]

وهكذا انبثقت الدعوة السنوسية، وانتشرت " زواياها" في الشمال الإفريقي خاصة، ولم تعد دعوة دينية فحسب، بل أصبحت قوة اجتماعية وعسكرية تتطلع إلى إقامة إمبراطورية عربية في الشـــمال الإفريقي، وقد لفتت أنظار العثمانيين والفرنســيين والطليان.. وتحدث أحد المؤرخين الإيطاليين عن الأهداف الوحدوية للدعوة السنوسية بقوله " إن الأهداف السياسية التي صارت الطريقة السنوسية تبتغي تحقيقها هي إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الإفريقية من الحدود المصرية شرقاً إلى شوطئ الأطلنطي غرباً، فيضم بين جوانبه الأقطار الليبية وبرقة وطرابلس وفزان ثم صحراء الجزائر ومنطقة تشاد، ويسيطر على كل طرق التجارة من ساحل البحر الأبيض شمالاً إلى السودان جنوباً".[1]

واستمرت الحركة السنوسية في قيادة الحركة التحريرية الوحدوية، مركزة اهتمامها على الأقطار الليبية، لتكون قاعدة العمل الوحدوي، وفي إحدى مراحل الكفاح (نوفمبر 1918) أعلن المجاهدون الليبيون إنشاء الجمهورية الطرابلسية"، وكان من أعضاء مجلس الجمهورية سليمان الباروني، وأحمد المريض، ورمضان الســـويحلي، وعبد النبي بالخير ووقع الاختيار على الســـيد عبد الرحمن عزام (باشا) ليكون مستشار الجمهورية، وهو الذي أصبح فيما بعد أول أمين عام لجامعة الدول العربية.

---

[1] **قاموس لاروس**، ص 96.

[1] محمود كامل، **العرب تاريخهم**، ص 263.

وفي السنة التالية اضطرت إيطاليا للاعتراف بالجمهورية الطرابلسية، كانت تلك الجمهورية قصيرة العمر، ولكنها كانت أول جمهورية عربية في التاريخ بعد جمهورية الخلفاء الراشدين، ولو قدر لها أن تعيش لاستطاعت أن تحرر الشمال الإفريقي بأسره من السيطرة الإيطالية والفرنسية، وأن تقيم دولة المغرب العربي الكبير.

وفي أواخر القرن التاسع عشر نهض محمد "رابع"، في السودان هذه المرة، وهو محمد أحمد المهدي (1843 – 1885) وكان يحمل في صدره طموحات وحدوية ضمن الإطار الديني، فقد تصدى لمحاربة الإنجليز والعثمانيين معاً، وكان على صلة بالحركة السنوسية، وحاول الاستعانة بهم لإجلاء الإنجليز عن وادي النيل بأسره، كما أبدى رغبته أن يكون أحد السنوسيين خليفة له بعد وفاته.

والإمام المهدي من سلالة عربية، ومال منذ صباه إلى العلم والتصوف والتقشف، ولم يكن يهدف الا لتحرير الإسلام من النفوذ الأوروبي، والكتاب الغربيون قد شوهوا أهداف تلك الحركة لإيجاد القطيعة بين شطري الوادي فهي حركة وحدوية.[1]

ومثل الحركة السنوسية، فإن الدعوة المهدية قد أثارت مخاوف الدول الأوروبية، وقد أبرق قنصل فرنسا في دمشق (أذار 1885) إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول "إن اتفاقا وديا قد حصل بين المهدي وزعماء القبائل في الصحراء الغربية، وأهم الشروط في هذا الاتفاق الودي ينص أولاً على وجوب طرد الأتراك

---

[1] الشاطر بصيلي عبد الجليل، **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، ص 194.

من الأرض العربية، ثم إعلان استقلالهم الذاتي في شكل اتحاد[2] وهكذا تبرز المهدية كحركة وحدوية تستهدف تحرير الأرض العربية وإقامة اتحاد بينها.

وفي الحقبة المعاصرة نفسها، ظهر "محمد" خامس اسمه أحمد عرابي... صاحب الثورة العرابية الشهيرة وهو ينحدر من قبيلة المحاميد العربية في مصر، وقد ألهبت ثورته على الإنجليز وعلى الخديوي الفاسد مشاعر الوحدة في جميع أرجاء الوطن العربي، وخاصة بعد أن وصلت إلى أسماعهم وقفته التاريخية في ميدان عابدين بالقاهرة لتقديم مطالب الشعب والجيش، ودعا له المصلون بالنصر في الجوامع العربية "حتى تونس والجزائر" كما يقول (دارموند ستيوارت) مؤلف تاريخ الشرق الأوسط الحديث..

وكانت الحركة العرابية ترمي في أهدافها البعيدة إلى إقامة وحدة مصرية سورية حجازية، فقد ذكر المؤلف السالف الذكر أن مأدبة قد ضمت أحمد عرابي باشا، ومحمود سامي باشا البارودي رئيس وزراء مصر، والإمام الشيخ محمد عبده، وآخرين من رجال الدولة، وأن رئيس الوزراء قد أكد ان الثورة كانت تسعى إلى تحويل مصر إلى جمهورية مثل سويسرا، ثم تنضم إليها سوريا والحجاز.

وعلى كل حال، فالحركتان، المهدية والعرابية، كما قدرت المراجع الدبلوماسية الأوروبية، قد أشعلتا المشاعر العربية في الوطن العربي كله، وتشير الرسائل التي كان يبعث بها القنصلان البريطانيان في دمشق والقدس إلى "العطف الصادق الذي أبداه المسلمون على قضيتي عرابي والمهدي، فقد كانوا ينظرون إلى عرابي على أنه زعيم العرب، وأن ثورته، تنطوي على مضاعفات خطيرة من شأنها أن تقرر مصير العرب كأمة، فهي ليست مجرد ثورة لرد الغزاة

---

[2] نور الدين، **نشوء القومية العربية**، ص 67.

عن مصـــــر .. كما ان العرب لم ينظروا إلى المهدي على أنـه زعيم الـدين الإســلامي، فحســب، وإنما نظروا إليه على أنه الخصــم المجاهد ضــد الحكم التركي.[1]

وليس لنا أن ننسـى أنه في غمرة الحركات الوهابية والسـنوسـية والمهدية كانت رياح الثورة الفكرية تهب على الوطن العربي، وكان قادة هذه الثورة ثلاثة من كبار المفكرين : وهم الســيد: جمال الدين الأفغاني، والإمام الشـــيخ محمد عبده، والســـيد عبد الرحمن الكواكبي.. نفخ الأول روح الثورة في البلاد العربية والإسلامية وسافر في الشرق والغرب، فدعا إلى خلافة عربية في إطار الجامعة الإســـلامية، ودعا الثاني إلى نظرة علمية للدين وإقامة المجتمع على أســـاس التحرر العقلي، ونادى الثالث بمكافحة الظلم والاستبداد وإقامة الوحدة العربية في إطار خلافة عربية تضم البلاد العربية.

وحين كـانـت هذه الحركـات الوحـدويـة قـائمـة في الجزيرة العربيـة، وفي الأقطار الليبية وفي السودان وفي مصر، كانت الوحدة تشق طريقها في المشرق العربي وخاصـــة في ديار الشـــام.. وقد تجســـدت هذه الحركات في العديد من الجمعيات العربية التي كانت تنادي بالوحدة، وكان أقدمها الجمعية العربية التي تأسست في بيروت عام 1875 وأنشأت لها فروعا في دمشق وطرابلس وصيدا وأنضـم إليها عدد من الشـباب، وراحوا يكتبون منشـوراتهم بأيديهم، ويلصـقونها على الجدران، ويدعون فيها إلى الوحدة بين ســـوريا ولبنان .. وقد لفتت هذه المنشـورات نظر الدبلوماسـيين الأجانب المعتمدين في المشـرق العربي .. وقد أرسل القنصل البريطاني في بيروت ثلاثة من هذه المنشورات (1880) لا تزال

---

[1] زين نور الدين، **نشوء القومية العربية**، التقارير القنصلية، ص 199 .

محفوظة بأصلها في مكتب السجلات العامة بوزارة الخارجية البريطانية.. وقد دعا المنشور الثالث إلى "منح سورية الاستقلال متحدة مع جبل لبنان".

والجدير بالذكر أن أعضاء هذه الجمعية كانوا ينتمون إلى جميع الطوائف الدينية والمذهبية في سوريا ولبنان، وبهذا يكون قادة القطرين السابقون الذين أسسوا تلك الجمعية في عام 1875 أنضج فكرا وأصدق وطنية من القادة الحاليين الذين يحكمون اليوم في عام 1975، بعد مئة عام من غير زيادة ولا نقصان!!

ومما هو جدير بالملاحظة كذلك، أن الدعوة إلى اتحاد سوريا ولبنان في ذلك الوقت (1875) قد نشطت وتألقت بعد أن كان لبنان قد انفصل عن سوريا الكبرى، وأصبح له نظام خاص ويتمتع بالحكم الذاتي استنادا إلى " القانون الأساسي" الذي أصدرته الدولة العثمانية في عام 1864 وكان في جملة الداعين إلى العودة إلى الوحدة بين لبنان وسوريا، مسيحيون أقحاح وموارنة صراح !!

ومن التحركات العربية ذات الشأن ،التي تجسد فيها هدف الوحدة على أروع صورة تلك الاجتماعات التي بدأ انعقادها في بيروت بين عدد من قادة الرأي ثم توسع نطاقها فشملت العاملين في الحقل الوطني في صيدا ودمشق ويذكر السيد أحمد الصلح وهو أحد قادة هذه الحركة أنهم عقدوا اجتماعا في "دمر" حيث كان يقيم الأمير عبد القادر الجزائري وقضوا في ضيافته ثلاثة أيام تداولوا خلالها في أوضاع البلاد العربية، وانتهت تلك الاجتماعات إلى الاتفاق على استقلال البلاد الشامية سوريا، لبنان، فلسطين، وشرق الأردن، في دولة

اتحادية يكون على رأســـها الأمير عبد القادر الجزائري[1]. وكان الأمير عبد القادر الجزائري لاجئا يقيم في دمشـق، بعد ان حاصـرت القوات الفرنسـية الثورة الجزائرية، وجاء ذلك القرار باختياره رئيسـا لدولة الشـام تكريما للجهاد، وتكريما للوحـدة.. واللاجئون العرب، نـاهيـك عن الفلســـطينيين، لا يلقون في الوطن العربي، في هذه الأيام، إلا وســـائل العيش الحيواني : المأكل والمشـــرب والمسكن!!

ولم يتخلف المفكرون المسيحيون، حتى الموارنة منهم، عن ركب الوحدة العربية، فقد كان نجيب عزوري المســـيحي الماروني من أبرز الدعاة لحركة الوحدة، فقد أقام في باريس ردحا من الزمن، بعد أن كان وكيلا لمتصـــرف القدس، فألف حزبا من العرب في باريس أســماه" جمعية الوطن العربي(1905) وأنشــأ جريدة " الاســتقلال العربي" ووضــع كتابا باللغة الفرنســية " يقظة الأمة العربية" دعا فيه إلى إقامة دولة عربية اتحادية تشـــمل ســـوريا ولبنان والعراق ونجداً واليمن والحجاز، وأن توضـــع مقاليد الخلافة الدينية في أيدي شـــريف مكة.[1]

واسـتمرت قضـية الوحدة العربية تشـغل أذهان المفكرين العرب وقادتهم في الوطن العربي، دعوة وتنظيماً، وتحقق كل يوم تقدما جديدا على الصـــعيد الشعبي لدى جماهير الأمة العربية، ويزداد الاهتمام بها في الأوساط الغربية.

واندلعت الحرب العالمية الأولى، واندلعت معها المطامع الأوروبية في الوطن العربي .. ودخلت الوحدة العربية في مرحلة جديدة بالغة الخطورة

---

[1] عادل الصلح ، **سطور من الرسالة**، ص 92 ،101.

[1] توفيق علي برو، **العرب والترك**، ص 74.

والتعقيد والدقة .. ذلك أن دول الحلفاء قد أخذوا يمهدون للاتصال بزعماء العرب لحملهم على الانضـــمام إلى صـــفوفهم والقتال مع جيوشـــهم، كما قامت تركيا بدورها تحرض الجماهير العربية بمختلف وســـائل الإعلام والشـــعارات الدينية على تلبيـة نـداء الجهـاد والاشـــتراك مع الجيش العثمـاني في قتـال " الكفـار" الطامعين في الاستيلاء على الأقطار العربية.

واتصلت تركيا ودول الحلفاء، كل بدوره، مع الشريف حسين أمير مكة، لاســـتمالته إلى هذا الجانب أو ذاك، فقد كانت إمارة مكة ذات مقام مرموق في العالم الإســـلامي، وتمت لقاءات بين الأمير عبد الله والدبلوماســـيين البريطانيين في القاهرة، كما تمت لقاءات مماثلة بين الأمير فيصـــــل وقادة الأتراك في القســـطنطينية، ولم تنته تلك اللقاءات هنا أو هناك إلى نتيجة حاســـمة، في المراحل الأولى ..

ووقعت القيادات العربية في حيرة كبرى، وخاصـــة في بداية الحرب، فلم يكن جمال باشا السفاح قد أوقع مظالمه ونصب مشانقة في بلاد الشام وخشي معظم القادة العرب أن دول الحلفاء، إذا كتب لها النصـــر، ســـتتقاســـم الوطن العربي فيما بينها، كما فعلت فرنســـا في مراكش والجزائر وتونس، وإيطاليا في ليبيا، وبريطانيا في مصر.

وحتى الشـريف حسـين وأولاده، الذين تحالفوا فيما بعد مع دول الحلفاء، وقادوا الثورة العربية ضـد الأتراك، كانوا حائرين فيما بينهم، مختلفين أين يقفون، وإلى أي معسكر ينضمون .. مع دولة الخلافة العثمانية الإسلامية، أو مع دول الحلفاء.[1]

---

[1] جورج انطونيوس، **يقظة العرب**، ص 210 وما بعدها.

ويسرد تاريخ تلك الحقبة الحائرة المضطربة، أن الأمير (الملك) فيصل والأمير (الملك) عبد الله كانا يقفان على طرفي نقيض في هذا الخيار، وأن الشريف حسين والد الأميرين كان حائراً بينهما .. ذلك أن الأمير فيصل كان يبدي مخاوفه من الانضمام إلى الحلفاء، على حين كان الأمير عبد الله يخالف هذا الاتجاه، ويرى أن الفرصة مواتية لإعلان الثورة على الدولة العثمانية، طمعاً في إقامة الدولة العربية بعد انتصار الحلفاء.

وبقيت هذه الحيرة في الصف العربي بضعة أشهر، والحرب قائمة على أشدها بين الفريقين المتحاربين، دول الحلفاء من جانب، وتركيا وألمانيا من جانب آخر، وعقدت اجتماعات متعددة بين قادة العرب في دمشق، وكانت مقر الحركة العربية، وحضر هذه الاجتماعات الأمير فيصل، وكان عائداً من القسطنطينية، واتفقت الكلمة في النهاية (آذار 1915) على وضع ميثاق عرف بميثاق "دمشق" يتضمن الالتزامات التي ينبغي على بريطانيا وحلفائها قبولها والتعهد بتحقيقها كشرط لانضمام الأمة العربية إلى دول الحلفاء.

وكان ميثاق دمشق موجزاً لا يتجاوز بضعة أسطر، ينص على إقامة دولة عربية موحدة مستقلة تكون حدودها شمالاً: خط مرسين- أطنة .. إلى حدود إيران، شرقاً: على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوباً، وجنوبا : المحيط الهندي باستثناء عدن،غربا: على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين..

وسافر الأمير فيصل إلى مكة ليعرض على والده الشريف حسين نتائج مهمته ويسلمه ميثاق دمشق وخاتم الشيخ بدر الدين الحسني، أكبر علماء

دمشـق، رمزاً لبيعة أهل الشـام للشـريف حسـين ملكا على الدولة العربية المتحدة كما وردت حدودها في الميثاق..

وفي قصـــة مثيرة متســلســلة، ليس هنا مجال ســردها، دخلت الحكومة البريطانية في مراسلات مع الشريف حسين، عرفت بمراسلات حسين مكماهون، وأعلن الشـريف حسـين بموجبها الثورة على الدولة العثمانية وانضـم إلى صـفوف الحلفاء، وانضم إليه عدد كبير من ضباط العرب وانسلخوا من الجيش العثماني، تحقيقا للحلم العربي الكبير في إقامة دولة الوحدة العربية.. وكان من أروع أمثلة هذه الوحدة، ان ثلاثمائة من الجنود المصريين ومعهم ضباطهم وبطارية مدفعية قد انضـــموا إلى صـــفوف الثورة العربية وقاتلوا إلى جانب إخوانهم الشـــاميين والحجازيين والعراقيين، والفلسطينيين.[1]

ومن غير حاجة للدخول في تفاصـــيل الحرب العالمية الأولى والدور الباهر الذي قامت به قوات الثورة العربية في المســـاهمة بترجيح كفة النصـــر لجانب الحلفاء، فقد انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية، ودخل الأمير فيصـل قائد الثورة العربية إلى دمشـــق دخول الفاتحين، وبدأت مرحلة تاريخية جديدة في المشـرق العربي، وأطلت الوحدة العربية من جديد، وهي تنفض غبار الحرب عن جباه ضباط العرب الميامين وجنودها الشجعان.

وجاء دور تحقيق الأمـاني العربيـة في إقامـة دولـة عربيـة وحدوديـة على الأرض العربية في المشرق العربي، وتجمع القادة العرب في دمشـق تحت أعلام النصـر، لينفذوا ميثاق دمشـق الذي كانوا قد أبرموه قبل ثلاث سـنوات مع الأمير

---

[1] الأمير مصطفى الشهابي، **القومية العربية**، ص 120.

فيصل بعد أن أصبح علم الثورة العربية المربع الألوان يرفرف على ديار الشام من جبال طوروس شمالاً إلى سواقي رفح جنوباً.

وأصبحت دمشق "بابل" العرب احتشد فيها العاملون في الحقل العربي من سياسيين وعسكريين وصحفيين وأدباء وشعراء، من الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والحجازين والعراقيين، وكل همهم أن يعملوا مع الأمير فيصل وقادة الثورة العربية على إقامة الدولة العربية الوحدوية، ويتحقق للأمة العربية استعادة مجدها التليد، وتقفز إلى مسرح التاريخ من جديد .. وكانت أياما رقصت فيها الأحلام، وزغردت الأماني الجسام.

وكان لا بد في بداية الأمر ،قبل الدولة العربية الوحدوية، أن تنشأ إدارة عسكرية للتمهيد للاستقرار، فأصدر الأمير فيصل منشورا (5 تشرين الأول 1918) أعلن فيه قيام حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً .. شاملة جميع البلاد السورية وهي ما يعرف اليوم بفلسطين ولبنان وسوريا وشرق الأردن .. وبذلك تكون هذه الدولة هي أول دولة عربية وحدوية في المشرق العربي بعد سقوط الدولة العباسية، قبل ستمائة وخمسين عاما.

وفي هذا المنشور أعلن الأمير فيصل أن "حكومتنا العربية قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة .. لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي" وتجسد معنى الوحدة العربية على أساس قومي بعيد عن الطائفية والمذهبية.

وقام الأمير فيصل بجولات في المدن السورية، يحث الشعب على التضامن من أجل بناء الدولة العربية الحديثة.. وفي إحدى جولاته زار مدينة بيروت (30 نيسان سنة 1919) وألقى خطابا وطنيا حث فيه على التعاضد،

وخاطب الشـــعب الذي يعرف اليوم "بالشـــعب اللبناني" بقوله يا أبناء ســـورية العزيزة" ..وعلى المواطن العربي ان يتـأمـل فيمـا كـان ومـا هو كـائن!! وتصـاعد المد الوحدوي في المشـرق العربي بأسـره، وتعالت الصـيحات لإقامة الدولة الوحدوية في سورية، وإقامة اتحاد فدرالي بين الشام والعراق.. وتنادى قادة العرب إلى مؤتمر وطني، وهو الذي عرف بالمؤتمر السـوري، وحضـره أربعون ممثلاً عن سوريا، وعشرة عن شرق الأردن، وعشرة من لبنان، وثلاثة وعشرون عن فلسـطين.. وعقدت أولى جلسـاته في السـابع من شـهر آذار سـنة 1919، وكان يوما تاريخياً مشـهودا تجمع فيه ممثلو الديار الشـامية، تحت سـقف واحد، لأول مرة في التاريخ ليقرروا مصيرهم ويقيموا دولتهم ويبنوا وحدتهم.

وأصـدر المؤتمر قراره التاريخي الشـهير معلنا، بوصـفه ممثلاً " الأمة السورية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية(فلسطين) تمثيلاً تاماً، استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية، ومنها فلسطين، استقلالا تاماً .. وقد اخترنا سمو الأمير فيصل ملكاً دستوريا على سورية.. على أن تدار مقاطعات هذه البلاد على طريقة اللامركزية الإدارية، وعلى أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنيين في كيفية إدارة مقاطعاتهم، ضـمن حدود لبنان المعروفة قبل الحرب.. ونظرا لما بين القطرين سـوريا والعراق من صـلات وروابط عضـوية وتاريخية، واقتصادية وطبيعية فنحن نطالب باستقلال القطر العراقي استقلالاً تاماً على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي واقتصادي".

وفي اليوم نفســه تنادى قادة العراق، وكان معظمهم في دمشــق، إلى مؤتمر قومي عام، فقرروا اسـتقلال العراق ومبايعة الأمير عبد الله بن الحسـين،

ملكاً على العراق وإقامة اتحاد مع سورية، سياسياً واقتصادياً وفق ما قرره المؤتمر السوري.[1]

وفي اليوم الثامن من آذار، احتشدت الجماهير أمام دار البلدية في دمشق، وأعلن القراران على التعاقب، السوري أولاً قرأه السيد عزت دروزة بوصفه سكرتير المؤتمر السوري، ثم القرار العراقي قرأه السيد توفيق السويدي بوصفه سكرتيرا للمؤتمر العراقي، وكان ذلك اليوم فريدا في تاريخ الوحدة العربية .. وامتلأت الأفئدة العربية بالفرحة والبهجة، بعد المآسي الطويلة والنكبات المديدة .

وتألفت أول وزارة دستورية برياسة رضا باشا الركابي (دمشق) ضمت ممثلين عن المقاطعات السورية، وكان رضا الصلح (لبنان) وزيراً للداخلية، وسعيد الحسيني (بيت المقدس) وزيرا للخارجية.

ويقول مؤرخ عاصر تلك الأحداث الرائعة.. "إن الإقليمية لم يكن لها أثر في ذلك الزمن ..فرئيس الدولة كان حجازياً .. ومدير العدل لبنانياً، ومدير المالية لبنانيا متمصرا، ومدير المعارف سوريا من حلب، ومدير الشرطة فلسطينيا من نابلس، ومدير الصحة والإسعاف العام لبنانيا من زحلة، ورئيس أركان الجيش عراقيا، ورئيس ديوان الشورى دمشقياً، ومدير الداخلية بيروتياً".[1]

ولقد عاشت دمشق أحلى أحلامها في تلك الحقبة، وكان تعلقها بالملك فيصل هو تعبيرا عن النزوع إلى الوحدة العربية، تماما كتعلقها بالرئيس عبد الناصر بعد ذلك بأربعين عاما، يوم الوحدة بين مصر وسوريا .. وقد شهد الجيل الجديد العربي كيف استقبلت دمشق الوحدة العربية في شخص الرجلين العربيين

---

[1] عزة دروزة ، **حول الحركة العربية الحديثة**، ص 117.

[1] الأمير مصطفى الشهابي، **القومية العربية**، ص 122.

.. ففي ربيع 1919 كان الملك فيصل عائدا من باريس إلى دمشق فاستقبل استقبالاً منقطع النظير، وذكر مؤرخ معاصر، أن "موكب الملك فيصل كان يخترق شوارع دمشق في عربة تجرها ثمانية خيول عليها سروج من الذهب والفضة .. ونصبت له أقواس النصر وزينت جنباتها بالحلي والجواهر التي تبرعت بها سيدات دمشق .. وفرشت له في الطريق خمسة وعشرون ألف سجادة.[2]

وفي ربيع 1958 استقبلت دمشق العائد الراحل عبد الناصر، رئيس الوحدة بين مصر وسوريا باحتفالات أعظم وأفخم، كل ذلك من أجل الوحدة، حينما يجد الشعب قائدا لهذه الوحدة ..

ولم تكن الوحدة دولة خطب واحتفالات وأعلام، ولكنها بادرت إلى بناء المجتمع العربي قدر ما سمحت الظروف، فقد أنشأت الدولة المدارس وجعلت العربية لغة رسمية، ووضعت الأسس للجامعة السورية (الحاضرة) وأوجدت قوات الأمن والشرطة.. ونواة الجيش السوري، وافتتحت النادي العربي (الحاضر) وكان مقراً للمؤتمر السوري .. هذا بالإضافة إلى إقامة دوائر الدولة المختلفة.

ومارست الدولة سيادتها على شرق الأردن كجزء من الدولة السورية وأنشئت في البلاد إدارة عسكرية، كما كان الحال في دمشق، فكان جعفر باشا العسكري (العراقي) مسئولاً عن المنطقة المتحدة من البلقاء شمالاً إلى تبوك جنوبا، وتولى رشيد المدفعي (العراق) الإدارة في عمان، كما تولى الأمور في الكرك عبد الله الدليمي حاكماً عسكرياً ومتصرفا .. وعين الشيخ رفيفان المجالي

---

[2] فيصل بن الحسين، مطبعة بغداد ص 67.

(الكرك) مديرا للأمن الخارجي، والشيخ حسين الطراونة مديرا للأمن الداخلي[1] ولم يكن الأمير عبد الله قد وصل بعد إلى شرق الأردن .. فقد كان لا يزال في الحجاز مع والده الشريف حسين.

ولكن دولة الوحدة العربية لم تستطع أن تمارس سيادتها في فلسطين ولبنان، فقد بادرت بريطانيا إلى إقامة إدارة عسكرية في الأولى، وفعلت فرنسا مثل ذلك في الثانية، واقتصر الحكم العربي على سوريا الداخلية، وشرق الأردن، ومع هذا فلم تعمر الدولة العربية طويلاً في هاتين المنطقتين، فقد زحف الفرنسيون على سوريا بقيادة الجنرال غورو بقوات ضخمة (24 تموز 1920) وتصت له القوات العربية عند ميسلون وعلى رأسها وزير الدفاع السوري يوسف العظمة، وتحطمت المقاومة السورية القليلة العدد والعدة، وسقط وزير الدفاع السوري شهيدا في المعركة، واقتحمت القوات الفرنسية دمشق وسائر المدن السورية، وخرج الملك فيصل وأعوانه من دمشق ليلعبوا دورا آخر في تاريخ الحركة العربية الحديثة.

وما أن وصلت أنباء معركة ميلسون إلى شرق الأردن حتى هبت نجدات من أبناء شرق الأردن للدفاع عن عاصمتهم دمشق، وذودا عن وحدتهم مع الدولة العربية، السورية، فقد زحفت قوة كبيرة من عشائر الأردن بزعامة سلطان بن عدوان، وقوة أخرى من الشراكسة الأردنيين لا يقل عدد أفرادها عن ثلاثمائة بزعامة ميرزا باشا وسعيد المفتي، واشتركت هذه القوات كلها في أخريات المعركة[1] وقد كان اشتراك الشراكس الأردنيين دليلا أصيلا على أن الوحدة

---

[1] منيب الماضي وسليمان موسى، **تاريخ الأردن في القرن العشرين**، ص 83، 84.

[1] منيب الماضي وسليمان موسى، **تاريخ الأردن**، ص 92.

العربية تجمع في إطارها كل الأقليات العنصـــرية في الســـلم وفي الحرب على السواء.

وانتهت الدولة العربية الوحدوية الأولى في تاريخ العرب الحديث، وبقيت ذكرياتها الماجدة تشمل آمال الأمة العربية في الوحدة، كما بقيت ذكرى ميسلون يحتفل بها الشـعب السـوري كل عام .. وكان شـاعر الأمة العربية أحمد شـوقي أول من أشــاد بذلك اليوم الأغر في قصــيدة عصــماء رثى فيها الوزير الشــهيد يوسف العظمة .. فقال

سأذكر ماحييت جدار قبر	بظاهر جلق ركب الرمالا
يقيم ما أقامت ميسلون	يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه	وأول سيد لقي البسالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا	تجر مطارف الظفر اختيالا
ملأن الجو أسلحة خفافا	ووجه الأرض أسلحة ثقالا
وأرسلت الرياح عليه نارا	فما حفل الجنوب ولا الشمالا
فكفن بالصوارم والعوالي	وغيب حيث صال وحيث جالا

ولم يكتمل عام 1920 إلا وقد أصــبح المشــرق العربي تحت الاحتلال العســكري الأجنبي، ليتحول فيما بعد إلى انتداب فرنســا على ســوريا ولبنان، وانتداب بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن والعراق.

وكانت ذروة هذه الكارثة أن الاســـتعمار الغربي قد أنزل بالأمة العربية أكبر مصـــيبتين : الوطن القومي اليهودي في فلســـطين، والتجزئة تحت ظل الانتداب، وكانت الثانية سبيلا إلى الأولى.

ومع الزمن كبرت المصيبتان فأصبحت الأولى دولة يهودية في فلسطين وأصبحت المصيبة الثانية الانفصال في ظل الاستقلال..

والمصيبتان زائلتان، مهما طال الزمان.

هذه الدول من أقامها؟

وهذه الحدود من بناها؟

هذه الدول العربية العشرون من أقامها .. وهذه الحدود التي تفصل بينها من صنعها .. هذان سؤالان غريبان عجيبان، وخطيران وهامان معا .. ومن غير الإجابة عنهما لا يمكن فهم الوحدة العربية فهما صحيحا، بل إن الحديث عن الأمة العربية الواحدة، يصبح لهوا وعبثاً..

والجيل العربي المعاصر، حتى ولو لم يقرأ التاريخ العربي يجد نفسه أمام واقع كريه بغيض، يضيق به ذرعا كلما فكر فيه، أو كلما اصطدم به في حياته اليومية.. فالمواطن العربي يحس إحساساً عميقا منذ نشأته أنه فرد من أمة عربية واحدة، يتكلم لغتها، ويعيش آمالها وآلامها، ويستعذب ثقافتها، ويغني شعرها وموسيقاها.. ومع ذلك يجد أمته الواحدة تحكمها عشرون دولة، ويجد وطنه الواحد تفصله حدود ومخافر ومرافئ ومطارات لا حصر لها ولا عدا ..

ويتساءل المواطن العربي، لماذا كل هذا في الوطن الواحد..ولمصلحة من كل هذا في الأمة الواحدة ..وهو تساؤل ينم عن استنكار لهذا الواقع البغيض الذي يواجهه المواطن العربي من المهد إلى اللحد..

"من المهد إلى اللحد" لا أقولها مجازا أو مبالغة، وإنما هي الحق كل الحق، فإن المواطن العربي منذ ولادته إلى مماته وهو مبتلى بالدول العشرين، والحدود التي تفصل بينها، فهو يواجهها رضيعا في رفقة والديه حينما يسافران

في نزهة أو زيارة عائلية من قطر إلى قطر..وهو يواجهها صـــبياً حينما يذهب في رحلة كشـفية من عاصـمة إلى عاصـمة أخرى، وهو يواجهها شـاباً حينما يلتحق في هذه الجامعة العربية أو تلك، وهو يواجهها تاجراً أو طبيباً أو محامياً حينما يجد له عملاً في هذا البلد أو ذلك .. وأخيراً فهو يواجهها، من غير وعي ولا إحساس، حينما ينقل جثمانه من قطر لآخر ليدفن حيث يريد له الأحباء أن يدفن !!

ويزداد المواطن العربي إحســاســا بالمرارة حين يســتذكر أن له أقرباء وأصــدقاء في المهاجر العالمية، اســتقروا فيها، وتمتعوا بالمواطنة الكاملة فيها، وأن الواحد منهم، في الولايات المتحدة الأمريكية، مثلا، يســافر من شــاطئ الأطلنطي شـرقاً إلى شـاطئ المحيط الهادي غرباً دون أن يسـأله أحد من أنت وأين جوازك، وماذا في حقيبتك وكم تحمل في جيبك من المال؟؟!!

ومن أجل ذلك " فإن وقائع الحياة العربية، "ويوميات" المواطن الفرد تحمل الإنسان العربي على الاشمئزاز والنفور من الواقع العربي المعاصر.. هذا إذا لم يقرأ التاريخ العربي، أما إذا قرأه، وعرف كيف نشـأت الدول العشـرون ومن أنشـأها، وكيف قامت الحدود ومن أقامها، فإن اشـمئزازه يتحول إلى تمرد، إلى عصـــيان، وإلى ثورة .. لإزالة هذه العوائق وتحطيم هذه الحدود بين أقطارها .. بل أمة واحدة على وطن واحد ..

وقراءة التاريخ العربي نفســه، ســتكون الشــرارة الأولى في إشــعال الثورة على الحدود، ذلك أن الجيل العربي المعاصـــر، قد ولد في الوطن العربي وفتح عينيه عليه ليراه مجزأ مقســـماً .. أما جيلي، نحن الذين تجاوزنا الســـتين من العمر، فقد ولدنا في الوطن العربي وفتحنا عيوننا على ربوعه ووجدناه واحدا" في

المشـرق العربي" والأجيال التي قبلنا، ولدت ونشـأت وماتت على الوطن العربي الواحد في المشرق والمغرب على السواء..

والعودة إلى التاريخ سـتكشـف لنا مجموعة من العجائب والغرائب رافقت إنشـاء الدول العشـرين، وإقامة الحدود .. وأنا أدعو المواطن العربي أن يسـير معي في رحلة قصيرة في ساحة التاريخ ليرى العجب العجاب.

ولسـنا نبدأ المسـيرة في التاريخ القديم، مع المصـريين القدماء في وادي النيل، أو مع البابليين أو الآشـوريين في حوض الفرات، ويكفي أن نبدأ المسـيرة عبر ثلاثة عشـر قرناً، منذ الفتح العربي، وإذا كانت هذه القرون لا تكفي فأي شيء آخر يكفي !!

وإننا لنجد أول ما نجد، أن "أسـماء" هذه الدول العشـرين، هي أسـماء أقطار أو مدن أو أنهار أو جهات، أو جبال، أو أبطال .. . ولنبدأ ببعضـها واحدة واحدة.

فالمملكة الأردنية الهاشـمية، تنتسـب إلى نهر وبطل، أما النهر فهو الأردن، والبطل فهو "هاشم" جد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي ينتسب إليه الملك عبد الله بن الحسين، وهي دولة استحدثت تحت ظروف سنشرحها، وليس لها ذكر في التاريخ العربي من قريب ولا من بعيد، وإقليم هذه الدولة "شـرق الأردن والضفة الغربية"، هو جزء من ديار الشام، كان يعرف على الدوام سورية الجنوبية..

والمملكة العربية السـعودية، دولة حديثة أخرى، تنتسـب إلى مؤسـسـها الأمير سعود الكبير (1724 – 1765) ولا يوجد في التاريخ شعب اسمه الشعب السـعودي، ولا إقليم اسـمه الإقليم السـعودي، وإقليم هذه الدولة جزء لا يتجزأ من

الجزيرة العربية وأهلها جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، ســـاهموا عبر القرون في صـــنع التاريخ العربي، وكان هذا الإقليم جزءا من دولة الراشـــدين، فالأمويين، فالعباسيين.

وجمهورية اليمن الديمقراطية الشـعبية، دولة مسـتحدثة أرضـها، جزء من اليمن، وشعبها جزء من الشعب اليمني، كانت بريطانيا قد سلختها (1830) عن اليمن وأعلنتها مســـتعمرة تابعة للتاج البريطاني، ثم اســـتقلت في عام (1967) وأعلنت نفسـها جمهورية منفصـلة عن أختها وسـمتها جمهورية اليمن .. "واليمن" التي ولدت منها هاتان الجمهوريتان هي أســم قطر عربي قديم يدل على الجهة: "يمين" الكعبة أو الحجاز، كما ينبئنا بذلك الجغرافيون العرب القدامى.[1]

ومجموعة الدول الصـغرى: الكويت، وقطر، والبحرين، واتحاد الإمارات العربية، ومســـقط، وعمان..هذه كلها أجزاء من الجزيرة العربية، وهي أســـماء أقطار، ولم تكن دولا في يوم من الأيام، وكان تاريخها هو تاريخ الجزيرة العربية من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين.

وجمهوريتا ســـويا ولبنان، دولتان مســـتحدثتان، لم يكن لهما وجود في التاريخ، وهما أرضـا وشـعباً، جزء من سـورية الطبيعية، من طوروس شـمالاً إلى رفح جنوباً .. وأطلق عليها العرب لفظ "الشـام"، وتعني شـمال الحجاز أو الكعبة .. ذلك أن "سورية" كلمة يونانية، ولبنان كلمة سامية معناها بياض الثلج، ولبنان اســـم جبل، لا أكبر ولا أصـــغر، وأعرف الناس به هو جاره القريب ابن حماه، ياقوت الحموي، يقول عنه في معجمه "إنه جبل يطل على حمص"[1] والشـــعب

---

[1] المقدسي، صفحة 152.

[1] **معجم البلدان**، مادة لبنان.

في هاتين الجمهوريتين هم من الهجرات العربية الأولى الذين عرفوا بالكنعانيين والفينيقيين، والذين هاجروا منهم في القرن التاسع عشر إلى الأمريكتين وأفريقيا واستراليا، لا يزالون يعرفون هم وأولادهم بالسوريين، فهم انفصاليون في الوطن، وحدويون في المهجر!!

وجمهورية العراق دولة مستحدثة ليس لها ذكر في التاريخ العربي كدولة، وفي العراق قامت الإمبراطوريات القديمة، البابلية، والكلدانية والآشورية التي تجاوز حكمها حوض الرافدين إلى وادي النيل، وأصبحت بعد الفتح العربي قطرا من أقطار الدولة العربية الكبرى .. والعراق هو اسم أحد أقطار العرب، ومستعار في الأصل من اللغة الفهلوية ومعناه الأراضي الواطئة، وقد أطلق المؤرخون العرب القدامى على هذا الإقليم اسم " السواد" لكثرة الخضرة والزروع فيه، وتمييزا له عن أرض الصحراء[2] أو لأنه واقع بين دجلة والفرات، والعراق ما كان قريباً من البحر.[3]

وجمهورية مصر العربية، دولة حديثة العهد، كانت تعرف أخيرا بالدولة العلوية نسبة إلى مؤسسها محمد علي باشا، وقامت فيها إمبراطورية عربية في عهد الأسر العربية الحاكمة، التي عرفت باسم الفراعنة والهكسوس، وأصبح تاريخها بعد الفتح العربي جزءا من تاريخ الدولة العربية التي تنقلت عواصمها من المدينة المنورة، إلى دمشق، وإلى بغداد، وإلى القاهرة نفسها..

وجمهورية السودان، أحدث عهدا من جمهورية مصر، وكلتاهما تؤلفان وادي النيل الذي ربط بينهما بالتاريخ المشترك واعترفت بكيانهما الواحد عدة

---

[2] حتي، **تاريخ العرب**، ص 210.

[3] **معجم البلدان**، ج 6، ص 132.

اتفاقات دولية، وإقليم السودان عند الجغرافيين العرب الأوائل، يشمل النصف الأوسط من القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب، جنوب الصحراء من الرأس الأخضر على الأطلنطي حتى البحر الأحمر، كم حددته دائرة المعارف البريطانية.[1]

والمملكة المغربية، ومعها جمهوريات الجزائر وتونس، وليبيا، كلها كيانات سياسية حديثة، وهي أسماء أقطار، وكان المؤرخون العرب يطلقون عليها باستثناء مصر، اسم إفريقية، وذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن حد إفريقية يمتد من برقة شرقا إلى طنجة غربا.. ثم أطلق على الأقطار الأربعة اسم المغرب العربي، تمييزا له عن المشرق العربي .. وكانت أقسامه: المغرب الأدنى، وهو بلاد ليبيا، والمغرب الأوسط وهو تونس والجزائر، والمغرب الأقصى وهو بلاد مراكش.

وأسماء كثيرة من الأقطار العربية، لها معان لغوية تنبئ عن موقعها وهويتها، وليست مسميات سياسية، فالحجاز مثلا هي التي تحجز بين الساحل وجبال الجزيرة العربية، ونجد هي الأرض المرتفعة، والسودان وصف للتعبير عن بشرة السكان، والجزائر تعبير عن التضاريس الساحلية بين تونس والمغرب الأقصى..

وبعض الأقطار العربية يحمل أسماء غير عربية، ومثلا: فلسطين نسبة إلى "فلسيتا" وهو اسم القبائل التي قدمت من جزر بحر ايجة، وكانت قبل ذلك تسمى هي ولبنان، أرض "كنعان" نسبة إلى أحد أجداد العرب القدامى الذين هاجروا من الجزيرة العربية..

---

[1] مجلد 21، ص 504.

ويتضـــح من ذلك كله، أن الوطن العربي، كأي وطن آخر وكأي أمة أخرى، كان مقسـما لأقطار، وكان هذا التقسـيم تفرضـه دواعي التعريف، تماما كتعريف المدن والقرى وتمييزها بعضـها عن بعض، ولكن حدود هذه الأقطار لم تكن حدودا أسـاسـية أو دولية .. والتاريخ حافل بالوقائع والدلائل قبل أن تكون قضية الوحدة أو لا وحدة مطروحة على البحث بعصور وأجيال ..

ولنأخذ ديار الشام مثلا على ذلك، فعند الفتح العربي، قسمت البلاد إلى خمسـة أجناد: جند حمص، وجند الأردن، وجند فلسـطين، وجند دمشـق، وجند قيسـرين، ويقول الدكتور حتى في تاريخه إن هذا التقسـيم يتعادل مع الأقسـام الإدارية التي كانت سـارية في عهد الرومان والبيزنطيين أي قبل ألف عام من الفتح العربي.[1]

وفي معجم ياقوت الحموي، وهو من الجغرافيين المعروفين، ان حدود الشـام تبدأ من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصـرية، وأما عرضـها فمن جبل طئ إلى بحر الروم،وبها من أمهات المدن، منبج وحلب وحمص ودمشـق والبيت المقدسـي والمعرة، وفي السـاحل إنطاكية وطرابلس وعكا وصـور وعسـقلان[2] وبهذه الحدود، وتلك المدن، تعني الشـام: فلسـطين وسـوريا ولبنان وشرق الأردن، ومنطقة أخرى تحت سلطة تركيا اليوم.

وجند فلسـطين، وجند الأردن، كانا على عكس فلسـطين وشـرق الأردن كما نعرفهما اليوم، فقد كان جند فلسطين يمتد من رفح إلى اللجون ومن يافا إلى عمان، وكانت الرملة هي العاصـمة،ويقع في جند فلسـطين الكرك وعمان ومعان

---

(1) **تاريخ العرب**، ص 208.

(2) **معجم ياقوت الحموي**، ج 5، ص 215.

واذرع، ويقول ابن جبير الاندلسي الرحالة الشهير في القرن الثاني عشر عن الكرك مثلاً، وهي قلعة شهيرة في شرق الأردن، " إنها أطيب أرض في فلسطين، كما أن زميله الرحالة ابن بطوطة تحدث عن عمان فقال "وارتحلنا إلى عمان وهي آخر حدود الشام .." وفي تاريخ النجوم الزاهرة " أن زلزلة عظيمة حدثت في البلاد الفلسطينية 692هـ وكان معظم تأثيرها في الكرك".

أما جند الأردن فقد كان عاصمته طبريا، وهي إحدى المدن الفلسطينية اليوم، وعلى هذا فقد كانت عمان العاصمة الحاضرة إحدى مدن فلسطين، وكانت بعض المدن الفلسطينية تابعة لجند الأردن وحصيلة ذلك كله أن فلسطين كانت متوغلة في الأردن، والأردن متوغلا في فلسطين !!

أما الجزيرة العربية فقد كانت مقسمة إلى مناطق: الحجاز، نجد، الحسا، الجوف، عسير، تهامة، اليمن، والدهناء، والنفوذ، والدهنا، والربع الخالي .. ولكل واحد من هذه الأسماء معان تدل على طبيعة الأرض..

ولو شئنا أن نسترسل لوجدنا ان حوض الرافدين ووادي النيل، والمغرب العربي، مقسم إلى مناطق كالحال في الجزيرة العربية وديار الشام..والمغرب العربي، وأوضح للمواطن العربي أن أسماء الأقطار العربية ليست أسماء كيانات سياسية، مستقلة منفصلة، ولكنها أسماء أقاليم متعددة في الوطن العربي الواحد.

ولقد استمرت هذه التقسيمات مئات السنين، بعد الفتح العربي، تعاقب عليها الحكم العربي، كمقاطعات، وتولى إمارة المقاطعات ولاة يعينون من قبل الخليفة في هذه العاصمة أو تلك.

وجاءت الدولة العثمانية وبسطت سلطتها على الوطن العربي في أواسط القرن السادس عشر، فقسمت البلاد العربية إلى خمس عشرة أيالة كما يلي:

الشـام، طرابلس الشـام، حلب، الرقة، الموصـل، بغداد، البصـرة، الحسـا، اليمن، حـبش، تـونـس، طـرابـلـس الـغـرب، الـجـزائـر، مـكــة الـمـكـرمــة، أيــالــة مصر..[1].

ومن الطريف أن الســـجلات العثمانية القديمة (1609) تذكر أن ايالة مصـر تنقسـم إلى ثلاثة عشـر لواء هي: جرجا، ابريم، واحات، منفلوط، أسـيوط، بنها، شرقية، غربية، منوفية، منصورة قليوبية، بحيرة، دمياط.

وكذلك فقد ذكر عن ايالة اليمن أنها تضم الوية صنعاء، وسخا، وزبيد، وتعز، وصـــهلة، وكوكبان، وطويلة، ومأرب وعدن ..وكذلك فإن ايالة طرابلس الشـام (وهي العاصـمة الثانية في لبنان) كانت تشـمل حماة، وحمص وسـلمية، وجبلة، وهي مدن في الجمهورية العربية السورية اليوم.

أما ايالة الشـام فقد كانت شـاملة بيروت (عاصـمة الجمهورية اللبنانية) ومعظم الأراضي السورية، وجميع فلسطين شرق الأردن.

ثم حدثت أحداث دولية، أهمها اســتيلاء فرنســا على " ايالة " الجزائر وضـغطت الدول الأوروبية على القسـطنطينية لكي تنشـيء نظاما خاصـاً لجبل لبنان،فأجرت الدولة العثماية بعض التعديلات في التقسـيمات الإدارية في الوطن العربي، فأصـبح مقسماً إلى ايالتين ممتازتين هما ايالة مصـر وايالة تونس..وإلى تسع ولايات هي: الحجاز، اليمن، بغداد، حلب، سوريا، بيروت، طرابلس الغرب، البصرة، الموصل.. وقد انشئت كذلك أربع متصرفيات: القدس الشريف، بنغازي، دير الزور، وأخيرا متصرفية جبل لبنان الممتازة.

---

[1] نقلها عن المراجع التركية بتفاصـيلها سـاطع الحصـري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ص 230، وما بعدها.

وفي تفاصـــيل هذه التقاســـيم الإدارية طرائف تدعو المواطن العربي المعاصـــر إلى التأمل.. من ذلك أنه قد ألحقت الدولة العثمانية نجد بولاية البصـرة، .. وأن إسـكندرونة وإنطاكية اللتين هما اليوم تحت سـلطة تركيا كانتا جزءا من ولاية حلب، وأن الكرك وهي اليوم في شـرق الأردن كانت تابعة لولاية سوريا، وأن عكا ونابلس وهما في فلسطين، واللاذقية وهي في سوريا، كانت كلها تابعة لولاية بيروت، وأن فزان في ليبيا كانت تابعة لطرابلس الغرب..وان درنة (ليبيا) كانت تابعة لمتصرفية بنغازي... وان متصرفية جبل لبنان كانت قاصرة على الجبل من جزين جنوباً حتى كسروان شمالاً !!

وفي الإطار الأوسع يمكن القول إن تلك الايالات والولايات قد أصبحت اليوم دولاً مستقلة ذات سيادة، فولايات البصرة وبغداد والموصل تؤلف الجمهورية العراقية.. وولايتا سـوريا وحلب تؤلفان الجمهورية العربية السـورية ...وجزء من ولاية سـوريا يؤلف المملكة الأردنية الهاشـمية، وولاية طرابلس الشـام ومعها متصرفية بنغازي تؤلف الجمهورية الليبية.

ويتسـاءل المواطن العربي، كيف" ولدت" هذه الجمهوريات ذات السـيادة من مناطق إدارية كانت كلها إلى عهد قريب قائمة على رقعة واحدة من الوطن العربي..وكل مواطن في أي منطقة من تلك المناطق هو مواطن في الوطن كله.

وسـؤال ثانٍ يلي السـؤال الأول، كيف قامت حدود على وطن لم تكن عليه حدود ؟؟ ومن الذي أقام هذه الحدود ؟؟

الجواب باختصار، انه الاستعمار الذي أقام هذه الحدود .. وإني أناشد المواطن العربي ان لا يحسب هذا الجواب من باب الكلام الشائع الذي يلقى جزافا يدفعه عفو الحماسة الوطنية، ويسوقه الارتجال من غير روية وإمعان.

فهذه وقائع التاريخ دولة دولة.. في عام 1830 احتلت القوات الفرنسية الجزائر.. وفي عام 1881، احتلت فرنسا تونس، وأقامت فرنسا في البلدين إدارة وكيانا وحدوداً ..وبعد كفاح بطولي رائع ظفرت الأولى باستقلالها في عام 1962، والثانية في عام 1956 .. وهكذا قامت جمهوريتان عربيتان وجدتا على أرضهما كيانا وحدودا!!

وقد وضع الفرنسيون الحدود الجزائرية والتونسية في مراحل متعددة: في 1888، 1902، 1910، ويقول مرجع جغرافي معاصر إن الحدود بين هذين البلدين لا تمتد مع ظواهر طبوغرافية مميزة بل هي صناعية بحتة[1] .

هذا مع العلم أن الجزائر وتونس لم يكن لهما عبر التاريخ كيان مستقل، وكلاهما اسمان لمدينتين لا قطرين، فالأولى كانت تعرف بالعصور العربية "جزائر بني مروان" ، وهي مدينة على ضفة البحر بينهما وبين بيجاية أربعة أيام، والثانية تعرف بتونس الغرب وهي "مدينة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم".[2]

---

[1] فيليب رفلة وأحمد سامي مصطفى، **جغرافية الوطن العربي**، ص 146.

[2] ياقوت الحموي، مجلد 2، ص 60.

كذلك فإن الحدود الجزائرية المغربية قد وضعها الفرنسيون سنة 1845، وهذه الحدود، أيضـــا ليســـت طبيعية بمعنى أنها لا تمتد مع ظواهر طبوغرافية فاصلة.[1]

وفي سنة 1911 استولت إيطاليا على ليبيا وأقامت فيها كيانا وحدودا، ووضـعت الحدود بين مصـر وليبيا بموجب اتفاقية موقعة من الحكومة الإيطالية والحكومة المصرية، وكانت مصر في ذلك العهد تحت الحماية البريطانية وليبيا تحت الحكم الإيطالي، والمواطن العربي يجد تفصـــيل ذلك في دائرة المعارف البريطانية.[2] ثم قام الشـعب الليبي بكفاحه المسـلح وانتهى الأمر بالاسـتقلال، فكانت الدولة وكانت الحدود.

وفي عام 1882 قامت القوات البريطانية باحتلال مصر، وكان السودان منذ القدم جزءا من مصـــر، وكلاهما يؤلفان وادي النيل، وقام في الســـودان ما يعرف بالإدارة المصـــرية البريطانية، وعرف الســـودان بالســـودان المصـــري الإنجليزي، ولكن الواقع أن مصـر والسـودان ما كانا تحت السـيطرة البريطانية.. وبعد أجيال من النضـال والثورات استقلت مصـر واستقل السـودان، بعد أن كان الاحتلال البريطاني قد فصـــلهما بعضـــهما عن بعض، وجعل لكل منهما كيانا وحدوداً، وقد وضـعت الحدود بين مصـر والسـودان في "اتفاقية الحكم المشـترك ســنة 1899" ومعنى هذا أن حدود القطرين وضـــعتهما الدولة البريطانية، وكما يقول المرجع الجغرافي، فإن هذه الحدود لم يضعها مصري ولا سوداني بل أملتها

---

(1) المرجع الأول، ص ص 122 ، 132.

(2) دائرة المعارف البريطانية، مجلد 8، تحت مادة مصر.

الاعتبارات الاستعمارية الإنجليزية، وكانت في الأصل حداً إدارياً، ويبلغ طوله 1230 كم من ساحل البحر الأحمر إلى جبل عوينات[1].

أما حدود مصر مع فلسطين ، فلم يضعها كذلك مصري ولا فلسطيني، وإنما وضعت في عام 1906 بموجب اتفاقية موقعة بين الدول العثمانية والسلطات المصرية التي كانت واقعة تحت الحماية البريطانية.[2]

هكذا نشأت الدول العربية في إفريقيا، وهكذا وضعت حدودها، فرنسا وإيطاليا وبريطانيا هي التي أنشأت الكيانات ، ووضعت الحدود.

ومثل ذلك جرى في الجزيرة العربية، ففي عام (1839) احتلت بريطانيا عدن نظراً لموقعها الاستراتيجي، ثم أعلنتها مستعمرة تابعة للتاج البريطاني، وجعلتها قاعدة عسكرية، وأصبحت كجبل طارق عند مدخل البحر الأبيض المتوسط، وتلا ذلك سلسلة من الاتفاقات فرضتها بريطانيا على "السلاطين" والمشايخ في المناطق المجاورة، وعرفت بالمحميات الغربية والشرقية.

وفي سنة 1963 أنشأت بريطانيا ما سمي باتحاد الجنوب العربي، غير أن الشعب اليمني رفض جميع هذه المحاولات البريطانية وثار عليها، إلى أن ظفر باستقلاله (نوفمبر 1967)، وقامت جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، فوجدت الكيان والحدود، وكانت تلك الأراضي تسمى في عهد الثورة "جنوب اليمن المحتل"، أما حدود عدن وما حولها فقد جرى الاتفاق عليها بين بريطانيا

---

[1] **جغرافية الوطن العربي الكبير**، ص 206.

[2] دائرة المعارف البريطانية، مجلد 8، تحت مادة مصر.

والدولة العثمانية بموجب اتفاقية 1906 [1] ولم يكن لأهل عدن ولا لأهل اليمن قاطبة أي رأي في هذه الحدود.

وحدود جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية في الشمال مع المملكة العربية السعودية فإنها لم تحدد أبداً وهي تمتد في مناطق قاحلة غير مأهولة.. وكذلك فإن حدود الجمهورية اليمنية مع المملكة السعودية غير محددة، وترسم أحيانا بخطوط مقطعة دلالة على غموضها، وأحياناً لا ترسم في بعض الخرائط.[2]

وفي أقصى جنوب الجزيرة العربية تقع منطقة مسقط وعمان، ولهما تاريخ طويل، وكان قد تغلب عليها البرتغاليون واستمر حكمهم طيلة قرن من الزمان، ثم استولت عليها إنجلترا وفرضت عليها في 1891، 1895 اتفاقيات جعلت منها محمية بريطانية.. وفي عام 1969 ظفرت عُمان ومسقط باستقلالها ووجدت كيانها وحدودها قائمة وأصبحت تعرف بدولة عُمان.

أما البحرين والكويت وقطر، فقد كانت تتشابه في الماضي في تجارة اللؤلؤ، وفي السيطرة البريطانية عليها، وأخذت تتطور أوضاعها الوطنية والدولية، إلى أن رفعت عنها السيطرة البريطانية وظفرت باستقلالها، وكانت هذه المناطق تابعة للدولة العثمانية، وإذا رجع المواطن العربي إلى السجلات العثمانية الخاصة بالتقسيمات الإدارية يجد أن "قضاء الكويت" كان تابعاً ولاية البصرة، وأن القائمقام فيها هو "مبارك الصباح باشا" مع بيان برتبته والمدالية الذهبية التي حصل عليها، وأن قاضيها هو "عبد الله السعدانى افندي" .. ويجد المواطن العربي كذلك أن" قضاء قطر" كانت تابعا لمتصرفية نجد التي كانت

---

[1] المصدر السابق، مجلد 1، تحت مادة عدن.

[2] **جغرافية الوطن العربي الكبير** ، ص 427 ، 433.

تابعة بدورها لولاية البصرة، وان القائمقام فيها هو "جاسم الثاني أفندي"، وأن قرى هذا القضـــاء تبلغ تســعة عشــر[1] أما البحرين فقد كانت تعتبر جزءا من العراق قبل ذلك العهد بزمن طويل[2] وكذلك فإن هذه الدول الثلاث قد وجدت كل منها حدودا وكيانا، ولم يكن لأي مواطن رأي لا في الكيان ولا في الحدود..

ودولة الإمارات العربية المتحدة، دولة حديثة وجودا وحدودا، فقد أعلن اتحادها في عام (1972) وكانت قبل ذلك مجموعة من الإمارات والمشـــيخات، سميت ساحل الصلح البحري أو الساحل المهادن، وهي تضم سبع إمارات واقعة على الخليج العربي، ولها تاريخ طويل مع الاســتعمار البريطاني، ففرض عليها سلطته،وجعل منها كيانات محمية .. وقام الاستقلال على هذه الكيانات.

وعلى الجملة فإن أراضـــي جميع هذه الدول: قطر والبحرين والكويت ودولة الإمارات العربية وعمان لا تفصـــلها حدود طبيعية عن الجزيرة العربية، وهي جزء لا يتجزأ منها، والأســر الحاكمة فيها ومعها الأســرة الســعودية منحدرة من قبيلة واحدة، هي قبيلة "عنزة" الشـهيرة بتاريخها، وبانتشـارها في نجد وسـوريا والعراق.

وبعد هذا الســرد الموجز بالنســبة للجزيرة العربية لا بد لنا أن نقف قليلا عند المشــرق العربي، فهنا حدثت أحدث "ملحمة" اســتعمارية، قطعت أوصـــال الوطن العربي عظماً ولحماً، وكانت النتيجة قيام ممالك وملوك، وجمهوريات ورؤســـاء، كل ذلك على رقعة واحدة من الأرض لم تعرف التجزئة والانفصـــال منذ العصور الحجرية ..

---

[1] ساطع الحصري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ص 248.

[2] ياقوت الحموي، **معجم البلدان**،ج 4، ص 93.

وجاءت الفرصـــة الذهبية التي انتظرها الجزارون الاســـتعماريون طويلا على الدولـة العثمانيـة "الرجل المريض" ليقطعوا الوطن العربي إرباً، ويفوز كل منهم بالقطعة التي يسـتطيع انتزاعها .. وكانت الحرب العالمية هي الفرصـة فقد اشـــتركت الدولة العثمانية فيها إلى جانب ألمانيا، لتلقى فيها نهايتا وتعود إلى أرضها الصغرى على ضفاف البوسفور..

وحينما كان القادة العســـكريون يخوضـــون أعنف المعارك في جبهة الدردنيل، وفي جبهة السويس، كان ساسة الحلفاء يخوضون أمكر معاركهم فيما بينهم، فبعد اتصـــالات ومشـــاورات التقى ممثلو روســـيا وبريطانيا وفرنســـا في بطرسبرج (لننجراد) في ربيع 1916 واتفقوا فيما بينهم على اقتسام أراضي الدولة العثمانية، وقد عرف هذا الاتفاق باسم سفيري فرنسا وبريطانيا (سايكس وبيكو) وكان على شـكل رسـائل متبادلة وخرائط تبين نصـيب كل دولة منها بالألوان[1] وكانت القسمة على الوجه الآتي:

تختص روســـيا بالقســـطنطينية وحولها بضـــعة أميال في الداخل على جانبي البوسفور، مع أربع ولايات في شرق الاناضول واقعة بين تركيا وروسيا .

وتختص فرنســا، بالقســم الأعظم من ســوريا، بما فيها لبنان وأجزاء من جنوب الأناضول، ومنطقة الموصل.

وتختص بريطانيا بالمنطقة الواقعة جنوب سوريا (شرق الأردن) وأراضي العراق وميناءي حيفا وعكا.

وأما بالنسبة لفلسطين، وهي التي رسمت باللون البني على الخريطة فقد اتفق أن تكون تحت وصاية دولية.

---

[1] النص الكامل للاتفاق في **يقظة العرب**، لجورج انطونيوس ص 578.

وكان هذا الاتفاق استعمارياً قذراً، فقد كان مناقضا لتصريحات الحلفاء التي أعلنوها حين دخولهم الحرب، ومنافياً بصورة خاصة للعهود التي قطعوها للشريف حسين، قبل بضعة أشهر، باستقلال البلاد العربية ووحدتها، ولم يدر الشريف حسين بهذا الغدر الاستعماري إلا بعد ثمانية عشر شهراً، فقد أرسل جمال باشا الذي كان قائد الجبهة السورية، صورة عن اتفاقية سايكس بيكو، إلى الشريف حسين وعرض عليه المصالحة مع الدولة العثمانية على أساس " منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً يحقق جميع أمانيهم القومية".. وفي كانون الأول 1917 خطب جمال باشا في حفل عام في بيروت فكشف تفاصيل اتفاقية سايكس بيكو وعرضه المصالحة مع الشريف حسين، وكان مما قاله " فالشريف حسين باشا المسكين وقع أخيراً في أحبولة الإنجليز وأخل بوحدة الإسلام .. والاستقلال الذي وعده به الإنجليز سراب خادع .. والشريف حسين باشا تسبب بوصول الأعداء إلى أمام قلعة القدس، وسيشعر بالتعاسة، بإبدال شرف الإمارة الممنوح له من الخلافة الإسلامية بالعبودية للإنجليز.."[1]

ولكن الوقت قد فات، فلم يستطع الشريف حسين الإفلات من قبضة الإنجليز، وصحت نبوءة جمال باشا في أمرين:فقد سقط بيت المقدس بعد خمسة أيام، ودخل الجنرال اللنبي إلى المدينة المقدسة ليقول كلمته الشهيرة "اليوم انتهت آخر الحملات الصليبية"، أما الأمر الثاني فإن الشريف حسين فد نفاه الإنجليز بعد سنوات إلى قبرص وقضى أيامه الأخيرة بالمهانة "والتعاسة" كما قال جمال باشا بالتحديد.

---

[1] المصدر نفسه، النص الكامل لخطاب باشا في جريدة الشرق عدد 494 – 495، ص 260.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وبدأ المنتصـــرون يتقاســـمون الذبائح، فاتخذ مؤتمر الصـــلح الذي انعقد في باريس قرارا (كانون الثاني 1917) بفصـــل البلاد العربية عن الدولة العثمانية ووضعها تحت الانتداب الدولي، وهي الصيغة الاستعمارية الحديثة، وفي نيسان 1920 عقد مجلس الصلح الأعلى مؤتمرا في ســـان ريمو وتم الاتفاق أن تكون ســـوريا ولبنان تحت انتداب فرنســـا، وأن تكون فلسطين وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني!!

وبدأ الاســـتعمار البريطاني والفرنســـي يبني الدول والحدود، وســـارعت فرنسا إلى تسمية سوريا ولبنان بدولتي المشرق تمييزا لهما عن " دول المغرب" في مراكش وتونس والجزائر .. وراحت بريطانيا بدورها تقيم حكومات ثلاثاً في فلســـطين وشـــرق الأردن والعراق.. وكانت الكارثة الكبرى في قيام الحكومة الفلسطينية برياسة المندوب السامي الصهيوني اليهودي، السير هربرت صموئيل الذي رشـــحه الزعيم الصـــهيوني الدكتور وايزمن ليبني الأســـاس للوطن القومي اليهودي، وللدولة اليهودية فيما بعد.

وبالنســـبة إلى شـــرق الأردن فقد أقامت بريطانيا حكومة برياســـة الأمير عبد الله ابن الشريف حسين، بناء على قرار اتخذه المستر ونستون تشرشل حينما زار القدس في شـــهر آذار 1921، وفي صـــبيحة اليوم الثاني ذهب هربرت صموئيل إلى عمان، وأعلن في اجتماع كبير فصل شرق الأردن عن فلسطين وتنصيب الأمير عبد الله أميرا على البلاد !!

وفيما يخص العراق فقد نصبت بريطانيا فيصل بن الحسين ملكاً على العراق تحت الانتداب البريطاني.

ثم جاء دور الحدود، ودخلت بريطانيا وفرنسا في مباحثات طويلة لتعيين الحدود على أرض لم تعرف الحدود، منذ كانت السـماء والأرض، وليس فيها فواصل طبيعية، ولكن كان لا بد أن تصنع الحدود.

ولم يكن الأمر صـعباً بالنسـبة لفلسـطين وشـرق الردن، فالبلدان تحت انتداب بريطانيا، فأصدر المندوب السامي البريطاني أمره (كانون الأول 1920) بجعل نهر الأردن حدا فاصـلاً، ومنذ أن تفجر هذا النهر وروافده من جبل الشيخ وهو ينساب في ديار الشام، ولم يعرفه التاريخ فاصلاً ولا عازلا..

أما حدود فلسطين مع لبنان وسوريا فلم تكن مصطنعة فحسب، ولكنها رسمت لتحقيق المطامع الصـهيونية، ففي شـمال فلسـطين يبتدئ الحد من رأس الناقورة على البحر الأبيض المتوسـط ويسـير في خط مسـتقيم نحو الشـرق، ثم يتجه فجأة في زاوية حادة نحو الشـمال إلى مسـافة ثلاثة كيلوا مترات من غير سـبب طبيعي إطلاقاً.. ولكن لسـبب واحد، هو: أن تدخل بحيرة طبريا وبحيرة الحولة بكاملها في حدود فلسطين، ومعهما الأنهار والروافد التي تصب في بحيرة الحولة .. والحد الشرقي لفلسطين مع سوريا أتبع الخطة الاستعمارية نفسها، يبدأ الحد من بانياس السـورية ويتجه نحو الجنوب بحيث يكون نهر الأردن ومنابعه العليا في فلسـطين، وبدلا أن يكون الحد السـوري الفلسـطيني شـرقا هو الخط الوهمي في وسـط بحيرة طبريا، فقد نجحت المؤامرة الصـهيونية البريطانية في جعل الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا داخلا في فلسطين، بعرض لا يتجاوز عشرة أمتار، في بعض المواقع، ويستمر الحد على هذا الحال ليدخل نهر اليرموك في فلسطين حتى البحر الميت.

وفي البحر الميت تبدو المفارقة العجيبة، فقد رسم الحد الأردني الفلسطيني في وسط البحر: القسم الغربي لفلسطين والشرقي للأردن، خلافا لما جرى عليه الحال بالنسبة إلى بحيرة طبريا، لأن بريطانيا هي الدولة المنتدبة على البلدين، ولأن الصهيونية أرادت ان تجعل " فلسطين كبرى" من فلسطين الصغرى!!

أما حدود شرقي الأردن مع سوريا فقد وضعتها فرنسا وبريطانيا بموجب اتفاق تم بينهما في عام 1920، والحدود بين شرق الأردن والسعودية فقد وضعت من قبل بريطانيا بصفتها الدولة المنتدبة على شرقي الأردن من جهة و"سلطان نجد عبد العزيز آل سعود" كما كان لقبه يومئذ، في تشرين الثاني 1925 بموجب اتفاقية "حداء " وهي موقع يبعد بضعة كيلو مترات عن ميناء جدة[1] وحدود شرق الأردن مع العراق وضعت في تشرين الثاني 1926 وكانت بريطانيا هي الدولة المنتدبة على العراق وشرق الأردن معاً.

وهكذا فإن حدود شرق الأردن وفلسطين فيما بينهما ، ومع جارتهما قد وضعها الإنجليز والفرنسيون، إلا البحر الأبيض المتوسط فهو الحد الوحيد الذي صنعته الطبيعة.

أما بالنسبة لسوريا ولبنان فقد فصلتهما فرنسا بعضهما عن بعض، وأصدر المندوب السامي الفرنسي وهو صاحب الأمر على البلدين، قرارا بتعيين الحدود بينهما، فكان أبشع دراما إنسانية شهدها تاريخ ديار الشام، ويجدر بالمواطن العربي أن يعيش مع هذه الدراما في نظرة خاطئة.

---

[1] **تاريخ الأردن في القرن العشرين**، ص 253.

ففي صباح أول أيلول سنة 1920 كانت كلمة لبنان تعني " جبل لبنان" ولاشيء غير ذلك .. وعند الظهر أصبح لبنان يعني شيئاً أكبر وأوسع، فقد أصدر المفوض الفرنسي قرارا بإنشاء "دولة لبنان" الكبير المستقل" وألفه من جبل لبنان، وأضاف اليه متصرفية صيدا في الجنوب، ومتصرفية طرابلس في الشمال، ومتصرفية بيروت، وأربعة أقضية هي بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا وأقساما من قضاء عكار، وحصن الأكراد وكانت معظم الأراضي تابعة لولاية سورية.. ولكن المفوض الفرنسي أراد أن يقيم دولتين إحداهما في سوريا والأخرى في لبنان، ولتكن دولة لبنان أكبر من " لبنان" وهكذا كان!!

وحدود سوريا الأربعة مثال كامل على اصطناع الحدود، فهي، كما يقول مرجع جغرافي، حدود غير طبيعية مع البلاد العربية التي تحيط بها لأنها لا تمتد مع فواصل طبيعية، ولا تفصل جماعات بشرية مختلفة، بل على العكس فالأرض تمتد متشابهة، والناس يتشابهون لغة وعقيدة وسلالة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى حدود العراق مع سوريا والسعودية فإنها صناعية بحتة".[1]

والجزارون الاستعماريون لم يكتفوا بأنهم صنعوا الكيانات السياسية وجعلوا لها حدودا، بل إنهم قد سلخوا المدن عن تقاسيمها الإدارية المعروفة، لقد تنازلت فرنسا لإنجلترا عن ولاية الموصل لتصبح تابعة للعراق، وكان ثمن التنازل حفنة من نفظ الموصل مقدارها 23.75 في المائة تختص بها فرنسا .. وسلخت كذلك دير الزور عن أراضي العراق وألحقت بسوريا.

---

[1] **جغرافية الوطن العربي**، ص 289 ،270.

وعلى هذا المنوال ضـمت العقبة وعمان إلى شـرق الأردن في 18 آذار سـنة 1924 بموجب اتفاق تم بين الشـريف حسـين وولده الأمير عبد الله.. ومن الطبيعي أن بريطانيا كانت وراء هذا التدبير نظرا لموقع العقبة الاستراتيجي.

والعقبة وحدها، في خارطة العالم العربي بأســـره، مثل حي على أن الحدود في الوطن العربي، هي حدود أقطار لا حدود دول، فقد كان هذا الثغر العربي على البحر الأحمر، مصرياً في عهد محمد علي باشا الكبير، سورياً في عهد الأمويين والعباسـيين، وحجازياً في عهد العثمانيين، تابعاً لمتصـرفية المدينة المنورة.*

وهكذا.. أقامت بريطانيا، "حكومتين" في شـــرق الأردن والعراق وجعلت لهما حدودا، وأقامت فرنسا "حكومتين" في سوريا ولبنان وجعلت لهما حدودا.. ثم مضـــت الأعوام فقامت الثورات التحريرية في العراق وســـوريا، وقام الوطنيون الأحرار في لبنان وشـرق الأردن، وانتهى الأمر باسـتقلال هذه البلاد .. فاسـتقلت شرق الأردن في عام 1946 وأصبح سمها المملكة الأردنية الهاشمية، واستقلت سوريا في عام 1945 وأصبح اسمها الجمهورية العربية السورية، واسـتقل لبنان في عام 1945 وأصـبح اسـمه الجمهورية اللبنانية، فقد خجل أهل لبنان أن يظل اسمه دولة لبنان الكبير المستقل " كما أسماه الفرنسيون قبل عشرين عاماً !!

ويتضح جليا من هذا العرض الموجز أن الاستعمار الأوروبي، قد صنع للأمة العربية على غير أرادتها، هذه الكيانات وهذه الحدود في المشـــرق العربي والمغرب العربي.. وجاء الملوك والرؤســـاء والأمراء فوجدوا هذه الدول فجلســـوا فيها، وهذه الحدود فقعدوا عليها..

---

* الجريدة الرسمية للدولة العثمانية سنة 1908 .

وخير خاتمة أنهي بها الكلام عن حكام الدول والحدود أن أعيد كلام "فختة" (1762 – 1814) فيلسوف الوحدة الألمانية حينما كانت ألمانيا مقسمة مجزأة، حين قال: "إن ألمانيا مجزأة بسبب أنانية الملوك والأمراء ودسائس الدول الأجنبية الطامعة".

والأمة العربية اليوم كألمانيا في الماضي، مجزأة بسبب الأنانيات العربية و دسائس الدول الأجنبية..

وهؤلاء واولئك إلى زوال، قصر الزمن أو طال..

وبعد فليس لهذه الدراسة أن تثير الشكوك والمخاوف، ولا أن تفجر المنازعات والخلافات..

ليس القصد من العودة إلى التاريخ، أن نعود إلى حدود الإمبراطوريات القديمة: الكلدانية والآشورية والبابلية والفرعونية..

ولا العودة إلى حدود الأمويين والعباسيين والفاطميين.. ولا حتى العودة إلى حدود الولايات والايالات في عهد الدولة العثمانية..

كل الذي ترمى إليه هذه الدراسة هو وحدة الأمة العربية في المشرق والمغرب، ووحدة التراب العربي في الوطن العربي بأسره..

والآن، ونحن في أخريات القرن العشرين، فإن كل الذي تدعو إليه هذه الدراسة هو الاتحاد الفدرالي بين الدول العربية العشرين، بالحدود القائمة، والدساتير النافذة، والحكومات المسيطرة، في فدرالية تكون فيها محكمة عليا تفصل في المنازعات بين الحدود، والخلافات لا تزال قائمة في المشرق والمغرب..

وعندنا ســـابقة شـــهيرة، في نظام الولايات المتحدة، فقد تولت المحكمة العليا الفصل في المنازعات على الحدود بين هذه الولاية وتلك، كما فصلت في منازعات أخرى..

وما أجدرنا أن نرقى بالنظام الفدرالي، وبالقضاء الفدرالي..

ولولا هذا النظام الاتحادي، لكانت أمريكا الشـــمالية، اليوم، مؤلفة من خمسين دولة، لا تتفوق أية دولة منها، على أية دولة في أمريكا الجنوبية.. وهذه هي العبرة العظمى، والعظة الكبرى..

الوحدة العربية..

كيف نريدها؟

هنالك ثلاثة أنواع من الوحدة:

الأول: الوحدة كما يريدها ميثاق الجامعة العربية، وهو بقاء الدول العربية العشرين مستقلة استقلالا كاملاً، يقوم بينها "تضامن عربي"، "وتنسيق سياسي"... وتكامل اقتصادي؟.. والعمل العربي المشترك, "ووحدة الهدف والصف"، و"المعركة الموحدة" "والمصير المشترك" وما إلى ذلك من العبارات التي ابتدعتها الأنظمة العربية، ورددتها أجهزتهم الإعلامية الناطقة بلسانهم، والواقعة تحت سيطرتهم.

والنوع الثاني: الدولة الواحدة، التي تمارس السيادة الكالمة الشاملة على جميع الوطن وجميع الشعب.. وهذا النوع من الوحدة يتمثل في الدولة التي يكون شعبها أو معظمه، أمة واحدة.. مثل فرنسا وإيطاليا، وغيرهما كثير في جميع القارات..

والنوع الثالث: هو الدولة الاتحادية التي تمارس السيادة الكاملة في طائفة محددة من الأمور الهامة: كالسياسة الخارجية، الدفاع، والاقتصاد، والثقافة وما إلى ذلك، وتكون الأمور الأخرى من اختصاص حكومات الأقاليم التي يتألف منها الاتحاد .. وهذا النوع من الاتحاد نظام حديث في القانون الدستوري اخترعته الحاجة، والحاجة أم الاختراع، لتوحيد "دول" تربطها مصالح مشتركة كالولايات المتحدة، أو إقامة دولة تضم قوميات متعددة كالاتحاد السوفيتي.

ونحن بادئ ذي بدء لا بد أن نرفض النوع الأول من الوحدة كما يريدها ميثاق الجامعة العربية، ولا نكتفي بالرفض بل يجب على الأمة العربية أن تعد نفسها للثورة عليه، فلا يصح قبوله ولا الصبر عليه، فمنذ أن حققت الأمة العربية استقلالها وتخلصت من الاحتلال والحماية والانتداب وهي تتطلع إلى قيام دولة الوحدة العربية، والحكام العرب" يهربون من الوحدة برفع شعار الوحدة، وإقامة المهرجانات الخطابية لتمجيدها والإدلاء بالتصريحات الذهبية للدعوة إلى قيامها، والاحتفال بعيدها والتصفيق لنشيدها وقصيدها، وغير ذلك مما أصبح هواية الحكام وأصبحت براعتهم فيها مملولة ممجوجة !!

والنوع الثاني وهو الدولة الواحدة فانه من غير شك هو النموذج الذي ينطبق على الأمة العربية..انطباقا "هندسياً" متكاملاً، فنحن أمة واحدة، لنا وطن

واحد، ولغة واحدة، وتاريخ واحد، وتجمعنا مشـــاعر قومية واحدة، منطلقة من ماضـينا، مسـتقرة من في حاضـرنا، ومتوثبة إلى مسـتقبلنا.. ولو شـئنا أن نختار أمة واحدة بين جميع الأمم لتكون المرشـح الوحيد لإقامة الدولة الواحدة .. لكانت الأمة العربية أجدر الجميع من غير اسـتثناء.. فذلك ما يؤيده القانون الدسـتوري والسوابق الدولية، دولة واحدة لأمة واحدة..

ونحن، لو وقفنا أمام الدول "الواحدة" في اسـتعراض قصـير لتبين لنا أن كثيراً من هذه الدول تضـم مع شـعبها قوميات متعددة بالإضـافة إلى المذاهب الدينية المختلفة.. ومع ذلك فإن الدولة فيها واحدة لا اتحادية..والأمثال على ذلك كثيرة.. فهذه رومانيا، ويتألف الشـــعب فيها من الرومانيين والهنغاريين والأتراك والألمان، وينتمي معظم الشـعب إلى الكنيسـة الأرثودكسـية والباقون ينتمون إلى الطائفة الكاثوليكية.

وهذه بولندا، ويتألف الشـــعب فيها من بولنديين وأكرانيين، وروســـيا البيضـــاء، من ســـلوفاك، وروس، وألمان، وتشـــيك، ولتوانيين، وفي طوائفها الكاثوليك والبروتستانت واليهود.

وهـذه كمبوديـا، يتـألف فيهـا الشـــعـب من الكمبوديين والفيتنـاميين والصينيين.

وهذه تشاد، يتألف شعبها من السارا والعرب وجماعات إفريقية متعددة..

وهذه أفغانسـتان، يتألف شـعبها من الباتان، واوزيك، وهازارا.. فهذه كلها تمثل الدولة الواحدة على رأس قوميات متعددة.

غير أننا نرى أن الوصـــول إلى النوع الثاني، وهو الدولة الواحدة أو الدولة الاندماجية حسـب التعبير العادي الحديث، يفرض أن نأخذ بالنوع الثالث،

وهو الدولة الاتحادية، وقد يبدو غريبا أن نقترح نظاما اتحاديا على أمة واحدة حيث تفرض الدواعي القومية، والسوابق الدستورية أن يكون النظام وحدويا اندماجياً..

والواقع أن من حق المواطن العربي أن ينفر من الرأي الذي يقول بإقامة دولة اتحادية للأمة العربية بدلا من الدولة الواحدة، ففي سويسرا مثلا يضم النظام الاتحادي أثنتين وعشرين مقاطعة، تمثل جنسيات تاريخية مختلفة، هي الألمانية والفرنسية والإيطالية والرومانشية، ولغاتها الرسمية في جميع مؤسسات الدولة هي الفرنسية والإيطالية والألمانية..

وكذلك الحال بالنسبة إلى الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، وكندا، والهند، ويوغسلافيا، كلها دول اتحادية لأنها تضم قوميات متعددة، ومن حق المواطن العربي أن يتساءل: إذن لماذا نقيم لأمتنا الواحدة دولة اتحادية بدلاً من الدولة الواحدة..

إن ترجيح الأولى على الثانية تفرضه ضرورات لا يمكن تجاهلها، مهما كان النزوع إلى الوحدة قوياً، فنحن أمام واقع يتمثل في قيام دول عربية متعددة أصبحت لها أوضاع إقليمية اقتصادية وعسكرية وتشريعية، والنظام الاتحادي، هو الذي ينقلها من الإقليمية إلى الوحدوية.. ولا بد أن نترك للوحدة فرصة النمو بالتجربة والممارسة.

ولنا أسوة في النظام الاتحادي في الولايات المتحدة فقد كان الاستقلال هو المرحلة الأولى (4 تموز سنة 1776)، وأعلنت وثيقة الاستقلال " أن كل مستعمرة من المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة قد أصبحت دولة حرة

مستقلة".. وقامت بذلك ثلاث عشرة دولة مستقلة، بينها حدود، ولها مصالح اقتصادية وإقليمية.

وبعد ثلاثة عشر عاما(1788) قامت خلالها محاولات وتحركات وحدوية، ومجادلات بين أنصارها وخصومها، اتفقت الدول الأمريكية الثلاث عشرة على إقامة اتحاد بينها، وانتخب جورج واشنطون أول رئيس "لاتحاد الدول الأمريكية" أو الولايات الأمريكية، حسب الترجمة الخاطئة الشائعة !!

ومع الزمن توالى انضمام الولايات الأمريكية فأصبحت دولة اتحادية تضم تحت جناحها خمسين دولة محلية.

ودستور الولايات المتحدة مؤلف من سبع مواد، تتضمن كل منها فقرات، ولكن الممارسة قد أضافت إليه فيما بعد أربعة وعشرين تعديلاً، كما أغنته المحكمة العليا بالقرارات الكثيرة .. فأصبح دستورا اتحاديا صلباً يقود أعظم دولة في التاريخ الحديث، إلى جانب الاتحاد السوفيتي.

وثمة سبب آخر لاختيار النظام الاتحادي بديلاً عن النظام الوحدوي ليكون أساسا للوحدة العربية، ذلك أن النظام الاتحادي يقوم فيه نوعان من الدولة.. الدولة الاتحادية ذات الاختصاصات المحددة، ومعها مجموعة من الدول تمارس كل منها سيادة كاملة على إقليمها، ولها قوانينها ومحاكمها وضرائبها ومجالسها الوطنية المنتخبة، كل ذلك في نطاق اختصاصاتها المحددة في دستورها فيما لا يتعارض مع دستور الاتحاد.

وينتج عن ذلك كله، بالنسبة للنظام الاتحادي العربي، أن الحكومات القائمة التي تدخل في الاتحاد لا تلغى كلية، إنها باقية ولكنها تمارس السلطات الإقليمية كاملة كدولة ذات سيادة، وبذلك تراعى الظروف والحاجات والاعتبارات

لكل إقليم مراعاة سـليمة ورشـيدة .. وليس لنا أن ننكر أن التاريخ والجغرافيا، و الاحتلالات والانتدابات التي تعاقبت على الوطن العربي، كل ذلك قد ترك رواسـب بارزة في حياة هذا الإقليم أو ذاك.. ولا بد لنا من مرحلة انتقالية تنقلنا من الإقليمية إلى الوحدة، وتكون وسطا بينهما..

ولو أن المواطن العربي، قد رجع إلى القانون الدسـتوري في الولايات المتحدة، لاتضـح له أن كل دولة من دول الاتحاد، تدار على غرار الحكومات الاتحادية، فلها رئيس– حاكم – يتولى السلطة التنفيذية، ومجلس النواب والشيوخ يمارسان السلطة التشريعية، وهيئة قضائية تتولى شئون العدالة في الدولة.

وسيرى المواطن العربي كذلك، أن نزاعات كثيرة قد وقعت بين الحكومات الإقليمية والحكومات الاتحادية بشأن الاختصاصات، وكانت المحكمة العليا هي التي تفصـل في هذه المنازعات، وكان الاتجاه القضـائي العام نحو توسـيع اختصاصات الحكومة الاتحادية.

والأمر كذلك بالنسبة إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية، فهو يضم ست عشرة جمهورية، كل منها لها دستورها وحكومتها وشئونها الإقليمية الخاصة .. والقوميات المتعددة التي يضمها الاتحاد السوفيتي تحافظ على لغاتها وتقاليدها، وتمارس كل نشـاطاتها الوطنية، وقد ابتدع قادة الاتحاد السـوفيتي وفي مقدمتهم لينين وسـتالين هذا النظام الاتحادي لأنهم وجدوا فيه حلاً لمشـاكل القوميات، التي لم يستطع النظام الإمبراطوري السابق أن يعالجها .

ولا أريد أن أسترسل طويلا في هذا البحث، فكل الذي قصدت إليه من هذه الإشارات الدستورية العابرة، أن أضع جواباً دستوريا للسؤال الذي يطرح دائماً: وكيف يتم توحيد الأقطار العربية ولكل منها حكومتها وشـخصـيتها

وشـــئونها واهتماماتها.. والذين يطرحون هذا الســـؤال مؤلفون وصـــحفيون وسياسيون.. بعضهم جاهلون، وأكثرهم متجاهلون!!

ولن أحاول في هذا الفصـــل أن أضـــع دســـتورا للدولة العربية المتحدة، فذلك من اختصـــاص لجنة الدســـتور، وهذه ينبغي أن تضـــم رجال القانون والاجتماع والسـياسـة والعارفين بأحوال البلاد العربية ، ولكني أرى أن أؤكد على المبادئ الأســـاســـية التي يتحتم أن يقوم عليها النظام والاتحاد العربي، إذا كان يراد لـه أن يكون جدياً ومســـتجيباً لتطلعات الأمـة العربيـة ومحققاً لأهدافها الكبرى.

وأول ما ينبغي توكيده، أن الاتحاد يجب أن يمارس سـيادة فعلية حقيقية ينص عليها بصـورة قاطعة حاسـمة في الدسـتور، وبلغة قانونية واضـحة.. ففي دســـتور"اتحاد الجمهوريات العربية" الذي يضـــم مصـــر وســـوريا وليبيا كانت الصـــياغة بارعة في "الهروب" من الســـيادة الحقيقية إلى "التنســـيق في الشـــئون السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية"، وجاء في هذا السياق مجلس رياسـة الاتحاد من غير سيادة فعلية، ومجلس الوزراء الاتحادي من غير سلطة حقيقية، ومجلس الأمة الاتحادي من غير اختصـاص في التشريع.. وأصبح هيكل الدولة الاتحادية فارغا من المضـــمون الاتحادي.. وأشـــبه ما يكون بأعجاز نخرة، في نخلة منقعرة!!

والسـيادة الفعلية التي أدعو إليها، وأدعو أن تمارسـها الدولة الاتحادية لا بد ان تتمثل في الجوانب القومية الآتية:-

أولاً: الشئون العسكرية، وفي هذا المجال يجب أن يكون للدولة الاتحادية الحق الكامل بإنشاء جيش عربي واحد، له قيادة واحدة، يتولى أموره وزير الدفاع

العربي، وتكون ميزانيته جزءا من ميزانية الاتحاد.. وقد بدأت بالشئون العسكرية لأن قيمة الدولة العربية المتحدة، تتمثل في جيشـــها القوي المدرب، المســـلح بأحدث الأسـلحة، فقد أثبتت حروبنا الثلاث في 1948، 1956، 1967، بما لا يرقى إليه الشـــك أن الجيوش العربية المتعددة تلحق بأمتها الهزيمة..وقد أعطت حرب رمضـــان المجيدة نتائج مجيدة ولكنها كانت محدودة، ولو كان وراء تلك الحرب دولة اتحادية تضم سوريا ومصر، لكانت النتائج أكبر أثرا..

وليس المنطق وحده هو الذي يقودنا إلى هذه الحقيقة، فقد مرت بنا تجارب قاسية ومريرة تمرسنا بآفاتها في مسيرتنا مع القيادة العربية المشتركة، والقيادة العربية الموحدة، ومجلس الدفاع المشـــترك، فكانت عناوين فخمة، وويلات ضخمة!!

ثانياً: الشئون السياسية..وهنا لا بد أن تكون للدولة العربية الاتحادية ســياســة دولية واحدة..تعبر عن مصــلحة الأمة في مجموعها، وأن تكون من الاختصـــاص المطلق للدولة الاتحادية، ويكون لها وزير خارجية واحد، وتمثيل دبلوماســـي واحد، ومقعد واحد في الأمم المتحدة .. فإن وفدا يمثل دولة قوية واحدة، أدعى إلى الاحترام من دول متعددة متباينة الاتجاهات السياسية.. ومنذ عهد الاستقلال إلى يومنا هذا كان تعاملنا الدولي، والتعامل الدولي معنا، مدعاة إلى الهزء والســخرية، فقد نشــأت حالات دولية هامة وقف بعضــنا منها موقفاً إيجابياً، ووقف بعضــنا الآخر موقفاً ســلبيا، ووقف آخرون موقفاً لا ســلبيا ولا إيجابياً .. فكانوا أشـــبه باللاأدريين .. وشـــاع عنا القول المعروف: العرب لا يعرفون ما يريدون .. والعالم الدولي لا يعرف ما يريدون !!

ثالثاً: الشـــئون الاقتصـــادية والمالية.. وفي هذا المجال يبدو التخلف العربي واضـــحاً، فمنذ أن نشـــأت الجامعة العربية، صـــدرت قرارات واتفاقات ومشروعات اقتصادية، وكل الذي ينفذ منها انها تنشر وتذاع وكفى.. ونحن الآن بعد التجربة الطويلة في "التعاون والتنسيق والتضامن"، ليس لنا اقتصاد عربي، بل إننا نواجه اقتصـــادا إقليميا يحارب بعضـــه بعضـــا.. ومجلس الوحدة الاقتصـــادية لم يحقق خطوة واحدة على طريق التكامل الاقتصـــادي.. وقد كتب باحث أردني يقول عن طلابه في الجامعة الأردنية".. وقد لمست في كل فصل دراســي أن الطلاب يبدون شــعورا بالتشــاؤم حول منجزات التكامل الاقتصــادي العربي" وهذه النظرة الواقعية العلمية، إنما تمثل شـــعور الجيل العربي أجمع .. ومن أجل ذلك فإن الشئون الاقتصادية العربية يجب أن تكون من الاختصاص المطلق للدولة العربية المتحدة، وأن يكون لها وزير مســـئول قادر على تحويل الاقتصاد الإقليمي إلى اقتصاد قومي.

رابعاً: شـــئون النفط والتعدين. والنفط لم يعد الزيت الذي يســـتخرج من باطن الأرض العربية، ويشحن إلى الأسواق العالمية. لقد أصبح النفط سياسة واقتصادا وسلما وحربا، ورغما عن الطاقات الهائلة للنفط فإن الرأي العربي بشأنه لا يزال مذبذبا، وأمواله مبعثرة، وتتوعد أمريكا على لسان رئيسها ووزير خارجيتها باحتلال منابع النفط، ولو أن النفط العربي يدخل في اختصاص الدولة الاتحادية ويتولى أموره وزير اتحادي لاستطاع العرب أن يحلوا مشاكلهم الدولية، وتخلفهم القومي الاجتماعي والاقتصـــادي، وأن يرفعوا مســـتوى الحياة للأمة العربية التي

تعد 125 مليونا[1]، منهم مئة مليون حفاة وعراة وجياع ومرضـى، وليس لهم من مقومات العيش إلا إرادة الحياة.

خامسـا: البحث العلمي والدراسـات النووية .. وهذا مجال آخر يجب أن يكون من اختصـاص الدولة الاتحادية، فإن الأبحاث العلمية وخاصـة ما يتعلق منها بشئون الذرة ومختلف استخداماتها تتطلب قدرات فكرية ومالية كبرى، وهذه لا تتوافر إلا لدولة كبرى، لا تستطيعها بمفردها أي من الدول العربية العشرين، والعلم والمختبر والمعاهد المتخصصة كل ذلك هو دعامة الزراعة والصناعة والصحة والإنتاج، والصحراوات العربية ترقد في جوفها كنوز تتطلع إلى من يكشفها ويستثمرها لخير الأمة جمعاء.

سادسا: شئون العلم والفنون والثقافة..وهذا نشاط اتحادي يتصل بحياة الأمة العربية في كل أقطارها، ويكفي أن نعرف الدور العلمي الذي قام به العرب في الماضي في مجال المعرفة الإنسانية، فقد كان من صنع الدولة الوحدوية حين كانت العاصمة في القاهرة، أو في بغداد، أو في دمشق..وقد آن لنا أن نحفظ تراثنا القديم بأنفسنا، ولا نلقي هذا العبء على أكتاف المستشرقين..بل آن لنا أن نضع تراثاً جديداً نضيفه إلى الحضارة الإنسانية ولا نظل "نجتر" ما خلفه الأسلاف من مفاخر وأمجاد.

وهناك أمور أخرى تقع في اختصاص الدولة الاتحادية، وقد اقتصرت على سرد نماذج معينة فقط، ولكن هذه الاختصاصات كلها لا يستقيم أمرها إلا بالحرص على خمسة مبادئ أساسية تكون الدولة الاتحادية من غيرها اتحاداً لإفشاء الظلم ونشر البغي، وتوطيد الاستبداد.

---

[1] الدكتور تيسير عبد الجابر ، **دراسات في التكامل الاقتصادي العربي**، ص7.

الأمر الأول ..هو ما يعرف في القانون الدســـتوري.. بالفصـــل بين السلطات، ومعناه البسيط أن لا تتركز السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية في يد رئيس الدولة، ســـواء في النظام الرياســـي، أو بيد الحكومة في النظام البرلماني .. بل يجب الفصـل بين هذه السـلطات فصـلا متوازيا متوازنا، بحيث تكون الســـلطة التشـــريعية بيد مجلس الأمة والقضـــائية بيد الهيئة القضـــائية والتنفيذية بيد رئيس الدولة، أو بيد الحكومة البرلمانية، وبهذا تصـــان الحريات العامة من العبث، ويبقى الحكم في منأى عن الاســتغلال والابتزاز، وما هو أهم تسد الأبواب في وجه الحكم المطلق وتكون الكلمة العليا هي للشعب..

الأمر الثاني.. المســـاءلة العامة، ومعناها أن يكون رجل الدولة من رئيسها إلى حاجبها تحت حكم القانون، يحاسب ويراقب، ويحاكم ويعاقب .. فلا يفلت أحد من العقاب، مهما علا مركزه في الدولة، ويجب أن ينص الدســـتور والقوانين المتفرعة على كيفية محاكمة رئيس الدولة والوزراء وسائر الموظفين لما يرتكبونه من جرائم أو مخالفات في حق الدولة.. فالدســتور الأمريكي مثلا يحدد الأســـلوب الذي يوجه فيه الاتهام إلى رئيس الدولة، والمرجع الذي يحاكم فيه، وقد تضمن نصا صريحاً يقضي بإقالة الرئيس أو أي موظف اتحادي إذا ثبتت عليه تهمة الخيانة والرشوة أو أية جنحة أخرى مضرة بالمصلحة العامة (فقرات متخذة من الدستور الأمريكي).. وقضية "وترجيت" الشهيرة التي كان من نتائجها استقالة الرئيس نيكسون وإدانة كبار أعوانه تعتبر من مفاخر الحرية والعدالة في العصر الحديث، لا لأمريكا وحدها ولكن للإنسانية كلها، وهي لأمريكا تفوق كل إنجازاتها العلمية على الأرض وفي الفضـــاء .. وفي التاريخ العربي مآثر جليلة

في إنشـاء ديوان المظالم، ومقاضـاة أولي الأمر، واسـتدعاء الخليفة إلى مجلس القضاء..

الأمر الثالث: صيانة الدستور.. وهذا يقتضـي إنشاء ما يعرف بالمحكمة العليا، وهي المرجع الذي يفصـل في مشـروعية أعمال الدولة، فيبطل ما يكون مخالفا للدسـتور والقوانين العامة، بحيث تكون تصـرفات الدولة و أعمال موظفيها خاضـعة للرقابة .. فالمحكمة العليا في الولايات المتحدة كان لها دور كبير في تطوير النظام الاتحادي إلى مزيد من الوحدة، بالإضـافة إلى دورها التاريخي في إبطال أي أجراء غير دسـتوري قامت به الدولة الاتحادية، اوهذه الدولة المحلية أو تلك..

والأمر الرابع.. أبدية الاتحاد .. فلا تجزئة ولا انفصـال .. وهذا من المبادئ المقررة في أكثر النصـوص الدسـتورية، وإن كان الدسـتور السـوفيتي – نظرياً – يبيح حق الانفصـال.. . ولهذا الموضـوع تاريخ طويل في الولايات المتحدة، فقد قامت حرب داخلية في أمريكا حينما أعلنت ولاية كارولينا الجنوبية انفصالها عن الاتحاد، واضـطر الرئيس "لنكولن" إلى قمع الحركة الانفصـالية بالقوة، ونشـبت الحرب الأهلية المعروفة بحرب الانفصال بين الولايات المتحدة الشمالية المدافعة عن الوحدة، والولايات الجنوبية المتمسـكة بحق الانفصـال، وانتهت الحرب (1865) بانتصـار الوحدة والوحدويين.. وجاءت مناسـبات قضـائية فيما بعد فأعلنت المحكمة العليا "أن الدسـتور الأمريكي قد أوجد بين الدول اتحاد دائما أزلياً، لا يمكن أن تنفصـم عراه"، وبذلك أصـبح الانفصـال أمراً غير وارد على الإطلاق.

ومثل ذلك الدستور الهندي، فأنه لا يبيح لأية دولة اومقاطعة الانفصال عن الاتحاد بأي حال من الأحوال، بل انه يعتبره أمرا يستحيل وقوعه.. فقد نص الدستور "أن الهند كل لا يتجزأ وان الشعب واحد، يعيش تحت سيادة واحدة، مستمدة من مصدر واحد"..

الأمر الخامس: هو المواطنة الواحدة..ويعني أن رعايا الدولة الاتحادية ينتمون إلى جنسية واحدة هي المواطنة الواحدة، في أي إقليم نشأوا، ويتمتعون بحقوق المواطن في جميع أقاليم الدولة.. ولو رجعنا إلى دساتير الدول الاتحادية في أمريكا أو روسيا أو كندا، أو الهند، أو استراليا، لاتضح لنا أن المواطنين في الدولة الاتحادية يتمتعون بحقوق متساوية، ولا تفريق بينهم على أساس أقاليمهم التي يقيمون فقيها .. وأن رؤساء الدولة الاتحادية وكبار رجالها..كما هو الواقع فعلاً، قد ولدوا ونشأوا في أقاليم مختلفة.. والتاريخ العربي مليء بالشواهد المماثلة.. فصلاح الدين الأيوبي الكردي العراقي، كان وزيرا في القاهرة، ثم أصبح سلطانا على مصر والشام..والفاطميون نشأوا في المغرب ثم جاءوا إلى القاهرة، وأقاموا دولة زاهرة عاشت ما يزيد على قرنين، والطولونيون والأخشيديون المستعربون المتمصرون أقاموا دولا في مصر، وقد جاءوا إليها من أقاليم متباعدة.

الأمر السادس: ان لا يتولى رئيس الدولة الحكم أكثر من فترتين متعاقبتين، فقد نصت الدساتير الاتحادية وغيرها على ذلك، ومنها الدستور اللبناني(مادة 49)، ومنذ عهد الاستقلال العربي و الرؤساء يحاولون البقاء في الرياسة.. بعضهم بدستور مؤقت، وبعضهم من غير دستور، والآخرون يصبحون "ملوكاً" تحت شعار الجمهورية .. وعلى الأمة العربية وطلائعها

المفكرة أن ترفض هذا النوع من الحكم وأن لا تتعاون معه، وأن تعبئ كل الطاقات الشعبية للخلاص من الحاكم الخالد.. والحفاظ على المبدأ الدستوري الذي كافحت الإنسانية طويلا لبلوغه، وهو أن الشعب مصدر السلطة أولاً وآخراً..وغير ذلك هو مصادرة لإرادة الشعب، وتزوير لمشيئته وعدوان صارخ على حقوقه..

وإن الدعوة لإقامة الدولة العربية المتحدة، يؤكدها بل يلح عليها، ما نعلمه من الاتجاه العالمي الذي يسيره في اتجاه الوحدة، فهذه أوروبا الغربية التي قامت بين دولها حروب طاحنة ومذابح رهيبة، تعمل اليوم جاهدة لإقامة الوحدة ممثلة في السوق الأوروبية المشتركة، والبرلمان الأوروبي، ومثل هذه النزعة تسود بين دول أمريكا اللاتينية، وعند دول القارة الإفريقية، ونحن أجدر بالوحدة والاتحاد من أية مجموعة أخرى من الشعوب، بل أي شعب بمفرده.

وليس لنا أن نفتر لحظة واحدة عن السعي الجاد من أجل إقامة الوحدة فلا بد من النضال المتصل لبلوغها، وأن لا يصرفنا وجود الجامعة العربية ونشاطها وأخبارها وقراراتها عن إقامة صرح الوحدة.. ذلك أن الجامعة هي منظمة "انفصالية" بنص ميثاقها، فقد أعلن احترام استقلال كل دولة وكيانها وحدودها،ولم تكن النصوص الأخرى عن التعاون والتنسيق بين دول الجامعة إلا "رشوة" للأمة العربية لتسكت عن الوحدة، وترى في الجامعة مرحلة على طريق الوحدة.

والجيل العربي الذي شهد مولد الجامعة قبل ثلاثين عاما يذكر بالأسى والمرارة، أن المؤتمر العربي الذي انعقد لتأسيسها قد سمي "مؤتمر مشاورات الوحدة العربية" وانتهى الأمر في النهاية إلى جامعة لا التزام بين دولها، وإلى

أمانة عامة لم تعطها الدول العربية من الاحترام ما أعطته للأمانة العامة للأمم المتحدة.

ومما يجدر ذكره للجيل العربي الذي لم يعاصـــر قيام الجامعة أن أكثر من دولة عربية قد اشـترطت لانضـمامها اسـتبعاد الوحدة .. كأن الوحدة العربية خيانة عظمى لا يجوز الاقتراب منها..[1]

ويوم قامت الجامعة اختلف العاملون في القضية العربية، هل هي خطوة على طريق الوحدة، كما نصـت المادة اليتيمة (التاسـعة) من الميثاق التي تجيز قيام روابط بين أي دولتين أوثق مما في الميثاق، أم ان الجامعة سـتكون تكريسـا للتجزئة والانفصال..وأداة لصرف الجماهير عن الوحدة.

ولكن هذا الخلاف قد انحسم اليوم، بعد هذه التجربة الطويلة التي امتدت ثلاثين عاما، فلقد وضـــح لكل مواطن عربي أن الجامعة العربية لم تعد خطوة على طريق الوحدة.. وأنه لا بديل عن الدولة العربية المتحدة.

وليس سـراً أن بريطانيا هي التي أوصـت بقيام الجامعة العربية لأسـباب لا مجال لذكرها..وإن كانت لا تفوت المواطن العربي.. إذا كنا لا نستطيع القول إن الجامعة قد سارت في فلك السياسة البريطانية، فمما لا شك فيه أن الجامعة، شاءت أم أبت، قد حققت للسياسة البريطانية حلماً قديما، كان يراودها في مطلع القرن العشرين ووضـعت الخطط اللازمة لتحقيقه .. ولا بد من عودة قصـيرة إلى التاريخ..

في عام 1907 قرر مجلس الوزراء البريطاني وكان يرأسـه السير كامبل بترمان، إنشـاء لجنة خاصـة لدراسـة أنجح السـبل للحفاظ على مصـالح الدول

---

[1] انظر، أحمد الشقيري، **حوار وأسرار** .

الأوروبية في الوطن العربي عامة، وحول شـــواطئ البحر الأبيض المتوســـط خاصة.. وبعد مشاورات بين الدول الاستعمارية ذات الشأن تألفت لجنة سباعية من خبراء يمثلون بريطانيا وفرنسـا وبلجيكا وهولندا والبرتغال، وإيطاليا وإسـبانيا، وكان بين أعضائها علماء في السياسة والاقتصاد والاجتماع والنفط.

ووضعت اللجنة تقريرا مستفيضا عن مصالح الدول الأوروبية في الوطن العربي، فشـرحت مصـالح بريطانيا العالمية، ومصـالح فرنسـا في القارة الإفريقية ومصـــالح إيطاليا في ليبيا، ومصـــالح إسـبانيا في المغرب..وأشـــار التقرير إلى أهمية البحر الأبيض المتوسط ومواقعه الاستراتيجية، وأنه لا بد لنجاح أية خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية.. وفصل التقرير بعد ذلك بأن الخطر على المصـالح الأوروبية يكمن في البحر الأبيض المتوســـط وخاصـــة في شـــواطئه الجنوبية والشرقية.. " فإن على طوال سواحله من الرباط إلى غزة، وعلى الساحل الشرقي من غزة حتى مرســـين وأطنة ..وكذلك على جانبي البحر الأحمر وعلى طول سـاحلي الهندي وبحر العرب وخليج البصـرة.. في هذه البقعة الشـاسـعة يعيش شعب واحد تتوافر له من وحدة تاريخية ودينية ولسانه وآماله كل مقومات التجمع والترابط والاتحاد، وتتوافر لـه في نزعاتـه التحريريـة، وفي ثرواتـه الطبيعيـة ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والنهوض... ويبلغ تعداده 35 مليون نسمة، ويمكن أن يرتفع إلى مئة مليون نسـمة بالنسـبة إلى شـرائعه الإسـلامية التي تبيح تعدد الزوجات وتؤدي إلى زيادة التناسل والتكاثر".. وتساءل التقرير بعد ذلك:" وكيف يمكن أن يكون وضـــع هذه المنطقة إذا توحدت فعلاً آمال شـــعبها وأهدافه، وإذا اتجهت هذه القوة كلها في اتجاه واحد.. وماذا لو دخلت الوســـائل الفنية الحديثة

إلى هذه المنطقة .. وماذا سيكون المستقبل إذا تحررت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها ".. ويجيب التقرير عن هذه التساؤلات بقوله ".. إن الخطر على مصالح الدولة الأوروبية يكمن في هذه المنطقة، في تجمعها واتحادها حول عقيدة واحدة وهدف واحد، ويتوجب على كل الدول الأوروبية أن تعمل على استمرار وضع هذه المنطقة المجزأ.. وعلى إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتناحر" وأوصى التقرير في النهاية " بمحاربة اتحاد هذه الجماهير أو ارتباطها بأي نوع من أنواع الارتباط الفكري والروحي، وبضرورة إيجاد الوسائل الفعالة لفصلها عن بعضها ما أمكن".[1]

وليس الأمر في حاجة إلى تأمل عميق، فإن هذا التقرير يفصح عن نفسه بنفسه،وعباراته وكلماته لا لبس فيها ولا إبهام ولا التواء.. فألفاظ التجزئة، والتناحر، والتفكك، والحيلولة دون الترابط والتجمع والاتحاد.. والخوف من التناسل والتكاثر.. كل ذلك يضع المواطن العربي وجهاً لوجه أمام الأهداف الرهيبة التي وضعها الاستعمار لتجزئة الوطن العربي، وإقامة كيانات مستقلة، منفصلة بعضها عن بعض.

ومضت حقبة طويلة على هذا التقرير، ليرى فيه الجيل العربي المعاصر نبوءات صادقة .. فقد تأكدت أهمية الوطن العربي ومواقعه الاستراتيجية، وقدرات الأمة العربية الروحية وثرواتها الضخمة، وصح كذلك ما ذكره التقرير عن تعداد سكانه، فقد ارتقى فعلا من 35 مليونا إلى مائة مليون .. وهو اليوم مائة وخمسة وعشرون مليونا، ولا يكمل هذا القرن نهايته إلا ويصبح مائتي مليون.

---

[1] شفيق ارشيدات، **فلسطين**، ص ص 27 ، 44. وفيها التفاصيل من التقرير.

ولقد صـــح هذا التقرير في جانب أكبر وأخطر.. فقد حقق الاســتعمار هدفه في تجزئة الوطن العربي والحيلولة دون وحدة الأمة العربية، فكانت أن أقامت الدول الاســتعمارية حدودا اصــطناعية أصــبحت في النهاية حدود هذه الدول العربية العشرين، وأصبح لكل دولة جيش يتولى الدفاع عن تلك الحدود!!

وهكذا يبدو واضـــحا جليا، للمواطن العربي، أن معظم الحكم العربي المعاصــر جاهلا كان أو غافلا، إنما ينفذ الخطط الاســتعمارية التي وردت في تقرير بترمان منذ ســبعين عاما، وأن الجامعة العربية، بميثاقها المكتوب وممارساتها الفعلية تعمق حدة الانفصال عاما بعد عام، وجذور التجزئة يوما بعد يوم..

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تنهض الأمة العربية بقيادة طلائعها الوحدوية، لتبني الدولة العربية الاتحادية بدلاً عن جامعة الدول العربية.. وأن تقتحم الجماهير العربية ذلك المبنى الجميل القائم في ميدان التحرير في القاهرة وتجعل منه دارا لوزارة الخارجية العربية الاتحادية، بدلا من أن يكون مقرا للجامعة العربية الانفصالية.

وتلك الأرض التي يقوم عليها مبنى الجامعة ليســت من غير تاريخ .. لقد قامت عليها ثكنات الجيش البريطاني في عهد الاحتلال البريطاني لمصــر.. ثم أصـــبحت مقراً للجامعة العربية، بعد الاســتقلال، ونرجو أن تصـــبح مقرا للاتحاد، بعد زوال الانفصال..

وما أسعد الجيل العربي الذي سيشهد ذلك الفرح الأكبر، يوم يهزجون وينشدون، وسيكون جيلنا بينهم دون أن تكون أجسادنا.. فسيكون معهم أولادنا أكبادنا..وهم أكبادنا تمشي على الأرض..

أولاً وأولاً..

جمهورية وادي النيل

ما هو الواقع؟ .. وما هو الهدف..؟

واقع الأمة العربية هو أنه تحكمها عشرون دولة، منها ثلاث مملكات: وهي المملكة المغربية، والمملكة الأردنية الهاشمية، والمملكة العربية السعودية .. وخمس إمارات وهي : اتحاد الإمارات، قطر، والكويت، والبحرين، وسلطنة عمان، واثنتا عشرة جمهورية وهي: مصر، وسوريا، والعراق، ولبنان،وتونس، والجزائر وليبيا، والسودان وموريتانيا، والصومال واليمن، واليمن الشعبية.. واليمنان يمثلان آخر الفنون العربية في التجزئة والانفصال!!

هذا هو الواقع كما هو قائم الآن.. أما الهدف فهو إقامة دولة عربية إتحادية واحدة، تعرف" باتحاد الجمهوريات العربية"، لتحل محل الدول العربية العشرين، وتكون سيادتها كاملة على الأمة العربية بأسرها، وعلى الوطن العربي أجمع، ويكون لها رئيس واحد، وجيش واحد، وعلم واحد ترصعه عشرون نجمة.

هذا هو الهدف العظيم الذي تتطلع الأمة العربية إلى بلوغه، وتسعى لتحقيقه، وتناضل من أجل إقامته.. وإنه لهدف جليل، يستحق من الأمة العربية

بمجموعها، ومن كل مواطن عربي بذاته، السعي المتواصل، والنضال الصابر الدؤوب.. والاستعداد للجهاد والاستشهاد..

وأقول الجهاد والاستشهاد، لامجازا ولا كناية، بل حقيقة صادقة فإن الوحدة العربية، شأنها في ذلك شأن الاستقلال العربي، لا بد لها في مرحلة من المراحل، من أن تخوض معركة بالغة التضحيات.. وعسى أن تستطيع تجنبها، وأن تحقق الوحدة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ومن حق المواطن العربي، وهو يفكر في ضخامة هذا الهدف العظيم، أن يتساءل بكل صدق وإخلاص: وكيف يمكن إقامة اتحاد الجمهوريات العربية، وهذه الدول العربية، فيها ثمانية أنظمة ملكية وإن اختلفت أسماؤها وتحددت أشكالها، وتباينت دساتيرها، هذا لمن له دستور؟!

بل إن السؤال وارد قطعا: وكيف نستطيع إقامة اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة، والجمهوريات العربية الاثنتا عشرة تستميت في الحفاظ على سيادتها واستقلالها، وتستبسل في الدفاع عن حدودها.. وقد شهد المواطن العربي في الستينات تحشد الجيوش وراء هذا الحدود في المشرق والمغرب على السواء بين الجزائر والمغرب، وبين الكويت والعراق، وبين سوريا والأردن..وأخيراً بين الجزائر والمغرب وموريتانيا بصدد الخلاف على الساقية الحمراء ووادي الذهب في الصحراء الغربية، على مشارف المحيط الأطلنطي.

وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد لنا ان نقرر من البداية، أن دولة الاتحاد لا يمكن إقامتها بضربة واحدة، أو حتى بمرحلة واحدة.. ذلك كان شأن الاتحادات التي قامت في العالم أجمع..ابتداء من اتحاد الولايات الأمريكية إلى

اتحاد الجمهوريات الســوفيتية، إلى اتحاد تانزانيا في إفريقيا، وهو آخر اتحاد في يومنا هذا..

ومثلاً وعلى وجه التخصــيص، فإن اتحاد الولايات المتحدة الأمريكية قد بدأ بثلاث عشــرة ولاية في القرن الثامن عشــر، ثم تعاقب انضــمام الولايات الأخرى في القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين جرى انضمام ولايتي ألاسكا وهاواي (1909) واريزونا ومكســـيكو (1912) واوكلاهوما (1907) ..وكانت النواة الاتحادية الأولى المؤلفة من الثلاث عشرة ولاية، هي القطب الذي تجمعت حوله الولايات الأخرى بالضغوط القومية والاقتصادية والعسكرية.

بل ان الولايات المتحدة قد واجهت في نشـــوئها ووحدتها، ما لا تواجهه الأمة العربية في مســيرتها اليوم نحو الوحدة.. إن الدول العربية العشــرين تقوم على وطن عربي واحد وعلى أمة عربية واحدة.. ولكن ..دولة "النواة" الأمريكية كان عليها أن تتوســع بالحرب تارة ، وبالشــراء تارة أخرى، فقد اشــتريت ولاية لويزيانا بالشــراء من فرنســا ســنة 1803.. وفلوريدا اشــتريت من إســبانيا ســنة 1819، وتم إلحاق تكســاس ســنة 1845، ومكســيكو الجديدة وكاليفورنيا تنازلت عنهما المكســيك ســنة 1848 بموجب المعاهدة التي أنهت الحرب بين أمريكا والمكسيك، وأريزونا الجنوبية اشتريت من المكسيك سنة 1853، واشتريت ألاسكا من روســيا ســنة 1867، هذا بالإضــافة إلى التوســع والانتشــار في المناطق الوسطى والغربية من أمريكا.

وكذلك الاتحاد الســـوفيتي، فإنه لم يولد كبيرا كما نعرفه اليوم، لقد بدأ صغيرا ثم كبر مع الزمن.. ففي 1923 أنشئ الاتحاد السوفيتي من جمهوريات روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء، والقفقاس.. ثم انضمت جمهوريات سوفيتية

أخرى في أعوام 1924، 1939، 1936، فأصـــبح إحدى عشـــرة جمهورية ، وتوالى الانضـمام بعد ذلك حتى أصـبح الاتحاد مؤلفا من سـت عشـرة جمهورية، وهو ما يعرف الآن باتحاد الجمهوريات السوفيتية..

ومما هو جدير بالملاحظة أن الجمهورية الروسـية تؤلف 72 في المائة من مجموع مسـاحة الاتحاد السـوفيتي، ويدخل في اتحادها عدد من الجمهوريات والأقاليم والمقاطعات التي تتمتع باسـتقلال ذاتي، وكذلك الأمر بالنسـبة إلى عدد آخر من جمهوريـات الاتحـاد.. اتحـاد يضـــم اتحـادات، وبـذلك يكون الاتحـاد السوفيتي أعظم هرم اتحادي في التاريخ.

ومن المهم للمواطن العربي أن يدرك أن الاتحاد الســـوفيتي لم يولد في ظروف ساكنة وأيام سعيدة، على العكس من ذلك فقد قام الاتحاد السوفيتي على أنقاض إمبراطوريـة نخرة، وفي ظـل حروب داخليـة رهيبـة، وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى الطاحنة.

وقبل الاتحاد الســـوفيتي بنصـــف قرن تقريبا قامت الوحدتان الإيطالية والألمانية في ظروف قاسـية مريرة، تخللتها قلاقل واضـطرابات، وحروب داخلية وخارجية.

وإذا كان علينا أن نقارن الظروف العربية الحاضـــرة على –قســـوتها– بالظروف التي واجهت الاتحادات الأمريكية والإيطالية والألمانية والروســـية، لوجدنا أنفسنا في جنة ونعيم..

ومع هذا فإنا لا نزعم أن إقامة اتحاد الجمهوريات العربية هو عمل سهل موطأ الأكتاف، لا يعوزه إلا ان نقول له كن فيكون.. فالصعوبات قائمة من غير

شـك، ويجب ان نعرفها حتى نسـتطيع التغلب عليها..وإلا بقيت الوحدة العربية نشيدا وقصيدا.

ولكننا يجب أن ندرك أننا بالمقارنة مع غيرنا فإن صـــعوباتنا أقل، ومزايانا أكثر. فلسنا محتاجين، مثلاً أن نشتري أو نغزو أوطانا لنصنع "الوطن" كما فعلت الولايات المتحدة..ولسنا محتاجين أن نصهر مئة وستا وعشرين قومية لنصنع الأمة، كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي.. ولسنا.. ولسنا..

واستناداً إلى هذه المزايا الكبرى التي نملكها، وهي أننا أمة واحدة تعيش على تراب واحد، وتجمعنا وحدة اللغة والتاريخ والحضـــارة والأماني القومية، يصـبح من واجبنا أن نبادر إلى إنشـاء اتحاد الجمهوريات العربية فإن "خامات" البنـاء متوافرة، وليس علينـا إلا أن نحمـل الحجـارة، والمعـاول والفؤوس لنقوم بالبناء وقد نحتاج إلى شيء من الهدم تمهيداً للبناء..

ولإقامـة اتحـاد الجمهوريـات العربيـة أكثر من مدخل واحد.. وأكثر من مرحلة واحدة.. واختيار المدخل والمرحلة خاضـــعان للظروف التي يبدأ فيها العمل.

والأســـلوب الـذي يتبـادر إلى الـذهن أولاً، هو توجيـه الـدعوة إلى الجمهوريات العربية الاثنتي عشـرة إلى مؤتمر قومي لإقامة دولة عربية اتحادية تمارس سـيادة واضـحة كاملة على الأمور الاتحادية، وفق دسـتور يتم الاتفاق عليه، وتحديد الاختصاصات الأخرى التي تمارسها الحكومات الإقليمية.

وواضـــح، أنـه ليس من المتوقع تلبيـة هـذه الـدعوة من قبـل جميع الجمهوريات العربية، وواضـــح أيضـــا أن مبدأ الاتحاد ليس من المتوقع إقراره بالإجماع.. وسيرسـو الاتحاد في النهاية على عدد من هذه الجمهوريات، وربما

يرسو في النهاية على جمهوريتين فقط، ولا بأس .. فالمهم ان نبدأ، ولا بد للبداية أن تبلغ النهاية..

ومثل هذه النتيجة يجب أن لا تدعو إلى اليأس، أو التردد في إقامة الاتحاد من جمهوريتين اثنتين مؤمنتين صابرتين صادقتين.. فإن السلوك الوحدوي والإنجاز الوحدوي، ومعهما المشاعر الشعبية الضاغطة كفيلة بأن ينمو هذا الاتحاد مع الزمن، كما نمت الاتحادات التي رافقنا تاريخها في أوروبا وأمريكا.

هذا هو أسلوب الدعوة الشاملة لجميع الجمهوريات العربية، في إطار مؤتمر قومي، وهو الأسلوب الأمثل، وهناك أسلوب إقامة اتحادات على أساس المناطق الكبرى في الوطن العربي،حتى يتكون من " الاتحادات" اتحاد الجمهوريات العربية.. ونستطيع أن ندرس هذه المناطق الكبرى واحدة واحدة..

نبدأ أولا بحوض وادي النيل .. هذه المنطقة تضم مصر والسودان وقد كانا بلدا واحدا عبر تاريخهما الطويل، والنيل الخالد قد جمع بينهما بروابط مشتركة في الحضارة والتاريخ بالإضافة إلى مقومات الوحدة الأخرى، والعلاقات التي تربط بين شطري الوادي ترجع إلى عصور قديمة في التاريخ، ففي عهد ملوك طيبة (2778-3197ق.م) دانت لهم بلاد النوبة حتى الشلال الأول، وفي عهد الأسر الثالثة والرابعة والخامسة جاوزت حدود مصر الشلال الأول، يؤيد ذلك النقوش الدينية في صخور الأهرام التي تثبت أن النوبة جزء لا يتجزأ من مصر.

ويذكر أكبر علماء القانون في هذا العصر، أن السودان في عصوره الأولى، وفي عهود الفرس واليونانيين والبطالسة والرومان والعرب والأتراك، لم

ينفصـــل عن مصـــر بل كان يكون معه بلدا واحدا .. وأن النوبة كانت تابعة لمصـر، وعهد بإدارتها إلى محافظين أحدهما في المنطقة الشـمالية والآخر في المنطقة الجنوبية.. وأن القبائل العربية حملت ثقافتها وحضـارتها إلى السـودان وأصـبحت هي حضـارة الغالبية العظمى من السـكان في اللغة والدين ومظاهر الحياة الروحية والمادية.[1]

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور عبد الرزاق السنهوري أحد أعلام القانون في الوطن العربي، ويتميز بالنظرة العلمية الدقيقة الفاحصـة، ولم يكتب ما كتب عن عاطفة وطنية جامحة ولكن بعد دراسة علمية واثقة موثقة.

ومن ناحية دولية فإن وحدة الوادي تؤيدها وثائق دولية، فقد صدرت عدة فرمانات من قبل الدولة العثمانية التي كانت صاحبة السيادة على القطرين تنص على اعتبار مديريات النوبة ودارفور وكردفان، وسـنار، وميناءي سـواكش ومصـوع، وجنوبا حتى خط الاسـتواء كل ذلك يؤلف مع مصـر كيانا سـياسـياً واحداً.

وهذه الوثائق الدولية بذاتها تؤلف مرجعا تاريخيا وقانونيا يثبت بما لا يرقى إليه الشـك أن وادي النيل بقطريه مصـر والسـودان، هما بلد واحد يؤلف وحدة سياسية دولية، كأية وحدة دولية قائمة في العصر الحديث.

وفي دستور مصر لعام 1880 وقانون الانتخاب الذي صدر معه اعتبر السـودان جزءا لا يتجزأ من مصـر، وأن السـودان يمثله سـبعة عشـر نائباً من مجموع النواب البالغ عددهم خمسة وعشرين نائباً [2]. وقد تمثلت وحدة النيل في

---

[1] عبد الرزاق السنهوري، **قضية وادي النيل مصر والسودان**، ص 157.

[2] سمير النقبادي، **تطور المركز الدولي للسودان**، ص 15 وما بعدها.

مظاهر متعددة منها وحدة الجيش، والإدارة ، ويمين الولاء، ووحدة العلم ووحدة النقد والدعاء في خطبة الجمعة لخديوي مصر والسودان.

وبهذا لم تكن وحدة وادي النيل موضـوعاً نظريا سـجلته الوثائق الدولية والتشـريعات المحلية، ولكنه كان محل ممارسـة فعلية تتجلى في السـيادة الواحدة تبسط وجودها وفاعليتها على القطرين، في الشمال والجنوب، كما كانت تمارس في المنطقتين الشرقية والغربية من الإقليم الشمالي.. مصر.

ولكن النضـال من أجل الوحدة ظل مسـتمرا عند كل مناسـبة، فحينما ضـغطت بريطانيا على مصـر لتسـحب قواتها من السـودان على أثر قيام الثورة المهدية في السودان (1881) استقال شريف باشا رئيس وزراء مصر وقال قولته الشهيرة "إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا"..

وهذه العبارة بالغة الدلالة، لا لفصـاحتها ولكن لبلاغة ما تنطوي عليه من معاني الوحدة العريقة، فهي تنبئ في كلمة موجزة أن وحدة وادي النيل ليست سـيطرة من مصـر على السـودان، ولكنها مطلب قومي من السـودان يسـعى إليه كما تسعى إليه مصر، سواء بسواء.

وكان صاحب هذا الموقف الوطني الوحدوي الرائع رئيس حكومة مسئولة ،لا زعيم حزب يهمـه أن يتودد إلى الجمـاهير ويـداعـب عواطفهـا، وقـد اهتزت لكلمته المعبرة جنبات الوادي في مصـر والسـودان، وكان لها فعل السـحر الأخاذ في نفوس الشـعب، وأصـبح قائلها يعرف " بالرئيس الكبير" بسـبب هذا الموقف الكبير، لأنه تصدى للسلطة البريطانية ورفض الموافقة على فصل السودان عن مصر.

وقد اســـتمر هذا الوضـــع الوحدوي، إلى أن حدثت أحداث لا حاجة لتفصيلها، مكنت الاستعمار البريطاني من فصل السودان عن مصر والسيطرة على شئونه .. وكانت مصر نفسها في ذلك العهد تحت الحماية البريطانية.

ورغما عن ذلك فإن الاستعمار البريطاني لم يستطع أن يحكم السودان إلا باسم مصر، عن طريق الحكم الثنائي.. وكان ذلك بذاته دليلا إضافياً على الوحدة القائمة في وادي النيل بين القطرين الشقيقين، مصر والسودان، وإن شئت ،السودان ومصر.

والحكم الثنائي على الســودان، كان بدعة بريطانية اســتعمارية، ادخل سابقة غريبة على القانون الدولي، فقد قام على أساس اتفاقية موقعة بين بريطانيا ومصــر، وقد وقعها بطرس غالي باشــا بوصــفه وزيرا لخارجية مصــر في عام 1899 .. وقد كلفه هذا التوقيع حياته، فقد اغتيل بعد أن أصبح رئيساً للوزراء، ولم تغفر لــه كفــاءتــه الفــذة موافقتــه على اتفــاقيــة الحكم الثنــائي على السودان..والشعب في القطرين يرى في السودان إقليمه الجنوبي ،وليس للإنجليز عليه سيادة أو سلطان.

واشـــتعلت الحرب العالمية الأولى في ســـنة 1914 فانتهزت بريطانيا الفرصة وأعلنت "الحماية" على مصر، وانتهت السيادة الاسمية للدولة العثمانية، على "الايالة" المصـــرية، وأطلقت بريطانيا يدها في شـــئون مصـــر متذرعة بضــرورات الحرب .. وهدأ الحديث الســياســي بين مصــر وبريطانيا بشــأن السودان، ووقع السودان بدوره تحت الحكم البريطاني المباشر.

ولكن .. ما أن وضــعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى اشــتعلت الحركة الوطنية المصـرية بقيادة الزعيم الشـعبي الأكبر سـعد زغلول وأصـبحت

"وحدة وادي النيل" هي الشغل الشاغل للشعب في مصر، إلى جانب قضية الجلاء والاستقلال التام، وتأججت المشاعر الوطنية في أرجاء القطرين الشقيقين، وأصبح سعد زغلول مثار إعجاب الجماهير في الشرق بأسره حتى أن دائرة المعارف البريطانية لم يسعها إلا أن تعترف بأن السودان قد أصبح قضية مصر الأولى ، وأن سعد زغلول قد فجر عواطف الشعب في ثورة عارمة، متهما بريطانيا بأنها قد "سرقت" السودان..[1]

وفي هذه الحقبة تألف "الوفد" كأكبر حزب في مصر، بل في العالم الثالث بأسره، كما نسميه اليوم، فتولى قيادة الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول، وتصدى للسطلة البريطانية بالمظاهرات والعصيان المدني والمقاومة السلمية وسائر ضروب النضال الوطني، وكانت قضية السودان ووحدة وادي انيل في صميم المطالب الوطنية .

ولم يسع بريطانيا إزاء الحركة الوطنية المصرية إلا إلغاء الحماية على مصر والاعتراف باستقلالها وسيادتها، ولكن مع تحفظات كان من أهمها بقاء أمر السودان على حاله تحت الحكم البريطاني المباشر.

والواقع أن النهضة الوطنية التي قام بها سعد زغلول لم تترك فرصة أمام بريطانيا لتستريح من ويلات الحرب، فبعد يومين من انتهاء الحرب العالمية الأولى، ذهب سعد زغلول على رأس وفد من قادة مصر، إلى دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة وقدموا إليه مذكرة بالمطالب الوطنية المصرية، وكانت هذه بداية نشوء حزب "الوفد" المصري الذي قاد النضال الوطني قرابة

---

[1] دائرة المعارف البريطانية، مجلد 21، تحت مادة السودان.

ثلاثين عاما إلى أن قامت ثورة يوليو 1952 وأعلن مجلس قيادة الثورة حل جميع الأحزاب المصرية ومن جملتها الوفد المصري .

وكانت المبادرة الوطنية الأولى التي قام بها سعد زغلول هي الشرارة التي أشعلت الحركة الوطنية في مصر، فلم يسع السلطة البريطانية إلا أن تعتقل زعيم الحركة ورفاقه (مارس 1919) وتنفيه إلى جزيرة مالطة .. وكانت مالطة وقتذاك مستعمرة بريطانية ومصر محمية بريطانية، والسودان وهو أهم أسباب الثورة المصرية، كان تحت الحكم البريطاني المباشر.

واجتاحت البلاد ثورة عارمة عمت الأقاليم في مصر والسودان، وأصبح شعار وحدة وادي النيل هتاف الشعب في المظاهرات يصيحون به حول دار المندوب السامي في القاهرة، وفي وجه القوات البريطانية التي كانت معسكرة في وسط القاهرة.

ولم يسع بريطانيا إلا أن تطلق سراح سعد زغلول ، فعاد إلى القاهرة فاستقبله الشعب استقبال الأبطال، وشهدت القاهرة أياما قل مثيلها حماسة واندفاعاً وتعلقا بقائدها الكبير، وأطلق هو بدوره العنان لفصاحته اللاهبة فتحدث إلى الجماهير عن مطالب مصر في السيادة والاستقلال والجلاء ، وكان الحديث عن وحدة مصر والسودان أروع ما يأخذ بمجامع القلوب،.

وسافر سعد زغلول إلى لندن وباريس لعرض مطالب مصر على الحكومة البريطانية والمحافل الدولية، ولكنه لم يلق أذنا صاغية، بل إن الوفد الأمريكي في مؤتمر السلام قد أعلن موافقته على الحماية البريطانية على مصر، وعاد الزعيم المصري إلى ساحة النضال الشعبي من جديد، وعادت السلطة البريطانية إلى اعتقاله، ونفيه إلى جزيرة سيشل وبعدها إلى جبل طارق.

وظل الشـعب وفيا لمطالبه القومية، ولقيادته الشـعبية، واضـطرب حبل الأمن في البلاد وأفلت زمام الأمور من يد السلطة البريطانية، فلم تر مناصا ولا خلاصـا إلا بإطلاق سـراح سـعد زغلول ورفاقه، فعاد القائد إلى الشـعب، والتقى الشـعب بالقائد، وانطلقت الجماهير تردد الشـعارات الوطنية "لا زعيم إلا سـعد، لا مصر من غير السودان .. ولا سيادة من غير الجلاء".

وما هي إلا أسابيع حتى بدأت الانتخابات للبرلمان المصري، ففاز حزب الوفد فوزاً باهراً، وكلفه الملك فؤاد بتأليف الوزارة، فرضـي قائد الشـعب أن يصـبح رئيساً للحكومة ولكن على شرط واضح: أن يمضـي الوفد في متابعة نضـاله من أجل تحقيق المطالب الوطنية وفي مقدمتها وحدة مصـر والسـودان، وكان ذلك، وأصبح الزعيم الجليل "سعد زغلول باشا" صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء.

وفي خريف 1934 سـافر سـعد زغلول إلى لندن ليبدأ مفاوضـات مع بريطانيا حول الأمور المتعلقة بين البلدين، وكانت قضـية السـودان في رأس المطالب المصرية.. وأدى الصلف البريطاني إلى فشل المفاوضات، وكان يرأس الحكومة البريطانية يومذاك السـياسـي البريطاني المعروف رامزى مكدونالد، فعاد سـعد زغلول إلى القاهرة ليدعو الشـعب المصـري بخطبه النارية البليغة إلى مواصـلة النضـال لتوحيد مصـر والسـودان، رضـي الإنجليز أم أبوا، وهو يشـرح أسـباب فشـل المفاوضـات بكلمته المأثورة" لقد دعينا إلى الانتحار فأبينا أن ننتحر".

وهكذا كانت الوحدة بين مصـر والسـودان حياة لوادي النيل، وكان الانفصال انتحارا لوادي النيل.

وفي غمرة الحماسة الدافقة التي أستأثرت بمشاعر الشعب المصري، وفي العام نفسه 1924، اغتيل السير لي ستاك باشا الحاكم البريطاني العام للسودان، في شوارع القاهرة، فاهتزت بريطانيا والعالم أجمع لهذا الحدث فثارت بريطانيا وأرغت وأزبدت.

وخرج المندوب السامي اللورد اللنبي من داره، وحوله كتيبة من الجيش البريطاني، إلى مقر رئاسة الوزراء، وفي صلف وغلظة، سلم إلى سعد زغلول إنذارا شديد اللهجة، يفرض شروطا ثقيلة على مصر، من جملتها بقاء السودان تحت الحكم البريطاني وخروج القوات المصرية من السودان.

وعاشت القاهرة أياماً رهيبة قاسية، فاجتمع البرلمان المصري، وتداول مجلس الوزراء في الأمر، واتجهت النية إلى قبول بعض الشروط البريطانية، ولكن أمر السودان لم يكن مقبولاً إطلاقاً كما أراده المندوب السامي البريطاني فاستقال سعد زغلول من الحكم ليعود إلى الشعب يقوده في ساحة النضال.

ولكن المنية وافت سعد زغلول في صيف 1927 فكان يوماً حزيناً لا في وادي النيل وحده ولكن في سائر الأقطار العربية والشرقية على السواء.

وتولى زعامة الوفد مصطفى النحاس باشا فكانت قضية وحدة وادي النيل هي التركة الكبرى التي القيت على كاهله، فمضى في الطريق نفسه يؤكد في كل مناسبة، في الحكم وخارج الحكم أن وحدة وادي النيل هي قضية مصر الأولى، مطلقا عبارته المعروفة " تقطع يدي ولا تقطع مصر عن السودان".

وكذلك الحال مع الأحزاب المصرية الأخرى، الأحرار الدستوريون والحزب الوطني والأحزاب الأخرى التي انشقت عن الوفد، كانت كلها مع التفاوت في لهجتها ومنطلقاتها الفكرية تدعو إلى وحدة مصر والسودان.

وهنا لا بد من التنويه بأن الحزب الوطني، على قلة أعضـــائه، كان أصـلب الأحزاب المصـرية وأشـدها اسـتمسـاكا بوحدة وادي النيل، وكان شـعاره المعروف لا مفاوضـة مع بريطانيا إلا بعد الجلاء وهذا يسـتتبع أن وحدة مصـر والسودان قضية مصرية صميمة، ولا شأن لبريطانيا بها، لا تخضع لمفاوضات ولا مساومات، ويجب تحقيقها بالنضال الوطني دون سواه.

وكذلك فإن الجيل الصـاعد من شـباب مصـر قد نزل إلى ميدان النشـاط السـياسـي، فمد الحركة الوطنية المصـرية بطاقات جديدة ونبرات جديدة... ولا بد لنا من وقفة قصـــيرة لمتابعة مســـيرة وحدة وادي النيل في تلك الحقبة، فإن هذه الوحدة الطليعية جديرة بأن نرصـدها ونسـتعرضـها، لنزداد يقينا على يقين، بأن الوحـدة العربيـة الكبرى تتطلـب أن تبـدأ بوحـدة وادي النيـل، ثم تتجمع حولـه الحركات الوحدوية الأخرى في الوطن العربي الكبير.

ومما يجدر التنويه به بصـــدد وحدة وادي النيل، أن الحكم الوطني في مصـر منذ أن قام في أوائل العشـرينات قد تعاقبت عليه حكومات متعددة الألوان السـياسـية، وتولت رياسـته شـخصـيات متفاوتة في شـعبيتها وكفاءتها، قد وقد تسـاقطت الواحدة بعد الأخرى لأكثر من سـبب واحد، ولكن السـبب الأكبر كان وحدة وادي النيل، وكان الصـــراع في هذا الموضـــوع يدور مع بريطانيا وكانت بريطانيا على مدى ثلاثين عاماً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حريصـــة كل الحرص على الوصول إلى اتفاق مع مصر ويقضي إلى معاهدة تحالف بينهما، وقد وضعت مسودات ومشروعات متعددة لهذه المعاهدة، وكان الجانب المصري يصـر على وحدة وادي النيل، والجانب البريطاني يلح على فصـل السـودان عن مصـر، ومنح السـودانيين حق تقرير المصـير وإقامة حكم ذاتي في السـودان،

وعلى مدى هذه الأعوام الثلاثين كانت مصر على الدوام ترفض عقد أي معاهدة مع بريطانيا إلا إذا كانت قائمة على أمل وحدة وادي النيل.

وتأزم الموقف بين مصـر وبريطانيا مرات ومرات، ولكن الموقف الدولي تطور مع الزمن، فكان ان وقعت مصـر وبريطانيا معاهدة 1936 وتناولت كثيراً من المشـاكل المعلقة بين البلدين، وخطت خطوة متواضـعة على طريق وحدة مصـر والسـودان، من شـأنها إباحة الهجرة المصـرية إلى السـودان واسـتخدام الجيش المصـري.. فكانت ثغرة صـغيرة انفتحت في الجدار القديم الذي أقامته بريطانيا بين مصر والسودان.

وقد وقع هذه المعاهدة باسـم مصـر مصـطفى النحاس باشـا الذي كان رئيساً للوزارة المصرية، واعتبرت في حينها نصرا وطنيا كبيرا، طمعت مصر من ورائه في زمن غير بعيد، أن تجني النصـر الكبير بتحقيق الوحدة الشـاملة بين القطرين الشقيقين.

غير أن عناصـر وطنية كثيرة لم تكن راضـية بهذه المعاهدة فعادت الصـيحة من جديد تدعو إلى وحدة وادي النيل في معزل عن المعاهدة، بالكفاح الشعبي مهما عظمت التضحيات..

وفي هذه الحقبة، نشـبت الحرب الإيطالية والحبشـية، ومن بعدها أطلت نـذر الحرب العـالميـة بين دولتي المحور: ألمـانيـا وإيطـاليـا من جـانـب، ودول الحلفاء من الجانب الآخر، وبرز دور مصـر في السـاحة الدولية، عسـكريا وسياسياً، وتطلعت بريطانيا إلى مصر لتكون الحليفة الوفية في الأحداث الدولية المقبلة.

وهنا رأت مصـر أن الفرصـة سـانحة لتثير وحدة وادي النيل من جديد، وتلوح بهـا في وجـه بريطـانيـا، لتـدفعهـا إلى الاعتراف بـالوحـدة بين القطرين الشـقيقين.. التحالف البريطاني المصـري مقبول ومرغوب، ولكن يجب أن تقابله الوحدة المصـرية السـودانية .. وإلا فلا تحالف ولا تآلف، بل ربما قطيعة وتدابر .. وربما كذلك تحالف مع دول المحور.. هكذا بكل صراحة ..

وكانت جماعة مصـــر الفتاة، في طليعة الذين اقتحموا هذه المناورة السـياسـية وانطلقت جريدتهم تعلن من غير تورية ولا غموض أن التحالف مع بريطانيا منوط بالوحدة المصرية السودانية، من ذلك أنها أكدت في مقال افتتاحي "أن مصـــر يجب أن تعرف ثمن وقوفها إلى جانب إنجلترا..ويجب أن يرجع الســـودان إلى حظيرتنا، حتى يصـــبح وادي النيل وحدة لا تتجزأ[1] وهذا كلام واضح لا يحتاج إلى إيضاح، وعلى بريطانيا أن تختار: التحالف مع بريطانيا له ثمن واحد، إنه وحدة وادي النيل.

وكانت جريدة مصـــر الفتاة تعتبر الســـودانيين مصـــريين، وتعتبر أن السودان هو الإقليم الجنوبي لمصر، وترى في وحدة السودان مع مصر تحريراً للســـودان من الســـيطرة البريطانية، ففي مقال افتتاحي آخر كتبت تقول " إن الإنجليز لا يريدون السـودانيين إلا مسـتعمرين خاضـعين لبريطانيا، أما مصـر فإنها تريدهم إخوانا مصـــريين"[2] وبهذا التعبير فإن وحدة وادي النيل هي وحدة قائمة على أسـاس الأخوة الكاملة، وما يسـتتبع ذلك من اعتبار وادي النيل وطنا واحدا لشعب واحد، تحكمه دولة واحدة".

---

[1] جريدة **مصر الفتاة**، 19 سبتمبر 1928.

[2] نفس المصدر، 14 يوليو 1938.

ويتصدى رئيس جماعة مصر الفتاة، الأستاذ أحمد حسين المحامي، إلى شرح مقومات الوحدة بين مصر والسودان فيكتب في جريدته يقول "السودان جزء من مصر، والشعب السوداني هو الشعب المصري، يتكلم لغتنا ويدين بديننا، ويشرب مما نشرب، ويأكل مما نأكل وهو من الجنس المصري نفسه"[1] وهو بهذا قد سرد جميع عناصر القومية الواحدة، اللغة والروابط الروحية، والمصالح المشتركة.. وليس حديثه عن "الأكل والشرب" إلا تعبيرا عن المصالح المشتركة.

ثم إن الأستاذ فتحي رضوان، وكان من أقطاب مصر الفتاة، وأصبح وزيرا في عهد الرئيس جمال عبد الناصر بعد ثورة يوليو لعام 1953، يخاطب السودانيين باعتبار أنهم مصريون، وأن السودان هو الإقليم الجنوبي لمصر، فقد كتب مقالا عنوانه" إلى إخواننا المقيمين في السودان"، وقال في جملة ما قال: لست أقصد "بإخواننا المقيمين في السودان، المصريين الذين يقيمون هناك بل أقصد السودانيين أنفسهم، فإن السودانيين هم فريق من المصريين يعيشون في مصر الجنوبية"[2]

ومصر الفتاة كانت تنظر إلى وحدة وادي النيل، في إطار الوحدة الاندماجية الكاملة، في ظل دولة واحدة، لا دولة اتحادية، وزعماء الجماعة يرون أن بريطانيا هي العقبة التي تقف في وجه هذه الوحدة .. وها نحن نرى الأستاذ فتحي رضوان يجاهر بريطانيا علنا، حينما أطلت بوادر الحرب العالمية الثانية، بأن مصر مستعدة ان تحارب إلى جانب بريطانيا، ولكن حينما تعترف

---

(1) **جريدة مصر الفتاة**، 38/8/11.

(2) نفس المصدر، 1938/9/1.

بوحدة وادي النيل، وحدة كاملة غير منقوصـــــة .. فقد كتب يقول " هل تريد إنجلترا أن نحارب معها..إذن فلتســمع .. لا بد أن تكف (بريطانيا) عن حربنا. نعم " إن إنجلترا تحاربنا في السودان، والسودان هو الجزء الأول من بلادنا، هو الجزء الرئيســـي .. وإن جامعة جوردون (الخرطوم) يجب أن تكون فرعا من الجامعة المصرية كجامعة الإسكندرية،ويجب أن تكون للتعليم في السودان برامج التعليم في مصـــر .. ويجب إلحاق المعهد الديني في أم درمان بالجامعة الأزهرية.. وكل هذا كمقدمات لرد السودان إلى مصر".[1]

ولم يتردد زعيم جماعة مصـر الفتاة، الأسـتاذ أحمد حسـين، بعد ذلك بسبع سنوات أن يوجه رسالة مفتوحة إلى الملك الشاب فاروق، تحت عنوان " المطالب القومية ووسيلة تحقيقها" يقول فيها " يجب على البرلمان المصـري أن يقرر أن ملك مصر هو ملك مصر والسودان، وأن السوداني مصري له كل ما للمصري من حقوق" وبهذا تحل قضية السودان،فإن شاءت إنجلترا أن تعترض علينا فإنها مغتصبة، نحتكم وإياها إلى المحاكم والهيئات الدولية؟[2]

وتحت قبة البرلمان المصـــري تعالت الدعوة إلى وحدة النيل، ومطالبة الحكومة المصرية بالمبادرة إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بإقامة هذه الوحدة، ولم يتردد الأعضاء عن التنديد بالحكومة المصرية لإهمالها أو تقصيرها في السعي لتحقيق هذا المطلب الوطني الرفيع، ومضابط البرلمان، وقد أصبحت جزءا من تاريخ مصر، مليئة بالخطب الوطنية الفياضة التي تنم عن إيمان عميق صادق بهذه الوحدة، ودعوة ملحة لإنجازها، كائنة ما كانت المصاعب والتضحيات.

---

[1] المصدر نفسه 1938/9/8.

[2] المصدر نفسه 1945/8/21.

ومن هذه الخطب الرائعة ما قاله عضـــو البرلمان عبد المجيد إبراهيم صـالح في سـرد مقومات الوحدة، ودواعيها وحوافزها، وهو يعلن بأعلى صـوته " لا أقول جديدا إذا أنا قررت كأساس أنه ليس هناك سودان ولا مصر، إنما هناك وادي النيل ".. إن هذا الشريان لا يكفي أن يجعل من مصر والسودان وحدة، ان هناك صـلات أخرى كصـلات الدم، فالسـودان تسـكنه كما تسـكن مصـر، قبائل عربية نزحت إليه منذ ثلاثة عشـر قرنا، ولا توجد قبيلة في مصـر إلا ولأفرادها أبناء عمومة في السـودان.. وكان المصـريون في كل العصـور يعتبرون أن السـودانيين منهم، وإذا بحثتم في مختلف العصـور والقرون وجدتم أن أغلب العائلات المصرية في أبنائها دم سوداني، وإذا بحثنا في العروبة وجدنا أننا نحن والسـودان قبائل واحدة، ولا حرج علي إذا أنا قلت ان هذا مقرر في التاريخ وإنه هو الواقع.. فمن العيب أن ينظر إلى السودان كمستعمرة، فهذا خطر ويجب أن يرتفع عن أذهاننا، بل يجب أن نعالج موضـوعه كما يعالج الفرنسـيون موضـوع الألزاس واللورين، وكما كان يعالج الإنجليز موضـوع اسـكتلندا وويلز "[1] وهذه الكلمات القليلات تغني عن المجلدات، ففيها كل مقومات الوحدة، وكل تعريفات القومية الواحدة، على اختلاف تعريفات "علماء" القومية من مفكري المدرسـتين الغربية والشرقية على السواء.

ويصـيح عضـو آخر محتجا على تصـرفات السـلطة البريطانية في السـودان فيقول النائب الأسـتاذ عبد العزيز الصـوفاني "تعلمون أن الأمور في السـودان تسـير سـيرا عجيبا، فالمصـري أجنبي فيه، لأن الحاكم العام يريد هذا، فلا يباح لمصـري أن يدخل السـودان، أو يقيم فيه، أو يتجر مع أهله أو يتملك

---

[1] مضبطة مجلس النواب/ جلسة 1929/11/27.

جزءاً من أراضـــيه إلا بإذن من الحاكم العام، فماذا ترون في هذا التصـــرف المدهش الغريب"[2] وهكذا فإن "وحدة وادي النيل" لم تكن كلمة فارغة المضمون او شـعاراً تتضـمنه قصـيدة عصـماء، أو خطبة مرسـلة،ولكن كان يراد منها ان تصـــبح حقيقة من حقائق الحياة .. فيعيش أبناء وادي النيل، في وادي النيل، يقيمون حيث يريدون، ويبيعون ويشترون. وحيثما جاءهم القدر يدفنون.

وكانت هذه التصـــريحات تتجاوب في قاعة البرلمان المصـــري، حينما كانت الحرب العالمية الثانية قد نشـبت بين دولتي المحور ودول الحلفاء.. وكان الرأي العام المصـــري متعاطفا مع دولتي المحور من غير شـــك، لا حبا في سـياسـتهما النازية والفاشـية، ولكن بغضـا ببريطانيا وسـياسـتها الاسـتعمارية، وبصورة خاصة لموقفها من قضية مصر بشأن الجلاء ووحدة وادي النيل:

وكان رئيس الوزراء في ذلك العهد "صـــاحب المقام الرفيع" علي ماهر باشا وهو من ساسة مصر المعروفين بعدائهم لبريطانيا، فأراد الرئيس المصري أن يثير حمية الشـعب، ويسـتثير غضـب الأسـد البريطاني، فعزم على زيارة السـودان، يتفقد أحواله ويؤكد معاني الوحدة بين الشـعبين الأخوين، والقطرين الشـقيقين وهكذا فقد قام بهذه الزيارة وسـط مظاهر عارمة من الحماسـة الدافقة، فالتقى بجماهير الشعب السوداني، فلاحيه وعماله ومثقفيه، ولم يترك مدرسـة أو مسـتشـفى أو ناديا إلا وتحدث فيه إلى أهل السـودان، حديث رئيس وزراء إلى مواطنيه، لا فرق في ذلك بين القاهرة والخرطوم ..فالأولى حاضـــرة الشـــمال، والثانية حاضرة الجنوب.

---

[2] المصدر نفسه.

وعاد علي ماهر باشا إلى القاهرة، مبهورا بما رأى في السودان وبشعب السودان من معاني الأخوة العربية الأصيلة وحوافز الوحدة الصادقة، فانطلق لسانه في البرلمان يخطب في ممثلي الأمة ليقول "لقد أحببت أن أتعرف إلى شعب السودان وألمس أمانيه وحاجاته التي نعطف عليها كل العطف، وأن أجتمع إلى نفوس ألف بيننا وبينها النيل الأعظم في وحدة سامية هي وحدة الوطن الأعظم.. وفي شباب السودان، كما في شباب مصر ذكاء ووداعة ودماثة خلق وأمل في المستقبل وفي الله"[1] وعند هذه الكلمات صفق المجلس بالأكف الممدودة والوجوه المشرقة، المعارضون والموالون على السواء.

وقد اعتبرت هذه الزيارة إنجازاً قوميا كبيرا ونصر مؤزرا للوزارة الماهرية، قابلها الوفد المصري برياسة مصطفى النحاس باشا، بإرسال مذكرة حازمة إلى الحكومة البريطانية يلح فيها أن تبدأ المفاوضات بين مصر و بريطانيا "للاعتراف بحقوق مصر كاملة في السودان لمصلحة أبناء وادي النيل جميعاً"، فقد كانت قضية وحدة وادي النيل هي ميدان السباق بين قادة مصر وأحزابها، ومن كان أكثر سعياً في مضمار الوحدة فإنه حبيب الشعب، ولا حبيب سواه.

ومضت سنوات الحرب العالمية الثانية،ومصر تتردد فيها صيحات وحدة وادي النيل، في البرلمان، وفي الصحافة، وفي الأحزاب وزاد من اشتعال هذه الحملة أن الحفاء كانوا يعلنون حق الشعوب في تقرير المصير هدفا مقدسا تسعى دول الحلفاء لتحقيقه حينما تضع الحرب أوزارها.. وتصدى المفكرون والكتاب في مصر لدعوى الحلفاء هذه، وطالبوا أن تذعن بريطانيا لمشيئة الشعب في وادي النيل، ليقرر مصيره في وحدة كاملة شاملة.

---

[1] محضر مجلس البرلمان جلسة 1940/2/11.

وكان الأســـتاذ عباس العقاد في طليعة هؤلاء المفكرين، فقام بزيارة للســودان فاجتمع بأحزابها ومفكريها وطلابها وشــبابها، فعقد لهم الندوات وألقى المحاضــرات، وانفجر الســودان من أقصــاه إلى أدناه في مهرجان علمي أدبي ســـياســـي ينادي بالوحدة ولا يرضـــى عن الوحدة بديلا .. وكان يحلو لأدباء السودان أن يطلقوا على العقاد اسم الكاتب الجبار.

وعاد الكاتب الجبار من الســودان إلى القاهرة ليكتب مقالا جبارا عنوانه "أمل وطني كبير" تحدث فيه إلى وادي النيل ودول الحلفاء معا، ليقول فيه "إن المؤتمرات العالمية بعد الحرب ســتعترف باتحادات أممية منعاً لتعدد الحكومات في البقعة الواحدة، وقطعا لذرائع الخصـــومات التي يجر إليها تعددها واختلاف منازعها، وســـيعتمد القائلون بهذا النظام على وحدة الجنس أو اللغة أو الجوار الجغرافي أو المصـــلحة المشـــتركة، وهي لا تتوافر في حالة من الحالات كما تتوافر في حالة الوحدة أو الروابط الوثيقة بين مصر والسودان".. وقد جمع العقاد بكلمات قليلة كل فلســفة الوحدة وعناصــرها... كما جمع مصــر والســودان في "بقعة واحدة" يجب أن تقوم فيها حكومة واحدة، لا حكومتان..

وكان أن ظهر الإخوان المســلمون كقوة منظمة لها قواعد جماهيرية في صـفوف الشـعب، لا في مصـر وحدها ولكن في سـائر أنحاء العالم الإسـلامي، فكان لا بد كذلك أن يدلي الإخوان بدلوهم في قضــية وحدة النيل، فكتب الشــيخ حسن البنا، المرشد العام، مقالا في مجلة الإخوان يقول فيه عن وادي النيل: "لا نريد هذه البلاد إلا يعترف لها بحدودها الطبيعية وألا يزاحمها غيرها في أرضــها الأسـاسـية، فحينما تطلب مصـر أن تتوحد مع السـودان وأن ترفع عنها سـلطة إنجلترا، لا تريد بذلك أن تستعمر قطرا، ولا أن تمتلك شعبا ولا أن تضم أرضاً،

ولكنها تريد أن تحرر نصفها الحيوي الذي ربطه بها النيل رباطا لا انفصام له، وليس السودان مستعمرة وتريدها مصر، ولكنها مصر الجنوبية حينما تضم إلى أختها في الشمال ويتوحد وادي النيل"..

وعلى هذا النهج كتب الأستاذ صالح عشماوي وهو من قادة الإخوان، مقالاً في نفس الجريدة أعلن فيه "أن مصر والسودان أمة واحدة، ولن نسمح للسودان بالانفصال عنا إلا إذا سمحنا للإسكندرية أو لأسوان بهذا الانفصال"[1] وبذلك يكون الإخوان المسلمون، الذين يعتبرهم التقدميون يمثلون أقصى اليمين، قد قدموا صيغة وحدوية لوادي النيل أكثر تقدمية من الصيغ التي أعلنها اليساريون المصريون والسودانيون أجمعون.

ورغماً عن هذا الإجماع الشعبي في شطري الوادي على الوحدة الشاملة لا فرق بين متطرفين أو معتدلين، ولا بين اليمين واليسار فقد ظلت بريطانيا ماضية في حكم السودان بصورة مباشرة، توطد فيه دعائم الانفصال، وتنشئ الحكم الذاتي تحت شعار "سودنة السودان" وإعطاء شعب السودان الحق في " تقرير المصير"..

وتعاقب الزعماء المصريون على الحكم بأحزابهم المتصارعة فسقطت هذه الحكومة وتولت حكومة أخرى، كل ذلك بسبب الجلاء الكامل ووحدة وادي النيل.

ففي عام 1946 ألف صدقي باشا حكومة برياسته، وهو من أكفأ قادة مصر، ودخل في مفاوضات صابرة مع المستر بيفين وزير الخارجية البريطانية، واستطاعا أن يصلا إلى اتفاق يتناول جميع المشاكل المعلقة بين مصر

---

[1] جريدة **الأخوان المسلمين** 12-1945/8/13.

وبريطانيا، ولكن البرلمان المصري قد رفض معاهدة صدقي – بيفين، وأسقطت وزارة صدقي باشا، لتأتي بعده حكومة أخرى برياسة النقراشي أحد كبار الوفديين الذين انشقوا عن الوفد بعد وفاة زعيمه الكبير سعد زغلول باشا..

وتصدى النقراشي باشا لمشكلة السودان، فابتدع طريقة جديدة لمعالجة القضية. ففي صيف 1947 تقدم بالشكوى إلى مجلس الأمن طالباً إجلاء البريطانيين عن مصر، والاعتراف بوحدة مصر والسودان.. وقد حشدت مصر كل كفاءاتها القانونية والسياسية في مداولات مجلس الأمن ، وخطب النقراشي باشا بنفسه في قاعة مجلس الأمن فألقى خمسة بيانات ضافية شرح فيها موضوع السودان ووحدته مع مصر في النواحي الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية، وما بينهما من روابط قومية وثقافية [1] . ولكن الشكوى ظلت تؤجل من جلسة إلى جلسة، وأجهضت بالمماطلة والتسويف.

وتصاعد المد الجماهيري في وادي النيل، غضبا على الاستعمار البريطاني وعلى مجلس الأمن، وعلى حكومة النقراشي، ذلك أن الشعب قد نفد صبره، ولم يعد يثق بالحلول السياسية، والتسويات السلمية في قضية كبرى كقضية الوحدة.

وكان أن عمت البلاد المظاهرات في جميع الأقاليم، وسقطت حكومة النقراشي تحت "مطارق" قضية السودان، وتألفت حكومة أخرى برياسة مصطفى النحاس باشا استجابة لمطالب الشعب، فقد كان الوفد المصري إلى ذلك العهد قائد الشعب بلا نزاع.

---

[1] انظر: **الكتاب الأخضر**، الصادر عن وزارة الخارجية المصرية .

وأيقنت القيادة المصـــرية أنه لا أمل في المفاوضـــات مع بريطانيا، وخاصـة أن رئيس وزراء بريطانيا المستر كلمنت أتلي قد أعلن في آخر تصـريح له في البرلمان البريطاني أنه "لا تغير في أوضـاع السـودان ولا تراجع عن حق السودان في تقرير مصيره"– وكان حق تقرير المصير هو الحجة التي تتذرع بها بريطانيا لتوكيد الانفصال بين مصر والسودان.

وحزم حزب الوفد أمره، فدعا "صـــاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل مصـطفى النحاس باشـا"، إلى جلسـة خاصـة للبرلمان المصـري، وفي جو بالغ الحماسـة والروعة، أعلن رئيس الحكومة المصـرية باسم الشـعب المصـري إلغاء "الاتفاقية المصـرية البريطانية" وهي التي كان وقعها النحاس باشـا بنفسـه عام 1936، وختم خطابه بين التهليل والتكبير، والتصفيق والهتاف، بكلمته الشهيرة.. "لقد وقعت المعاهدة في عام 1936 من أجل مصـر .. ومن أجل مصـر فانني اليوم أعلن إلغاء المعاهدة".

وكان إلغاء المعاهدة من جانب مصـر معناه إلغاء جميع "المزايا" التي حازتها بريطانيا بموجب تلك الاتفاقية وأصـبح وجدودها في مصـر والسـودان وجودها غير شرعي واحتلالاً غير شرعي يجب أن يزول وأن يزال.

ولكن ما هو أهم من ذلك كله أن النحاس باشـا قد أعلن في بيانه السـياسـي أن صـاحب الجلالة الملك فاروق هو ملك مصـر والسـودان " وبذلك أخذ الشعب في وادي النيل على نفسه ان يقيم الوحدة بنفسه.. رضيت بريطانيا أو لم ترض.

وامتلأ العام التالي من صـيف 1951 إلى صـيف 1953 بالأحداث والاضطرابات، وجاءت ثورة 23 يوليو، وانتهى العهد الملكي في مصر، وانتهت

معه الأحزاب، وانتقل زمام الأمر إلى مجلس قيادة الثورة المصـرية، لينتهي عهد ويبدأ عهد .. ولا بد لنا قبل أن نرصد مسيرته أن نرصد حركة الوحدة في الشطر الثاني من وادي النيل.. في السـودان، بعد هذه اللمحة الموجزة عن الحركة في مصر.

وقد يخيل للمواطن العربي، لأول وهلة وقد استعرضنا التحرك المصري على الصـعيدين القيادي والشـعبي أن السـودان كان في عزلة من هذه الحركة يراقبها ويواكبها، سامعا ومتفرجا، دون ان يكون مشاركا في تفاعلاتها وتحركاتها.

ذلك ظلم فادح للسـودان.. إذا ظننا أن دوره في الحركة الوحدوية كان دور التابع، السـامع الخاضـع، ينتظر أن يصـبح ملك مصـر.. هو ملك مصـر والسودان، وكفى الله المؤمنين النضال والقتال..

على العكس من ذلك تماما، لقد كانت الحركة الوحدوية متأججة في السـودان تأججها في مصـر، ومع اختلاف الظروف السـياسـية التي كانت تمر بالقطرين، فقد كانت مصـر "تتمتع" بنصـف اسـتقلال، وكان السـودان "يتمتع" بالاحتلال .. كامل الاحتلال..

وكانت وحدة وادي النيل في السودان تعيش في ضمير الجماهير، وفي عقل القيادات السـياسـية والفكرية،رغماً عن أن "حكومة" الحاكم العام البريطاني في الخرطوم كانت تقوم بمحاولات يائسـة لبناء "القومية السـودانية وتعمل على "سـودنة السـودان" وإنشـاء الحكم الذاتي في السـودان، ورفع مسـتوى الشـعب السـوداني لتمكينه من "حق تقرير المصـير" وما إلى ذلك من الشـعارات الحلوة والعبارات العذبة..

وكان الرفض، والرفض المطلق، هو نصـــيب هذا الجهد البريطاني المســتميت، فقد اجتمع المفكرون والمثقفون وقادة الســودان في مؤتمر عام، في عـام 1943، عرف بمؤتمر الخريجين، فـدعـا إلى إنهـاء الحكم البريطـاني والاعتراف بحق السودان في الحرية والاستقلال، ونادى بقيام حكومة ديمقراطية في الســودان تكون متحدة مع مصــر، توكيدا واســتجابة للروابط التاريخية التي تجمع بين شـــعبي وادي النيل .. وكان هذا المؤتمر بمثابة تجمع وطني عام تلاقت فيه جميع النزعات الســياســية التي تختلج في صـــدور أبناء الســودان جميعاً.

وجاءت بعد ذلك مرحلة بروز الأحزاب السياسية في السودان في عامي 1943 – 1944 وأعلنت الأحزاب عن برامجها وأهدافها الوطنية، وبدا واضـــحا أنها كلها تلتقي على وحدة وادي النيل التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض .. حتى أنه ليصح ان نسميها بالأحزاب الاتحادية..

ومثلا، فإن حزب الأشـــقاء، كان يدعو إلى قيام حكومة ســـودانية ديمقراطية ينشأ بينها وبين مصر اتحاد تحت التاج المصري، بحيث يكون ملك مصر هو ملك مصر والسودان معاً.

وفي أكتوبر 1944 تأســـس حزب اتحادي آخر، عرف باســـم حزب الاتحاديين، وقد نادى بالاتحاد مع مصـــر في إطار نظام "الدومنيون" .. وقد عارض حزب الأشقاء هذه الصيغة الهزيلة لأنهم رأوا في نظام "الدمنيون"، علاقة التابع بالمتبوع، تماما مثل علاقة "الدومنيون بالتاج البريطاني"..

ثم نشأ حزب اتحادي ثالث عرف باسم حزب الأحرار، وقد نص برنامجه أن تكون العلاقة بين مصـــر والســودان اتحادية ولكن على أســاس كونفدرالي، وهو دون الصيغة الفدرالية، وهذه دون الصيغة الوحدوية.

ولكن النزعة الوحدوية في السودان كانت من العراقة والأصالة بحيث لا تقبل هذه المفارقات في صـــياغة الوحدة، لشـــعب واحد يقيم في وطن واحد، ويتطلع إلى مســتقبل واحد، انطلاقا من ماض واحد، فكان أن اجتمعت الأحزاب الثلاثة واتفقت على صـيغة وحدوية واحدة، فوضـعت ميثاقا سـياسـياً اعلنته على شـكل قرار ينص على "قيام حكومة سـودانية ديمقراطية تكون متحدة مع مصـر تحت التاج المصري".

وفي أكتوبر 1945 قطعـت الوحـدة خطوة كبرى على الطريق بحيـث أصـبحت تعبر عن جميع قطاعات شـعب السـودان فقد عقد اجتماع وطني كبير ضـم ممثلي جميع الأحزاب في السـودان وصـدر عن الاجتماع ميثاق قومي يدعو إلى إقامة حكومة ســودانية ديمقراطية حرة متحدة مع مصـــر وتعقد بينها وبين بريطانيا معاهدة تحالف .. وقد أكتســـب هذا الاجتماع الوطني أهمية خاصــة، لأن حزب الأمة ، وكان متهما بميوله الانفصــالية، قد اشـترك في هذا الاجتماع ووافق على قراراته، وبذلك أصـبحت وحدة وادي النيل مطلبا جماعيا . ليس فيه ناشز ولا شاذ..

ولم يقف التطور الوحدوي عند حدود هذه الصـــياغة الجديدة، ففي أكتوبر من عام 1946 أنشـــيء حزب (وحدوي) لا "اتحادي" دعا إلى إقامة الوحدة الشـاملة بين القطرين الشـقيقين، وأعطى لنفسـه أسـما واضـحا يدل على هدفه الواضح فسمي حزب "وحدة وادي النيل".

ولم يقتصـر أمر الوحدة على إعلان الأهداف والشـعارات، بل تعداه إلى الممارسات العامة والنشاطات الوطنية، وتمثل ذلك في المظاهرات والاجتماعات، والوفود والندوات، هذا بالإضافة إلى الاتصالات الدولية عند كل مناسبة.

ومن أطرف الأحداث وأبلغها في الدلالة على عمق الروح الوحدوية بين الشعبين الشقيقين أن أحد السودانيين المعروفين، وهو محام وصحافي، الأستاذ علي البرير، وكان صـاحب جريدة ترفع شـعار، "نيل واحد، شـعب واحد، تاج واحد"، رشح نفسه – أكتوبر 1944، في الانتخابات المصرية عن دائرة عابدين في القاهرة.. فاشـتعلت حماسـة الجماهير لهذه البادرة الوطنية وامتلأت شـوارع القاهرة بالمظاهرات تأييداً وترحيبا بالمرشـح السـوداني، وخرج طلاب الجامعات في مسـيرات قومية يهتفون للنائب علي برير قبل أن يتم انتخابه، واضـطرت السـفارة البريطانية بما كان لها من نفوذ عظيم في ذلك الوقت، إلى لفت نظر القصـر والحكومة إلى أن السـيد علي برير ليس مسـجلا في سـجل الناخبين المصـريين، وأن ترشـيحه وانتخابه يعتبر عملا غير قانوني، ومخلا بالاتفاقات المصرية البريطانية.

وتدخل "العقلاء" والبارعون في الصـياغات والتسـويات، فانتهى الأمر بعدول المواطن السوداني عن ترشيح نفسه "حقنا للدماء وتوطيدا للأمن والهدوء والسـكينة" وأصـدر السـيد البربر بيانا أكد فيه "التمسـك بمبدأ وحدة وادي النيل الذي لا يمكن النيل منه، وأن كل سـوداني له نفس حقوق ونفس واجبات كل مصـري"[1] و لولا التدخل البريطاني وسـيطرة المندوب السـامي البريطاني على شـئون مصـر في ذلك العهد، لأصـبح البرلمان المصـري يضـم أبناء مصـر

---

[1] **جريدة الأهرام**،1944/12/26.

والسـودان، وأصـبح مجلس الوزراء في القاهرة يضـم أبناء القاهرة وأبناء الخرطوم على السواء..

وهكذا ظل صـوت الوحدة يتردد في جنبات النيل تحمله نسـمات الوادي من الشـمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشـمال إلى أن انغمر تحت فيض من شـعارات كبرى رفعتها ثورة 23 يوليو، وانحسـر المد الوحدوي ليحل محله انفصـال السـودان عن مصـر، وقيام النظام الجمهوري في كل من البلدين الشقيقين.

لقد تصدت ثورة 23 يوليو لأهداف شاقة وصعبة : القضاء على النظام الملكي، استئصال الإقطاع، وإحلال النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي .. وفوق ذلك وقبل ذلك، إجلاء الاسـتعمار البريطاني بعد أن جثم على صـدر مصر قرابة سبعين عاماً..

كانت هذه الأعباء ضـخمة وثقيلة، ولعل الثورة أرادت أن تخفف من أعباء الوحدة مع السودان ولو إلى حين، حتى تقبل عليها قوية متعافية، ولم يكن من السـهل مواجهة بريطانيا بجميع المطالب الوطنية دفعة واحدة، واختارت مصـر الثورة شـعار "تقرير المصـير" للسـودان، وفي حسـابها أن هذا الشـعار سيؤدي عاجلا أو آجلا إلى وحدة يختارها السودان عن طريق حكومة سودانية مسـتقلة منبثقة من إرادة الشـعب، على حين أن تقرير المصـير يحتمل أن يكون ثغرة كبرى في جدار الوحدة، لا يستبعد أن يؤدي في النهاية إلى الانفصال تحت ظلال الاستقلال.

والسودانيون أنفسهم لم يكونوا يرون في حق "تقرير المصير" خطوة على طريق الانفصـال، فالكثرة الكبرى من الأحزاب السـودانية تنادي بالوحدة.. حتى

اليساريين الذين تثور التساؤلات حول موقفهم من الوحدة العربية بصورة عامة، لأن الوحدة العمالية لا الوحدة القومية هي الهدف عندهم، فقد كانوا يعلنون أن حق تقرير المصير سيفضي إلى الوحدة حتما .. وهذا رئيس جريدة ام درمان المعروف بيساريته قد كتب يقول " لست من الذين يعتقدون بأن القول بحق السودان في تقرير مصيره معناه الخروج من نطاق دائرة الوحدة التي نعمل لها جميعا، بل أقرر أنه خير لهذه الوحدة الغامرة أن تأتي عن طواعية ورضى واختيار من أن تأتي قسرا ومن غير رضى واختيار، ولا أعتقد أن في هذا الجزء من وادي النيل من يقول بغير ذلك .."[1]

وكائنا ما كان الأمر ، فقد سلكت ثورة 23 يوليو، لأسباب يحتاج تمحيصها إلى دراسة مستقلة، سبيل "تقرير المصير" فتم الاتفاق مع السودان على هذا الأساس، وتبعه اتفاق مع بريطانيا على إلغاء الحكم المشترك، البريطاني المصري على السودان في فبراير 1953 .. وجرت الانتخابات في السودان في نوفمبر 1953 وكان الظفر حليف الاتحاديين تحت زعامة الأستاذ إسماعيل الأزهري، فألف أول حكومة سودانية في أوائل 1956 وصار السودان جمهورية مستقلة، وأصبح العضو التاسع في جامعة الدول العربية، والسابع والسبعين في الأمم المتحدة.

وانطوى علم الوحدة على نفسه يتطلع إلى قيادات مصرية سودانية تحمله أمام الشعب ليستأنف مسيرة الوحدة مرة ثانية، وتقوم جمهورية وادي النيل من أجل خير الشعبين ومن أجل خير الأمة العربية جمعاء.

---

[1] جريدة **أم درمان**، 1945/5/31.

ولقد حرصـــت على أن أوجز أمام المواطن العربي بصـــورة عامة، والمواطن في وادي النيل بصورة خاصة تاريخ النضال الوحدوي في وادي النيل، لا لمجرد ســرد الأحداث والوقائع، ولكن ليعلم أبناء الجنوب والشــمال في وادي النيل، أن وحدة القطرين الشـــقيقين كانت قائمة منذ فجر التاريخ، ففي عهد الفراعنة، ثم في عهود الأمويين والعباســـيين والفاطميين والأمويين والعثمانيين، كان القطران الشــقيقان بلدا واحداً، تحت حكم واحد.. ولم يقع الانفصـــال بينهما إلا في فترة وجيزة في عهد الاحتلال البريطاني، وفي هذه الفترة التي نعيشـها في عهد الاستقلال.

وأحسـب أن كثيرين من الجيل العربي الصـاعد، قد حجب الحكم العربي المعاصـر عنهم تاريخ تلك الحقبة، وأخشــى أنهم لا يعرفون أن وحدة وادي النيل كانت قائمة منذ كان وادي النيل، وأن النضـــال من أجل الوحدة قد خاضـــه الشـعبان الشـقيقان، وسـقط في ميدانه الشـهداء قافلة بعد قافلة، وأن الحديث عن الوحدة ليس ابن هذه الساعة ولكنه وليد العصور ويجب أن يطرح مرة ثانية على ساحة النضال القومي..

ثم إن العرض الموجز لوحدة وادي النيل منذ أقدم عصـــور التاريخ إلى يوم الانفصـــال، يضـــع مســئولية كبرى على عاتق الطلائع الوطنية في كل من مصـــر والســـودان بأن يناضـــلوا لإقامة جمهورية وادي النيل، بدلا من جمهورية مصـــر وجمهورية الســـودان، فقد ارتحل الاســـتعمار البريطاني الذي كان احدى العقبات الرئيســية التي كانت تحول دون وحدة وادي النيل، فإن بقاء التجزئة بين شـطري الوادي هو عار في تاريخ الشـعبين الشـقيقين، تتحمل مسـئوليته القيادات الفكرية والنقابية والصحافية في كلا البلدين.

إن وحدة وادي النيل ليست حكم مصر للسودان، أو السودان لمصر، إنها وحدة الشعب الواحد في الوطن الواحد، تقوم فيه المواطنة بين أبناء الوادي على أساس قدرة المواطن على خدمة الوطن وأن أفضلكم في وادي النيل هو أقدركم على خدمة وادي النيل.

ولو أراد المواطن العربي أن يستعرض أحوال الشعوب في العالم، شعباً شعباً فإنه لا يجد شعبين جديرين بالوحدة، ومحتاجين إليها حاجة الصحراء إلى الماء أكثر من مصر والسودان، فالبلدان يكمل بعضهما بعضاً في مضمار التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولا سبيل لحل مشاكلهما وما أكثرها، إلا بالوحدة.

ويكفي أن نعلم أن مصر غنية بالخبرات والطاقات البشرية، وأن السودان غني بمصادره الطبيعية التي لا حد لها، وتوحيد هذا وذاك يجعل من وادي النيل مصدر خير ورفاه لأهله وللأمة العربية بل للعالم أجمع.

إن الأمة العربية تستورد الكثير من المواد الغذائية من كافة أقطار الأرض.. ووحدة الوادي كفيلة بأن تطعم الأمة العربية، ولا تقع تحت استعمار "غذائي" لهذه الدولة أو تلك، كما هي رازحة الآن، تحت رحمة لحوم الأرجنتين المثلجة، والقمح الأمريكي المثقل بالشروط الصامتة.

ولقد يفلسف البعض في مصر وفي السودان بقاء هذا الحال تحت شعار التنسيق، والتعاون الثنائي المشترك وصولا إلى الوحدة.. وأن الأمر يحتاج إلى دراسة علمية موضوعية.. وأن تجارب الوحدة العربية الماضية تنهانا عن الوحدة الفورية، وما إلى ذلك من العبارات المليئة بالتمجيد بالوحدة في الدساتير والخطب والقصائد والأناشيد، ومن ثم ممارسة الحكم الانفصالي وتعميق جذوره،

وأسـوأ من ذلك غربة السـوداني في مصـر، والمصـري في السـودان... وهي السـياسـة التي وضـعها الحاكم البريطاني في السـودان وأصـبح ينفذها الحاكم "الوطني" في القاهرة والخرطوم.

لقد ولى الاستعمار البريطاني الذي فصل مصر عن السودان، والسودان عن مصـر، ويجب أن يعود وادي النيل إلى وحدته، وعلى الجيل الصـاعد في القطرين الشقيقين أن يكون جيل النضال من أجل الوحدة.

وكما جرى في الماضـي، يجب أن ينزل الشـعب إلى الميدان في القاهرة والخرطوم ليفرض الوحدة فإذا كان النيل هو حياة مصـر والسـودان، فإن الوحدة ستجعل الشريط الأخضر حول النيل أكثر اتساعا وإنتاجاً وعمراناً.

وكما جرى في الماضـي، حين كانت تتسـاقط الوازرات واحدة بعد الأخرى يوم تقاعسـت عن مواكبة مسـيرة الوحدة.. فليس للحاكم أن يبقى في دسـت الحكم في هذه الأيام إذا لم يحمل راية الوحدة، ويمضـي في بنائها ويقيم صرح الجمهورية العتيدة، جمهورية وادي النيل.

إن وحدة الشـعبين الشـقيقين، كمجرى النيل نفسـه، قد شـقت طريقها عبر التاريخ واسـتقرت عميقا في قلوب الجماهير، ولا يمكن أن يقتلعها واقع انفصـالي عمره بضعة عشر عاما، وراءه قرون وقرون من الوحدة.

ولقد شـهدت بنفسـي عراقة الوحدة، في الخرطوم في عام 1967، وكان ذلك لمناسـبة انعقاد مؤتمر الخرطوم، فقد تدافع شـعب السـودان بالمناكب، وهم يصيحون في وجه الملوك والرؤساء "شعب واحد، جيش واحد".[1]

---

[1] أحمد الشـقيري، **الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤسـاء** ، فصـل مؤتمر الخرطوم في الجزء الثاني.

كان ذلك بعد الهزيمة النكراء..ومع هذا فقد خرج الشـــعب من أحزانه ودعا إلى الوحدة من غير تعبئة ولا توعية.

لقد كانت مظاهرة قومية كبرى، عفوية غير مرتجلة. مظاهرة من غير طراز المظاهرات التي تشكلها الحكومات العربية، وتقدم لها اللافتات والسيارات وتحشد لها الهاتفين والمزغردات..

أجل لقد كانت مظاهرة الشعب تردد مشيئة الشعب.. "شعب واحد، جيش واحد".

وبعد فإن كل دواعي الوحدة قائمة بين القطرين الشـــقيقين، ولا يبقى إلا القائد والطلائع وانه قادم.. وانهم قادمون .. وليس الشعب بعقيم ولا ضنين..

ويا شباب مصر، ويا شباب السودان، إن جمهورية وادي النيل تناديكم وماء النيل حرام عليكم إذ لم تلبوا النداء..

وإنها لعبادة حقا أن تقولوا لبيك اللهم لبيك، فإن جمهورية وادي النيل هي أولاً .. وأولاً جمهورية وادي النيل.

علـم واحـد..

وعشرون نجمـة

لقد وقفنا بعض الشـــيء أمام وحدة وادي النيل لذاتها ولأخواتها، فإن الروابط التاريخية التي تجمع بين شـــطري الوادي هي الروابط التاريخية نفســـها التي تجمع بين أقطارنا في المغرب العربي، وأقطارنا في المشرق العربي، وكذلك في شـــبه الجزيرة العربية.. والأقطار العربية كلها يجمعها إطار واحد من الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج.

ولأن الوحدة العربية، وبالتخصيص، لأن الدولة العربية المتحدة لا يمكن أن تقوم بين عشية وضحاها فإن الأخذ بسياسة التدرج والمراحل هو الذي يحمل على الســـعي إلى الوحدة العربية الشـــاملة في إطار (الاتحادات) الكبرى، ومن هنا كانت دعوتنا إلى قيام جمهورية وادي النيل بين مصـر والسـودان، ثم تتبعها أو تواكبها اتحادات أخرى في المغرب العربي الكبير، في المشـرق العربي، وفي شبه الجزيرة العربية.

والواقع أن تاريخ وحدة وادي النيل يكاد أن يشـــبه تاريخ الوحدة للمغرب العربي الكبير، فإن أقطار الشـــمال الإفريقي، ابتداء بليبيا، فتونس، فالجزائر، فالمغرب، فموريتانيا، وهي أربع جمهوريات وملكية واحدة يجمعها تاريخ مشـــترك منذ أقدم العصور، فقد كانت ساحة واحدة تفاعلت على أرضها أحداث مشتركة.

والوجود العربي في الشـــمال الإقريقي يرجع إلى عهد الفينيقيين، وهم قبائل عربية خرجت أصـلاً من الجزيرة العربية واسـتقرت في سـواحل بلاد الشـام ومنها نزحت إلى الشمال الإفريقي فأنشأت تجارة وحضارة، ثم أقامت دولة كانت عاصـمتها قرطاجنة امتد سـلطانها إلى شـواطىء الأطلنطي، وقامت بينها وبين روما معارك طاحنة وصراع على السيادة البحرية في البحر الأبيض المتوسط.

ثم جاءت الموجة الثانية للوجود العربي، بالفتح الإســـلامي للشـــمال الإفريقي، وقامت الدولة العربية الإســلامية، وتبعتها موجات عربية متعاقبة جيلا بعد جيل، وكان المغرب العربي في جملته تحت الحكم العربي الواحد في عهد الراشدين فالأمويين، والعباسيين والفاطميين إلى أواخر العثمانيين.

وكذلك، فحينما تفتت الحكم العربي في الوطن العربي بأسره، وجاء عهد الدويلات الصــغرى بقي الحكم العربي واحدا في الشــمال الإفريقي يحكمه ملوك العرب في الأندلس، ومن بعدهم الموحدون والمرابطون.

وكانت تونس عند الجغرافيين العرب الأوائل، هي "إفريقية" وكذلك فإن موضــوع البربر، وهم من قبائل العرب القديمة، يتناول الشــمال الإفريقي بأســره بدءاً بليبيا وانتهاء بموريتانيا، والصـــراعات على الحكم بين الملوك والأمراء في الشـــمال الإفريقي، كان لها طابع واحد في المغرب العربي الكبير، ترك آثاره العميقة على المجتمع العربي من بني غازي شرقا إلى طنجة غربا.

ومن هنا فإن الروابط المشـــتركة التي تجمع المغرب العربي الكبير، تتوافر في أقطاره وشـــعوبه أكثر مما تتوافر على الشـــاطئ المقابل من البحر الأبيض المتوســط، حيث قامت دول وحدوية، في إســبانيا، والبرتغال، وفرنســا، وإيطاليا، وتلك بلاد لا تزال الفوارق بين شـــعوبها حادة وعميقة، والدعوة إلى الانفصال بين بعض أقطارها تتردد من حين إلى حين، وإلى يومنا هذا.

ومع تلاحم هذه الروابط بين أقطار المغرب العربي الكبير، فإن قيام جمهورية وادي النيل ســـيكون بمثابة الدولة القطب، تســـتقطب الدول العربية الأخرى.. الصـــومال في الجنوب .. وليبيا في المغرب.. ويقيني أن الجمهورية العربية الليبية ســتكون أول دولة تبادر للانضــمام إليها، بل قد تنضــم إليها في

مرحلة تأسيسها، ذلك أن ليبيا هي امتداد طبيعي للحدود الغربية لمصر والسودان معاً.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن وحدة المغرب العربي الكبير، لم تنفصم إلا بعد الاستعمار الأوروبي الفرنسي في موريتانيا ومراكش والجزائر وتونس، والإيطالي في ليبيا، وعمر هذا الانفصال إذا قيس بعمر الوحدة فإنه يؤلف واحدا من ألف.. والمهم على كل حال فإن هذا الاستعمار، رغما عن جهوده الضارية، لم يستطع أن يغير ملامح المجتمع العربي وسماته في "شعوب" المغرب العربي .. فبقي دينه هو هو وبقيت تقاليده وثقافته وروابطه هي هي ..

ولو أن المواطن العربي أراد أن يستعرض الروابط التاريخية التي تشد المغرب العربي بعضه إلى بعض لم يتردد لحظة واحدة ان يصيح في وجه الجيل المغربي الصاعد، وماذا تنتظرون، لقد تحقق الاستقلال فلماذا لا تتحدثون؟

ولقد كان المناضلون الجزائريون والتونسيون والمغاربة والليبيون يتطلعون دوما إلى وحدة المغرب العربي بعد الاستقلال .. ففي القاهرة كان مكتب تحرير المغرب العربي يضم جميع المناضلين في الشمال الإفريقي يعملون معا في ميدان النضال للاستقلال كمرحلة أولى في سبيل الوحدة، وقد تعاهدوا فيما بينهم لإقامة دولة المغرب العربي الكبير.

وعلى وجه التحديد فإن الثورة الجزائرية، وهي من أروع مفاخر العرب في التاريخ العربي المعاصر، تعتبر حركة تحريرية ووحدوية معاً، ففي البيان التاريخي الأول لثورة الجزائر المؤرخ أول نوفمبر 1954[1] أعلن قادة الثورة أن

---

[1] البيان الكامل للثورة الجزائرية نشرة وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية.

تحرر الجزائر هو خطوة أولى نحو "وحدة الشـمال الإفريقي"، ومن حق المواطن العربي في المشرق والمغرب على السواء، أن يتساءل باسم المليون شهيد الذين سـقطوا في ميادين الجهاد في الجزائر، ماذا جرى بوحدة الشـمال الإفريقي.. لقد تحقق هدف التحرير، فماذا جرى للهدف التوأم.. وحدة المغرب العربي. ثم أن المغرب العربي، وبعد أن تم اسـتقلاله بأكمله، بقي النزوع إلى الوحدة يراود آمال المناضـلين، ففي 27 نيسـان 1958 انعقد في طنجة مؤتمر وحدوي اشـترك فيه عدد من زعماء حزب الاستقلال (المغرب) وحزب الدستور الجديد (تونس) وقادة جبهة التحرير الجزائرية، وحضـــره مراقبون عن ليبيا وموريتانيا، وكان مع وفدي تونس والمغرب وزراء من الحكومتين.. وفي نهاية المباحثات أصـــدر المؤتمر قرارا بالإجماع يدعو إلى العمل على وحدة المغرب .. وأعلن الســـلطان محمد الخامس في أعقاب المؤتمر مباشـــرة "أن وحدة الشـــمال الإفريقي هي من أعز أمانينا ونحن الآن ندخل مرحلة تحقيقها".. وأعلنت حكومتا ليبيا وتونس تأييدهما لمقررات المؤتمر.

وبعد ذلك توقف السـعي للوحدة في المغرب العربي، إلا من تصـريحات رسمية تصدر في مناسبات معينة، وأغلب الظن أنها غير جادة، ولا يقصد منها الا استدرار التصفيق والهتاف من الجماهير التي تهزها لفظة "الوحدة" ومشتقاتها كلما رددها الحاكمون.

ومن هنا أصـــبح عبء الوحدة في المغرب العربي واقعا على شـــبابه وطلابـه، وعلى قـادة الفكر والقوى الوطنيـة.. ذلـك أن الحكـام القـائمين قـد نفـد زيتهم، واســـتغوتهم شـــهوة الحكم، فلم يعودوا يفكرون في الوحدة.. بل إنهم باتوا

يفلسفون تقاعسهم بأن طريق الوحدة هو أن يبني كل شعب وطنه.. وبعد ذلك تأتي الوحدة مختالة تجر أذيالها.!!

هذا "المنطق" يفضح نفسه بنفسه، وعلى الجماهير العربية في المغرب العربي أن ترفضه وأن تثور عليه، وعلى الجيل العربي الصاعد أن يعتبر نفسه جيل الوحدة يناضل من أجلها، ذلك أن الوحدة هي التي تبني حياة المغرب العربي في مجموعه، اقتصاديا واجتماعيا.. ومنطق الحكام إنما يعمق جذور الانفصال، فهو يبني اقتصاداً إقليمياً، ومجتمعا منعزلاً، ومغربا مهلهلا.

إن إقامة جمهورية المغرب العربي مؤلفا من ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا هي بلا شك لخير الشعب العربي في المغرب كله، باستثناء حكامه ووزرائهم، وطبقة المنتفعين بالتجزئة والانفصال، وعلى الجيل العربي الصاعد أن يجعل من الوحدة نضاله اليومي وهدفه الأول والأخير.

وفي صدد الكلام عن إقامة وحدة المغرب العربي، ليس علينا ان نتساءل عن الموقف من المملكة المغربية، وكيف يمكن أن يقوم اتحاد مع نظام ملكي ولا أظن أن الأمر يحتاج إلى جواب مستفيض، فإذا قامت وحدة المغرب العربي من ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا فإن معارضة الحسن الثاني ستنتهي في اليوم الثاني .. ذلك أن الشعب المغربي سيعلن الانضمام إلى الاتحاد.. وسيرتفع علم المغرب العربي على الشمال الإفريقي من حدود مصر، إلى شواطئ الأطلنطي، وتستقبل الأمة العربية مرحلة جديدة في حياتها القومية وتنعم الجماهير العربية بالكفاية والعدل، بعد عهود طويلة من الظلم والحرمان.

وننتقل ثالثا إلى الجزيرة العربية، وفي هذه الرقعة الرحبة من الوطن العربي تقوم ثماني كيانات سياسية مستقلة هي: جمهوريتا اليمن، والمملكة

العربي الســـعودية وخمس دول صـــغرى وهي: اتحاد الإمارات، قطر، الكويت والبحرين، وعمان.. ويبلغ ســكان هذه الكيانات الثماني أقل من عشــرين مليون نسـمة، وهو عدد سـكان إحدى الدول الصـغرى في العالم، بل انه يسـاوي عدد ســكان ولاية وســطى في الولايات المتحدة، أو إحدى المقاطعات في دول الهند الاتحادية.

غير أن نظرة مقارنة لعدد السكان في هذه الدول العربية الثماني تضـعنا امام صـــورة مذهلة .. مثلا، أن ســكان الدول الخمس: الكويت وقطر والبحرين وعمان والإمارات يبلغ ثلث سكان القاهرة.. وأن سكان الجمهوريتين اليمنيتين معا يبلغ عدد ســكان القاهرة.. بل ان ســكان المملكة العربية الســعودية بكاملها لا يتجاوز عدد سـكان القاهرة إلا ببضـعة آلاف، ومع هذا فإن القاهرة بدورها، هي عاصـــمة وســـطى بين عواصـــم العالم الأخرى!! ولكن قيمة المملكة العربية الســـعودية تتمثل في ثروتها البترولية العملاقة، لا بعدد ســـكانها، ناهيك عن مركزها المرموق في العالم الإسلامي..

وهذه الأرقام تصـيح في وجه المواطن العربي في الجزيرة العربية، ولماذا هذه الدول الثماني، لماذا الجمهوريات، والملكيات، والإمارات والمشـــيخات، في كل بقعة من بقاع الوطن العربي تصـــرخ كل فيافيها وصـــحاريها ونجودها ووهادها، إنها وحدة جغرافية واحدة؟.

وإذا كانت الظروف الاســـتعمارية، ومعها ظروف أخرى قد خلقت هذه الدول الثماني، فقد رحل الاسـتعمار، فلماذا يرضـى المواطن العربي أن تقوم في جزيرته الواحدة ثماني دول مستقلة،تحكم شعبا واحدا، متماثلا في بيئته وتقاليده، بالإضافة إلى حاجاته وتطلعاته.

وليس هنالك من حل وحدوي جذري لهذه المشـــكلة برمتها في الظروف الحاضـــرة، ولكن قيام (اتحاد الجزيرة العربية) يضـــم الســـعودية وأخواتها قطر والكويت وعمان والبحرين والإمارات واليمن الشـــمالية والجنوبية، من شـــأنه أن يحل معظم المشـــكلة، إلى أن تتحرك الأحداث وينبثق الحل الوحدوي الأمثل الأكمل..

إن هذه الأقطار الثمانية ذات نظم متشـــابهة في الحكم، وقيام اتحاد بينها أمر ليس بالعســـير، إذا تجمع المواطنون العرب في تلك الأقطار، وحزموا أمرهم على قيام هذا الاتحاد .. وهو اتحاد سـيعم نفعه على أبناء الجزيرة العربية من عدن وصنعاء إلى الكويت شمالاً، ومن جدة إلى رأس الخيمة شرقا..

لقد كانت الجزيرة العربية في مطلع القرن العشـــرين مؤلفة من عشـــرات المشـــيخات والإمارات .. وكان للفروســـية العربية يومئذ بقية باقية، فنهض عبد العزيز آل سعود ليحقق طموحاته بفتوحاته، فأصبح أمير الرياض، ثم أمير نجد، ثم ســـلطان نجد وملحقاتها، وملك الحجاز وأخيرا، وفي 18 ســـبتمبر 1932، أصـــدر الملك عبد العزيز آل ســـعود أمراً ملكيا رقمه 2716 جاء في ديباجته "نزولا على رغبة الرأي العام في بلادنا وحبا في توحيد أجزاء هذه المملكة العربية الحجازية النجدية وملحقاتها إلى اسم المملكة العربية السعودية" وهكذا توحدت معظم أراضـــي الجزيرة العربية، في حكم واحد من شـــواطئ البحر الأحمر حتى شواطئ الخليج.

وإذا كان زمن الفروســية الفردي قد انتهى أمره فإن المواطنين العرب في الســـعودية وأخواتها يقع على أكتافهم دور بطولي من طراز جديد ليبنوا اتحاد الجزيرة العربية بنضالهم الدؤوب ، بكل إيمان وعزيمة.

وإن الظروف الحاضـــرة تلح على المواطنين العرب وقادتهم في تلك الأقطـار أن يبـادروا إلى أداء واجبهم الوحـدوي، فـإن الخطر محـدق بمنطقـة الخليج، والأطماع الدولية تعد خططها للوثوب على تلك الأقطار، وأن اتحاد الجزيرة العربية هو الذي يسـتطيع أن يتصـدى لهذه الأطماع، وأن يحمي الوطن أرضـا وشـعبا وبترولاً ، ولن تسـتطيع هذه الدول الثماني، منفصـلة بعضـها عن بعض، أن تحمي نفسها، ولا الجزيرة بمجموعها.

وننتقل رابعا إلى المشـــرق العربي، ويبدأ من شـــواطئ البحر الأبيض المتوسـط غربا حتى الخليج العربي شـرقا، وفي هذه الرقعة من الوطن العربي تقوم الآن جمهوريات لبنان وسوريا والعراق والمملكة الأردنية الهاشمية وفلسطين المحتلة، وقد رأينا في الفصـول السـابقة أن المشـرق العربي لم يكن بذاته كيانا مســـتقلا عن الوطن العربي، وما كانت في داخله كيانات أو حدود.. وهو منذ أقدم العصـــور ســـاحة تاريخية واحدة في الســـلم وفي الحرب، في الازدهار والانحطاط ، وأخيراً في الاحتلال والاستقلال.

وهذه الدول القائمة حديثة العهد، بدأت "حياتها" الانفصـــالية تحت الانتداب الفرنســـي والبريطاني في أوائل العشـــرينات، وظفرت باســـتقلالها في أواســـط الأربعينات..وكانت قبل ذلك مباشـــرة تؤلف بضـــع ولايات في الدولة العثمانية، تحكم كما تحكم المديريات والمحافظات القائمة في الوطن العربي اليوم..

وإنه لصـــحيح أن المشـــرق العربي كان تحت ســـيادة الدولة العثمانية، ولكنه كان وحدة متكاملة، والمواطنون فيه ينتمون إلى هذه الوحدة الكاملة فهم أصحابها ، وجميعها لهم جميعا..

ومنذ أن قامت التجزئة في المشـــرق العربي، والدعوة للوحدة والاتحاد تطلق صـــيحاتها في كل مكان، والقيادات العربية تأخذ بزمام المبادرة وتطرح مشروعات محددة للوحدة مرة، وللاتحاد مرة ثانية.

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وأطلت معها فرصـــة الاســتقلال العربي، حتى انطلق الأمير (الملك) عبد الله يدعو إلى الوحدة الســـورية الكبرى فوجه(8 نيسـان 1943) نداء إلى الشـعب السـوري لعقد مؤتمر سـوري " خاص للبحث في وحدة البلاد الشامية.. ونرحب بعقده في عاصمة بلادنا". وفي 4 آب 1947 أذاع الملك عبد الله – وكان أصـــبح ملكاً– بياناً دعا فيه لتحقيق الوحدة في الديار الشامية والهلال الخصيب .. ولكن هذه الدعوة لقيت معارضـة شديدة في الأوسـاط العربية، فلم يروا فيها وحدة قومية صـحيحة، والداعي إليها معروف بصلاته مع بريطانيا، ودولته مكبلة بالمعاهدة البريطانية..

وقد تصـــدت الأســرتان، العلوية في مصـــر، والســـعودية في الحجاز، لمقاومة مشروعات الملك عبد الله، وحملت صحف البلدين على هذه المشروعات حملات شـديدة أثارت معارضـة كبرى في أذهان الرأي العام العربي, ولم تستطع المملكة العربية الســـعودية أن تكتم موقفها الرســـمي بهذا الصـــدد فقد أذاعت المفوضـية السـعودية بالقاهرة بياناً رسـميا جاء فيه: "إن المملكة العربية السـعودية تؤمن أن دعوة الملك عبد الله، منافية للقوانين الدولية ولميثاق هيئة الأمم المتحدة ولميثاق الجامعة العربية بنصـــه وروحه، وأنها تعتبره افتئاتا على حقوق ســـوريا وتعديا على نظامها الجمهوري".. وهكذا تصدت المحاور العربية بعضـها لبعض وأصبحت الوحدة العربية هي الضحية في النهاية.

وجاء بعد ذلك مشــروع الهلال الخصــيب الذي وضــعه نوري الســعيد (1943) على شكل مذكرة بعث بها إلى مستر "كيسي" وزير الدول البريطاني في القاهرة، وعرفت فيما بعد بالكتاب الأزرق، وقد نص المشــروع على "توحيد سورية الطبيعية: سوريا، لبنان، شرق الأردن، فلسطين وان تتحد سورية بعد ذلك بالعراق في عصــبة عربية تكن مفتوحة للدول العربية الأخرى إذا شــاءت." وقد نص المشــروع على أوضــاع خاصــة بالنســبة للموارنة في لبنان واليهود في فلسطين.

ولقي مشروع نوري السعيد ما لقيه مشروع الملك عبد الله من المعارضة لا بسبب معارضة محور القاهرة – الرياض فحسب .. ولكن بسبب تنافس عمان وبغداد فيما بينهما على "غنيمة" الوحدة .. أتكون للملك عبد الله الرابض على الأردن، أم للأمير عبد الإله الرابض على ضفاف دجلة..

وتعاقبت الأحداث بعد ذك، فأعلن الاتحاد بين مصــر وســورية متمثلا في قيام الجمهورية العربية المتحدة (فبراير 1958) وبعد أسبوعين (14 فبراير 1958) أعلن قيام الاتحاد بين الأردن والعراق، ثم أعلن قيام الدولة العربية المتحدة (آذار 1958) مؤلفة من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة اليمنية المتوكلية .. ووقعت بعد ذلك المأســاة العربية الكبرى بالانفصــال بين ســوريا ومصــر .. وأعقبها ميثاق الوحدة الثلاثي (نيسان 1963) بين مصــر وسوريا والعراق. ولكن هذه المحاولة الطموحة أزهرت وما أثمرت، شــأن كثير من المحاولات التي جاءت بعدها إلى حين انتقال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى جوار ربه.

ولقد تعثر قيام الوحدة في المشــرق العربي لأســباب شــتى تؤلف كتابا بمفرده، ولكن المهم أن يكون المواطن العربي على ثقة ويقين كاملين أن "الوحدة" لم تكن المسئولة عن الفشل الذي لحق بها .. فالوحدة بريئة من كل ما يجري ولا تزال مقوماتها ســـليمة، اليوم وغداً.. ولكن المســـئولية تقع على طائفة من الأشخاص ومجموعة من الممارسات، يخرج أمرها عن هذا الكتاب.

والآن .. الآن، قد زالت الملكية في العراق وقامت مقامها الجمهورية العراقية، وألغى العراق معاهدته مع بريطانيا وخرج من حلف بغداد، يثور السؤال الغامض، ولماذا لا تقوم الوحدة العراقية السورية، والروابط بين القطرين الشقيقين أكثر من أن تحصـــــى.. وآخر هذه الروابط أن البلدين يحكمهما الآن حزب البعث، صــاحب شــعار الوحدة، ومن غير هذا الشــعار دعوة وسـلوكا وتطبيقا، يزول عن حزب البعث سبب وجوده ودعوة نضاله..

إن قيادات البعث في البلدين، طلابا وشـــبابا وعمالا ومثقفين وجنودا، مدعوون إلى تجنب الجدليات و الصــراعات، ونســيان الجراحات، من أجل بناء الوحدة بين القطرين الشـــقيقين و إلا فإن الشـــعب العربي في حاجة الى بعث جديد يستأنف الطريق ويؤدي الرسالة.

ويوم تقوم هذه الوحدة، تنفتح الآفاق الرحبة أمام قيام جمهورية المشـــرق العربي بأسره من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي.. ولن يكون الأردن عقبة في طريق الوحدة.. وحينما يجد الشـــعب والجيش في الأردن نفســـه أمام الخيار: الوحدة أو لا وحدة؟ فســـيختار الأولى على الثانية.. وكما لا يســـتطيع الحســن الثاني معارضــة الوحدة في المغرب العربي فلن يســتطيع الحســين أن يصمد أمام الوحدة في المشرق..

ولبنان، كذلك لن يكون مشكلة .. إن في جعبة بعض اللبنانيين عشرات النظريات الجدلية للابتعاد عن الوحدة أي وحدة، ولكنه حينما يرى دولة الوحدة قائمة بين العراق وسوريا ، وأنها قائمة بواجباتها القومية، فانه سيطلب الانضمام إليها، لأن الوحدة هي المخرج الوحيد للبنان من كل مشـــاكله الاقتصـــادية والاجتماعية والدفاعية.. ولا ننســـى أن في لبنان عدداً كبيراً من الوحدويين من كل الطوائف والمذاهب .. ولو أن هذه الوحدة كانت قائمة قبل الحرب القذرة التي جرت في لبنان لما وقعت هذه المأساة العربية المروعة ..

وإني لأدعو المواطن اللبنـــاني أن ينبش معي محفوظـــات التـــاريخ السياسي الحديث، ليعثر على وثيقة هامة، بقيت سرية مدة طويلة،وهي المعروفة "بتقرير لجنة كينج كرين" التي كان أوفدها الرئيس ولســـن بعد الحرب العالمية الأولى إلى البلاد السورية لدراسة أحوالها والتعرف على رغبات أهلها..

وقدمت اللجنة إلى البلاد، وبعد زيارة المناطق المختلفة والاجتماع بممثلي الأهلين من كل الطبقات والطوائف ، وضـــعت تقريرا شـــاملا ، يذهل المواطن اللبناني بعد خمسين عاما، أن يقرأ فيه توصيات هامة تتعلق بلبنان،

يقول التقرير: "إن البلاد السورية (بما فيها لبنان) محدودة وعدد سكانها قليل جدا، ووحدتها الجغرافية والاقتصـــادية والجنســـية واللغوية واضـــحة بينة لا تحتمل إنشاء حكومات مستقلة ضمن حدودها. . وتكون الوحدة السورية أصح وأمتن إذا أعطي لبنان.. نوعا واســـعا من الاســـتقلال الإداري.. ويجب أن يعتقد لبنان بأن علاقته الاقتصادية والسياسية مع باقي سورية تكون وهو عضو في ســـورية أفضـــل منها إذا انفصـــل عنها انفصـــالا تاما.. ثم إن لبنان كبلاد أكثر سكانها مسيحيون يكون أقوى وأفيد إذا كان ضمن سوريا المتحدة مما لو كان

خارجها منفردا لوحده إذ يكون شريكا لها في منافعها ومصالحها الحيوية، ولذلك نرى أن تكون سورية ولبنان متحدين معا لفائدتهما، وهذا رأي اللبنانيين المتنورين أنفسهم".

هذا ما قالته لجنة أمريكية قبل خمسين عاما.. وهو اليوم أصدق وأصدق . ولو أن اللبناني يرقى إلى جبل صنين بعقله وروحه، بعيدا عن العقد الطائفية والنزعات القبلية والروابط الإقطاعية لرأى أن مستقبل لبنان مرهون بالوحدة العربية الشاملة، وبوحدة المشرق العربي كمرحلة أولى .. وأصبح داعية من دعاة الوحدة، كما كان اللبنانيون من رواد اليقظة العربية في القرن التاسع عشر.

والجيل اللبناني المعاصر، مدعو أن يدرك مصلحة لبنان كما أدركها السياسيان الأمريكيان كينج وكرين، بل أكثر وأكثر، وأن يناضل من أجل الوحدة.

وإذا كان تقرير لجنة كينج كرين[1] لا يقنع بعض المترددين في لبنان، فإن المدافع والطائرات الإسرائيلية التي تقصف جنوب لبنان صباح مساء في هذه الأيام كفيلة بأن تضع لبنان أمام الرؤية الواضحة الصادقة، وأن تجعل من كل لبناني داعية للوحدة مناضلا من أجلها، آخذا بزمام المبادرة، قبل أخيه السوري والعراقي والأردني.. فإن لبنان هو هدف العدو المباشر، ولن تنقذه فرنسا ولا أمريكا، ولن ينقذه مجلس الأمن الدولي، ومجلس الدفاع العربي!!

ان الوحدة هي الطريق، طريق الخلاص، وطريق الحياة، للبنان وللأقطار العربية جمعاء..

---

[1] تقرير لجنة كنج كرين ص 602 – 603 في كتاب **يقظة العرب** لمؤلفه جورج انطونيوس الترجمة العربية.

وليس معنى الوحدة أن يزول لبنان، وأن يزول العراق، وأن تزول سوريا، وأن يزول الأردن وان تزول فلسطين.

أبدا ستظل هذه الأقطار متمتعة بشخصيتها، وتكون لها حكوماتها الوطنية تدبر شئونها الإقليمية، حسب دساتيرها التي تختارها، وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تريدها لنفسها.

وبعد فهذه هي الصور المختلفة لقيام الوحدة العربية في الظروف الراهنة التي تعيشها الأمة العربية، والاقتحام وحده، اقتحام الميدان هو الذي سيحسم الاختيار ويحدد معالم الطريق.. ولا يبقى إلا ميلاد القائد والطليعة حتى تبدأ الوحدة ثورتها ومسيرتها..وليس على القائد أن ينتظر ميلاد الطليعة، ولا على الطليعة أن تنتظر ميلاد القائد، فليشرع من يشرع في مسيرة الوحدة، والتاريخ على موعد مع القائد والطليعة..بل إن التاريخ على موعد مع الوحدة، ونكاد أن نرى موكبها العظيم، يتقدمه علم واحد، وعشرون نجمة.

الوحدة العربية..

من أين تبدأ.. وكيف؟

الوحدة العربية واجب عربي عام، تقع تبعاته على عاتق كل عربي، حيثما كان مولده ونشأته، وأيا كانت عقيدته أو مذهبه، وكائنا ما كان موقعه في المجتمع .. وبالتعبير الإسلامي، فإن الوحدة العربية، "فرض عين" يتوجب على كل عربي أن يؤديه، لا فرض "كفاية" إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

ويترتب على ذلك، أن كل عربي له دور يستطيع أن يؤديه في ميدان النضال من أجل الوحدة.. وأن كل قطر من الأقطار العربية له موقع في ساحة الكفاح لإقامة صرح الوحدة .. ذلك أن الوحدة العربية هي واجب الأمة العربية بأسرها، وفاء لماضيها وتاريخها، وحفاظاً على حاضرها، وذوداً عن مستقبلها.

وإنه لصحيح، أن الوعي العربي يتفاوت من قطر إلى قطر، لأسباب معروفة، غير أن مسئولية النضال الوحدوي، لا تقع على قطر دون قطر، ولا على شعب دون شعب.. فالمسئولية جماعية يتساوى في أدائها جميع المواطنين على السواء .. فالمواطن العربي في الخليج يستوي في الواجب مع المواطن العربي في ديار الشام، والمواطن العربي في الجزائر سواء بسواء مع المواطن العربي في السودان.

ومن أجل ذلك، فإن أي مواطن عربي يستطيع أن يكون له دور قيادي في ميدان الوحدة، إذا كان مؤهلاً لهذا الدور، سواء انطلق من عدن، أو من حلب، أو من مكة أو من البصرة.. فإن العرب أمة واحدة .. وكذلك فإن أي قطر عربي يمكن أن يكون قاعدة للنضال من أجل الوحدة، سواء كان لبنان أو الكويت أو دولة الإمارات،فإن دار العرب واحدة..

وليس هذا التعميم قاصرا على الوحدة العربية بالذات، فإن جميع الحركات الوحدوية في العالم.. تشترك كلها في هذه الظاهرة، ظاهرة الشمول

الوحدوي الذي لا يجعل الحركة الوحدوية وقفاً على قطر بذاته، أو قاصـــرة على مجموعة معينة من الناس، ســواء كانت حزبا أو تنظيما.. وإن نظرة خاطفة إلى التاريخ تضع أمامنا صورة واضحة بترتيبها الزمني، ولنبدأ ..

في الولايات المتحدة، لعبت ولاية فرجينيا دورا بارزا في حركة الاستقلال والوحدة، ولم تكن حينذاك أكبر ولاية ولا أهمها..ومن أبطال الوحدة الأوائل، جورج واشـــنطن(1732 – 1799) ولد في مقاطعة وســتمورلاند وأصـــبح أول رئيس للولايات المتحدة.. وتوماس جفرسون (1743–1826) ولد في مقاطعة جوشلاند وأصبح الرئيس الثالث للولايات المتحدة.

وفي أمريكا الجنوبية برز ســـيمون بوليفار (1783–1830) كأعظم مناضـــل في معارك التحرير والوحدة، ورغما عن أنه ولد في كاراكاس فنزويلا، إلا أنه لم يترك معركة في أمريكا الجنوبية إلا وقد خاضـــها حيث كانت، وأصبحت أمريكا الجنوبية وطن كفاحه ومساحة نضاله.

وفي الدولة الألمانية الاتحادية، كان الذي قام ببناء الوحدة الألمانية هو السياسي الألماني المعروف بسمارك(1815–1898) أول مستشار لألمانيا الاتحادية ولد في شونهوسن، وهو صاحب الشعار المعروف بأن مشاكل ألمانيا يجب أن تحل " بالحديد والنار".

وفي الوحدة الإيطالية، كان "كافور" من أبرز أبطال الوحدة (1810–1861) ولد في تورينو .. وكان زميله جاريبالدي من أكبر أنصـــار الوحدة..(1840–1903) ولد في المهجر في البرازيل، ثم عاد إلى إيطاليا، ليشترك في قيادة الحركة الوحدوية في إيطاليا.

وفي روســيا يعتبر لينين (1870-1924) مؤســس أعظم دولة اتحادية في القرن العشـرين، وقد ولد في سـمبرسـك، وقضـى حياة حافلة بالنضـال، وهو صاحب الكتاب الشهير" التطور الرأسمالي في روسيا" وقد اشتهر لينين بنضاله الاشــتراكي، ولكن بناء الاتحاد بين الجمهوريات الســوفيتية هو أعظم إنجازاته على الإطلاق.

وفي الهنـد، يعتبر جواهر لال نهرو (1889-1964) مؤســس أكبر دولة اتحادية في آسـيا، ولد في الله أباد .. وأشـهر مؤلفاته ترجمة حياته بعنوان "وحدة الهند" وكان أول رئيس وزراء في دولة الهند الاتحادية..

وفي الوطن العربي.. يعتبر الرئيس جمـال عبـد النـاصــر (1918-1970) قائد الوحدة العربية في العصــر الحديث، وهو أول رئيس لأول دولة عربية اتحادية، الجمهورية العربية المتحدة .. وقد ولد في بني مر في صــعيد مصر.

ويتبين من هذا كله أن الدعوة إلى الوحدة،وقيادة مسيرتها، والنضـال في سبيل تحقيقها، يمكن أن يبدأ في أي قطر عربي، وعلى أيدي أي مواطن عربي، أو جمـاعـة من المواطنين العرب، المؤمنين بقوميتهم ووحـدتهم.. ولتبـدأ حركـة الوحدة من حيث يتيســر لها أن تبدأ .. فالمهم أن تبدأ، وأن لا تنتظر أن تكون البداية من هذا القطر أو ذاك.. وعلى يد هذا القائد،أو ذلك الحزب.

ومع هذا كله، فإن الأفضــل و الأمثل أن تبدأ حركة الوحدة العربية في مصـر لمئة سـبب وسـبب.. من ذلك أن مصـر تقع في مكان القلب من الوطن العربي، بين المشرق والمغرب .. وسكان مصر يزيدون على ثلث سكان الوطن العربي بأسره .. وثرواتها الفكرية ومؤسساتها العلمية ومعالمها التاريخية في غنى

عن التفصيل .. وموقعها الاستراتيجي على شواطئ البحرين الأبيض والأحمر تصل بينهما قناة السويس ليست في حاجة إلى شرح وإيضاح وإلى جانب هذا وغير هذا، فإن فيها أكبر تجمع طلابي في الوطن العربي.. فهذا الجيل الذي يضم الجامعيين من الخليج إلى المحيط، هو جيل الوحدة، وعلى أكتافه تقع هذه الأمانة الكبرى.

ولكن مصر مع توافر هذه الإمكانيات الضخمة، ينقصها الوعي الكامل الشامل بفكرة الوحدة العربية، وينقصها بالتالي أن تعي دورها القيادي في ميدان الوحدة.. والسبب في ذلك واضح، فإن مصر الخديوية عاشت ما يزيد على قرن من الزمان وهي في عزلة عن العالم العربي، وجاء الاحتلال البريطاني ليغرقها من الأذنين حتى القدمين في معركة الجلاء والاستقلال.. أضف إلى ذلك أن الشعب المصري قد فتنته حضارته العريقة الرائعة التي أبصرها في المقابر والمعابد والهياكل، وقد فاته أنه عربي، وأن حضارته عربية، وأن فراعنته، سواء كانوا من مصر أو من ليبيا، أو من النوبة أو من العراق، وهذا هو التاريخ، فإنهم جميعا من السلالات العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ، وقبل التاريخ.*

وصحيح أن ثورة يوليو التي قادها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والميثاق الوطني الذي أقره مجلس الأمة المصري، وتحرك مصر في الميدان العربي خلال العشرين عاما الماضية، صحيح أن ذلك كله قد كشف لمصر عن ذاتها وهويتها العربية، وأكد دورها القيادي في الحياة العربية، إلا أن بعض طلائعها الفكرية، بالقياس إلى ديار الشام والعراق مثلا، لا تزال تتخندق من حين

* راجع تفصيل ذلك في الفصول الأولى من الكتاب.

إلى حين في خنادقها القديمة: حضارة الفراعنة وآثار الفراعنة.. "والفراعنة" ليست اسما لشعب ولا سلالة ولا أسرة .. ببساطة ان لفظة "فرعون" تعني علميا السيد المختار– او الحاكم، أو السلطان، ومن شاء أن يتعلم فليرجع إلى كتب العلم ويتعلم.

وقد أردت من هذا الاستطراد العارض أن أؤكد أن حركة الوحدة العربية يجب أن تبدأ في مصر، ومن مصر، وذلك يخدم هدفين متكاملين، أولاً أنه يثقف مصر في قضية الوحدة العربية، ويفشي في نفوس جماهيرها دورها القيادي في حركة الوحدة. وان ثانيا يخلق من جامعاتها ومؤسساتها ومعاهدها الجيل العربي الصاعد الذي يحمل رسالة الوحدة العربية إلى أرجاء الوطن العربي بأسره.

وانطلاقا من ذلك كله، فإننا نعود لنؤكد أن الوحدة العربية يجب أن تبدأ من مصر، عقيدة وتنظيما وحركة ونضالا.. فانها الدولة الكبرى، وإذا بدأت نواة الوحدة منها تصبح الدولة القطب تجذب إليها وإلى الوحدة سائر الدول العربية الأخرى..

وإن تاريخ الاتحادات في العالم يؤيد الحقيقة الآنفة الذكر، فإن الوحدة الألمانية قامت بفضل الدولة الأم: " بروسيا" فهذه المقاطعة الجرمانية هي التي تزعمت الوحدة الألمانية وناضلت في سبيل إقامتها.. والوحدة الإيطالية قامت بزعامة سردينيا، فهذه المقاطعة الإيطالية هي التي أخذت بزمام المبادرة وخاضت معركة الوحدة وانتهى الأمر بالوحدة الإيطالية.. ودولة الاتحاد السوفيتي قامت بقيادة الجمهورية الأم" الجمهورية الروسية" وكان لنضالها وقوتها النصيب الأوفر في تحقيق اتحاد الجمهوريات السوفيتية.

وعلى هذا فإننا يجب أن نبدأ بمصـر ومن مصـر..وإذا اقتضـى الأمر فعلينا أن نسوقها إلى جنة الوحدة بالسلاسل، سلاسل المعرفة والثقافة والتوعية.. سلاسل الحكمة والموعظة الحسنة.

غير أنه إذا كانت الظروف قد اقتضـت أن تبدأ الوحدة خارج مصـر، وهذا أمر غير مسـتبعد، فلا بد أن "تعبر" حركة الوحدة إلى مصـر.. فالدولة الفاطمية، وإن كان التشـبه غير متكامل، قد ولدت في المغرب، ولكنها "دخلت" مصر وبسطت سلطانها على ديار الشام كلها،وأصبحت دولة زاهية ذات حضارة رفيعة.

وقد سـبقني في الإصـرار على دور مصـر القيادي، من هم أكثر مني علماً وفهماً، وأعظم شـأنا وشـأوا.. فهذا السـيد جمال الدين الأفغاني (1839 – 1897) قد رشح القاهرة أن تكون عاصمة للخلافة الإسلامية، فقال بعد أن عدد مزايا مصـر .."إن عاصـمتها (القاهرة) لا بد ان تصـير في وقت قريب اوبعيد كرسـي مدينة لأعظم الممالك الشـرقية، بل ربما كان ذلك أمرا مقررا في أنفس جيرانها من سـكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفريد كلما ألم خطب أو عرض خطر.."[1] وكذلك كان رأي المناضل السوري الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبي (1854 – 1902) فقد كان يدعو هو والكثير من أحرار العرب إلى جعل القاهرة عاصـمة للخلافة .. والخلافة في ذلك العهد هي تعبير آخر عن الوحدة.

وليس هذا ثناء على مصر بل هو تقييم للواقع، ومصر لا يرشحها أحد لدورها القيادي فهي ترشـح نفسـها بنفسـها وهي مؤهلة لهذا الدور التاريخي لا

---

[1] جمال الدين الأفغاني، **الأعمال الكاملة**، ص 50،74،466.

عطفا ولا منا على أي قطر عربي، ولكن من أجل مصـر كاقليم وشـعب، فإن مصـر لا تسـتطيع أن تعزل نفسـها عن أمتها العربية، بقدر ما لا تسـتطيع أن تنفك عن ماضيها، وتنفصم عن حاضرها، وتنبتر عن مستقبلها..وهي لو فعلت، وتلك فرضـية مسـتحيلة،فلن تكون أكثر من دولة إفريقية، تزيدها نيجيريا سـكانا وأرضـاً وبترولاً..ولكن ماذا تعني نيجيريا في الماضـي، وما هي في الحاضـر، ومن تكون في المستقبل..؟ غير أن مصر بالأمة العربية، والأمة العربية بمصر ينتظرها مسـتقبل رفيع، مسـتقبل دولة عظمى إلى جانب الاتحاد السـوفيتي والولايات المتحدة، ترفع من مسـتوى الحياة للأمة العربية، وتسـاهم بقسـط وافر في مجال التقدم الإنساني..

وسـواء انطلقت الحركة الوحدوية من العراق أو من مصـر، أو من السـعودية أو من ديار الشـام، أو من المغرب العربي، فإنه يتعين أن لا يغيب عن البال، أن الوحدة، من حيثما انطلقت لا تبدأ من فراغ، ولا تولد من العدم.. وأن الذين سيكون لهم شرف الطليعة في النضال الوحدوي إنما سيكونون امتداداً لوحدة عربية أصـيلة عريقة.. تقطعت فيها بعض الحلقات، وأصـيبت ببعض النكسـات، ولكنها كانت في النظرة الشـاملة ذات حياة متواصـلة تواصـل المسـيرة كالعدائين، يسلمون راية السباق بعضهم لبعض.

ونحن لو اسـتعرضـنا تاريخ الحركات الاسـتقلالية في الوطن العربي لوجدناها تحمل في صـميمها النزوع إلى الوحدة، ولم تبد هذه الظاهرة بصـورة جلية لسـبب بسـيط وهو أن الاسـتقلال في "الأوطان" العربية لم يأت في وقت واحد، بل جاء متتابعاً وانشـغل كل بلد باستقلاله وتدبير شئونه، وإقامة حكومته، وصنع نشيده وعلمه.

وما أن رفعت أعلام الاســـتقلال حتى تعالت الدعوة إلى الوحدة العربية وخاصـة في الشـام والعراق، فانعقدت المؤتمرات وتنادى المفكرون من أجل إقامة الوحدة العربيـة.. وفي المشـــاورات العربيـة التي عقدت في الاســـكندريـة في الأربعينات لإقامة الجامعة العربية اقترح وفدا سوريا والعراق مشروعات وحدوية، ولكن أسـبابا متعددة أفضـت إلى قيام الجامعة العربية على أسـاس الاسـتقلال والانفصال، وسط مهرجان خطابي كبير عن الوحدة العربية.[1]

وقد حاولت الجامعة العربية في أوائل عهدها أن تحقق خطوة أولى على طريق الوحدة.. فعرضت مشروعا" للجنسية العربية الواحدة" ونص المشروع في مادتـه الأولى على أن "يعتبر عربيا في أحكام هذه الاتفاقيـة كل من ينتمي بجنســيته إلى إحدى الدول العربية الأعضـــاء" ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، وكانت هي الخطوة الأولى والأخيرة واليتيمة .. في مجال الوحدة.

ولكن الدعوة إلى الوحدة العربيـة لم تبق يتيمـة في الوطن العربي، فقد اســـتمرت القوى الوطنية تنادي بها وتدعو إليها، وأصـــبحت جزءا من برامج الأحزاب العربية ســواء التي أنشــئت قبل قيام الجامعة العربية أو بعدها وأمامنا الأحزاب السورية، أولاً..

فقد جاء في برنـامج "الحزب الوطني" أن العرب في أنحـاء وطنهم أمـة واحدة، والســوريون جزء منها، وســياســة الحزب تقوم على هذا الأســاس.. وان الحزب يعمل على تمكين الروابط السـياسـية والاقتصـادية والثقافية والاجتماعية والتشــريعية بين أجزاء الوطن العربي توصـــلا لتحقيق غايته القومية على الوجه الصحيح".

---

[1] أنظر، أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء**.

وأعلن "حزب الشعب السوري" في برنامجه أن "العرب في مختلف ديارهم أمة واحدة ذات كيان واحد تتوافر فيه عناصـــر الوحدة الشـــاملة من روحية وسياسية واقتصادية واجتماعية وإلى ان تتحقق الوحدة المنشودة يرى الحزب أن يسعى إليها بالطريقتين التاليتين:-

أولاً: إقامة اتحاد فدرالي بين سوريا والأقطار العربية.

ثانياً: اتخاذ الجامعة العربية وسيلة لتوحيد السياسة الخارجية والدفاع، والتشريع والنقد ومناهج التعليم، وإلغاء جوازات السفر بين البلاد العربية".

وتضـــمن برنامج " الحزب التعاوني الاشـــتراكي": أن تعمل التعاونية الاشـــتراكية على إقامة اتحاد بين العرب يضـــم الدول المحلية الممثلة بمجالس نيابية وحكومات شعبية ترأسه حكومة اتحادية".

وجاء في المبادئ الأساسية "لحزب البعث العربي" وحدة الأمة العربية وحريتها.. أن العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في أن تحيا دولة واحدة وأن تكون حرة في توجيه مقدراتها.. وإن الوطن العربي وحدة سياسية واقتصادية لا تتجزأ.. وإن الأمة العربية وحدة روحية ثقافية، وإن حزب البعث العربي حزب عربي شامل تؤسس له فروع في سائر الأقطار العربية وهو لا يعالج السياسة القطرية إلا من وجهة نظر المصـــلحة العربية العليا.."ومع الزمن لم يبق إلا حزب البعث يناضل من أجل الوحدة..

وأعلن "الحزب العربي الاشتراكي؟ في برنامجه..أن " العرب أمة واحدة، وعليهم أن يؤلفوا دولة واحدة في وطن عربي واحد..".

كان ذلك شأن الأحزاب السورية، أما الأحزاب العراقية فقد أعلنت أهدافا قومية مماثلة في عبارات أخرى..فقد تضمن برنامج "حزب الاستقلال العراقي"

.. العمل على تقوية الجامعة العربية وجعلها عاملا في تكوين نظام اتحادي بين البلاد العربية.. وأعلن "حزب الأمة الاشـــتراكي: "المبادرة إلى"..تنظيم العلاقات بين العراق والدول العربية الأخرى على أساس اتحاد سياسي .. يشملها جميعا على أن يبدأ هذا الاتحاد بالدول التي ترغب في الانتظام فيه، ويرى الحزب أن جامعة الدول العربية يجب أن تكون وسيلة لتحقيق هذا القصد.."

ولم تقتصـــر الدعوة للوحدة العربية على الأحزاب الســـياســـية، ولكنها تجاوزت ذلك إلى سـائر القوى القومية في الوطن العربي، وشـهدت الخمسـينات مؤتمرات عربيـة كـان نـداء الوحـدة فيهـا يعلو على كـل نـداء.. ولا أزال أذكر مؤتمرات الأطباء والمهندسين والصيادلة التي كانت تعقد دوريا في القاهرة، أثناء عملي في الجامعة العربية، وكان الحديث عن الوحدة العربية يغمر الحديث عن أي موضوع آخر..

وقد أخذ زمام المبادرة في موضـــوع الوحدة جماعتان: مؤتمر الخريجين العرب الذي انعقد في عام 1954-1955، ومؤتمر المحامين العرب الذي انعقد في 1956، وتخصـــص " المؤتمران في بحث قضـــية الوحدة العربية من ناحية عملية، وانتهت أبحاثهما إلى وضـع مشـروع متكامل لإقامة " اتحاد فدرالي يكون مفتوحاً لكل دولة عربية متحررة.."

وقد أثمرت هذه الموجة الشـــعبية العارمة وكان من نتائجها أن قامت" اتحادات" في الوطن العربي، كما برز معنى الوحدة في الدســـاتير العربية بدافع الإيمان، أو تزلفا إلى الجماهير.

والمهم أن الوحدة العربية قد بلغت من القوة أن أصبحت مادة أساسية في الدساتير العربية.. تتغير الدساتير من حين إلى حين ، وتبقى مادة الوحدة راسية شامخة، ولو كره المبطلون والحكام الانفصاليون.

ففي دستور جمهورية مصر العربية (11 سبتمبر 1971) اعلنت المادة الألى "أن الشعب المصري جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة".

وقرر دستور الجمهورية العربية السورية في المادة الأولى أن " القطر العربي السوري جزء من الوطن العربي.. وان الشعب في القطر العربي السوري جزء من الأمة العربية يعمل ويناضل لتحقيق وحدتها الشاملة.."

وأعلن دستور الجمهورية التونسية "انتماء الشعب التونسي إلى الأسرة العربية . وأن الجمهورية التونسية جزء من المغرب الكبير تعمل لوحدته في نطاق المصلحة المشتركة".

أما دستور المملكة المغربية (لعام 1970) فقد نصت المادة الأولى "أن المملكة المغربية هي جزء من المغرب الكبير" ، وأنها "بصفتها دولة إفريقية فإن من بين أهدافها تحقيق الوحدة الإفريقية".. ولم تذكر شيئاً عن الأمة العربية أو الوحدة العربية ..من قريب أو بعيد..

وفي اتحاد الجمهوريات العربية،نصت المادة الثانية من الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية (17 ابريل 1971) – مصر وسوريا وليبيا – أن "الهدف من قيام اتحاد الجمهوريات العربية هو العمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة".

وقد نص الدســـتور العراقي المؤقت في مادته الأولى على ان "العراق جمهورية ديمقراطية شـعبية ذات سـيادة، هدفه الأسـاسـي تحقيق الدولة العربية الواحدة وإقامة النظام الاشتراكي".

وكائنا ما كانت النصـوص الدسـتورية بشـأن الوحدة العربية، أو القرارات التي أصـــدرتها المؤتمرات العربية منذ أواســط الخمســينات، أو برامج الأحزاب العربية التي التزمت بها فإن الحقيقة الثابتة التي يجب أن لا تغيب عن الأذهان أن الوحدة العربية،عقيدة وتنظيما ونضـالا، ليسـت غريبة على الأمة العربية..ولا مســتوردة على حياتها القومية ،فإنها، كما رأينا في الفصـــول الأولى قديمة قدم الأمـة العربيـة، وأنهـا كـانـت نظـامـا دائمـا لمســـيرتهـا التـاريخيـة، قبـل أن تقوم الاتحادات في أوروبا وأمريكا بقرون وقرون!!

ولذلك، فإن العمل من أجل الوحدة لا يبدأ من فراغ ولا من عدم .. إنه استئناف واستمرار للنضـال الوحدوي.. ولا تخلو أية حركة قومية من فترات من الفتور، ومراحل من الانتكاس، ولكن ذلك لا يقضـــي على الوحدة بالإعدام ،أو حتى بالتأجيل ولو إلى حين.

ثم إن العمل من أجل الوحدة، لا يحتاج إلى موســـم خاص أو ظروف معينة، إن النضـــال من أجل الوحدة، واجب في كل ظرف وفي كل مكان وفي كل زمان .. إن بذور الوحدة تزرع في كل موســـم، والأمة أكثر قبولا لها وإقبالا عليها حينما تواجه المخاطر والتحديات، وتخوض غمرة الشـدائد والمعاناة، وأشـد ما تكون عزما عليها حين تكون في خضم الهزائم..

وأي زمن أكثر ملاءمة للنضـــال من أجل الوحدة،من هذا الزمن الذي قامت فيه إسرائيل على أرضنا، واحتلت التراب الفلسطيني بأكمله، وامتد عدوانها على الأرض العربية من شرم الشيخ إلى جبل الشيخ..

بل وأي زمن أكثر ملاءمة للنضـــال من أجل الوحدة من هذا الزمن، وأمامنا حصيلة فاشلة لتجربة التضامن العربي في حرب رمضان، حرب الستة عشر يوماً.. كل وقائعها اليومية العسكرية والسياسية تثبت بما لا يرقى إليه الشك أنه لا بديل عن الوحدة، وأن التضامن العربي غلاف براق شفاف، تهب عليه الرياح، فيتناثر أدراج الرياح..

لقد تكشـــفت هذه الحرب المجيدة عن بســـالة الأمة العربية، وبطولة جنودها، ولكن أعظم إنجازاتها أنها أكدت للمرة المئة بعد المئة أن التضـــامن العربي أسطورة واهية تركع أمام نسيج العنكبوت، وأن الوحدة هي الأدوم والأقوم والأسلم ولو بين دولتين اثنتين..

وبين أيدينا وقائع دامغة تتمثل في الأخطاء الفادحة التي جاءت في كنف التضـــامن العربي، ولم يكن ممكنا أن تقع في ظل دولة الوحدة، وســـجل الأخطاء لا يزال يدون كل يوم الآثار الخطرة لتلك الأخطاء.

فعلى الصعيد العسكري، بدأت المعركة في ساعة واحدة من يوم واحد، ولكن وقف إطلاق النار لم يقع في ســـاعة واحدة من يوم واحد على الجبهتين الســورية والمصــرية، ولو وقعت هذه المعركة في ظل الدولة العربية المتحدة – سوريا ومصر – لكان من المستحيل أن يقع هذا التباين في وقف إطلاق النار.

وعلى الصعيد العسكري، كذلك، فإن اتفاقية الفصل بين القوات العسكرية تمت في الجبهة المصرية، واستمرت حرب الاستنزاف في الجبهة السورية قرابة

شـــهرين، انتهت باتفاقية للفصـــل بين القوات في الجبهة الســـورية.. وكان من المستحيل أن يقع هذا " النشاز" في ظل دولة واحدة..

أما على الصـعيد السـياسـي، فإن وزير الخارجية الأمريكية كان يختلي بالحكام العرب في عواصـمهم، ويخاطبهم واحدا واحدا، كل في مطالبه الإقليمية ومصـــاعبه الاقتصـــادية .. وكان من المســـتحيل أن ينفرد بهم ويداعب آمالهم ويراود مخاوفهم في ظل دولة والوحدة.

وليس هذا قاصـــرا على الولايات المتحدة، فإن الدولة الأخرى وعلى رأســها الاتحاد الســوفيتي، كانت تتعامل مع عواصــم عربية متعددة، تتجلى في مواقفها سياسات متناقضة .. على حين، وهذه مقارنة محزنة، كان العالم الدولي يتعامل مع إسرائيل: "دولة" واحدة تتحرك في إطار سياسة واحدة!!

ومع كل ذلك، فإن الحكم العربي، ومن بعد حرب رمضـــان بصـــورة خاصة، قد أطلق لتصريحاته العنان معلنا أن التضامن العربي في أروع صوره، خاصـــة وأنه لم يكن له مثيل في الماضـــي، وراح يســـخر الصـــحف والإذاعة والتلفزيون، كلها تحت سلطته، لتذيع عن التضـامن العربي العجائب، تماماً كما أعلنت عن وزير الخارجية الأمريكية بأنه صانع المعجزات!!

وأنكى من ذلك كله، أن الحكم العربي، لم يكتف بالتمجيد بالتضـــامن العربي الهفهاف، بل ســـلط أجهزته الإعلامية للتنديد بالوحدة.. وتعاقبت التصـريحات بأن "الوحدة" "ليسـت الوحدة الدسـتورية ولا وحدة القيادة ولا الوحدة التي تثير الخلافات والمحاور والصـــراعات"، وهكذا القوا قاذورات الحكم العربي على أعتاب الوحدة، وشهد الله أن الوحدة أطهر مما يفترون وأقدس مما يرجفون.

وقد قصدت من هذا الاستطراد أن يزداد المواطن العربي يقينا بأن العمل من أجل الوحدة العربية أصـــبح الآن أكثر ضـــرورة من أي وقت مضـــى، إن الواجب يفرض على الطلائع القومية في الوطن العربي أن يتجمعوا تحت راية الوحدة، وينظموا صـفوفهم، ويبدأوا النضـال في إطار حركة الوحدة العربية ... والمؤمنون بالوحدة العربية في الوطن العربي كثيرون .. وكثيرون الذين يتوقون للانتظام في هذه الحركة، ويؤدوا نصـــيبهم من الواجب في حمل أمانتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وهؤلاء الكثيرون، موجودون في الوطن العربي بكافة أقطاره وأمصـــاره وكل واحد منهم في منز له أو مكتبه أو متجره أو مصـنعه أو مزرعته أو معهده تعيش الوحدة العربية في ضـــميره، ويتطلع إلى ســـاعة التجمع .. إلى لحظة الحركة والانطلاق.

ولا مراء في أن حركة الوحدة، كما رأينا في الســـوابق التاريخية، مرتبط "بظهور" القائد وبروز الدولة الراعية لقضـية الوحدة.. ولكن الوحدات التاريخية لم تكن دائماً من صـنع القائد والدولة الراعية .. كانت حركة الوحدة تلتقي مع القائد والدولة الراعية، وكانت على الدوام ســـابقة لهما.. ففي إيطاليا كان "كافور" هو القائد ومملكة ســـردينيا هي الدولة الراعية، ولكن حركة الوحدة كانت قائمة .. وكذلك في ألمانيا فقد كان بسـمارك هو القائد "وبروسـيا" هي الدولة الراعية ولكن حركة الوحدة الألمانية كانت قائمة..

وإذا كنا لا نجد في ســـاعتنا هذه، القائد ولا الدولة الراعية، فهل تنتظر الطلائع القومية في الوطن العربي، ان تأتي إليهم " القابلة القانونية" لتزف إليهم بشرى ميلاد القائد، وبروز الدولة الراعية".

هذا لا يجوز إطلاقا، إن الوطن العربي حافل بالأحرار، والمفكرين، والقوميين، و لايصح أن يبقى كل واحد منهم يغازل الوحدة في بيته، وهو يتمنى أن تدخل عليه تنهادى في خلخالها تجر أذيالها.

إن الوحدة نضال وكفاح .. وطريقها مملوء بالصعاب، وهذه طبائع الأهداف العظمى، وخصائص المطالب العليا، لا تنال بالتشهي والتمني، بل بالعرق والدموع والدماء..

والرأي، بإيجاز، أن يلتقي، نفر من القوميين العرب الأحرار على هيأة لجنة تحضيرية لوضع ميثاق لإنشاء حركة الوحدة العربية، ثم ينشر مشروع الميثاق في الصحف لتهيئة الرأي العام العربي، ولربط الجماهير العربية بحركة الوحدة..

وتكون الخطوة الثانية أن تقوم اللجنة التحضيرية بزيارة العواصم العربية وعرض مشروع الميثاق على الجهات الرسمية والشعبية.

والخطوة الثالثة، الدعوة إلى مؤتمر قومي عام في إحدى العواصم العربية، لتأسيس حركة الوحدة العربية، وإقرار ميثاقها ،واختيار مؤسساتها الدائمة.

إن حركة الوحدة العربية في بدايتها، ليست في حاجة إلى الكثرة، لا في لجنتها التحضيرية ولا في مؤتمرها العام.. إن القلة المختارة المؤمنة هي البداية الصحيحة.. والاتصال بالجماهير، توعية وتنظيما، إنما هو مرحلة تالية.

وكذلك فإن حركة الوحدة، يسرها أن تلقى الدعم والعون من أية دولة عربية مؤهلة للوحدة، دون أن يكون العون أو الدعم سبيلاً للاحتواء أو التبعية أو

السـير في طريق المحاور.. وبقدر ما يكون قادة هذه الحركة من "قومية" الفكر والتخطيط والسلوك، يستطيعون أن يضمنوا لحركتهم الاحترام والمهابة والقدرة.

واللجنة التحضـــيرية والمؤتمر القومي هما بداية الطريق.. إن حركة الوحدة العربية عمل يومي دائم، ونضـال مسـتمر لا يهدأ .. إن المؤتمر ينفض ولا ينعقد إلا في دوراته، ولكن مؤسساته الدائمة متفرغة للعمل المتواصل .. فإن أعمالاً ضـخمة وكثيرة تنتظر حركة الوحدة العربية على الصـعيد العربي وعلى الصعيد الدولي كذلك.

وفي الناحية العلمية، ســترى حركة الوحدة العربية من واجبها أن يكتب التاريخ العربي من جديد علميا وبســيطاً، مبرزاً الجوانب الحضـــارية والقومية والوحدوية.

ومن الناحية التثقيفية، لا بد من وضع الخطط لتثقيف الجماهير بقضية الوحدة العربية وفوائدها على صعيد الوطن العربي كله.

على صـــعيد الطلاب والشـــباب، فإن حركة الوحدة مطالبة بأن تؤدي دورها الكبير مع جيل المسـتقبل تثقيفا وتنظيما وإعدادا ليكون الجيل المناضـل لإقامة الوحدة..

هذا عمل ضـخم جبار، وبالمثابرة والمصـابرة سـتصـبح حركة الوحدة العربية قوة كبرى في الوطن العربي تســتطيع أن تفرض الوحدة العربية.. ويقيناً إنها ســتجد في طريقها القائد والدولة الراعية، ومن ثم تظهر دولة الوحدة إلى الوجود، وتضـم إليها الدول العربية الأخرى، منجذبة بها، أو سـاقطة بين يديها، أو طامعة في رضاها، أو متوسلة حماها..

ليس هذا خيالاً سـارحاً في بيداء الخيال.. إنه الخيال الصـادق الذي صنع كل مصنوع على وجه الأرض، وأنا أشتهي أن أعود إلى الشباب، لأعطي هذه الحركة أكبر قدر من جهدي، كل عمري، ولأثبت بالممارسـة اليومية، أنني والعاملين في هذه الحركة قادرون أن نصـنع الكثير والكثير في جعل حركة الوحدة العربية قوة شـعبية قادرة.. قادرة أن تفرض الوحدة العربية حتى من غير القوة العسكرية.

ويتساءل المواطن العربي كيف تستطيع هذه القوة الشعبية أن تفرض الوحدة..؟

والجواب نلتمسه في الأمة العربية.. إن الوحدة العربية عقيدة راسخة في ضـمير الأمة العربية تنتظر المحرك والتحريك، إنها قوة هائلة في وجدان الجماهير..ولكن هذه القوة راقدة تنتظر المحرك والتحريك، ولكنها حين تتحرك ندرك أثرها وخطرها.. ولنعد بالذاكرة إلى الأيام العارمة التي تمت فيها الوحدة بين مصـر وسـوريا (شـباط 1958) فقد عاشـت الأمة العربية أحلى أيامها، وقضت لياليها في فرحة كبرى، وكانت القاهرة ودمشق وحواضر العرب الأخرى تتبادل البشائر ان الوحدة الكبرى قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى..

ووقعت نكبة الانفصـال (أيلول 1961) فلبسـت الأمة العربية ثياب الحداد، واهتزت جوانحها غضبا وأسى، ثم عادت وترنحت أعطافها بشراً وبهجة، ولو إلىأجل قصير، حين عقد الاتفاق الثلاثي (نيسان 1961) بين بغداد ودمشق والقاهرة لإقامة دولة الوحدة الكبرى.

وقام اتحاد الجمهوريات العربية في خريف 1971.. ومع أنه كان باهتاً منذ مولده، إلا أن الأمة العربية تطلعت إليه بفرح مكتوم، وأمل مكلوم..

وأخيراً تم الاتفاق بين ليبيا وتونس (1974) على إقامة الجمهورية العربية الإسلامية، فانطلقت مشاعر السرور في البلدين، وعمرت المظاهرات يوماً واحداً، لتصاب بالوجوم في اليوم الثاني بعد وأد المولود، وطويت الأعلام والبنود.

فلنذكر تلك الأيام حادثاً حادثا، كيف هبت الجماهير في الوطن العربي مندفعة بوعيها الفطري للإعراب عن حماستها وبهجتها.. هذه المظاهر الشعبية تنبئ عن مشاعر الأمة العربية حين تتحرك "قوتها" الراكدة الراقدة وحركة الوحدة العربية، بالمثابرة والمصابرة، تستطيع في النهاية، وبالتوعية والتنظيم، أن تحرك القوة الشعبية.. وتجعل قضية الوحدة الاهتمام الأول للأمة العربية.

وجماهير الطلاب والشباب هم القوة الدافعة في حركة الوحدة العربية وكما استطاع جيل الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في الأستانة وباريس في مطلع القرن العشرين أن يصبحوا فيما بعد قادة الاستقلال العربي، فإن الجيل المعاصر من الطلاب، قادرون أن يكونوا قادة الوحدة العربية في الوطن العربي كله.

بل إن الطلاب العرب يستطيعون، الآن وفي كل زمان، أن يرفعوا مشعل الوحدة العربية، ويحركوا مشاعر الجماهير العربية لتندفع إلى ميدان النضال من أجل تحقيقها.

إن إضراب مجموعة من الطلاب عن الطعام، لحمل الدولة على إلغاء جوازات السفر بين البلاد العربية وتحرير المواطن العربي من مشاكل الحدود، إنما هي خطوة على طريق الوحدة.

وإن اعتصـــام الطلاب العرب في مقر الجامعة العربية أثناء انعقاد مجلس الجامعة، لاســتصــدار قرار بإنشــاء الجنســية العربية الواحدة للمواطن العربي هي خطوة أخرى على طريق الوحدة.

وإن ضــرب الحصــار حول وزارات الخارجية العربية للعمل على توحيد التمثيل الدبلوماسي العربي في الخارج وإلغاء السفارات العربية في الدول العربية هي خطوة كبرى على طريق الوحدة..

وإن التظاهر أمام وزارات المال والاقتصـاد العرب لخلق اقتصـاد عربي واحد، ونقد عربي واحد، وســـوق عربية واحدة، هي خطوة مجيدة على طريق الوحدة..

والخطوات المماثلة كثيرة، وحمية الشباب خلاقة، كلما سارت في خطوة ابتدعت خطوة أخرى، وكلما حققت نصرا تطلعت إلى نصر أكبر.

ويقينا ان الجماهير العربية ســـتكون مع حركة الشـــباب والطلاب، وســـتقتحم ميدان النضـــال بنفســـها، لأن هذه الإنجازات هي لخيرها، تكفل لها حاضرا أكرم ومستقبلا أعظم.

والسلطة العربية، أي سلطة، ستنزل هي إلى الميدان، لتتصدى لحركة الوحدة العربية، وإن فعلت فإنها حسنا تفعل، لأن السجون والمعتقلات وسقوط الشهداء، سيدخل حركة الوحدة في معركة بين السلطة والشعب.. ولا بد للشعب أن ينتصر.

وقد تكون معارك الاستقلال على ضراوتها أيسر من معركة الوحدة.. ففي عهد الاحتلال يكون العدو أجنبيا ســـافرا يســـهل أن تتجمع القوى الوطنية

لمجاهدته.. أما في عهد الانفصال فإن الخصم هو السلطة " الوطنية"، وليس من السهل تعبئة الجماهير الشعبية للتصدي لها.

ولكن هذا التصدي واجب قومي لا محيص عنه، فإن عهد الانفصال يعطل حياة الأمة العربية الشاملة، ويعوق نهضتها الكاملة.. وفوق ذلك فإنه يحمل الخطر الأكبر في عودة الاحتلال إلى الوطن العربي مرة ثانية.

وليس خطر الاحتلال بعيد الاحتمال، ففي مطلع العام (1975) انطلقت التصريحات من رئيس الولايات المتحدة ووزير الخارجية ووزير الدفاع بأن احتلال منابع النفط العربي أمر غير مستبعد، وقد تبعت هذه التصريحات تحركات الأسطول الأمريكي في مياه الخليج العربي، بقصد "التعرف على المناخ في مناطق الخليج وأحواله الملاحية"!!

ويقينا، لو أن الأمة العربية تقوم فيها دولة الوحدة، ولو بين أربع أو ثلاث من الدول العربية، لما خطر في بال الولايات المتحدة أن توجه هذا التهديد إلى الأمة العربية، وقد يمر هذا التهديد اليوم بسلام، غير أن المستقبل حافل بالأحداث الجسام.. حيث تقع الحرب، ولا يكون سلام.

ومن أجل ذلك كله، فإن قضية الوحدة العربية يجب أن تكون في المقام الأول في اهتمام أحرار العرب والمفكرين.. ويجب أن تصبح قضية قومية ويومية، مشتعلة دائماً و أبدا، تملؤها روح الكفاح وعزيمة النضال.. وحذار حذار أن نتركها للزمن، تتقاذفها أيامه وأعوامه.

وإن أشهى ما يشتهيه أعداء الأمة العربية أن يظل على رأسها عشرون حكومة، تبعثر طاقاتها وتبدد قدراتها، تتقاذفها القوى الدولية، وتعبث بأقدارها. ولا أحسب أن أحدا قد أشتهى للأمة العربية من الشر بأكثر ما اشتهى "ابا إيبان"

أحد قادة إســـرائيل المثقفين فقد قال في كتابه: " إن القومية العربية الســـليمة ليسـت بالضـرورة هي التي تعبر عن وجودها في التكتل الإقليمي الواسـع الذي يجعل له مركزا واحدا فعالا في الســيطرة .. إن لمن الأفضـــل أن تنعكس هذه القومية في مجموعة دول قريبة، مع حفاظ كل منها على سـطلتها وشـخصـيتها المتميزة.. لا يوجد نوع واحد للقومية العربية فقط، بل توجد أقوام عديدة من العرب يربطهم بعضـــهم ببعض، كما يربطهم في العالم ميثاق الأمم المتحدة، وهم يظهرون تنوعاً غنيا من خلافات وثقافات إقليمية.[1]

وليس غريبا أن تكون التجزئة والانفصـال هو ما تشـتهيه لنا إسـرائيل، فإن إسرائيل قد وجدت في ظل التجزئة والانفصال..

لقد ولدت إسـرائيل يوم كان العرب سـبع دول..وإسـرائيل باقية اليوم لأن العرب عشرون دولة، وستبقى ما بقي العشرون.

وستزول إسرائيل، فالعشرون زائلون.. ودولة الوحدة مقبلة ولو كره الكافرون.

---

(1) **كـــتـــاب أبـــا إيـــبـــان**، ص 172. The tide of Nationalizm

درس في التاريخ والجغرافيا..

إلى الملوك والرؤساء

لا أعرف قضية كبرى في حياتنا المعاصرة يسندها العلم أولا وثانيا وثالثا والعاطفة أخيرا، أكثر من قضـــية الوحدة العربية، وحدة تتمثل في اتحاد فدرالي حقيقي يسود الوطن العربي بأسره ويشمل الأمة العربية جمعاء..

ومع هذا فلا تزال النزعات الإقليمية والانفصالية تطفو على السطح من حين إلى حين كلما انحســـر المد الثوري للحركة العربية، ولا يزال الإقليميون والانفصـاليون يحملون بين أشـداقهم أسـطوانات معادة، تكرر عبارات وشـعارات تندد بالوحدة حينا، وتغمزها حيناً آخر.

وأصـحاب هذه الشـعارات والعبارات، غالبا ما يحشـون "اسـطواناتهم" "بلازمـات" كلازمـات الغنـاء، فيتحـدثون عن "النظرة العمليـة".. "والظروف الموضـوعية".. "والابتعاد عن السـطحية".." والالتزام بمنطق العصـر الحديث".. كأنما أصـــبحت الوحدة العربية مســـتنقعاً للمثالب والمعايب، ليس لها حظ من العلم في قليل أو كثير.

وبعض أصحاب هذه الشعارات ممن يتسمون "بالحكمة" ويلبسون مسوح "العقلانية"، فيكتبون ويخطبون بأنهم من أنصـــار الوحدة، ولكنهم يريدونها أن تكون "وحدة مدروســـة" فلا تكون "فورية أو عفوية أو انفعالية أو ارتجالية" وهذه هي مترادفاتهم .. بل بعضها القليل.

"والوحدة المدروســـة،" شـــعار رفع لأول مرة في خريف عام 1961 في دمشـق، بعد الانفصـال مباشـرة، فقد أعلن حكام سـورية يومئذ أنهم سـيعملون من أجل الوحدة ولكنهم يريدونها "مدروســة" وها قد مضــت أربعة عشــر عاما على "درس" الوحدة المدروسة، ولم تعد سورية إلى حظيرة "الجمهورية العربية المتحدة" وشطبت مصر ذلك الاسم.. وجعلت مقامه اسم جمهورية مصر العربية.

والواقع أن الـذين يتحـدثون عن "الوحـدة المـدروســـــة" و "العمليـة" و"الموضـــوعية" و "العقلانية" أبعد ما يكونون عن الالتزام بهذه المعاني .. فما أجمل مفاهيم "العملية" و "العقلانية" " و"الموضوعية".. في أصلها وجوهرها، وما أتفه مدلولها بعد أن اسـتخدمها "ببغاوات" بشـرية، بيدهم أقلام مشـحونة، وتحت أقدامهم منابر عالية!!

ولعل مثلا حديثاً واحدا يكفي أن يضـــع أمام المواطن العربي صـــورة واضـــحـة عن أولئـك "العلميين" الـذين ينـددون بـالوحـدة العربيـة تحـت شـعار "الموضـوعية والعقلانية".. فقد أكد كاتب مصـري يحسـن الكتابة من غير شك، أن "من أكبر الخطأ أن نفهم العروبة على غير حقيقتها، فنحملها ما ليست أهلاً له، كأن نســعى لأن نجعل منها كيانا ســياســيا موحدا فنحاول أن نعكس التطور الطبيعي للحضـــارات الجامعة والعالمية، وليس من الحكمة أن ندعو لدولة تضم البلاد العربية على أساس أنها تشترك في لغة واحدة وتراث حضاري متقارب، وهو حلم أشبه بسراب يبتعد عنا كلما تصورنا التقرب منه، فنصرف في محاولاتنا بقصـــد الوحدة الاندماجية طاقات ثمينة روحية وفكرية ومادية، كانت

تنتج ثمارا أجدى وأنفع، لو صـــرفت في مجالات التعاون الممكنة والعملية اقتصاديا وسياسيا وعسكريا.."[1]

والرد على هذا الكلام تجده في آلاف الصـفحات من محاضـر جامعة الدول العربية، وفي مئات القرارات التي صـــدرت عن دوراتها المتعاقبة، وفي عشـرات القرارات التي أعلنتها مؤتمرات القمة العربية الثماني. وكلها تثبت على مدى تجربة طويلة امتدت أكثر من ربع قرن أن صيغة "التعاون الممكن" لم تأت بنتيجة تذكر إذا قيست بطاقات الأمة العربية، الروحية والفكرية والمادية.

ولو أن ذلك الكاتب قد وضع أمامه جدولاً كاملاً لدول العالم أجمع سكانا ومساحة، لوجد أن أكثر من نصف سكان الدنيا يعيشون تحت دول اتحادية، وأن قرابة ثلثي مسـاحة العالم تسـودها هذه الدول الاتحادية، وأن العمالقة الثلاثة: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي هما دولتان اتحاديتان وأن جمهورية الصين الشـــعبية هي دولة وحدوية اندماجية ، بل عملاق الدول الوحدوية في العالم.. فهل هناك حقيقة علمية ماثلة أكثر "علمية " من هذه الحقيقة التي يعيش تحت جناحيها ملايين الناس، بكل أقدارهم ومصائرهم..

ثم إن الدول الأخرى غير الاتحادية كدول أوروبا الغربية تسـعى سـعيا حثيثا نحو إقامة الاتحاد الأوروبي، رغما عن مصـالحها المتضـاربة، ولغاتها المتعددة، وحضـــاراتها المختلفة، وأحقادها القديمة .. ولم يقم فيها كاتب واحد ليقول "إن ذلك الحلم هو أشبه بسراب يبتعد عنا كلما تصورنا التقرب منه" على حد تعبير الكاتب المصري إياه..

---

[1] مجلة **السياسة الدولية**، القاهرة، عدد ابريل 1974، ص 295.

وعلى غرار هذه الحجة "العملية" .. يطالع المواطن العربي، من حين إلى حين، حججا أخرى، لا تندد بالوحدة العربية وجها لوجه.. ولكنها تشير إلى "العقبات الكبرى" و"الصعوبات العظمى" التي تحول دون الوحدة، بل تجعل بلوغها أمرا مستحيل التحقيق، وأن السعي لإقامتها جهد ضائع، هو وقبض الريح سواء بسواء!!

وأول هذه "العقبات" الكبرى "فيما يقولون، أن الوطن العربي يشمل مساحة مترامية الأطراف تمتد عبر قارتين، الشمال الإفريقي بأكمله، وغرب آسيا، وتتخلل هذه الرقعة الواسعة جبال شاهقة، وصحارى غير مطروقة، وحواجز طبيعية من الأنهار والبحيرات والوديان، وما إلى ذلك من التضاريس الطبيعية التي تجعل عوامل الوحدة الجغرافية غير متوافرة في الوطن العربي"[1].

ولأول وهلة، فإن هذا الكلام قد يغري المواطن العربي " بوجاهته" الظاهرة، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الإغراء حين نفكر للحظة واحدة، أن أية دولة عربية من الدول العشرين متنوعة التضاريس، تتكاثر فيها الجبال والوديان والسهول، وليست أرضها وحدة هندسية متماثلة.. فهل نفتت هذه الدولة إلى دول متعددة تتفق حدودها مع هذا الجبل هنا، ومع هذا النهر هناك؟؟

غير أن دراسة مقارنة بين طبيعة الوطن العربي، والأوطان الاتحادية العظمى في العالم، تضع المواطن العربي أمام حقائق مذهلة تجعل الوطن العربي مؤهلا للوحدة كأية دولة اتحادية في العالم، إن لم يكن أكثر.. ولنبدأ بالاتحاد السوفيتي.

---

[1] الملحق رقم (1) يبين المساحة والسكان في الوطن العربي.

من حيث اتساع الرقعة يعتبر الاتحاد السوفيتي أكبر دول العالم سعة، فتبلغ مساحته 22.4 مليون كيلو متر مربع، وعلى سبيل المقارنة فإن هذه المساحة أكبر من مساحة الولايات المتحدة بثلاث مرات، وأكبر من مساحة فرنسا بأربعين مرة ..فتأمل..

وفي عملية حسابية، فإن مساحة الاتحاد السوفيتي أكثر بمرتين من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وألمانيا الاتحادية وفرنسا وإيطاليا واليابان كلها مجتمعة معا، وفي عملية حسابية أخرى فإن "وطن" الاتحاد السوفيتي يشغل خمسين أثنين من مساحة القارتين، أوروبا وآسيا منها 16,8 مليون كيلو متر مربع في آسيا، وما يقرب من 5.6 مليون كيلو متر مربع في أوروبا، ويبلغ طول حدود الاتحاد السوفيتي حوالي 10,000 كيلو متر من الشرق إلى الغرب..أما مجموع طول الحدود بكل جهاتها فإنها تبلغ 60,000 كيلو متر أي طول خط الاستواء مرة ونصفاً.. وينتج عن هذا الاتساع الهائل في مساحة الاتحاد السوفيتي أنه حينما ينهض العمال والفلاحون صباحا في شرق الاتحاد السوفيتي إلى مصانعهم ومزارعهم، يكون رفاقهم في روسيا البيضاء أو مناطق البلطيق .. قد فرغوا من عشائهم، والنعاس يداعب أجفانهم!!

أما وطننا العربي، فإنه أقل مساحة فهو يبلغ ثلاثة عشر مليون كيلو متر وأقصر حدودا، فهي تبلغ 7000 كيلو متر من المحيط إلى الخليج،وتبلغ 22000 كيلو متر من الشمال إلى الجنوب.. ويلاحظ على امتداد الوطن العربي، كما يقول مرجع علمي، "أنه امتداد متصل لا تقطعه فواصل مانعة تعوق الاتصال فيما بين أجزائه، إذ يمكن الاتصال بسهولة من إفريقية إلى آسيا

عبر شبه جزيرة سيناء .. واحتلال العصابات الصهيونية لجزء من فلسطين حالة موقوتة طارئة"[1].

ومن حيث الحدود البحرية، فإن الاتحاد السوفيتي يقع على اثني عشر بحرا وثلاثة محيطات(!) كلها تضـــرب في شـــواطئه، على أن الحدود البحرية للوطن العربي تقع على المحيط الأطلنطي والبحر الأبيض المتوســـط.. ويكاد البحر الأحمر والخليج أن يكونا مياها إقليمية عربية.

ومن حيث المناخ، ففي الاتحاد الســـوفيتي 12 منطقة مناخية، " من الشـمال البرد القارس الشـديد إلى الحرارة الملتهبة" ففي مناطق القطب الشـمالي تهبط درجة الحرارة إلى 72 درجة مئوية تحت الصـفر، على حين تصـعد درجة الحرارة إلى 70 درجة مئوية فوق الصـفر في الصـحراوات الرملية.. وفي مناطق الشـــمال يتســـاقط الثلج على مدى 260 يوماً.. وفي الشـــتاء تتجمد مياه معظم الأنهار ويمتد التجمد في بعضـــها إلى 220 يوما، أما الروافد الســـفلى لأنهار سـيبريا الشـرقية فتتغطى بالجليد تسـعة شـهور في السـنة.. وفي شـمال شـرق الاتحاد السوفيتي تكون التربة مغمورة " بالثلج الأزلي" ؟ فأين هذا كله من أجوائنا الرحيمة.. حيث الحر محمول، والبرد مقبول، والثلوج أســـابيع وأيام، ثم لا تلبث زهور الربيع أن تطل علينا فواحة بالعبير..

ومن حيث التضـــاريس الطبيعية فإن "الاتحاد" في الاتحاد الســـوفيتي يعتبر معجزة، ففيه سلاسل هائلة من الجبال المتوازنة والمتشابكة، راسية شامخة داخل الاتحاد السوفيتي بين سهوله وصحاريه، وعلى حدوده تتصل بالمحيطات، والدول المجاورة، وتبلغ قمة لينين 7134 مترا، وقمة الشـــيوعية 7495 مترا..

---

[1] أحمد سامي مصطفى وزميله، **جغرافية الوطن العربي** ، ص 8.

ويخترق أراضي الاتحاد السوفيتي مئة ألف نهر (!!) ويبلغ طولها 3 ملايين كيلو متر، فأين ذلك كله من جبالنا القائمة في وطننا العربي، ومن أنهارنا، وليس عندنا غير نهر النيل في المقياس العالمي، ويأتي بعده دجله والفرات في العراق، أما الأنهار الأخرى في الوطن العربي فإنها غدران وسواقٍ يتغنى بها الشعراء، ويتلهى عندها الرسامون والمصورون!!

وثمة مواقع مائية كبرى تصلح حدودا بين الدول، ففي الاتحاد السوفيتي 270 ألف بحيرة (!!) مبثوثة في جميع أنحاء البلاد، والبحيرة الرئيسية هي بحيرة لادوجا، ومساحتها أكبر من بحيرة جنيف بثلاث مرات وتعتبر أكبر بحيرة في أوروبا قاطبة، وينبع منها نهر صالح لملاحة السفن العابرة المحيطات، أما أكبر بحيرات الاتحاد السوفيتي فهي بحيرة بايكال في سبيريا ويبلغ عمقها 1741 مترا، وبذلك تكون أعمق بحيرة في العالم، أما مساحتها فتبلغ 30,5 ألف كيلو متر مربع .. أي أنها أقل بقليل من مساحة ثلاث دول عربية مجتمعة: قطر ولبنان والكويت !!

ويضم الاتحاد السوفيتي شأن الوطن العربي، صحارى جرداء، ومناطق شبه صحراوية، في آسيا الوسطى وغيرها، تتميز بالجفاف.. وهي مناطق يسكنها أقل من فرد واحد في الكيلو متر المربع، تماما كالحال بالنسبة إلى مناطق كثيرة في الوطن العربي.

هذه هي المقارنة للطبيعة بين وطن الاتحاد السوفيتي، والوطن العربي الواحد الذي تقوم عليه عشرون دولة يقل عدد سكانها عن سكان جمهورية واحدة في الاتحاد السوفيتي، وهي جمهورية روسيا الاتحادية (130 مليون نسمة).

أما المقارنات الأخرى فإنها بالغة الدلالة، وهي تضـــع في "الزاوية" فلاســفة التجزئة ودعاة الانفصـــال وعلى رأســـهم الملوك والرؤســـاء.. والوقائع والأرقام تتحدث عن نفسها بنفسها.

وتنقلنا الحقائق والأرقام من طبيعة الأرض إلى طبيعة البشـــر، إلى المائتين وخمسة وأربعين مليونا من الناس الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي* لنرى أن الاتحاد السوفيتي ليس مؤلفا من شعب واحد، ولكن من مجموعة شعوب وأقوام مختلفة في كل شـــيء إلا في المواطنة الواحدة في الدولة الاتحادية، والبلاغات الروسية الرسمية نفسها تتحدث عن "شعوب الاتحاد السوفيتي" عند صدور أي بيان مشترك بين الاتحاد السوفيتي وأية دول أخرى.. ففي هذه الدولة الاتحادية 136 قومية تتكلم بلغاتها، وتمارس تقاليدها، وترتدي ملابسها وأزياءها، وتنعم بطعامها وشرابها، ولكنها تمتلك جميعا الصواريخ عابرة القارات، وحاملات الصـــواريخ الذرية، وســفن الفضـــاء الروســـية التي تجوب بين أفلاك الكواكب، والوحدة هي التي صـــنعت هذه الإنجازات الضـــخمة.. ولولاها لكانت شـــعوب الاتحاد السوفيتي تشق الأرض بالمحراث الخشبي كما نفعل في الوطن العربي..

وهذه القوميات المتعددة يتراوح عددها من الملايين إلى المئات، فبينما يؤلف الروس 55 في المائة من الســـكان، والاوكرانيون 20 في المائة، توجد أقليات قومية يصـــل عدد أفرادها إلى أقل من ألف مواطن – الأورتشـــي – وإلى أقل من 500 مواطن– يوكاحيزر–..!

وخلافا للمجموعات القومية فإن المواطنين الســـوفيت ينتمون إلى مجموعات جنسية أخرى، ففيهم ألمان يبلغ عددهم مليونين، وقرابة نصف مليون

---

* تقدير الأمم المتحدة حتى منتصف عام 1971.

من كل من البلغار والكوريين واليونانيين.. هذا بالإضـــافة إلى أعداد أخرى من مجريين وتشـيك وفرنسـيين وإيطاليين وإسـبانيين وصـينيين ويابانيين وإيرانيين وملدافيين .. ولا ننسـى بضـعة ملايين من اليهود، تذكر دائرة المعارف اليهودية أنهم ليسوا ساميين إطلاقا، وأنهم من قبائل الخزر، تهود أميرهم، وتهودوا معه، في القرون الوسطى.[1]

فـأين نحن من هـذا الخليط من الأقوام والشـــعوب، أين نحن من حضاراتهم وثقافاتهم ولغاتهم.. وأي صعوبة أقسى وأشد من أن الكتب المدرسية في الاتحاد الســوفيتي تطبع بأكثر من ســبعين لغة.. وعندنا فإن اللغة العربية تملكنا ونملكها، نتحدث بها ونتكلم ونتفاهم، إلا حينما يلتقي الملوك والرؤساء في مؤتمرات القمة فليس بينهم لغة مشتركة يتفاهمون فيها !!

وأخيرا علينا أن نتذكر أنه قبل قيام الاتحاد الســوفيتي، تعرضــت البلاد للتجزئة والاحتلال، شأنها في ذلك شأن الوطن العربي. فقد وقعت البلاد الروسية تحت حكم المغول والتتار وأقاموا فيها دولة كبرى أسموها دولة "العشائر الذهبية" دام حكمها مائتين وأربعين عاما.. وفي منتصف القرن الثالث عشر كانت البلاد مجزأة إلى عدة إمارات، ويتلقى الأمراء "تفويضــهم" من "خان" "دولة العشــائر الذهبية" ولم تتخلص روسيا من حكم هذه الدولة إلا في عام 1480.

ثم وقعت البلاد الروسية تحت احتلال آخر، ففي صيف 1610 زحفت القوات البولندية على روســيا، واحتلوا أراضــيها ودخلوا موســكو واســتقروا في

---

[1] راجع دائرة المعارف اليهودية باللغة الإنجليزية تحت مادة " يهودي".

الكرملين!! تمـامـا كـالاحتلالات الأجنبيـة التي وقعـت على الوطن العربي.. واقتحمت العواصم العربية الواحدة بعد الأخرى.*

ثم تنقلنا الحقائق والأرقام إلى الولايات المتحدة، وبالترجمة الدقيقة إلى "الدول الأمريكية المتحدة"، وهي من أروع الأمثلة على نظام الدولة الاتحادية، ومن أبرز مميزاتها أنها تضـم في رقعتها الواسـعة بين المحيط الأطلسـي شـرقا، والمحيط الهادي غربا، مجموعة بشـرية تمثل كل شـعوب الأرض، وسـلالاتها وأجناسـها وألوانها، ففيها الأبيض والأصـفر والأسـود والأسـمر، ولكن أهل هذه القارة الكبيرة قد اختاروا لأنفسـهم جمهورية واحدة تضـم "الدول" الخمسـين التي تتألف منها هذه الجمهورية الواحدة.

والولايات المتحدة اسـم حديث لدولة حديثة، فقد كان اسـمها أصـلا "المسـتعمرات المتحدة" حينما كانت تحت الحكم البريطاني، ولكن هذا الاسـم أصـبح "الدول الأمريكية المتحدة" حينما كانت تحت الحكم البريطاني، ولكن هذا الأسـم أصـبح "الدول الأمريكية المتحدة" في وثيقة الاسـتقلال في تموز 1776 وفي الدستور الذي وضع في عام 1787.. وقد بدأ الاتحاد بثلاث عشرة ولاية، ومع تعاقب الزمن اتسعت رقعة الدولة، بالفتح وبالشراء والضم فأصبحت في عام 1959 خمسين ولاية، وأصبح علمها الواحد مرصعا بخمسين نجمة.

وكما اتسـعت الولايات المتحدة مع الزمن أرضـا ومسـاحة، فقد اتسـعت سـكانا، بالهجرة على الأكثر، كما تزداد بالتوالد في وطننا العربي.. ويبلغ سـكان الولايات المتحدة حسـب تقديرات الأمم المتحدة في منتصـف 1970 مائتين

---

* المعلومات عن الاتحاد السوفيتي الواردة في هذا المفصل مأخوذة من كتاب الاتحاد السوفيتي مطبوعات مكتب يوليو – موسكو.

وســـبعين مليونا، يأكلون فيها كل ألوان الطعام في العالم، من الصـــيني إلى الفرنســي، إلى كل مطابخ الدنيا، ولا ننســى المطبخ اللبناني في هذه المجموعة الكبرى.

وتبلغ مســاحة الولايات المتحدة 9,363,353 ، وفيها أربعة أنهار كبرى وعشـــرات من الجداول والأقنية التي يتراوح طولها بين 300–900 ميل .. أما نهر المســيســيبي وهو الأطول ويبلغ ســتة آلاف ومائتي كيلو متر، ويســميه الجغرافيون الأمريكيون "أب المياه" لأنه يؤلف شــبكة كبرى لخمســة أنهار وكل واحد منها يصـــلح أن يكون حدا طبيعيا لا لدولة واحدة، ولكن لمجموعة من الدول، ولو أن الطبيعة قد نقلت هذا النهر إلى الوطن العربي لكان منبعه في الخليج ومصبه في المحيط !!

وفي الولايات المتحدة مساحات شاسعة من البحيرات في داخل حدودها الإقليمية، بالإضـــافة إلى البحيرة الكبرى التي تتناصـــفها مع كندا الواقعة على الحدود الشمالية.. وسلاسل الجبال راسية حول كل ولاية، والصحارى تلف كل مقاطعة، بحيث تكون كل منها حدودا طبيعية تجعل من هذه الدول الاتحادية، دولا مســتقلة، بينها تمثيل ديبلوماســي، وتمثل في الأمم المتحدة بعدد وافر من الأصوات.. ولكن الشعب الأمريكي يدرك أن الصواريخ عابرات القارات أفضل الأصوات.

وكما تضم الولايات المتحدة أجناسا من كل شعوب العالم، فإن فيها كل مناخات العالم من البرد القارس إلى الحر اللاهب، ومن الرطوبة المرهقة إلى الجفاف الهفهاف.. وكذلك الشــأن بالنســبة إلى اللغة الأمريكية، "ففي كل ولاية لهجة ونغمة، أما المذاهب والطوائف، فهي أكثر عددا مما يعرف العالم من

المذاهب والطوائف، فإن القساوسة الأمريكان يخترعون من حين إلى حين كنيسة عنصـــرية، ويجدون أتباعا ومصـــلين، والأمريكان يتطلعون كل يوم إلى الجديد وإلى المزيد..

وهذه "الدنيا الجديدة" وهو الاســم الشــائع لأمريكا، فإنها في الواقع تمثل الدنيا القديمة، ولكنها تؤلف دولة اتحادية واحدة تضــم تحتها خمســين دولة .. وتحت كل دولة عدد من المقاطعات، وتحت كل مقاطعة عشـــرات من المدن، وتحت كل مدينة مئات القرى، كل ذلك في هرم اتحاد ضخم، يجعل من الولايات المتحدة رائد العالم الغربي، وأحد عمالقة العالم بأسره، ولعله العملاق الأول.

هذه هي الصورة الطبيعية والبشرية للاتحاد السوفيتي وللولايات المتحدة، ولكن الصورة أعظم وأفخم بالنسبة لجمهورية الصين الشعبية، هنا أكثر وضوحا، وأقل تفصيلا، وأكثر بساطة لأن جمهورية الصين الشعبية دولة واحدة اندماجية لا اتحادية.. ولنا فيها عبرة أبلغ، وعظة أوقع..

وحين نتذكر أن عدد سكان الصين حسب تقديرات الأمم المتحدة حتى منتصـــف عام 1971 يبلغ 787,176,000، وهو يتجاوز هذا العام (1975) ثمانماية مليون من البشـــر، تواجهنا الحقيقة الكبرى وهي أن جمهورية الصـــين الشعبية تعتبر أكبر دولة وحدوية اندماجية في التاريخ القديم والوسيط والحديث..

ولو أن مصــائر الصــين كانت بيد الانفصــاليين ودعاة التجزئة العرب، لكان ينبغي أن تقوم فيها ثمانماية وعشـــرون دولة من طراز الدول العربية العشــرين .. وعلى المواطن العربي أن يأخذ القلم والورق، ويحســب لنفســه كما حسبت لنفسي.

وعلينا أن نتذكر كذلك أن سـكان الصـين يؤلفون مجموعة من الأقوام والشعوب، والقومية الرئيسية هي قومية "هان" التي تزيد على تسعين في المائة من سـكان الصـين، ولكن يوجد خمسـون قومية أخرى منتشـرة في جميع أرجاء الصـين يبلغ مجموعهم 140 مليونا.. بزيادة عشـرين مليونا عن عدد سـكان الوطن العربي.

ويتراوح عدد القومية الواحدة في الصـين من مليون نسـمة إلى ما دون، وقومية (اههختشـتة) لا يزيد عدد أفرادها على بضـع مئات، ولكل قومية تقاليدها وأزياؤها، ونوابها في المجالس القومية، وفي مجالس الدولة المركزية..

وفي الصـين أكثر من خمسـة آلاف نهر.. ويبلغ طول نهر اليانفتس 5800 كيلو متر. ثم يـأتي النهر الأصـفر ويبلغ طولـه 4800 كيلو متر، وحوضه 740 ألف كيلو متر مربع، وهو نهر مشهور بشراسته وضراوته في أيام الفيضـانات وكان يسـمى "نهر الكوارث"، أما السـدود والخزانات والقنوات فلا حصـر لها ولا عدد ، وامتداد أطول قناة فيبلغ 1700 كيلو متر كأنها نهر عملاق. وكل شيء في الصين تتجلى فيه ظاهرة "العملاق".

أما جبال الصين فهي تمتد شامخة في كل اتجاه، متوازية ومتشابكة، وتتناثر الوهاد من حولها، وبين ذلك كله صـحارى وبراري وسـهول وبحيرات وغابات، وكل جانب منها يؤلف حدوداً طبيعية لدولة بذاتها، لو أن لعنة الانفصال قد نزلت على أرض الصين.

والجو في الصـين رهيب جبار، إلى جانب الأجواء المعتدلة، وهو كثير التقلب في بعض المناطق، حتى في اليوم الواحد.. ومن الأقوال السـائرة اللطيفة

عن تلك المناطق أن الناس فيها يلبســون الفراء في الصــباح، ثم يخلعونه عند الظهر ليلبسوا الحرير الخفيف.

وتكاد الصـين أن تجاور الدنيا بأسـرها، فلها حدود مشـتركة مع كويا من المشــرق، ومع الاتحاد الســوفيتي في الشــمال الشــرقي والشــمال الغربي، ومع منغوليا في الشمال، ومع أفغانستان وباكستان والهند ونيبال وسكيم في الجنوب الغربي، ومع بورما ولاوس وفيتنام في الجنوب .. وعبر البحار فإن الصـين تطل على اليابان والفليبين واندونيسـيا وغيرها.. أما شـواطئها المتعرجة المتداخلة فإنها تبلغ 14 ألف كيلو متر ..*

وكل هذه "الدنيا" من الخلائق، وكل هذا العالم من الطبيعة تحكمه أيها المواطن العربي، دولة واحدة دولة اندماجية حســب التعريف الشــائع.. واســمها جمهورية الصين الشعبية.

وسـكانها لا ينامون جميعاً أبدا، فحين يكون الأهلون في شـمال شـرقي الصين في مصـانعهم ومزارعهم ومكاتبهم ومدارسـهم، يكون المواطنون الآخرون في غرب الصين غارقين في نوم عميق.

وقد أوردت هذه التفاصـيل، لا للتعريف بالصـين، لكن للتعريف بمقومات الوحدة العربية، وحقائقها العملية، حتى نثبت "بالعلم" أن الوحدة العربية حقيقة علمية تحتاج الأمة العربية لنيلها بالنضال..كما نالت التحرير بالكفاح.

ولقد عانت الصــين من التجزئة والنفوذ الأجنبي، كما عانينا في الوطن العربي، فقد تســلل إليها المبشــرون والتجار، ثم الاســتعمار الأوروبي فاســتنزفوا خيراتها، وأضــافوا إلى ذلك "اســتعمار الأفيون"، ليقضــوا على الشــعب قضــاء

* معلومات الصين مستقاه من كتاب الصين مكتب الاستعلامات الصيني.

مبرما. ولكن الشعب الصيني نهض في النهاية، وبالكفاح المسلح استطاع أن يحقق التحرير والوحدة.. وقامت دولة الصين الحديثة كجمهورية واحدة وحدوية في خريف عام 1949، وجاءت دليلا قاطعاً حاسماً أن "الوحدة" من حيث أنها نظام سياسي، ليست اتجاها معاكسا للتاريخ، وللحضارة المعاصرة كما يتشدق أصحاب اسطوانات الانفصال والتجزئة في الوطن العربي.

والصين تعلن عن نفسها أنها جمهورية واحدة متعددة القوميات وأن هذه القوميات تتمتع بحكم ذاتي.. ولكنها دولة مركزية تمارس السيادة الكاملة على جميع الوطن وجميع الشعب.

ونخلص من هذا العرض الموجز لأحوال العمالقة الثلاثة: الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وجمهورية الصين إلى حقيقة علمية كبرى لا يستطيع أن يهرب منها أي انفصالي حتى ولو كان ملكاً ورئيساً.

هذه الحقيقة العلمية الكبرى أن الوحدة هي التي صنعت هؤلاء العمالقة، ولولا الوحدة ما استطاعوا أن يكونوا عمالقة..

أجل لولا الوحدة لكانت الولايات المتحدة دولة نامية كدول أمريكا الجنوبية، ولكان الاتحاد السوفيتي مؤلفا من عدة دول شأنها كشأن دول أوروبا الغربية والشرقية.. ولكانت جمهورية الصين مؤلفة من دول كثيرة كالدول الأخرى في القارة الآسيوية!!

ولولا الوحدة، لرأينا في الأمم المتحدة عشرات من الوفود الصينية والروسية والأمريكية، وبذلك تصبح هذه المنظمة العالمية مؤلفة من مئات الوفود، ويتعين عليها أن تنعقد عاما بكامله لتسمع إلى خطب الوفود من كافة أرجاء العالم.

هذه حقائق الوحدة الكبرى عن الدول العظمى.. ويبقى علينا أن نلقي نظرة خاطفة وسريعة على الدول الوسطى والصغرى، حتى لا تبقى في "اسطوانات" الانفصاليين أية حجة، ولو تافهة مليئة بالتفاهة..

ونبدأ بالهند، واسمها الرسمي جمهورية الهند، ومساحتها 3,004,736 كم مربع، وعدد سكانها 550,974,000 نسمة، وهي دولة اتحادية مؤلفة من سبع عشرة دولة وعشرة مقاطعات، ويتكلم سكانها 720 لغة ولهجة، ويدينون بمذاهب شتى وينتمون إلى أصول متعددة، وتسود بينهم فوارق اجتماعية واقتصادية وإنسانية من الحضيض إلى الذروة، ويكفي أن يعلم المواطن العربي أن في الاتحاد الهندي ما لا يقل عن ثمانين مليوناً من "الأجناس" و"الفئات المنبوذة" وغير ذلك من الطبقات المختلفة[1]، مما لم تستطع جمهورية الهند حتى اليوم، رغماً عن جهودها الضخمة رفع مستواها.. وأن بعض الكتاب العرب الذين يفلسفون "ترك" قضية الوحدة بسبب التباين الاجتماعي والاقتصادي في المجتمعات العربية، مدعوون أن يزوروا جمهورية الهند ليروا الفجوات الكبرى التي تفصل طبقات المجتمع الهندي بعضه عن بعض .. وسيعودون يومئذ ليروا المجتمع العربي مؤهلا للوحدة، أكثر من كثير من الدول الاتحادية في العالم، وما هو أهم أنهم سيرون في الهند لا ديمقراطية الدستور والشعارات واللافتات، بل ديمقراطية حقيقية يتمتع في ظلها المواطنون بالحياة الحرة.. وسيرون على رأس الحكومة سيدة مثقفة مناضلة، لا ضابطا كبيرا استولى على الحكم بالقوات المسحلة، مع أن الهند هي وطن الفيلة والفحول!!

---

[1] وزارة الاعلام الهندية، كتاب **دستور الهند**.

واندونيسيا، وهي جمهورية اتحادية مساحتها 1,491,564، وسكانها 124 مليونا، بقدر عدد السكان في الوطن العربي، وفي اندونيسيا.. يتكلمون 45 لغة رئيسية و250 لهجة، وليست لها وحدة جغرافية، فهي مجموعة من الجزر، منها خمس جزر كبرى، جاوا وسومطرا وغيرها، ومعها ثلاثة آلاف جزيرة صغرى .. وقد عانى الشعب الاندونيسي كالأمة العربية، بلاء الاحتلال والانفصال، فقد وقعت اندونيسيا تحت احتلال البرتغاليين والبريطانيين، وأخيرا الهولنديين، وبالكفاح والسلاح استطاع الشعب الاندونيسي أن يهزم جيوش الاحتلال ويحقق الاستقلال، وأن يرفع أعلام الوحدة فوق آلاف جزائره المتناثرة وسط البحار..

وكندا، وهي جمهورية اتحادية مساحتها 9.363,353 كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها 21,786,000 نسمة، وتضم هذه الجمهورية، تحت سلطتها الاتحادية عشر مقاطعات، كل مقاطعة منها يمكن أن تؤلف دولة بذاتها بسبب اتساع رقعتها، وينتمي 45 بالمائة من سكانها إلى أصل بريطاني، وبينهم ثلاثون في المائة من أصل فرنسي، ونسبة 22 بالمائة تنتسب إلى أصول أوروبية متعددة، والباقون من الهنود والاسكيمو.

واتحاد كندا له قصة مثيرة، فقد بدأ الاتحاد في عام 1839 بين مقاطعتي لوبك وانتاريو تحت اسم كندا المتحدة .. وقام صراع حاد بين المجتمعات الإنجليزية والفرنسية .. وكما ذكر تقرير رسمي[1] فإن الفرنسيين كانوا أشبه "بجزر اجتماعية قائمة بذاتها"..وفي عام 1864 انعقد مؤتمر كوك ووضع مشروعاً اتحاديا، فلم تقبله إلا ولاية واحدة !! ولكن السعي من أجل الوحدة بقي

---

[1] تقرير درهام Durham Report.

مستمرا، ففي عام 1867 دخلت "الاتحاد الكندي" أربع مقاطعات وانضمت إليه خامسة وسادسة في عام 1870، وسابعة في عام 1873، وثامنة وتاسعة في عام 1905 .. ويبلغ عدد سكان إحدى المقاطعات (يوكوتي) خمسة آلاف نسمة .. كعدد سكان إحدى الإمارات العربية!!

وألمانيا، وهي الآن دولتان الشرقية والغربية، بسبب صراع المعسكرين، مساحتها 356,765 كيلو متراً مربعاً وسكانها 78 مليون نسمة، وراءها أعظم قصة اتحادية رائعة في العصر الحديث.. وفي تفاصيلها شبه كبير بظرف الأمة العربية.. فقد كانت إمبراطورية عظمى – الجرمانية– كالإمبراطورية العربية.. ثم تداعت وتفتتت، وأصبحت في القرن السابع عشر مؤلفة من 1800 وحدة سياسية مستقلة، كل واحدة منها يحكمها أمير له سلطة مطلقة.. وفي عام 1815 قام في ألمانيا اتحاد كونفدرالي مؤلف من 39 دولة .. وكان هذا الاتحاد الفدرالي، أضعف حالا من جامعتنا العربية، غير قادر على ممارسة أية سلطة، ولم يكن يملك أن يصدر أي قرار إلا بالإجماع. تماما كالنص الوارد في ميثاق جامعة الدول العربية.. وفي عام 1848 اجتمع برلمان ألمانيا الوطني في فرانكفورت ولم يستطع أن يضع للدستور "أسنانا"، فقد كانت ألمانيا كحالنا اليوم، مقسمة إلى جمهوريات وملكيات وإمارات. وظلت حركة الوحدة مستمرة يغذيها المفكرون والشعراء والفنانون والعسكريون، إلى أن نشأ الاتحاد الشمالي الألماني (1867) مؤلفا من اثنتين وعشرين دولة، وترك الدستور الباب مفتوحا لدخول الدول الجنوبية.. وكان بين الدول الألمانية حواجز جمركية.. وأنظمة نقدية مشددة، وتشريعات مختلفة.. كل ذلك لحماية مصالح "ملوك ألمانيا وأمرائها" ولكن حركة الوحدة ظلت تشق طريقها لأنها تعبر عن مصلحة الجماهير، وأخيرا

وفي عام 1871 وفي قاعة المرايا في قصـر فرسـاي أعلن قيام الدولة الألمانية الاتحادية.

ولقد كان لبسمارك السياسي الألماني الشهير، الفضل الكبير في بناء وحدة ألمانيا، ولكن أننسى دور المفكرين الألمان، وعلى رأسهم الفيلسوف كانت، الذين كانوا يتطلعون إلى وحدة الشعب الألماني وقيام الدولة الألمانية .. فقد كان المواطن الألماني "يتطلع إلى مكان يسـتطيع أن يقول فيه بصـورة قاطعة هذه ألمانيا" كما قال الشـاعر الألماني الكبير جوتيه في كتابه الذي أصـدره في عام1830".[1]

والبرازيل، واسمها الرسمي "الدولة البرازيلية المتحدة" وهي أكبر دولة في أمريكا الجنوبية وتبلغ مسـاحتها 8.511.965 كيلو متراً مربعاً وسـكانها 96 مليون نسمة وتتسم هذه الدولة الاتحادية بمجموعة من "الطرائف" الوحدوية التي تزيد المواطن العربي إيمانا بدعوة الوحدة العربية.. فإن غالبية سـكانها يدينون بالمذهب الكاثوليكي، ويتكلمون اللغة البرتغالية، و 11 في المائة من السكان من السـود، وينحدر 27 في المائة من أصـل هندي .. ويتألف الاتحاد من اثنتين وعشـرين دولة وخمس مقاطعات ذات حكم ذاتي، ومقاطعة فيدرالية واحدة .. وتبلغ مسـاحة المقاطعة (فراوندو) وهي جزيرة سـبعة أميال مربعة، ومسـاحة مقاطعة أخرى (سـرا) أقل من أربعة آلاف ميل مربع .. كما يبلغ عدد سـكان مقاطعة (برانكو) ثلاثة عشر ألف نسمة ، ولهم عاصمة اسمها "بوفستا" وكلها مقاطعات ذات حكم ذاتي ضـمن الدولة الاتحادية البرازيلية.[2] يوغسـلافيا خير

---

(1) Study of Nationalizm : Royal Intitute.

(2) Welslers geographical Dictionary Page 155.

مثل في العصر الحديث على الدولة الاتحادية، فهي مؤلفة من ست جمهوريات ومقاطعتين تتمتعان باستقلال ذاتي، وسكانها الذين يبلغون 21 مليون نسمة يدينون بأربعة أديان، وينتمون إلى خمس قوميات، ويتكلمون ثلاث لغات، ويكتبون بأبجديتين.. وهذه القوميات الخمس متمايزة فيما بينها بثقافاتها وحضارتها وتاريخها، ولكنها تشترك في إدارة وحدوية واحدة، رغم أن "الوطن" اليوغسلافي، إلى عهد غير بعيد، كانت بعض مقاطعاته تابعة للإمبراطورية النمساوية والمجرية، والبعض الآخر تابعاً للإمبراطورية العثمانية، تماما مثل الوطن العربي الذي كان تابعاً للإمبراطوريات: العثمانية والبريطانية والفرنسية والإيطالية .

ونيجيريا تمثل أروع مثل اتحادي في القارات الست، فهي جمهورية تقع في غرب إفريقيا، تبلغ مساحتها 932.768 كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها 57 مليون نسمة، وهي بلاد متخلفة قبلية، أو نامية بالتعبير الأكثر تهذيبا.. ذلك أن المجتمع القبلي يسود جميع مناطقها، والقبائل بالعشرات وأهمها الهوس والغلاني في الشمال وقبائل الأيبو في الجنوب .. وفي عام 1967 أعلن الجنرال أوجوكو حاكم شرق نيجيريا الانفصال عن الاتحاد وأنشأ دولة مستقلة "بيافرا"، وتعاطف معها بعض القرى الاستعمارية، ونشبت الحرب الداخلية وانتصرت الوحدة وانهزم الانفصاليون، وعادت بيافرا إلى حظيرة نيجيريا الاتحادية، وتواصل جمهورية نيجيريا مهمتها الكبرى في تحويل المجتمع القبلي إلى مجتمع حضري .. والمجتمع القبلي عندنا زال أو يكاد.

وتانزانيا هي خير خاتمة لهذه النماذج الاتحادية، مساحتها 939.703 كيلو متر مربع وسكانها 14 مليون نسمة، وهي جمهورية اتحادية تقع في شرق

إفريقيا، ولاتحادها قصـــة تثير الوجدان العربي حقا، فهذه الجمهورية كانت في الأصل قطرين منفصلين: تنجانيقا وتقع على ساحل المحيط الهندي في إفريقيا، وزنجبار وهي مجموعة جزر في المحيط الهندي.. وقد غزا البرتغاليون البلاد في القرن السـادس عشـر وظلوا فيها حتى القرن الثامن عشـر.. وفي عام 1885 أصبحت جزءا من مستعمرة إفريقيا الشرقية الألمانية، وهبت رياح الاستقلال على إفريقيا، فأصـبحت تنجانيقا دولة مسـتقلة بهذا الاسـم في عام 1961، واسـتقلت زنجبار وأصـبحت دولة مسـتقلة بهذا الاسم في عام 1963 .. وفي عام 1964 اجتمع رئيسـا الدولتين ووقعا اتفاق الوحدة بينهما، وأصـبح اسـم الدولة الاتحادية الجديدة " تنزانيا" منحوتا من أسمي الدولتين السابقتين.*

هذه هي الحقائق التاريخية والجغرافية لعدد من الدول الاتحادية في العالم .. وكل دولة فيها يصـح أن تكون موضـوع كتاب مسـتقل يروي قصـة الاتحاد وسيرته من البداية إلى النهاية.

وقد جعلت تانزانيا خاتمة هذا الفصل، تانزانيا التي يسودها مجتمع قبلي أكثر تخلفا من أكثر الأقطار العربية تخلفا، ويفصل البحر بين إقليميها، وينحدر أهلها من العرب والإفريقيين والآسـيويين، ويتكلمون لغات محلية، إلى جانب العربية والإنجليزية.

حكاية تانزانيا هذه ومعها الحقائق التاريخية والجغرافية والاتحادية التي سـردتها في هذا الفصـل أهديها بأجمعها درسـا إلى الملوك والرؤسـاء.. لعلهم يقرأون ويهتدون .. ولعلهم يفعلون ما فعل الرئيسـان في تنجانيقا وزنجبار..وهذا رجاء ودعاء .. وإن كان رجاء اليائس، ودعاء من غير رجاء..

---

* أرقام المساحة والسكان مأخوذة من تقديرات الأمم المتحدة حتى منتصف عام 1971.

الوحدة العربية .. وفلسطين

وفلسطين.. والوحدة العربية

كانت فلسطين هي الضحية الكبرى للتجزئة والانفصال .. وكان شعب فلسطين أكثر الشعوب العربية تعلقا بالوحدة ودعوة لها وسعيا لتحقيقها.. وقد برزت هاتان الظاهرتان منذ أكثر من خمسين عاما، وسيظل التفاعل بين الوحدة قائما حتى تنهض الوحدة وتتحرر فلسطين، أو تتحرر فلسطين وتنهض الوحدة .. والنضال على الساحتين بظروفه وملابساته هو الذي يقرر الخيار بين الطريقين أيهما أولا: الوحدة أم التحرير..

والتجزئة بلا مراء، قد أوقعت بالأمة العربية أفدح الشرور، فأخرت نهضتها وأعاقت مسيرتها، وعزلت الأقطار العربية بعضها عن بعض، وشلت تقدمها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وما هو أسوأ من ذلك، فقد خلفت التجزئة أوضاعا إقليمية متعددة في الوطن العربي الواحد، اجتماعية واقتصادية وتشريعية، تجعل الأقطار العربية غريبة عن بعضها البعض، وتجعل المواطن

العربي "أجنبيا" في القطر الذي يجاوره، وبذلك أصـبحت قضـية الوحدة محور نقاش وجدال، مع أنها بديهية لا يتطرق إليها شك أو بهتان.

ومع كل هذه المساوئ التي جلبتها التجزئة، على المواطن العربي عامة، إلا أن المصـيبة الدهماء التي أنزلتها التجزئة بفلسـطين وطنا وشـعبا قد تعدى خطرها إلى الأمة العربية جمعاء، وأصبحت تواجه ثلاث مصائب كبرى: الأولى انسـلاخ فلسـطين عن الوطن العربي، والثانية انسـلاخ الأقطار العربية بعضـها عن بعض.. وثالثة الأثافي قيام إسـرائيل في قلب الوطن العربي مهددة الأمة العربية في حضارتها واقتصادها وثقافتها، بل في وجودها كاملة.

وكان الشـعب الفلسـطيني أسـبق الشـعوب العربية إلى إدراك هذه المخاطر، لا لأنه يملك وعيا أكبر من بقية إخوانه في الوطن العربي، ولكن لأنه كان الضـحية الأولى التي استهدفها الاستعمار والصـهيونية.. ومن هنا أصـبح أكثر وعيا بخطر التجزئة، وأشـد سـعيا لتحقيق الوحدة، وجاءت الخمسـون عاما من النضال العربي والفلسطيني لتؤكد الحقيقة مرة بعد مرة، وهي أن التجزئة هي سـبب هذه الكوارث العظمى، وأن الوحدة هي صـخرة الخلاص .. الخلاص من إسرائيل، ومن الجهل والمرض والفاقة.

وقد تجلت هذه الحقيقة أول ما تجلت على أرض فلسـطين .. فمنذ أن علم الشـعب الفلسـطيني في أعقاب الحرب العالمية الأولى أن وطنه سـيصـبح وحدة سياسية منفصلة عن الوطن السوري، ليصبح وطنا قوميا للشعب اليهودي، ثارت أحاسيسه القومية للدفاع عن وطنه الصغير، وعن الوحدة الكبرى، فأنشئت الجمعيات الوطنية في كل أرجاء فلسـطين.. وسـميت بالجمعيات الإسـلامية المسيحية توكيدا للتضامن بين المسلمين والمسيحيين في مواجهة الغزوة اليهودية

التي بدأت طلائعها المهاجرة تصل تباعا إلى شواطئ فلسطين.. وكان شعار الوحدة في ذلك العهد يعني وحدة الأقطار العربية : فلسطين، شرق الأردن، لبنان، سوريا.

وتسامع الأهلون أن "مؤتمر السلام" يوشك أن ينعقد في باريس لتقرير مصير الأقطار العربية التي انسلخت عن الدولة العثمانية، فنشطت الحركة الوطنية في فلسطين، وتنادى الأعيان والوجهاء والشباب إلى دعوة الجمعيات الإسلامية والمسيحية إلى مؤتمر وطني عام يدرس ما أصبح يعرف منذ ذلك الوقت "بالقضية الفلسطينية"، والموقف الذي يتوجب اتخاذه إزاء الخطر الذي يهدد مستقبل البلاد.

وانعقد المؤتمر الفلسطيني الأول (1919/2/1-9/27) في مدينة القدس، وحضره سبعة وعشرون مندوبا يمثلون سائر الجمعيات الإسلامية والمسيحية في فلسطين، وبادر المؤتمر قبل أن يدخل في نقاش مستفيض حول شئون القضية الوطنية إلى إرسال برقية عاجلة إلى مؤتمر الصلح بواسطة السلطات البريطانية في فلسطين، يعلن فيها "أن مندوبي جميع بلدان سورية الجنوبية العاقدين مؤتمرهم في القدس، قرروا قبل الخوض في أي بحث، أن يرفعوا احتجاجهم الشديد على ما سمعوه من جعل بلادهم وطنا قوميا لليهود ... وهم يرفضون أن يبت في مصير بلادهم إلا طبق رغباتهم التي سيرفعونها على يد السلطة العسكرية".

فكانت هذه أول رسالة رسمية يبعث بها الشعب الفلسطيني إلى مؤتمر السلام، يسمي فيها وطنه بأنه "سوريا الجنوبية" ويرفض إنشاء الوطن القومي

اليهودي، وكانت هذه الرسالة كذلك أول احتجاج رسمي على "التجزئة" وعلى الاستعمار اليهودي.

واستمر المؤتمر الفلسطيني قرابة أسبوعين، يناقش مختلف جوانب القضية نهارا، ويحضر الاجتماعات الشعبية ليلا، وكانت الاجتماعات الشعبية تنادي بالوحدة السورية وتستنكر الغزوة اليهودية.. ففي الحفل الذي أقيم تكريماً لأعضاء المؤتمر اشتدت الحماسة الوطنية، وتعاقب الخطباء ينادون بتوكيد الوحدة السورية، وأن فلسطين هي سوريا الجنوبية، وانتهى الحفل بنشيد الأمير فيصل، وكان قد اختاره والده الشريف حسين ليعرض المطالب العربية على مؤتمر السلام.

وانتهى المؤتمر من أعماله بعد أبحاث مستفيضة عن القضية الوطنية فأعلن قرارات قومية، يقرأها الجيل المعاصر بعد خمسة وخمسين عاما، ويرى فيها التوكيد على الوحدة توكيدا يبعث على الإعجاب ، ومن هذه القرارات:

"أولاً: إننا نعتبر فلسطين جزءا من سوريا العربية، إذ لم يحدث قط أن انفصلت عنها في أي وقت من الأوقات ونحن مرتبطون بها بروابط قومية، ودينية ولغوية وطبيعية واقتصادية وجغرافية".

" ثانياً: نحن نرفض التصريح الذي أدلى به وزير خارجية فرنسا بشأن حقوقنا في بلدنا لأن تمنياتنا ومطامعنا تنحصر في الوحدة العربية والاستقلال التام".

" ثالثاً: .. إننا نعرب عن رغبتنا بأن لا تنفصل سوريا الجنوبية (فلسطين) عن حكومة سورية العربية .."

" رابعاً: .. نعتبر كل وعد صـــدر أو معاهدة عقدت فيما يتعلق ببلادنا ومستقبلها، لاغيين وباطلين ونحن نرفضهما".

" خامســاً: .. ســنطلب العون(الدولي).. شــريطة أن لا ينتقص من استقلالنا أو يؤثر في الوحدة العربية بأي شكل من الأشكال..[1]

ويتضـح من هذه القرارات أن قضـية الوحدة كانت هي الموضـوع الأول والأخير عند المؤتمر الفلسطيني الأول، وأن رفض التجزئة، قد سبق الكلام عن الغزوة اليهودية.. فقد كانت الأولى هي الباب الذي دخلت منه الثانية..

ولم تبق محاضـــر تلك الاجتماعات لنتعرف على هواجس المؤتمرين وخواطرهم في ذلك العهد الوطني.. وبصـــورة خاصـــة، حوافزهم في ذلك الوقت المبكر إلى الوحدة، إلا أن أديبا وسياسيا من الرعيل الأول قد سجل في مذكراته عن المؤتمر الفلســـطيني الأول قبل يوم واحد من انعقاده (26 كانون الثاني 1919) فقال في عبارة تفيض بالحمية والإيمان".. نحن ندعو إلى الجامعة العربية، (مرادف آخر للوحدة العربية في الأدب السـياسـي لذلك العهد) واعتبار فلسطين جزءاً منها واعتماد صاحب السمو الأمير فيصل بن الشريف حسين ممثلا للجامعة العربية في مؤتمر الصلح .. ونحن لا نوافق على فصل فلسطين عن الجامعة العربية، فإذا فصلت فلا بد أن يكون مصيرها يهوديا".. وقد عزمنا أن نوحد كلمة الوفود كلهم على عقيدة الجامعة العربية، وأن فلســـطين ليســـت للفلسطينيين بل هي للجامعة العربية "..[2]

---

[1] عبد الوهاب الكيالي، **قضية فلسطين** ، ص 127-128.

[2] **يوميات خليل السكاكيني**، ص 165 - 128.

وثمة مصدر آخر قد كشف عن الارتباط العضوي بين الوحدة وقضية فلسطين، فقد كتب أحد رجال المخابرات البريطانية في تقرير أعده بعد انفضاض المؤتمر الفلسطيني الأول بأسبوع واحد(15 شباط 1919) يقول: " إن الخوف من الصهيونية هو السبب الرئيسي الذي يدفع الشباب من العناصر الموالية للوحدة العربية نحو العطف على الاتحاد مع سوريا العربية المستقلة، فبانضمام فلسطين إلى سوريا العربية يصبح في وسع شعب فلسطين بمساعدة العرب الآخرين، أن يقاوموا بنجاح الهجرة اليهودية"[1] .. وهذا التقرير كان ينطق حقا بلسان الشعب الفلسطيني .

وهكذا وضحت في أوائل عام 1919 معادلة سياسية بارزة كالمعادلة الحسابية بطرفيها: الاستعمار والصهيونية يعملان على فصل فلسطين عن سورية لأن ذلك يسهل إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، والحركة الوطنية الفلسطينية تناضل من أجل الوحدة مع سوريا حتى يستطيع عرب فلسطين وسوريا معا مقاومة الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية بالذات..

وكانت الحركة الصهيونية مدركة منذ البداية لهذه المعادلة الأساسية، ذلك أنه قبل أن ينعقد المؤتمر الفلسطيني الأول بأسبوعين (12كانون الثاني 1919) قدمت لجنة من الخبراء الأمريكيين الصهيونيين تقريرا إلى رئيس الولايات المتحدة يوصون فيه " إنشاء دولة منفصلة في فلسطين.. وأن فصل المنطقة الفلسطينية عن سوريا له ما يبرره في الخبرة الدينية للإنسانية (!!) فالكنيستان اليهودية والمسيحية أبصرتا النور في فلسطين ..وكانت القدس لسنوات طويلة، وفترات مختلفة، عاصمة لكل منهما(!!) ومع كون صلة

---

[1] عبد الوهاب الكيالي، **قضية فلسطين**، ص 126.

المســلمين بفلســطين غير دقيقة إلى الدرجة نفســها(!!) فقد اعتبروا القدس منذ البداية مكانا مقدســا، ولا يمكن إيفاء هذه الحقوق الكبرى نصــيبها من الأهمية إلا بجعل فلسطين دولة قائمة بذاتها ".(!!!!)[2]

وهذا كلام له حجم كبير كالعهن المنفوش، ولكنه لا يستند إلى الحقيقة، وقد اكتفيت بأدوات التعجب الأربع بدلا عن التعليق الجاد على هذه الدعاوى الهزيلة التافهة.

وجاءت بعد ذلك مناسبة دولية كبرى أكد فيها الشعب الفلسطيني تمسكه بالوحدة وإصــراره عليها، ففي أعقاب مؤتمر الصــلح الذي انعقد في باريس (ربيع 1919) قرر الرئيس الأمريكي ولســـن إيفاد لجنة تحقيق إلى البلاد العربية للتعرف على رغبات أهلها، وعرفت اللجنة باسم عضويها: لينج – كرين– وكانت أول لجنة دولية تدرس القضية الفلسطينية دراسة جادة ومنصفة.

وقد وصلت اللجنة إلى ميناء يافا في اليوم العاشر من حزيران(1919) وبدأت أعمالها بإذاعة بيان قالت فيه: إن الشـــعب الأمريكي ليس له مطامع سياسية في أوروبا والشرق الأدنى .. ويرغب بإخلاص أن يسود السلام الدائم، وأنه بهذه الروح يدنو من مشــاكل الشــرق الأدنى .. وأن غاية اللجنة الأمريكية الموجودة الآن الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان والطبقات وعلاقاتهم، ليكون الرئيس ويلسون والشعب الأمريكي على بينة من الحقائق في كل سياسة يدعى إلى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى سواء كان ذلك في مؤتمر الصلح أم في جامعة الأمم.

---

[2] الدكتور أسعد رزوق، **إسرائيل الكبرى**، ص 286.

وبادرت اللجنة إلى القيام بعملها بهمة ونشـــاط، فمكثت في القدس أسـبوعاً واحدا، وقامت بزيارة مدينة بيت لحم الشـهيرة، بمقامها الديني في العالم المسـيحي، وواصـلت زيارتها إلى الخليل وبئر السـبع في جنوب فلسـطين، ثم طافت بشمالي فلسطين، واستقبلت الوفود الفلسطينية في رام الله ونابلس وجنين والناصـرة وحيفا وعكا، واشـتعلت مشـاعر الحماسـة في نفوس أبناء الشـعب الفلســطيني فكتبوا العرائض ونظموا الاجتماعات الوطنية، وأعربت وفودهم إلى اللجنة عن تصميم الشعب الفلسطيني على الاستقلال.[1]

ولقد استغرق عمل اللجنة الأمريكية قرابة سبعة أسابيع(حتى أوائل آب 1919) زارت خلالها بالإضـافة إلى فلسـطين، المدن السـورية، فاسـتمعت إلى الوفود وتلقت العرائض واجتمعت بالهيئات الوطنية وفي مقدمتها ممثلو وفد المؤتمر السوري الذي كان منعقدا في دمشق في تلك الفترة التاريخية.

وكان المؤتمر السـوري قد انعقد في أوائل شـهر أب 1919، وحضـره ممثلون عن الأقطار السورية: فلسطين، شرق الأردن، لبنان وسوريا، وكان عدد المندوبين 69 عضوا، واتخذ المؤتمر عدة قرارات بشأن مستقبل البلاد السورية.. جاء في البند الأول منها" المطالبة بالاسـتقلال السـياسـي التام الناجز للبلاد السورية التي تحدها شمالاً جبال طورس وجنوباً رفح .. بدون حماية ولا وصاية"، وجاء في البند الثاني أن الانتداب هو " مسـاعدة فنية واقتصـادية، وأن تقدم الولايات المتحدة هذه المسـاعدة الفنية والاقتصـادية على أن لا تمس اسـتقلال البلاد السياسي التام ووحدتها".. تماما كمطالب الوفود الفلسطينية التي استمعت إليها اللجنة الأمريكية في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية ..

---

[1] انظر :أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء**.

وقد خص المؤتمر السوري القضية الفلسطينية بثلاثة قرارات محددة ومن الإنصاف للوحدة العربية ولنضال الرعيل الأول أن تثبت نصوصها، كما قدمت إلى اللجنة الأمريكية: وهي كما يلي:-

سابعاً: إننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية، أي فلسطين، وطنا قوميا للإسرائيليين، ونرفض هجرتهم إلى أي قسم من بلادنا، لأنه ليس لديهم فيها أدنى حق، ولأنهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات القومية والكيان السياسي، أما سكان البلاد الأصليون من إخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا."

" ثامناً: إننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريا المعروف بفلسطين .. عن القطر السوري، ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان."

" عاشراً: إن القاعدة الأساسية من قواعد الرئيس ولسون التي تقضي بإلغاء المعاهدات السرية، تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا السورية (اتفاق سايكس بيكو)، أو كل وعد خصوصي يرمي إلى تمكين الصهيونيين (وعد بلفور) من القسم الجنوبي من بلادنا، ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي حال كان".[1]

وهكذا كان موقف فلسطين من الوحدة السورية، وموقف سوريا من الوحدة مع فلسطين، كما أعربت عنه القيادات الشعبية والرسمية في كل من فلسطين وسوريا إلى اللجنة الأمريكية.. وهذه بدورها رفعت تقريرها إلى الرئيس ويلسون، وأبدت فيه الموقف العربي، ولم تلتفت إلى المطامع الاستعمارية التي

---

[1] جورج انطونيوس، **يقظة العرب** ، ص 405.

أطلت برأسـها على البلاد العربية في ذلك العهد: الفرنسـية في سـوريا ولبنان، والإنجليزيـة في فلسـطين وشـرق الأردن والعراق، وأخيرا لا آخرا المطـامع الصهيونية بإقامة دولة يهودية في فلسطين.

وفي عبارة تاريخية حاسمة تناولت اللجنة في تقريرها القضية الصهيونية والوحدة فقالت:" لقد اتضـح لهذه اللجنة أن الشـعور العدائي للصـهيونية ليس مقصورا على فلسطين فحسب بل يشمل سكان سوريا بوجه عام، فإن 72% من مجموع العرائض التي تلقتها اللجنة في سـوريا مضـادة للصـهيونية، ولم ينل مطلب نسبة أكثر من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال.."

وبالنسبة إلى شعب فلسطين بالتحديد قالت اللجنة في تقريرها.. "وقررت الأحزاب التي اجتمعت في يافا أن سوريا أهل لحكومة مستقلة بلا وصـاية، وأنه إذا أصـر مؤتمر الصـلح على تعيين دولة (منتدبة) فإنهم يفضـلون الولايات المتحدة، وقد أيد الناس في القدس وغيرها من مدن فلسـطين هذا القرار.. وقد اتفقت كلمة المسـلمين والمسـيحيين على مقاومة الصـهيونية وهذه المسـألة ذات علاقة كبيرة بوحدة سوريا.."

وبعد أن شـجبت اللجنة الأمريكية الدعاوى الصـهيونية من الجوانب التاريخية والسـياسـية، وأعلنت معارضـتها لإقامة دولة يهودية في فلسـطين، وختمت تقريرها بقولها: "لا يوجد هناك سـبب يمنع ضـم فلسـطين إلى سـورية المتحدة..".

ولا بد للمواطن المعاصر اليوم أن يدهش وهو يقرأ أن الشعب الفلسطيني .. ومعه السـوري– كان يطالب بانتداب أمريكا إذا كان لا بد من دولة منتدبة.. وخاصة بعد أن انفردت أمريكا في الربع الأخير من هذا القرن بالعمل على إقامة

الدولة اليهودية – إسرائيل– ومساندتها بالأموال والسلاح في السلم والحرب على السواء..

غير أن المواطن العربي يستطيع أن يفهم الموقف إذا رجع إلى الأوضاع الدولية قبل نصف قرن من الزمان .. ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها (1918–1914) كانت صورة الدولة المنتصرة في نظر الشعب العربي يومئذ، أن الإنجليز والفرنسيين طامعون في الشرق العربي كله، وأنهم يعملون على تجزئته واقتسامه، والسيطرة على مقدراته تحت ستار نظام الانتداب.. وهو الذي كان طبعة عنصرية حديثة عن نظام الحماية والوصاية.

أما الولايات المتحدة فقد كانت تبدو للمواطن العربي إنها دولة ديمقراطية، ليست لها مطامع استعمارية، كما أعلنت اللجنة الأمريكية.. وأنها تتمسك بالمبادئ الرفيعة التي أعلنها الرئيس الأمريكي ويلسون، وفي مقدمتها حق الشعوب في تقرير مصيرها.

ولهذا، فقد كان الخوف من مطامع الإنجليز والفرنسيين، والطمع "في عدالة أمريكا" وديمقراطيتها وابتعادها عن المطامع الاستعمارية، هما السببين الرئيسين في إصرار الشعب العربي في فلسطين وسوريا على تفضيل انتداب أمريكا ،إذا لم يكن الاستقلال العاجل ممكن التحقيق.

وقد خلف لنا الأستاذ خليل السكاكيني معاصر تلك الحقبة، ذكرياته عن هذه الأسباب وصلتها بقضية الوحدة، فقال في حديث له مع حاكم القدس البريطاني (13 نيسان 1919) " لست أكتمك أن الرأي العام في البلاد يكاد يجمع على انتداب أمريكا، لأنهم رأوا أن إنجلترا هي التي وعدت اليهود بإعطائهم فلسطين كوطن قومي لهم.. فإذا انتدبت إنجلترا للوكالة على سوريا وفلسطين

تشبث الفرنسيون بأخذ سوريا، وهذا لا يوافقنا، لأننا لا نريد أن نتجزأ ويتولى كل جزء من بلادنا دولة.. بل إذا كان لابد من الانتداب فيجب أن تكون البلاد في عهدة دولة واحدة حرصاً على وحدتنا ولأن إنجلترا وفرنسا تتنازعات النفوذ في بلادنا، فإننا مضطرون أن نختار أمريكا، الأمة التي تخلصنا من الصهيونية وتخلصنا من التجزئة.."[1]

رحم الله الجيل العربي السابق، لقد كان يخاطب التاريخ.. وكان مستميتا في مناهضة الصهيونية والتجزئة.. لأنه كان يرى بفراسته وبصيرته النافذة الترابط العضوي بيننا، ترابط النتيجة بالسبب.. وقد رأى الجيل العربي اللاحق كيف فقست التجزئة النكبات المتوالية: الوطن القومي اليهودي، قيام دولة إسرائيل، احتلال فلسطين بأكملها، ومن حولها الأرض العربية من شرم الشيخ إلى جبل الشيخ.

وحين أقول أن الجيل السابق كان يخاطب التاريخ كأنه يراه ببصيرته الحية، فذلك هو الحق كل الحق، فإن الرجوع إلى ما بقي من أوراق الشعب الفلسطيني بعد أن تبعثرت سجلاته ومكتباته، سيجعل المواطن العربي المعاصر في دهشة وحيرة، وهو يرى الفراسة الصادقة التي كان يتمتع بها "الآباء " الفلسطينيون الأوائل.. ففي "عريضة" قدمته الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا إلى الجنرال وطسن القائد العسكري العام لفلسطين ، نجد نبوءة النكبة صائحة نائحة في سمع التاريخ حين تقول "وأعجب من هذا أن فلسطين المسكينة التعسة المنكودة الحظ صارت ألعوبة بيد السياسيين الدوليين، فقد جعلوا يقترحون اقتراحات تبرهن لنا على أن الشعب العربي الموجود في فلسطين اليوم لا يأتي

---

[1] المصدر السابق، ص 176.

عليه نصف قرن وهو في عالم الوجود، إذ يقترحون فصل فلسطين عن سورية وجعلها وحدة سياسية منفصلة، ولعمري لا ندري ما هي الوحدة المنفصلة.[1]

مرة ثانية، رحم الله الجيل السابق كيف أبصر النكبة من خلال التجزئة .. وكيف توالت خمسون عاما على الشعب الفلسطيني ولم يعد "في عالم الوجود".. والوطن هو عالم الوجود، ولا وجود بعده.. ولا يكون الوجود إلا بالعودة إليه.. حرا كريما..

وبعد سفر اللجنة الأمريكية استمر الشعب الفلسطيني ينادي بالوحدة وينتهز كل مناسبة للإعراب عن تعلقه بالوحدة والإصرار على قيامها.. ففي العشرين من شهر آب 1920 أرسلت الجمعية الإسلامية المسيحية بالقدس مذكرة إلى الحاكم العسكري البريطاني بفلسطين ،قبل قيام إدارة الانتداب المدنية.. تعلن فيها رفض الشعب الفلسطيني فكرة الوطن القومي اليهودي، وفصل فلسطين عن سورية، وأشارت إلى " المكاتبات السابقة التي طلبنا فيها عدم فصل فلسطين عن سورية، واحتججنا على ما ينوى من تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود.. ونكرر الآن طلبنا عدم فصل فلسطين عن سوريا بحال من الأحوال".[1]

وفي مطلع العام – 7 كانون الثاني 1920 – زار الجنرال بولز، الحاكم العسكري العام، مدينة نابلس، وأعلن لأعيانها أن مؤتمر الصلح سيبت في مصير البلاد قريبا بفصل فلسطين عن سوريا وأنه سيمنح اليهود حق الهجرة إليها، فسارعت اللجنة إلى تقديم مذكرة شديدة اللهجة إلى مؤتمر الصلح، محتجة

---

[1] **جريدة المقطم** ، القاهرة 1919/11/8.

[1] مكتب السجلات العامة بلندن.

على فصـل فلسـطين عن سـورية، والذي يعني " تمزيق البلاد العربية إرضـاء للمصـالح الاسـتعمارية..إذ كيف يجيز الحق والعدل اللذان جعلتهما دول الحلفاء شـعارا لها في هذه الحرب تفريق الأمة المجتمعة، بينما نرى مؤتمر الصـلح يلم شـتات الأمم المبعثرة كأمة التشـيك واليوغسـلاف.. إن أعظم جريمة يرتكبها المتمدن الأوروبي هي ظلمنا في تقرير فصـلنا عن سـوريا، وتمكين اليهود في بلادنا.. وإذا تم قرار مؤتمر الصـلح على هذا الوجه فإن الأمة العربية تنظر إلى ذلك نظرها إلى عمل أريد به تمزيق العرب واغتصـاب بلادهم.. وتعده خيانة لها من حلفائها".[1]

وحينما حملت وكالات الأنباء إلى الشعب الفلسطيني أن مجلس الحلفاء في سـان ريمو قد أعلن الانتداب البريطاني (20 ابريل 1920) على فلسـطين وضـمنه الالتزام بتنفيذ وعد بلفور، تنادت الجمعيات الإسـلامية والمسـيحية في فلسـطين إلى مؤتمر عام، فقرر إرسـال احتجاج يعلن فيه باسـم الشـعب الفلسـطيني، رفض الانتداب ووعد بلفور، ونعلن أننا لا نتخلى عن مطالبنا المتحضـرة في اسـتقلال سـوريا المتحدة من طورس إلى رفح ورفض الهجرة الصـهيونية رفضـا تاما، وعدم فصـل فلسـطين عن سـورية، لأن ذلك يضـر بمصالحنا الاقتصادية والعمرانية والمصالح الوطنية القومية والمحلية".[2]

ولم يقتصـر نشـاط الشـعب الفلسـطيني على الجهد السـياسـي بعقد المؤتمرات وإرسـال الاحتجاجات، بل تعدى ذلك إلى الإعداد للكفاح المسـلح فقد أنشـئت جمعية سـرية أطلق عليها اسـم "جمعية الفدائية" تعمل "على تسـليح

---

[1] **جريدة الأفكار**، عدد 124، تاريخ 1920/1/16.

[2] عيسى الحضري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، ص 37 – 38.

الأعضـــاء بالأســـلحة الخفيفة ..وتعليم عدد محدود من الأعضـــاء اللغة العبرية حتى يمكنهم متابعة ما يقال أو ينشـر في الصـحف العبرية.. والاتفاق مع رجال البوليس والدرك على تســليم أســلحتهم أو على الأقل عدم وضـــع العقبات في الطريق إذا ما نشبت الثورة .. وتشرب الأطفال مبادئ الوحدة العربية ولا سيما طلاب مدرستي الرشيدية وروضة المعارف"[3] ولا أحسب أن في الوطن العربي حكومة عربية واحدة تشرب الأطفال مبادئ الوحدة العربية في المناهج المدرسية بصورة وافية، كما كان الحال في هاتين المدرستين المقدسيتين..

وفي أوائل شـــهر شـــباط من عام 1920 أعلن الجنرال بولز القائد العام العسكري لفلسطين أن الحكومة البريطانية عازمة على إنشاء وطن قومي يهودي وتسـهيل الهجرة اليهودية إلى فلسـطين، فكان ذلك الإعلان وقودا جديدا، للحركة الوطنية في فلسـطين، وتصـاعد النزوع الشـعبي للنضـال من أجل الوحدة، وجاء يوم الجمعة (27 شباط) فانطلقت الجماهير من ساحة الحرم الشريف في القدس في مظاهرة كبرى بلغت خمسين ألفا وطافت شوارع المدينة، وخطب الخطباء في الميادين العامة منددين بالتجزئة والاستعمار والصـهيونية.. وفي نهاية المظاهرة قدمت الجمعية الإســلامية المســيحية مذكرة عنيفة إلى الســلطات العســكرية في فلســـطين تؤكد فيها "جميع مطالبنا التي قدمناها إلى اللجنة الأمريكية، وهي اســـتقلال ســـوريا التام بحدودها الطبيعية من طورس إلى رفح، وعدم فصـــل فلسطين عنها، ورفض الهجرة الصهيونية، التي نحن على استعداد تام لمقاومتها

---

[3] عبد الوهاب الكيالي، **قضية فلسطين**، ص 141.

إلى آخر رمق في الحياة.."[1] وقامت مظاهرات أخرى في سائر أرجاء فلسطين وكان ذلك بداية النضال الوطني في فلسطين.

وأطل الربيع في عام 1920 ليشهد موجة عارمة يضطرب فيها حبل الأمن، وتتسم بالهجوم على المستعمرات والأحياء اليهودية.. ففي هذا الوقت من كل سنة يقوم موسم شعبي، أنشأه السلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي في أيام حروبه مع الإفرنج، ويعرف هذا الموسم، بموسم النبي موسى، فتتوافد الجماهير من جميع أنحاء فلسطين للقيام بمظاهرات معادية للاستعمار الصهيوني، وساروا في الشوارع يهتفون للوحدة وهم ينشدون " .. بلاد العرب أوطاني.. من الشام لبغدان" وصورة الملك فيصل بن الشريف حسين مرفوعة إلى جانب راية الثورة العربية المربعة الألوان .. وفي الأيام التالية قام الشباب الفلسطيني بالإغارة على المواقع اليهودية، بما بأيديهم من العصي والحجارة والسكاكين والسلاح، فأوقعوا في اليهود عددا من القتلى ومئات الجرحى.. وقالت اللجنة العسكرية التي تألفت للتحقيق في أسباب هذه الاضطرابات.." إن الحالة الراهنة الناشئة في فلسطين هي حالة بالغة الخطورة، وتتطلب معالجة قوية.. إذا أريد تجنب كارثة خطيرة .. وإن أسباب الاضطرابات هي ازدياد حدة الشعور بسب إعلان الأمير فيصل ملكا على سوريا التي أعيدت لها وحدتها، وبنمو فكرة الاتحاد العربي،[1] وهكذا كانت قضية الوحدة وراء الثورة الفلسطينية التي عرفت في تاريخنا بثورة نيسان.

---

[1] **جريدة الأهرام**، 1920/2/2.

[1] جريدة **اللواء المصرية**، القاهرة 1922/6/27.

وشـــهد عام 1921 مرحلة جديدة، فقد نقل الشـــعب الفلســـطيني قضـــية الوحدة إلى جانب صراعه مع الصهيونية والاستعمار، إلى المقامات الدولية، فقد ســـافر الوفد الفلســـطيني– أول وفد وطني – إلى إنجلترا لشـــرح القضـــية الفلسطينية أمام الرأي العام البريطاني والحكومة البريطانية، برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني ضم نخبة مختارة من رجالات البلاد. وفي الثاني عشر من شهر آب 1921 قدم الوفد الفلسطيني مذكرة ضافية إلى الحكومة البريطانية توضح المطالب الخمسة للشعب الفلسطيني: "أولاً، إنشاء حكومة وطنية نيابية تمثل فيها جميع الطوائف في البلاد، ثانيا، إلغاء الوطن القومي اليهودي ، ثالثاً ، وقف الهجرة اليهودية إلى فلســـطين ، رابعاً، إلغاء القوانين التي ســـنت بعد الاحتلال البريطاني، خامساً، عدم فصل فلسطين عن إخواتها المقاطعات العربية المجاورة لها.. لأن تجزئة البلاد العربية بعضـــها عن بعض واعتناق كل منها قوانين مختلفة، بخصـــوص الجمارك والتلغراف والســـكك الحديدية والمعارف، بالطبع يضـــر في مســـتقبل وتقدم الأمة العربية الطامحة لاســـترداد مدنيتها ومجدها الســـابق . كما أن إدارة هذه المقاطعات بحكومة متحدة بلغة واحدة وجمرك واحد يغني عن النفقات الكبيرة.."[1]

وما أجدر المعاصـــرين من الملوك والرؤســـاء أن يحفظوا هذا البند الخامس الذي كان محور النضـــال الفلســـطيني العربي قبل خمســـين عاماً.. يوم كانوا – أعني الملوك والرؤســـاء – .. – أجنة في بطون أمهاتهم، أو أولادا يسرحون ويمرحون.

---

[1] **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية 1918 – 1929.**

ولقد بقي البند الخامس مطلبا وطنياً عاما للشـــعب الفلســـطيني، لا في وطنه، بل في مهاجره كذلك.. فقد انطلقت الجاليات الفلســـطينية في أوروبا وأمريكا وغيرها تنادى بالوحدة والاســتقلال.. من ذلك أن اللجنة الفلســطينية في القاهرة قد عقدت اجتماعاً عاماً بحثت فيه مختلف شــؤون القضــية الفلســطينية وأصـــدرت قرارا أبلغته إلى "الوفد الفلســـطيني في لندن، الجمعيات الوطنية في فلســطين ، وفي المهاجر وإلى جمعية الأمم، وإلى رؤســاء الحكومات الكبرى" وكان المطلب الرئيســـي في ذلك القرار: "المجاهرة برفض كل انتداب مهما كان نوعه وشكله، والسعي لتحقيق وحدة سورية واستقلالها استقلالا تاما، بحكومة وطنية نيابية تكون مسئولة لدى الشعب.."[2]

ولم يكن مطلب الوحدة عند الشـــعب الفلســـطيني شـــعاراً يردد في المناسـبات الوطنية، ولكنه أصـبح جزءا من الميثاق الوطني، فقد انعقد المؤتمر الفلسـطيني الخامس في مدينة نابلس (1922/8/20) واتخذ عدة مقررات وطنية هامة، ثم توج اجتماعه الأخير بإصـــدار ميثاق وطني: ردده المؤتمرون واقفين وهم أمام الله والأمة والتاريخ، بأن نواصل المساعي المشروعة لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربي، ورفض الوطن اليهودي والهجرة الصهيونية".[1]

ومما تجدر الإشارة إليه أن مطلب الوحدة لم يكن قاصرا على المشتغلين بالحركة الوطنية، ولكنه كان مطلبا شـعبيا عاما، يشـمل جميع الطبقات الكادحة .. ففي عام1924 تأسست في مدينة حيفا جمعية أسميت "جمعية تعاون القرى "وهدفها" إزالة الضـــغائن بين أهل القرى وترقية الزراعة وغرس الأشـــجار".. وقد

---

[2] **جريدة اللواء المصري**، القاهرة 1922/6/27.

[1] **وثائق المقاومة الفلسطنية العربية 1918 – 1929**.

نص البند الخامس من قانونها أن " مبدأ الجمعية السياسي يتلخص بالسعي لتأييد الاستقلال والوحدة العربية، ولهذا فهي لا تقبل وعد بلفور، والتجزئة، وحرمان البلاد من الحكم الذاتي".[2]

ولا أريد أن امضي طويلا في اقتباس القرارات الوطنية للشعب الفلسطيني في نضاله من أجل تحرير وطنه، فقد كانت قضية الوحدة هي شعاره الدائم لا يفتر عن الدعوة لها والنضال من أجلها، ولم تبق عبارة جامدة في الميثاق الوطني، ولكنها استمرت نابضة بالحياة ترافق الكفاح الوطني في كل مراحله .. وفي جميع المؤتمرات الدولية والاجتماعات السياسية سواء في القدس مع المندوب السامي البريطاني في فلسطين، أو في لندن مع الحكومة البريطانية، أو في جنيف مع عصبة الأمم، أو في الندوات الصحفية في أي مكان في العالم، في كل هذه المناسبات كان السؤال المطروح:- وما هو الحل الذي تقترحونه لقضية فلسطين .وكان الجواب على الدوام: "الاستقلال التام في إطار الوحدة العربية".

ولقد أصبح هذا الجواب معروفا لدى كل فلسطيني، يحفظه كما يحفظ أسمه، ويفهمه ويجادل فيه، وبعد أن وقعت الكارثة وتشتت الشعب الفلسطيني، وحمل أبناء فلسطين شعار الوحدة إلى مهاجرهم، كأعز ما يملكون بعد أن تركوا في وطنهم كل ما يملكون..

وجاءت مرحلة إنشاء الكيان الفلسطيني، وكان لي شرف العمل على إقامته، وتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.. ولقد حرصت حين وضعت مشروع الميثاق الوطني الفلسطيني وعرضته على المجلس الوطني الفلسطيني

---

[2] **جريدة الجزيرة**، 1929/7/24.

الأول الذي انعقد في بيت المقدس في أواخر شـــهر أيار 1964 .. أن تكون الوحدة العربية بارزة في صلب الميثاق .. في مادتين رئيسيتين..

الأولى: إن الشـــعب العربي الفلســـطيني يؤمن بالوحدة العربية، ولكي يؤدي دوره في تحقيقها، يجب عليه في هذه المرحلة من كفاحه الوطني أن يحافظ على شخصيته الفلسطينية ومقوماتها، وأن ينمي الوعي بوجودها، و،أن يناهض أياً من المشرعات التي من شأنها إذابتها وإضعافها."

الثانية: "الوحدة العربية وتحرير فلســطين هدفان متكاملان يهيء الواحد منهما تحقيق الآخر، فالوحدة العربية تؤدي إلى تحرير فلســطين، وتحرير فلسطين يؤدي إلى الوحدة العربية، والعمل لهما يسير جنبا إلى جنب".

وأقر المجلس الوطني الفلسطيني الأول، وقد اشترك فيه ما يقرب من خمسمائة عضو يمثلون الشعب الفلسطيني أصدق تمثيل، وحضره وزراء خارجية الدول العربية.. أقر نصوص الوحدة إلى جانب النصوص الأخرى، وكان يوماً مشهوداً من أيام الشعب الفلسطيني وما أكثر أيامه المجيدة..[1]

هذا هو السجل الرفيع للشعب الفلسطيني إزاء قضية الوحدة .. ويقابله من غير شك سجل رفيع من جانب الأمة العربية إزاء قضية الوحدة وقضية فلسطين معاً.. ولكن ما هو سجل الحكم العربي المعاصر؟ .. وهل تصدى للقضية الفلسطينية بالوحدة .. بوحدة الفكر والإرادة والنضال، وبوحدة الفهم الواحد لقضية فلسطين..

إن سجل الحكم العربي المعاصر إزاء القضية الفلسطينية لا يبعث على الرضا.. وهذا حكم بالغ الرحمة والرأفة .. ذلك أن الجماهير العربية تدين

---

[1] أنظر: أحمد الشقيري، **طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء**.

الحكم العربي المعاصـر، بعضـه بالخيانة، وبعضـه بالتفريط، وبعضـه الأخير باللامبالاة .. والمعصومون قليلون.

ولكن أخطر ما ينتاب القضية الفلسطينية وخاصة في الظروف الراهنة.. وهي مرحلة بدأت بعد حرب الأيام الستة، واستمرت حتى بعد حرب رمضان، أن السياسة العربية قد أخذت تتخلى عن المبادئ الأساسية للقضية الفلسطينية تحت شعار المرحلية والواقعية.. ثم راحت تفلسف التسويات السياسية المطروحة، ولا ترى مانعا من الاعتراف بإسـرائيل، ومصـالحتها والتعايش معها.. مسـتشـهدة بالتسويات الدولية التي تمت بين هذه الدولة أو تلك..

وما أبعد الأشـباه والنظائر، وما أبعد الفوارق، بين قضـية فلسـطين، وقضية أخرى في العالم كله، سواء في التاريخ القديم أو المعاصر.

إن قضـية فلسـطين تقوم على الوطن.. أهو لنا أم للعدو.. هل نعترف بهذا الوطن للعدو؟ هل نسلم بهذا الوطن للعدو. هذا هو السؤال الأكبر.

إن جميع التسـويات الدولية التي تمت لم تكن على حسـاب الوطن، ولا على حسـاب شـعب الوطن.. إنها تسـويات لخلافات متعددة متنوعة. إلا التراب الوطني فإنه ليس موضـع خلاف في تلك التسـويات.. وهذه قضـايا فيتنام وكمبوديا ولاووس وكوريا وألمانيا الغربية والشرقية ومعها برلين الغربية والشرقية، والخلافات فيها حول حول النظم السـياسـية والاجتماعية .. أما الوطن فهو باق للشعب..أما الشعب فإنه باق في الوطن.

ولكن التسـوية في القضـية الفلسـطينية تتناول الشـعب والوطن معا.. ستقضي التسوية المنتظرة ان يستمر الشعب شريدا، الوطن سيعترف به لإسرائيل وطنا تاريخيا: ليس لنا فيه حق أو ادعاء.

وتنطلق السياسة العربية من حين لحين بأجهزتها الإعلامية الضخمة لتقول: وما المانع من الصلح .. ألم يقبل الرسول العظيم (صلى الله عليه وسلم) "صلح الحديبية" وقد فاتهم أن صلح الحديبية بعيد عن الصلح مع إسرائيل بعد السماء عن الأرض.. لقد كان صلح الحديبية بين العرب والعرب.. وكان "الصلح" هو تأجيل الحج ذلك العام...

وفي عودة سريعة إلى التاريخ الإسلامي بشأن صلح الحديبية* نستطيع أن نتأكد أن الرسول العظيم (صلى الله عليه وسلم) لم يتنازل لقريش عن الدين، ولا عن الإسلام، ولا عن الحج.. ولكنه أراد أن يرضي قريشا في أمور ثانوية حقنا للدماء .. فبعد مفاوضات بين سهيل مندوب قريش والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، تقول كتب السيرة إن الرسول دعا علي ابن أبي طالب(ر) وقال له أكتب "باسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل: "أمسك، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل أكتب باسمك اللهم"، قال رسول الله، "بل أكتب باسمك اللهم" ثم قال" اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله سهيل بن عمرو" موفد قريش، فقال سهيل: "أمسك ،لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك" قال رسول الله "أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله"، ثم كتبت العهدة بين الطرفين وفيها "انهما تهادنا، وأن يرجع محمد وأصحابه من مكة عامهم هذا على أن يعودوا في العام الذي يليه"..[1]

---

* الحديبية: اسم موقع قريب من مكة تنزل فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو عازم إلى الحج.

[1] أنظر: محمد حسنين هيكل، **حياة محمد** ، ص 373 – 375.

وهكذا فقد كان صـــلح الحديبية "هدنة" لعام واحد، يؤجل فيها الحج إلى العام التالي، فإين هذا من تسـليم الديار القدسـية إلى اليهود لتكون وطنا لهم لا لعام واحد، ولكن إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين..

وتقول السياسة العربية كذلك: وما المانع من الصلح .. ألم يقبل صلاح الدين "صـلح الرملة" في حروبه مع الإفرنج ..وقد فاتهم أن صـلح الرملة كان " هدنة محددة بوقت . وقد كتبت بصـــيغة الهدنة لفظا ومضـــمونا قبل أن يكون القانون الدولي قد تكامل، وقبل أن يحدد بصـــورة حاســـمة الفرق بين الهدنة والصلح.[2]

إن إجلاء القوات الإسـرائيلية عن الأرض العربية المحتلة، بالسـياسـة أو بالحرب، هو واجب قومي من غير شـك..وإن أي شـبر يسـترده الحكم العربي المعاصر من قبضة إسرائيل هو خطوة على الطريق.. ولكن..

"ولكن" هذه يجب أن نكتبها بحجم جبال هملايا. ولكن ليس للحكم العربي المعاصـــر أن يســـترد شـــيئا من الأرض العربية مقابل تســـليم الأرض الفلسطينية إلى العدو..

إن الحكم العربي المعاصر يقع في خطأ تاريخي فادح حين يبادل أرضا عربية، بأرض فلسطينية. فالوطن العربي كله سواء في مكانته وقداسته.. وهو حين يعلن أنه لا يفرط بأي شبر من الأرض العربية، ويسلم الأرض الفلسطينية إلى العدو، فإن معنى ذلك أن فلسطين لم تعد أرضاً عربية، ولا جزءاً من الوطن العربي.....

---

[2] أنظر :أحمد الشقيري، **معارك العرب وما أشبه الليلة بالبارحة.**

ولقد عرفنا شـعوبا قد وقعت تحت الاحتلال عشـرات السـنين، وآخرها المسـتعمرات البرتغالية في إفريقيا ظلت تحت الحكم الاسـتعماري خمسـمائة عام .. وها قد استقلت أخيرا..

ولكننا لا نعرف شـعبا واحداً ، منذ فجر التاريخ، قد سـلم بوطنه للعدو، وقضـية فلسـطين تمر اليوم بأزمة كبرى تتصـل اتصـالا وثيقا بقضـية الوحدة .. وحدة الفهم للوحدة، ولقضية فلسطين..

ونسـتطيع أن نفهم ذلك جيداً حين نعود بالذاكرة إلى تقرير رئيس الوزراء البريطاني، السـير كامبل بانرمان، وما تضـمنه من توصـيات لتجزئة الوطن العربي، وإقامة حاجز بشـري في فلسـطين ليفصـل الأقطار العربية بعضـها عن بعض، ويشـل نهضـتها ويعرقل وحدتها.. وفي عبارة التقرير فقد أكدت التوصـية" ضـرورة العمل في فصـل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسـيوي، وذلك بإقامة حاجز بشـري قوي وغريب على الجسـر البري الذي يربط آسـيا بأفريقيا، ويربطهما معا بالبحر المتوسـط، بحيث يشـكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار.[1]

لقد وضـعت هذه الخطة في عام 1907 وصـدر وعد بلفور بعد ذلك بعشـر سـنوات 1917، وكان الجسـر هو فلسـطين .. وكان الحاجز البشـري هو الوطن القومي اليهودي.. وكانت فلسطين هي الضحية الأولى والكبرى للتجزئة..

فإذا كان الحكم العربي المعاصـر، واعياً أو غير واع، قد ورث السـياسـة البريطانية التي رسـمت قبل سـبعين عاما، لتجزئة الوطن العربي، وفصـل أقطاره

---

[1] شفيق رشيدات، **قضية فلسطين**، ص ص 37 ، 44.

بعضـها عن بعض .. فإن الأمة العربية ستناضل من أجل الوحدة كما ناضلت من أجل التحرير، وستقيم الحكم الواحد مكان حكم العشرين.

وما ذلك على الأمة العربية، المناضلة الباسلة، بعسير ولا عزيز.

عشر دول وحدوية..
ولماذا انتكست؟

شهد التاريخ الحديث عشر دول عربية وحدوية أو اتحادية، عشت معها منذ طفولتي إلى كهولتي .. مات بعضها يوم مولدها، وعاش بعضها شهورا أو أسابيع، وولد البعض الأخير وهو مصاب بفقر الدم واللحم والعظم!!

ويجب التوكيد أولا وقبل كل شيء أن سيرة الدول العشر لا تؤلف دلائل على عقم الوحدة، فكرا ونظاما وكيانا، كما يحلو للانفصاليين أن يفلسفوا ويدعوا، أبدا، بل على العكس إنها عشرة دلائل ناصعة، مضافة إلى الدلائل الكثيرة، أن الوحدة العربية عقيدة زاخرة بالخصب والنجابة، ولا ينقصها إلا أن يتوافر لها الإيمان الصابر، والعزيمة الماضية، واستنفار الهمة وتعبئتها، لخوض معركتها.. وإنها لمعركة حقا، ينبغي اقتحامها بكل الطاقات والقدرات .. وإذا اقتضى الأمر بالكفاح والسلاح.

ولقد وقعت في تاريخ الاتحادات العالمية نكسات واجهاضات كثيرة.. ولا نعرف اتحادا قام بالضربة الأولى ، أو ولد على فراش من حرير، وقد رأينا في الفصول السابقة أن الوحدة في هذه الدولة أو تلك قد تعاقبت عليها المحاولات الفاشلة واحدة بعد الأخرى، ولكنها في النهاية استقرت واستمرت، وقامت واستقامت.. وأرجو أن لا يحسب المواطن العربي أن هذا الكلام سجع مترادفات، فكل كلمة لها معنى قائم بذاته .. وحين نسترجع تاريخ الاتحاد في الولايات المتحدة وفي ألمانيا وفي إيطاليا، والمحاولات العديدة التي عبرت من خلالها، تتجسد أمامنا هذه الحقائق بكل معانيها وأبعادها ومتاعبها..

والأمة العربية، ليست استثناء لنظام الحياة وطبائع التاريخ .. فلا بد أن يجري عليها ما جرى على غيرها،ولا بد لوحدتها أن تمر بانتكاسات كما مرت بغيرها من الأمم، فتلك سنة الوحدة بعد التجزئة، ولن تجد لسنة الوحدة تبديلا..

والمهم الأهم، أن ســيرة الوحدة في الدول العربية العشــر، حين نقرؤها بتفاصيلها وظروفها تكشف لنا بما لا يرقى إليه الشك، أن انتكسات الوحدة ليس مردها إلى عيب في الوحدة ذاتها.. وإنما إلى ظروف خارجة من ارادتها أو إلى شــلل في ســواعد الذين قاموا ببنائها، أو إلى ضــعف في إيمان الذين تصــدوا لإنشائها، أو إلى جعلها مسرحية رائعة بارعة بدلا من أن تكون حقيقة مجيدة، أو إلى إقصــاء الجماهير عن المســاهمة في بنائها.. أو .. أو.. وهذا وغيره يجده المواطن العربي حين يستعرض سيرة هذه الدول العشر من أولها إلى آخرها..

فالدولة العربية الوحدوية الأولى، وهي التي عرفت بالدولة الفيصــلية في دمشــق.. كانت دولة وحدوية حقا، عمرت بضــعة أشــهر في أوائل العشــرينات ولكنها، منذ البداية لم يكن لها حظ من الحياة، لأســباب خارجة عن أرادتها ولم يكن ممكنا أن تعمر طويلا، وأن تكون نواة لإمبراطورية عربية كما كان يحلم بها قادة العرب يوم ذاك..

قامت تلك الدولة، في دمشــق، يوم تجمع رجال الثورة العربية، من سوريين وعراقيين وفلسطينيين في عاصمة الأمويين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وعزموا على بناء الدولة العربية المســتقلة الواحدة، مؤلفة من ســوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، باتحاد مع العراق، فقد كانت هذه وعود الحلفاء التي أصــدروها أثناء الحرب العالمية الأولى إلى الشــريف حســين بوصــفه قائد الثورة العربية.

وقد "صــدق" قادة الحركة العربية وعود الحلفاء، وبادروا إلى بناء الدولة الوحدوية، واختاروا الأمير فيصــل بن الشــريف حســين ملكا على البلاد " امبراطورا" حسب تعبير ذلك الوقت بالتحديد، وقامت حكومة عربية برياسة" رضا

باشـــا الركابي، من العســـكريين البارزين الذين خدموا في الجيش العثماني، وضـــمت الحكومة وزراء من الســـوريين والعراقيين واللبنانيين والفلســـطينين والحجازيين .. فكانت دولة واحدة حقا، لحما ودماً، وعقلاً ووجداناً..

وبدأت الحكومة العربية تقيم مؤسسة الدولة، وتبني الجيش، تعنى بمرافق البلاد، ولكنها واجهت في البداية مشـــكلة الســـيادة على أقطارها وفي النهاية مشكلة السيادة على ذاتها!

ولقد اســـتقر أمر الحكومة العربية معظم عمرها في ســـوريا الداخلية، واستطاعت أن تمد سيادتها إلى شرق الأردن، فقد أقامت فيها حكما محليا تابعاً لدمشق .. أما بالنسبة إلى لبنان فقد اقتصر الحكم الفيصلي فيه لبضعة أشهر على بعلبك والبقاع، وطرابلس، وصـــيدا وصـــور، ومرجعيون، وهي تابعة اليوم للجمهورية اللبنانية .. وحينما حاول أن يمارس السلطة في المناطق الأخرى من لبنان وفي فلسطين لم يستطع إلى ذلك سبيلا، فقد كان الجيش الفرنسي قد احتل لبنان،والجيش البريطاني قد احتل فلسطين. وبسط سيادته عليها وبدأ يحمل إليها قوافل المهاجرين اليهود، من كافة أقطار الأرض.

واحتجت الحكومة العربية، ومعها القيادات الوطنية على هذا الاحتلال الأجنبي، والتجزئة الاســتعمارية، وســافر الملك فيصــل إلى العواصــم الأوروبية وبسط القضية أمام المحافل الدولية.. فلم تجد المطالب العربية أذنا صاغية من العالم الدولي. إلا من تقرير ضـــاع في خضـــم الصـــراعات الدولية، وهو تقرير لجنة كينج كرين،الذي أيد معظم مطالب العرب في الوحدة والاستقلال ومناهضة الصهيونية.

وبقدر ما كان مطلب الحكومة العربية في دمشق عادلا ومنصفا، فقد كان موقف الدول الاستعمارية طبيعيا ومفهوما، فقد كانت هذه الدول على مدى قرنين سابقين تنتظر الإغفاءة الأخيرة للرجل المريض، الدولة العثمانية، لتتقاسم فيها بينها "التركة" فتوزع الأقطار العربية فيما بينها.. هذا القطر لبريطانيا، وذاك القطر لفرنسا، وفلسطين لليهود .. هكذا بكل بساطة وصراحة ووضوح..

ولم يكن ذلك عفوا ولا مفاجأة، بل كان أمرا مدروسا مدبرا ومتفقا عليه.. ففي غمار الحرب العالمية الأولى، حين كانت قوات الثورة العربية تحارب إلى جانب الحلفاء، اتفقت الدول العظمى الثلاث على اقتسام الإمبراطورية العثمانية فيما بينها.. سوريا ولبنان إلى فرنسا، وفلسطين وشرق الأردن والعراق إلى بريطانيا، وأجزاء من الأراضي التركية إلى روسيا، وصحت القسمة في التسوية التي تمت في مؤتمر السلام. إلا فيما يتعلق بروسيا فانها لم تستطع أن تظفر بشيء، فقد كانت روسيا مشغولة بروسيا عن تركيا..

وهكذا تقلصت سيادة الحكومة العربية وانحصرت في سورية الداخلية..وبدلا من أن تكون حدودها من طورس إلى رفح، كما أعلنت في المؤتمر التأسيسي الذي أعلن قيام الدولة، فقد أصبحت حدودها من حلب شمالا إلى العقبة جنوباً .. أصبحت دولة وحدوية بقادتها لا بأقاليمها، فقد كان محافظ حلب في سوريا اللواء جعفر العسكري – العراق، وكان محافظ الكرك في الأردن معين الماضي الفلسطيني.. ولم تستطع الحكومة العربية أن يكون لها محافظ في بيروت أو القدس.

ولكن حتى دولة سورية الداخلية لم يتجاوز عمرها بضعة عشر شهراً، ففي غمرة أحداث مثيرة زحفت القوات الفرنسية من لبنان على سوريا ووقعت

بينها وبين القوات السورية معركة غير متكافئة في ميسلون، عند مشارف دمشق، وكانت الغلبة بطبيعة الأمر للجيش الفرنسي، فاحتل سوريا وغادر الملك فيصل ورجاله البلاد، ووقعت سوريا تحت الحكم الفرنسي قرابة ربع قرن من الزمان..

وهكذا زالت أول دولة عربية وحدوية في التاريخ الحديث، وكان من آيات الشرف فيها أن الشعب السوري بكل أقطاره قد اشترك في الدفاع عن دولة الوحدة، المتطوعون الفلسطينيون واللبنانيون، والسوريون، والأردنيون والعراقيون والحجازيون، قاتلوا كتفا إلى كتف، وسقطوا شهداء جنبا إلى جنب، وكان على رأسهم الشهيد البطل يوسف العظمة وزير الدفاع السوري.

ولقد سقطت دولة الوحدة بالقوة العسكرية الفرنسية الضخمة .. ولم يكن سقوطها بسبب انعدام مقومات الوحدة أو التصميم على الوحدة، فقبل بضعة أسابيع من سقوط دمشق كانت لجنة كينج كرين الأمريكية تقدم تقريرها إلى الرئيس الأمريكي ويلسن، وتؤكد فيه تصميم الشعب السوري بكل أقطاره على الوحدة، وتوصي بأن تقوم الوحدة بين سوريا وفلسطين وشرق الأردن ولبنان، على أن يكون للأخيرة نظام محلي خاص نظرا لظروفه الطائفية.[1]

وإلى جانب جيوش حلفائنا التي حسمت معركة الوحدة بيننا وبينهم، وتغلبت على الوحدة، فليس لنا أن ننسى أن الأمة العربية كانت انطلقت حديثاً من حكم الدولة العثمانية، وأنها لم تكن تملك إلا القليل القليل من الطاقات والقدرات، وأن زراعتها وصناعتها بدائية، وأن الأمية فيها فاشية، وأخيرا وهو أولا فإن "الإمبراطور" فيصل قائد الحركة العربية، كان يدور في فلك السياسة

---

[1] جورج انطونيوس، **قضية العرب** ، ملحق تقرير اللجنة الأمريكية.

البريطانية، ويتقاضى مخصصاته المالية من الخزانة البريطانية، فكيف يمكن أن تنهض الوحدة العربية أمام هذا الواقع المرير الخطير.*

وصـحيح أن دولة الوحدة قد تحطمت، ووقع المشـرق العربي، بعد ذلك فريسة الاحتلال الفرنسي والبريطاني.. تحت ستار نظام الانتداب، إلا أن الوحدة – عقيدة وهدفا – بقيت مسـتقرة في ضـمير الأمة العربية، فراحت تكافح الدول الاستعمارية لتحقيق حريتها وسيادتها واستقلالها، وفي عزمها أن يكون ذلك كله خطوة على طريق الوحدة..

ومع أن معركة الاسـتقلال كانت الشـغل الشـاغل للأمة العربية في المشرق العربي في عهد الاحتلال الأجنبي، لكنها لم تغفل أبداً عن قضية الوحدة العربية، ففي آب سـنة 1920 انعقد مؤتمر عربي في جنيف ضـم مندوبين من الاتحاد السـوري، والمؤتمر الفلسـطيني، ومجلس الإدارة اللبنانية، وممثلين عن الجمعيات العربية في المهاجر، وكان في مقدمة قرارات المؤتمر "مطالبة عصبة الأمم في جنيف بالاعتراف بحق البلاد– سـوريا الكبرى– بأن تتحد معا في حكومة واحدة.. وأن تتحد بدورها مع باقي البلاد العربية المسـتقلة في شـكل ولايات متحدة، فداراسـيون .."، وكان ذلك من أوائل المسـاعي العربية لإقامة وحدة عربية شاملة مع الوحدة السورية..

وأقبلت الحرب العالمية الثانية 1939–1945 التي نشـبت بين الحلفاء من جهة ودولتي المحور – إيطاليا وألمانيا – من جهة أخرى، وكان كل فريق يخطب ود الأمة العربية كما كان الأمر في الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) .. وتحركت قضـية الوحدة العربية من جديد وكانت بريطانيا هي

* تفاصيل أخرى عن الدولة الفيصلية في الفصل، زعماء وعلماء خاضوا معركة الوحدة.

"مهماز" الحركة،كما كان الحال، كذلك في الحرب العالمية الأولى.. وتألق الأمل في قيام دولة عربية وحدوية.

وموجز ذلك أن وزير الخارجية البريطانية – انطوني ايدن – قد أدلى بتصريحه الشهير (شباط 1943) الذي قال فيه: "إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم، ولكن من الجلي أن الخطوة الأولى لتحقيق أي مشروع يجب أن تأتي من جانب العرب أنفسهم.."

ورغماً عن أن الجماهير العربية، قد لدغت من الجحر البريطاني مرتين بل ومئتين، إلا ان الحديث عن الوحدة العربية قد هز الأمة العربية.. ورأتها فرصة يجب اغتنامها.. وقد تقع "الوحدة العربية" في فلك السياسة البريطانية، ولكن ذلك سيكون إلى حين، ثم تتحرر الوحدة، وتكون ملكا للأمة العربية وحدها.. ومضت ثلاثة أسابيع، وجاءت "الخطوة الأولى" على حد تعبير المستر إيدن، من جانب الحكومة المصرية، فقد أدلى رئيسها مصطفى النحاس باشا (آذار 1943) ببيان في مجلس الشيوخ قال فيه: "منذ أعلن مستر إيدن تصريحه رأيت أن الطريقة المثلى هي أن تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية .. وعلينا أن نبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية كل على حدتها، ثم نبذل الجهود للتوفيق فيما بينها، ثم ندعوهم بعد ذلك إلى مصر معا في اجتماع ودي حتى يبدأ السعي للوحدة العربية بجبهة متحدة بالفعل.."

وكانت العبارة الأخيرة – السعي للوحدة العربية– أشبه بانبلاج الفجر عند ليل دامس طويل، فتصاعدت مشاعر الحماسة في نفوس الأمة العربية،

وأصحبت قضية الوحدة العربية حديث الناس في كل مكان، ينتظرون ليلة القدر التي يعلن فيها قيام الدولة العربية الواحدة..

وسارت الأمور كما أعلن مصطفى النحاس باشا، فقد توافد رؤساء الحكومات العربية، وفدا بعد وفد، إلى قصر انطونيادس في الاسكندرية – صيف 1943 – وكانت الحكومات العربية يومئذ هي: مصر، سوريا، لبنان، شرق الأردن، السعودية، اليمن، العراق، وتباحث الرئيس المصري مع الوفود العربية حول قيام الوحدة ومداها ومضمونها، وشكلها ونظامها، وأطلق عليها اللقب الرسمي، "مشاورات الوحدة العربية" وفرحت الأمة العربية بهذا اللقب، وصدقت وآمنت.

وبعد هذه المشاورات الثنائية بين مصر والحكومات العربية الأخرى، انعقد في خريف العام التالي 1944 مؤتمر عربي كبير يمثل الحكومات العربية السبع، للشروع في مرحلة المشاورات الجماعية لاستكمال "مشاورات الوحدة العربية" .. وكانت أياما تألقت فيها آمال العرب وتصاعدت حماستها، وهي ترى أن الوحدة العربية قد أصبحت دانية القطوف، قاب قوسين أو أدنى، كما قال أسلافنا القدامى ،في عهد القوس والنشاب..

وأقفلت أبواب قصر انطونيادس على رؤساء الحكومات العربية ووزرائهم، سبعة أيام ولياليها، لم يغمض فيها جفن للجماهير العربية وهي تنتظر ميلاد دولة الوحدة، والوفود العربية في داخل الاجتماع تصوغ نظاما رخواً للتعاون العربي، ولكنها لا تلبث في الخارج أن تدلي بتصريحات مدوية تعلن العزم على إقامة الوحدة العربية وبعث أمجاد الأمة العربية من جديد.

وبعد الصـــياغات، وإبدال الكلمات بالكلمات، وأقتراح التعديلات على التعديلات، أطل اليوم السـابع من شـهر تشـرين الأول من عام 1944، وعلى هتاف الجماهير المحتشـدة في شـوراع الإسـكندرية وميادينها، وقع مصـطفى النحاس باشـا ورؤسـاء الحكومات العربية الآخرون على وثيقة أطلق عليها لقب "بروتوكول الوحدة العربية".

وما كان أعظم العنوان، وما أصـــغر المضـــمون.. فما أن قرأ الناس "البروتوكول" حتى رأوه خـاليـا تمـامـا من الوحـدة .. ورأوا فيـه جهـازا للتعـاون والتنسيق في إطار قرارات، يقبلها من يشاء ويرفضها من يشاء..

وفي شـــتاء 1945 عادت الوفود العربية إلى الاجتماع، في قصـــر الزعفران في القاهرة، هذه المرة، وتحت رياسـة النقراشـي باشـا، فقد أقال الملك فاروق النحاس باشـا من الحكم، وعادت المشـاورات مرة أخرى لوضـع الصـيغة النهائية للميثاق.. وبعد أخذ ورد، وإضـافة وشـطب، تم الاتفاق بالإجماع على صيغة ميثاق جامعة الدول العربية.

وفي الثاني والعشـرين من شـهر آذار من ذلك العام، وسـط احتفالات ضـخمة تجيدها القاهرة إجادة بارعة، دخل الرؤسـاء ومعهم وفودهم، ووقعوا على "ميثاق جامعة الدول العربية" بعد أن ألقى الرؤسـاء السـبعة سـبع خطب بليغة فصيحة، ليس بينها وبين مضمون الميثاق إلا أنها تشترك في أبجدية واحدة..

وخاب أمل الأمة العربية في الجامعة وميثاقها، فقد رأوا فيه ميثاقا يكرس التجزئة والانفصـال فهو ينص على صـون الاسـتقلال والسـيادة والحدود..وعدم التدخل في شئون الدول العربية.. ولا تلتزم أية دولة بما تقرره الدول الأخرى، بل تستطيع الدول السبع نفسها أن لا تنفذ ما قررته في داخل الجامعة.

ولم تكن فراســـة الجماهير العربية بعيدة الصـــواب، فقد أثبتت الجامعة نفســها صــدق أمتها، فها قد مضــت خمســة وثلاثون عاما على ميلاد الجامعة العربيـة دون أن تحقق إنجازاً يتفق مع طـاقات الأمـة العربيـة، والإنجـاز الوحيد الذي حققته أنها بدأت بسـبع دول منفصـلة، وأصـبحت الأن عشـرين دولة عالية الحدود، وطيدة التجزئة، ولكل منها علم، ونشيد، وملك ورئيس..

وأســـوأ من ذلك فإن المســـتر إيدن قد أرادها في عام 1943، كما أعلن "وحدة ثقافية واقتصـادية وسـياسـية إذا أمكن" وها نرى الجامعة اليوم (1975) لا تملك من الوحدة الثقافية والاقتصادية والسياسية إلا حروف الهجاء..

ولكن .. يطرح السـؤال نفسـه: لماذا تقلصـت "مشـاورات الوحدة العربية" وتقمصت في جامعة الدول العربية الانفصالية؟.

والجواب، وهو ما نجده في المحاضر الرسمية لمشاورات الوحدة العربية، و يمكن إيجازه من مواقف الدول العربية واحدة واحدة..

موقف مصر كما بدا واضحا من خطب النحاس باشا، والنقراشي باشا من بعده، أنها لا تريد وحدة عربية بالمعنى الذي يفهمه المواطن العربي.. حتى النحاس باشا قد كرر في خطبه الكلام عن "الأمم العربية" فلم يكن مفهوم الأمة العربية الواحدة مســتقرا في عقله ووجدانه.. وكل ما كانت تريده مصــر في ذلك العهد (عهد فاروق) أن تقوم جامعة تضم الدول العربية السبع للتعاون الحر .. ولا داعي "لاتحاد هاشـــمي" كما ينادي الأمير "الملك" عبد الله، أو "اتحاد الهلال الخصيب" كما يدعو نوري السعيد ،أو "الدولة الاتحادية" كما تطالب سوريا ..

وموقف العراق والأردن كان يسـبتعد "الوحدة المركزية" كنظام سـياسـي، لعل.. لعل الفرصـــة تلوح لإقامة اتحاد هاشـــمي في المشـــرق العربي على أية

صــورة كانت، بل إن نوري الســعيد كان يرى أن البحث في قيام حكومة مركزية مضيعة للوقت.

وموقف السعودية، لخصه رئيس الوفد السعودي في أربع نقاط

" أولاً: لو أردنـا مثلاً أن نجمع الأمـة العربيـة كلهـا في دولـة واحـدة، لتعارض ذلك مع الأوضـاع القائمة ولنشـأ عن ذلك صـدام ليس لأحد مصـلحة فيه.

ثانيا: إن التعاون في المسـائل الاقتصـادية والثقافية لا نمانع فيه، حينما يكون ذلك في الإمكان ويكون الوقت ملائماً.

ثالثا: نرى تأجيل البحث في التعاون السياسي في الوقت الحاضر، إلى أن تتغير الظروف القائمة.

رابعا: جلالة الملك عبد العزيز، يتمنى للبلاد الشـامية، جمعاء كل خير في ظل حكمها الجمهوري القائم في سوريا ولبنان".

ومعنى الشـروط الثلاثة السـعودية، أن تقوم الجامعة العربية على أسـاس التعاون والتنسـيق، والشـرط الرابع معناه أن لا يقوم اتحاد أو وحدة " يذوب فيهما الحكم الجمهوري القائم في سوريا ولبنان".

وقد بلغ من حرص المملكة الســـعودية على النظام " الجمهوري" في سوريا ولبنان أنها قدمت مذكرة خطية إلى مؤتمر الإسكندرية تلاها النقراشي باشا قبل توقيع البروتوكول، جاء فيها " أن تكافل العرب وتضـــامنهم ليس موجها إلى غـايـة عدائيـة نحو أيـة أمـة أو دولـة أو جمـاعـة من الـدول.. ويجـب أن يكون مفهوما من البداية أن نظام سوريا ولبنان سيستمر، كما هو معلوم أن استقلالهما متفق عليه.."

وموقف اليمن كان واضحا في بيان مندوب اليمن، فقد أعلن أنه يحضر الاجتماعات بصفته " مستمعا" فقط، وفي البرقية التي أرسلها الإمام يحيى عاهل المملكة المتوكلية اليمنية، إلى مؤتمر الإسكندرية قال " لقد أمرنا السيد حسين الكبيسي الحضور في المؤتمر بصفته مستمعا لسد الفراغ.." ووردت برقية تالية بالنص الآتي: " من ملك اليمن يحيى إلىالولد حسين الكبيسي آمركم بالاشتراك في اللجنة التحضيرية مع مندوبي البلدان الشقيقة بشرط عدم التقيد بشيء إلا بعد عرضه علينا لنوافق على ما نرى إن شاء الله".

وموقف لبنان، ولعله كان أصدق وأصرح من معظم الوفود، فقد أعلن منذ البداية أنه يؤيد قيام جامعة للتعاون والتنسيق مع الاستقلال والسيادة لكل دولة .. ولا وحدة ولا اتحاد.

وموقف سوريا، كان أقرب إلى الوحدة بمفهومها القومي والدستوري وقد طرح رئيسه مشروعاً وحدويا مفصلا، وأيده بترديد بيت الشعر الشهير –بلاد العرب أوطاني– ولكلام الرئيس القوتلي بأن " سوريا تأبى أن يرتفع في سمائها لواء يعلو على لوائها إلا لواء الوحدة العربية".. ولكن..

ولكن الوحدة ما كان يمكن أن تقوم برغبة سوريا وحدها، ولا بكل دواوين الشعر، ذلك أن حكومات عربية كتلك الحكومات كان لا يمكن أن تؤلف دولة وحدوية أو اتحادية، وأفلحت أنها صنعت جامعة انفصالية تحت شعار الوحدة العربية.. ويا شقاء الأمة العربية بحكامها..[1]

---

[1] أنظر: جامعة الدول العربية: **محاضر مشاورات الوحدة العربية** وكذلك أحمد الشقيري، **حوار واسرار مع الملوك والرؤساء**.

وجاءت ثورة 23 يوليو في مصر، فانطلق فجر جديد في الحياة العربية، وتطلعت الأمة العربية إلى القاهرة لتقود القضية العربية، وتعمل على بناء الوحدة العربية، فقد قاتل الضـــباط المصـــريون الشـــباب الذين قادوا الثورة على ميدان المعركة في فلسطين، ولا بد أن تكون الحرب قد ثقفتهم بحقائق القومية العربية.

ولقد صـــحت فراســـة الأمة العربية، فقد خرج كتاب فلســـفة الثورة الذي وضعه " البكباشي" جمال عبد الناصر، وصحيح أن كلماته وعباراته لم تكن من صـــياغات القومية العربية، كما ألفها المواطن العربي غير أنها كانت قفزة كبرى أن يعلن عبد الناصـــــر أن " دائرة عربية تحيط بنا، وان هذه الدوائر منا ونحن منها، امتزج تاريخها بتاريخنا.. حقيقة وفعلا لا مجرد كلام .. إنها الدائرة التي عانينا منها نفس المحن وعشـــنا نفس الأزمات، وحين وقعنا تحت ســـنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السـنابك.." واين هذا لأحسـاس بالقومية العربية، من حديث حكام مصـــر الســـابقين عن "الأمم العربية" وما أدراك كم عدد هذه الأمم العربية!!

وعلى مدى بضـــع ســـنوات بعد ثورة يوليو، انطلقت الوفود العربية إلى القاهرة لتتعرف على وجه الثورة المصرية وضميرها، وانعقد العديد من المؤتمرات العربية الشـعبية، وبدأ التفاعل بين الضـابط المصـري عبد الناصـر والجماهير العربية، فأصـبح فيما بعد، القائد العربي عبد الناصـر، فقد كان له رأس سـريع الفهم والهضم، وامتلأ عقله وضميره بالقومية العربية، وبدأت الوحدة تشق طريقها إلى الحياة من جديد..

وأقبلت مناسبة وطنية على مصر في عام 1954، وهي انعقاد المؤتمر الأول للاتحاد القومي، وازدحمت القاهرة بوفود من كافة أقطار الوطن العربي،

وكأنها على موعد تسمع فيها مفاجأة قومية كبرى.. .. وقف عبد الناصر يخطب على الملأ ليقول " إنه يشرفنا أن نكون دعاة وحدة عربية شاملة.. إن العرب أمة واحدة .. إن ثورتنا العربية التي تبلورت في عقيدة القومية العربية باعتبارها طريقنا للوحدة كانت فكرا واعيا بقدر ما هي طبيعة أصيلة .. وإننا نؤيد كل وحدة عربية إلى أي مدى .. ومع أي شعب عربي آخر، إيمانا صادقا منا بأن الوحدة العربية هي أعلى مراحل الوطنية العربية.."

لقد كان عبد الناصر سريع الهضم والفهم، فلقد سمع في السنوات الماضية من أحرار العرب ومفكريهم الكثير عن القومية العربية، وانضاف ذلك إلى أصالته الذاتية، فجاء خطابه في ذلك اليوم معبرا عن وجدان الأمة العربية، الملتاعة بالتجزئة، المنكوبة بالانفصال ،وخرجت قضية الوحدة من آفاق الأمل، إلى ميدان العمل.

وبدأت الحركة من دمشق،وهي موئل الحركة العربية، ففي الخامس من شهر تموز، اجتمع مجلس الوزراء السوري وأصدر قراره التاريخي الشهير بالدعوة لإقامة اتحاد عربي بين مصر وسوريا، وانعقد مجلس النواب السوري في اليوم التالي فوافق على القرار بإجماع كامل، وسط موجة عارمة من الحماسة الدافقة ..

وسرعان ما استجابت القاهرة لدمشق.. فقد أعلن عبد الناصر ترحيبه بالقرار السوري.. واستشهد بما جاء في الدستور المصري الجديد من "أن مصر جزء من الوطن العربي، وأن شعب مصر جزء من الأمة العربية".

وفي تشرين الثاني من عام1957 أخذت سوريا المبادرة مرة ثانية، فقد أصدر البرلمان السوري قرارا "بدعوة حكومتي مصر وسوريا للدخول فورا في

مباحثات مشـتركة بغية اسـتكمال أسـباب تنفيذ الاتحاد.. وما أن انفض مجلس النواب السوري حتى انعقد مجلس الأمة المصري في اليوم نفسه وأصدر قرارا" بالموافقة الاجماعية على إقامة الاتحاد بين مصـر وسـوريا" وكان يوما تاريخيا عبقريا تنادت له الأمة العربية من المحيط إلى الخليج بالتهاني والبشـائر تغمر النفوس، وأقواس النصر والأعلام تملأ الشوارع والميادين والأسطحة والشرفات .. وهذا وصف دون الحقيقة يعرفها الذين عايشوا تلك الأيام البهيجة..

وانطلقت مسـيرة الوحدة في طريقها، كأنها كتيبة عسـكرية تتجه إلى الميدان.. ففي أوائل عام 1958 وصـلت "الجمهورية السـورية" إلى القاهرة بشـخص رئيسـها السـيد شـكري القوتلي، ومعه الحكومة السـورية ومعهما قادة الجيش السوري، وكان اللقاء مع الرئيس عبد الناصر ورجال الحكومة المصرية، وبدأت المباحثات لوضـع أسس الاتحاد، وفي مساء اليوم الأول من شـهر شـباط سنة 1958 صدر البيان التاريخي "بوجوب توحيد سوريا ومصر في دولة واحدة اسمها "الجمهورية العربية المتحدة" يكون نظام الحكم فيها ديمقراطيا رياسيا، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد، ويكون لها علم واحد يظل شعبا واحدا وجيشـاً واحداً، في وحدة يتسـاوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات.." (ملحق رقم 2 في آخر الكتاب).

وكبادرة أولى على الاندماج الفوري بين الدولتين، ولو بصـورة رمزية فقد ذكرت أسـماء الوفدين على أنها فريق واحد من غير ترتيب و لا برتوكول .. فقد ذكر اسم أنور السادات في الوسط بين اثنين سوريين.. وورد اسم على صبري قبل الأخير بقليل يتقدمه عدد من المندوبين السوريين.. أما المشير عبد الحكيم عامر فقد ورد اسمه بين اثنين من السوريين في أواخر القائمة..

وكان العيد الأكبر للأمة العربية، وكانت شـــعوب الملوك العرب أكثر فرحة وابتهاجا، انتظارا ليوم الخلاص منهم، واللحاق بموكب الوحدة.

وقامت دولة الجمهورية العربية المتحدة، تمارس ســـيادتها وشـــئونها، وحكومتها المركزية بوزرائها الســـوريين والمصـــريين يديرون شـــئون الدولة من القاهرة.

ولم يكن أعداء الوحدة، في الداخل والخارج، فرحين بالوحدة يتمنون لها "الرفاء والبنين"، فمنذ قيام الوحدة راح الأعداء يتآمرون عليها، ويدبرون لها المكائد، واحدة بعد الأخرى على مدى ثلاث سنوات.. إلى أن جاء خريف سنة 1961 .. وبدأت أوراق الأشجار في غوطة دمشق الفاتنة تتساقط مع الرياح، وتتساقط معها الجمهورية العربية المتحدة .. ففي فجر اليوم الثامن والعشرين من شهر أيلول، تحركت قوة عسكرية سورية من معسكر قطنة، واحتلت دمشق بمؤسساتها العامة واذاعتها: وحاصرت المشير عبد الحكيم عامر في مكتبه برياسة الأركان العامة في العاصمة السورية، وأذاعت البيان الأول، والرابع .. والتاســـع .. لتعلن عودة الجمهورية العربية الســـورية، من أجل وحدة عربية مدروسة وسليمة، وانفصال تحت شعار الوحدة .

وكان ذلك اليوم التعيس، أقســـى يوم في تاريخ الأمة العربية، لم تتجاوزه في التعاســـة إلا الحملات الصـــليبية وحروب التتار على الأمة العربية في العصور الوسطى.

ولم يكن للوحدة أي ذنب في هذه النكســـة الكبرى. إنه لم يكن رجحان الانفصـــال على الوحدة من حيث المبدأ، أبدا .. ولكنها الأخطاء وما أكثرها.. أخطاء السلوك والتطبيق هي التي هيأت " الثغرات" للأعداء في الداخل والخارج

ليقتحموا حصـن الوحدة، ويضـربوها في العاصـمة التي عاشـت كل عمرها من أجل الوحدة.

وشرح تلك الأخطاء يحتاج إلى كتاب، ومن المؤسف أنه لم يوضع حتى الآن .. ولا يتسع هذا الفصل إلا لإعادة كلمات شجاعة قالها الرئيس الراحل عبد الناصر نفسه في جامعة القاهرة بعد ثلاثة أسابيع من الكارثة (12 تشرين الأول 1961)، أعلن فيها "يجب أن تكون عندنا الشجاعة لنتحدث عن أخطائنا.. وهذه الأخطاء أننا أعطينا الأمان للرجعية ، وخدعنا على سـبيل المثال برسـالة الملك حسين التي قال إنه استوحاها من شهر رمضان..وأننا بعد الوحدة أخذنا الغرور واعتبرنا أن الأمر قد اسـتتب وأن الكفاح من أجل القومية العربية قد انتهى، وبدأت الخلافات في الجبهة الوطنية السورية .. وبدأت هذه العناصر تكافح من أجل الحكم والسلطان .. إحنا أيضا أخطأنا .. إحنا أخطأنا أخطاء متعددة.. وإلا ما كناش وصلنا إلى هذه النتيجة .. ولكن بعد قيام الوحدة أخذنا الغرور.."

وبالنسـبة إلى رسـالة رمضـان التي بعثها الملك حسـين، فإنها تذكرنا بمقالة كان كتبها الملك حسـين في شـهر أيار سـنة 1960 وطبعت في كراس خاص نشـرته "رياسـة التوجيه والأنباء للملكة الأردنية الهاشـمية" وفيها حملة ظالمة على الوحدة والجمهورية العربية المتحدة، وقد تولى الأردن توزيع هذا الكراس على أعضـاء الأمم المتحدة في دورة القمة الشـهيرة، حيث خطب بها الملك حسـين وعدد من رؤسـاء الدول.. وكان أشـنع ما في ذلك الكراس قوله: "إن الجمهورية العربية المتحدة هي نوع جديد من الاسـتعمار تفرض فيه دولة سـيطرتها على دولة أخرى ولا فرق أن تكون الدولتان عربيتين، وأن القومية

العربية لا تقوم إلا بالمســـاواة التامة بين الأقطار العربية.." وطبيعي أن يفهم الملوك الوحدة العربية في هذا الإطار.

أما موضوع الغرور الذي أشار إليه الرئيس عبد الناصر في خطابه، كسبب للانفصال.. فإن الغرور قد قاد إلى الغفلة- الغفلة عن أعداء الوحدة.. والأعداء هم :

أولاً: الأنظمة الملكية في الوطن العربي التي كانت ترى في الوحدة بداية النهاية لها.. وكانت أمريكا تســـند أولئك الملوك بالمال والســـلاح، والتخطيط، والتدبير، للقضاء على الوحدة العربية بكل وسائل التخريب والتدمير.

ثانياً: الأحزاب الشـــيوعية التي فقدت الأمل في أن يكون لها وجود في ظل دولة عربية قومية كبرى، وكان الاتحاد السـوفيتي وراء الأحزاب الشـيوعية، وهو بدوره يؤثر التعامل مع جمهوريتين اثنتين لا مع جمهورية واحدة.

ثالثاً: القوى الوطنية الغاضـبة من السـلوك اللاوحدوي، في أجهزة الدولة مما لم تسـتطع أن تسـمو وحدويتها على أحاسـيسـها الخاصـة .. وتدخل في هذا الموضوع تفاصيل كثيرة لا يتسع لها هذا الفصل..

رابعاً: العناصر الرجعية في بعض قيادات الجيش السوري، التي انتهزت فرصـــة " الغفلة والغرور" فاقترفت تلك الجريمة الشـــنعاء .. وكائنة ما كانت الأسـباب، فإن الوحدة بريئة من أن تكون هي السـبب .. ويكفي الانفصـال خزيا وعارا.. وأنه لولاه .. ولولاه وحده لما سـقطت سـيناء والجولان وبيت المقدس في حرب الأيام الستة.. بعد ذلك بستة أعوام..

أجل .. والأرض والسماء تشهدان على ذلك.. لو أن الجمهورية العربية المتحدة بقيت حتى حزيران عام 1967، لكانت حرب الأيام الستة خرابا ودماراً على إسرائيل ونصرا وفخرا للأمة العربية..

وفي الشهر الذي قامت فيه الجمهورية العربية المتحدة (شباط 1958) قام اتحاد عربي وهو الرابع من غير نوعه (!!) دون أن تكون له من مقومات الاتحاد إلا حروف الهجاء.. ذلك أن قيام الجمهورية العربية المتحدة قد هز الدولتين الهاشميتين في بغداد وعمان من القواعد.. وكانت الجماهير العربية في بغداد وعمان ترقص وتغني ابتهاجا للوحدة العربية، وكل مواطن يتمنى أن تزحف الجمهورية العربية المتحدة على الأردن والعراق.وتفتقت قريحة المملكتين الأردنية والعراقية عن خطة تحميهما من الانهيار أمام لهفة الجماهير واشترك معهما الاستعمار الخائف على بترولـه ومصالحه وإسرائيل.. فكان أن عقد اجتماع كبير في عمان (14 شباط 1958) حضره أركان الحكومة العراقية والأردنية برياسة الحسين ملك الأردن، وفيصل الثاني ملك العراق، وبعد الصياغات والمشاورات، صدر بيان بقيام "الاتحاد العربي بين المملكتين.. على أن تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتها الدولية وبسيادتها على أراضيها وبنظام الحكم فيها .. ويحتفظ كل ملك بسلطاته الدستورية في مملكته" إلى آخر ذلك من النصوص التي تجعل الاتحاد العربي سخرية بالاتحاد وإهانة للأمة العربية.

ولم يعمر الاتحاد طويلاً :. فكان مصيره كمصير مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في صدر الإسلام، فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتدميره وإحراقه.. وهكذا كان "الاتحاد العربي"، ففي 14 تموز 1958 قام الجيش العراقي

بثورتـه المعروفـة فـانهـدم النظـام الملكي في العراق، و انهـدم معـه " الاتحـاد العربي" الذي لم يكن اتحاداً، ولا عربيا.

وعلى أثر ســـقوط هذا الاتحـاد تضـــاعفت مخـاوف عمـان والـدول الاســتعمارية، فهبطت قوات من المظليين البريطانيين في عمان .. ونزلت قوات من المشــاة البريطانيين إلى العقبة، ولم تنســحب إلا في اليوم الثاني من شــهر تشرين الثاني سنة 1958.[1]

وثمة اتحاد خامس، جاء مزورا كالاتحاد العربي، وهو انضـــمام المملكة اليمنية إلى اتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة (آذار 1958) ســـمي "اتحاد الدول العربية" وقد عصـر خبراء القانون الدسـتوري عقولهم حتى يسـتجيبوا لمزاج الإمام أحمد ملك اليمن ومطالبه، فجاء دستور الاتحاد من غير اتحاد، ذلك أن " كل دولة تحتفظ بشــخصــيتها الدولية، ولا تصــدر قرارات الاتحاد إلا بالإجماع" ومعنى هذا أن الإمام أحمد يملك حق الفيتو على الجمهورية العربية المتحدة!!

وما أن وقع الانفصـال بين مصـر وسـوريا حتى انبرى الإمام أحمد يتندر على الوحدة.. وينظم القصــائد بالتنديد بها.. فأعلن متحدث رســمي بالقاهرة في ختام 1962 أن "الجمهورية العربية المتحدة ليســت على اســتعداد للدخول في تجارب وحدوية لا تخدم غير أغراض الحكام وتسـتغل ضـد أماني الشـعوب.." ومن المؤســـف أن القاهرة قد تأخرت كثيرا في اكتشـــاف خطأها الفادح، حين دخلت في اتحاد مع أسوأ نظام رجعي على وجه الأرض.[1]

---

[1] منيب الماضي وزميله، **تاريخ الأردن**، ص 692.

[1] أحمد الشقيري، **أربعون عاما في الحياة العربية والدولية.**

وأطل ربيع 1963 فكان عمره قصـــيراً لم يعمر، يوما واحداً .. هو يوم الوحدة الثلاثية (17 نيسـان 1963) بنيت فيها " جمهورية عربية متحدة " تضـم مصر والعراق وسوريا، ولكن على ميثاق رائع ضم أضخم التواقيع في الأقطار الثلاثة.. ولم ينفذ منه إلا بقاء الانفصال بين الأقطار الثلاثة..

وموجز القصة، أنه في أعقاب ثورة 8 آذار سنة 1963 في دمشق، هب الشعب السوري ومعه الجماهير العربية تطالب بإعادة الوحدة بين سوريا ومصر، وهب معهما الشعب العراقي.. فارتفع شعار الوحدة الثلاثية في كل دنيا العرب.

وكان مما زاد من إصـــرار الجماهير العربية على بناء الوحدة من جديد أن الرئيس عبد الناصر لم يتخل عن إيمانه بالوحدة بعد الانفصال، فقد أفرد في الميثاق الوطني الذي قدمه إلى مجلس الأمة المصري قبل بضعة أشهر (حزيران 1962) فصـلا مسـتقلا (التاسـع) عن الوحدة العربية، سـتظل نصـوصـه ميثاقا قائما للأمة العربية في جميع مراحل كفاحها (الملحق رقم 3) واجتمعت الوفود العربية الثلاثة في القاهرة، المصرية والسورية والعراقية، وبعد نقاش وعتاب حول الماضـــي والحاضـــر، تم الإجماع على قيام الوحدة الثلاثية ، ووضـــع الخبراء الدســـتوريون والســـياســـيون بيان الوحدة بعد مقدمة مفصـــلة عن المقومات الاجتماعية والسياسية والعسكرية للدولة.. وكان البيان حقا، وسيظل، أرفع وثيقة دستورية متكاملة لأية دولة وحدوية في الوطن العربي.

(البيان من غير المقدمة المفصلة– في الملحق رقم 4)

وانصـــرفت الوفود إلى أقطارها تهيئ للمرحلة الانتقالية لقيام الجمهورية العربية المتحدة، التي تضـــم ما يقرب من نصـــف الأمة العربية عددا، وأعظمها قوة.ومرة ثانية، لو أن تلك الوحدة قد تمت، لو أن تلك الجمهورية العربية المتحدة

قد قامت، لما ســـقطت ســـيناء والجولان، وبيت المقدس، و لكانت حرب الأيام الستة دماراً لإسرائيل ونصراً للأمة العربية.وهب الشعب العراقي مرة أخرى ينادي بالوحدة مع مصر، ولتكن ثنائية مادامت سوريا تلكأت في السير نحو الوحدة..

ووصـــــل إلى القاهرة وفد عراقي كبير، وكان اللقاء مع الرئيس عبد الناصـر ورفاقه، وتعددت الاجتماعات والمباحثات.. وكان الوفد العراقي مصـرا وجادا في إنشـاء وحدة كاملة بين مصـر والعراق.. ولكن معظم أعضـاء الوفد المصـري كانوا مترددين في القبول ، وكان الرئيس عبد الناصـر ملسـوعا من أفعى الانفصال السوري، يرى في كل حبل أفعى، مع أن "الحبل" العراقي لم يكن أفعى، بل كان وثاقا صـادقا لربط أواصـر الوحدة بين القطرين الشقيقين.

وفي النهاية تم الاتفاق، كخطوة أولى،على تشـكيل مجلس رياسـة بين مصـر والعراق لكي "يختص بدراسـة وتنفيذ الخطط اللازمة لإقامة الوحدة بين البلدين" كما جاء في البيان المشـترك.. وإلى جانب مجلس الرياسـة تألفت لجان مشـتركة للشـئون العسـكرية والسـياسـية والاقتصـادية والفكر الاشـتراكي العربي، والثقافة والإعلام والتنظيم الشـعبي.. ونص البيان كذلك على إنشـاء أمانة عامة لمجلس الرياسة يكون مقرها القاهرة، واسند منصب الأمين العام إلى وزير الوحدة العراقي.

وقد انعقد مجلس الرياسـة في القاهرة مرات ومرات، وصـدرت عنه عدة بيانات، كما اجتمعت اللجان المشتركة مرات، واعدت عدة مقترحات ومشروعات في اتجاه الوحدة.

ولكن الحكم العربي كان يســوده القلق والاضــطراب .. والوحدة تحتاج أول ما تحتاج إلى حكم عربي يستمد وجوده وبقاءه واستمراره من الشعب ومن الشعب وحده .. فإن الحكام الذين ينصبون بالدبابات ويخلعون بالمصفحات، لا يصــلحون للوحدة، والوحدة لا تصــلح بهم.. وعلى الأمة العربية أن تختار بينهم وبين الوحدة.. وأنها ستختار الوحدة لا محالة.

وبعد حرب الأيام الســـتة، قفزت فكرة الوحدة العربية من جديد، فإنها الجواب الحاســـم على الهزيمة النكراء التي نزلت بالأمة العربية، وقد كان لي شـــرف إثارة الموضـــوع في مؤتمر القمة العربي الرابع الذي انعقد في خريف 1967 في الخرطوم، وقدمت مذكرة اقترحت فيها قيام الدولة العربية المتحدة من الجمهوريات العربية المتماثلة في نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن مؤتمر القمة كان غارقاً في الجهود الســـياســـية لإزالة آثار العدوان فلم يلتفت إلى الموضـــوع، مع أنه هو الباب الأوحد لإزالة آثار العدوان ولا باب سواه.[1]

وقامت ثورة الفاتح في ليبيا، فاشـــتعلت الآمال من جديد حول الوحدة العربية، والتقى في طرابلس الرؤســـاء عبد الناصـــر وجعفر النميري ومعمر القذافي (في أواخر كانون الأول 1969) وصـــدر عنهم بيان عرف "بميثاق طرابلس" أعلنوا فيه قيام جبهة عربية ثورية .. من أجل حشـــد الطاقات العربية لخوض المعركة المصـــيرية التي تواجه الأمة العربية، وانتهى الميثاق بالاتفاق على "عقد اجتماعات دورية للرؤســـاء الثلاثة كل أربعة أشـــهر لمتابعة تحقيق الأهداف الموحدة لشعوبهم والتطلع لأمتهم العربية المجيدة في الحرية والاشتراكية

---

[1] أنظر، أحمد الشقيري، **الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤساء**، عن مؤتمر الخرطوم.

والوحدة"، فكانت خطوة أولى نحو الوحدة ولكن بروية وحذر ورضيت بها الأمة العربية ولكن من غير فرح وابتهاج.

ومضى عام وبضعة أشهر، والوحدة العربية قائمة تحت أنقاض الهزيمة، مع أنها هي التي ترفع الأنقاض وتبني النصر..إلى أن جاء ربيع 1971 (17 نيسان) فالتقى في مدينة بنغازي الرؤساء الثلاثة محمد أنور السادات، حافظ الأسد، ومعمر القذافي، وكان الرئيس عبد الناصر قد انتقل إلى جوار ربه، والرئيس جعفر النميري لم يشترك في اللقاء.. وصدر إعلان بنغازي باتفاقهم على إقامة اتحاد الجمهوريات العربية.. وأن تكون هذه الدولة النواة التي تستقطب نضال الجماهير العربية الوحدوي، وبالتالي أن تكون نواة لوحدة عربية أشمل .. (الملحق رقم 5).

ورغماً عن أن الأمة العربية كانت قد فجعت غير مرة بالبيانات التي تتحدث عن الوحدة، إلا أنها استقبلت ميثاق بنغازي بكثير من الأمل والاستبشار، وتصاعدت فرحتها حينما صدر بيان" بالأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية المتحدة" يتحدث عن أهداف الاتحاد، وعلمه وشعاره ونشيده، واختصاصاته الدستورية، ومؤسساته..(ملحق رقم 6).

ولكن ذروة المباهج والأفراح انطلقت من دمشق، وهي موئل الوحدة الأول، فقد التقى الرؤساء الثلاثة السادات والأسد و القذافي في صيف 1971 (18 – 20 آب) وصدر عنهم ما عرف "بإعلان دمشق" أعلن فيه الرؤساء الثلاثة" موافقتهم على مشروع دستور دولة الاتحاد ليعرض على الاستفتاء الشعبي" وانفجرت دمشق فرحاً وسروراً، وتهليلاً وتكبيراً من الرجال، وزغردة من النساء..وكان ذلك استفتاء للأمة العربية بأسرها (ملحق رقم 7).

وبعد عشرة أيام (في يوم الفاتح من أيلول 1971) ثم الاستفتاء الشعبي في الجمهوريات الثلاثة، فكان نسبة 96.4 في سوريا، 98.6 في ليبيا، 99.9 في مصر، ولو أن حكام العرب الآخرين قد أذنوا للاستفتاء في شعوبهم التي يتحكمون بها لكانت النتيجة مئة بالمائة على وحدة عربية شاملة، تستغني عنهم، وتقيم مقامهم الحكم العربي الواحد الأوحد..

ثم بدأت الإجراءات التنفيذية، ففي 6 تشرين الأول سنة 1971 صدر قرار من مجلس الرياسة باعتبار القاهرة عاصمة للاتحاد، وفي نفس اليوم صدر قرار ثان بإنشاء جريدة تعرف "بالجريدة الرسمية للاتحاد وتنشر فيها القوانين والقرارات واللوائح الاتحادية"، وفي نفس اليوم صدر قرار ثالث بشأن "النظام الداخلي لمجلس رئاسة اتحاد الجمهوريات العربية" وفي نفس اليوم صدر قرار رابع بشأن تعيين أمين سر لمجلس رياسة الاتحاد، وفي نفس اليوم صدر قرار خامس بشأن النظام المؤقت للموظفين الاتحاديين، وفي 22 كانون الأول 1971 صدر قرار سادس بتكوين علم اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة من ثلاثة ألوان الأحمر والأبيض والأسود، وفيه الصقر من اللون الأصفر الذهبي .. وفقا للنموذج المرفق". وفي اليوم التالي صدر قرار سابع بشأن " شعار دولة الاتحاد في شكل صقر .. وفق النموذج المرفق ". ويتألف خاتم الاتحاد من الشعار المذكور"، وفي نفس اليوم صدر قرار ثامن بشأن "إنشاء مجلس الأمة الاتحادي .. وعضويته واختصاصاته".. وفي نفس اليوم صدر قرار "بتحديد ميزانية الدولة الاتحادية للدورة المالية المنتهية في ختام 1972، أي لسنة وسبعة أيام" بمبلغ إجمالي قدره مليون وخمسمائة ألف جنيه مصري" وفي نفس اليوم وعلى ضوء هذه الميزانية" الضخمة المجيدة" صدر قرار بتعيين

المجلس الوزاري الاتحادي من رئيس وسبعة وزراء، ليس بينهم وزير واحد وكل واحد منهم "وزير دولة" وليكون رئيس مجلس شئون السياسة الخارجية.. أو الشئون الاقتصادية والاجتماعية، أو مجلس شئون الإعلام، وهكذا إلى بقية المجالس السبعة، وليس بينهم مجلس للشئون العسكرية!![1]

وقد أسهبت بعض الشيء في سرد تفاصيل بناء اتحاد الجمهوريات العربية، من بداية عهده في زمن الرئيس الراحل عبد الناصر إلى عهد الرئيس السادات، لأؤكد مرة أخرى أن الوحدة فكرا وعقيدة ودولة، هي أمل الأمة العربية، وإذا كانت قد أصبحت من غير روح، فإن التبعة تقع على الحكم العربي المعاصر، أو معظمه، مع التفاوت في حجم التبعة..

واتحاد الجمهوريات العربية هو خير مثال على ذلك، فقد تكامل فيه البناء والكيان،ولكن وهن الضمير والوجدان،فلم يشعر المواطن العربي بدولة الاتحاد إلا حين نكس علم الاتحاد لثلاثة أيام حينما توفي القائد العربي المجاهد المشير احمد إسماعيل وزير الدفاع المصري، أو حينما تعطل مؤسسات الاتحاد، في عيد الوحدة، مع أنها عاطلة عن العمل في العالم كله!!

ودولة الاتحاد، كما رأينا في القرارات العديدة، تهيأت لها كل فرص النجاح، فقد كان دستورها مرنا يقع في اثنتين وسبعين مادة، وقد سبقته دراسات امتدت قرابة عامين، ثم لحقته دراسات أخرى لثلاثة أعوام أخرى (1975) غير أن هذه "الدولة لم يكن لها وجود إلا في ذلك المبنى الفخم الذي كان فندقا

---

[1] مجلس الأمة الاتحادي، **مصدر المعلومات من مجموعة الوثائق والقوانين الخاصة بالاتحاد** ، القاهرة.

ضـــخما في مصـــر الجديدة، حين كان يؤدي خدمات أجدى وأنفع، ولو في مضمار السياحة العربية".

ولم يقتصـر الأمر عند هذا الحد، بل أن دسـتور دولة الاتحاد، لم يمنع القطيعة العلنية والخفية بين القاهرة ودمشـــق وطرابلس، حول حرب رمضـــان المجيدة، هدفا ومرحلة، وحول اتفاقية الفصل بين القوات العسكرية وحول مؤتمر جنيف .. بل حول الدولة ذاتها، وجودا وعدما.

ولكن فجيعة الأمة العربية باتحاد الجمهوريات العربية، بين مصـــر وسـوريا وليبيا، قد هزت ضـمير الأمة العربية إلى الأعماق، ذلك أننا لو تجاوزنا الخلافات الســـياســـية العميقة التي وقعت بينهم، ولا تقع إلا بين الأعداء، فلا نسـتطيع أن نسـكت عن الحرب الدموية التي وقعت بين مصـر وليبيا في يوليو تموز من عام 1977، واســـتخدمت فيها كل أنواع الأســـلحة، فكانت حربا على الاتحاد، وامصيبتاه.

وهكذا فشـلت هذه التجربة الغالية، وعاد مقر الاتحاد إلى فندق سـياحي مرة أخرى.. ونزل علم الاتحاد عن ســـاريته، وخلعت لافتة "اتحاد الجمهوريات العربية" عن مدخل المقر.. وصاحت الوحدة إلى أين المفر!!"

وحين كان اتحاد الجمهوريات العربية راقدا على دسـتوره، ودسـتوره راقدا على أكتاف وزرائه.. برزت في عام 1972 حركة الوحدة العربية على ســـاحة عربية أخرى .. أعني بها ارض اليمن العربية حيث تتجسـد أكبر مأسـاة وحدوية في الوطن العربي كله.. فالجمهورية العربية اليمنية في الشمال، وجمهورية اليمن الديمقراطية في الجنوب، تؤلفان اليمن الواحدة التي كانت عبر التاريخ وطنا واحدا لشـــعب واحد، وكل ما في الأمر أن الاســـتعمار البريطاني كان قد احتل

عدن وأقساما من جنوب اليمن.. ولما جلا الإنجليز قامت الجمهورية الديمقراطية في الجنوب، وأصبح اليمن يمنين اثنين .. والشعب الواحد شعبين، تحكمهما حكومتان جمهوريتان، تمتاز الواحدة عن الأخرى أن لقبها" الديمقراطية الشعبية.

ونشبت خلافات ثم مناوشات بين الجمهوريتين، وتدخلت الجامعة العربية، وتألفت لجنة توفيق (1972/9/13) لحسم الخلاف وصاحب الوحدة التاريخية للشعب اليمني الواحد، فأفلح الوسطاء في عقد " اتفاقية الوحدة بين شطري اليمن:"، شماله وجنوبه .. وتذوب فيها الشخصية الدولية لكل منهما في شخص دولي واحد، وقيام دولة يمنية واحدة.. ويكون للدولة علم واحد، وشعار واحد، وعاصمة واحدة، ورياسة واحدة، وسلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية واحدة"، ووقع هذا الاتفاق رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ومعه عضو اللجنة المركزية ووزير الإعلام، ووقعه عن الجمهورية العربية اليمنية رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، ومعه وزير التربية والتعليم .. ووقع مع الفريقين أعضاء لجنة التوفيق، وممثل الأمانة العامة للجامعة العربية.

وقد مضى على هذا الاتفاق ثلاثة أعوام(1975) ولا يزال الشعب اليمني تحكمه جمهوريتان، عدد السكان فيهما معا سبعة ملايين وربع المليون نسمة .. أقل من سكان القاهرة (ملحق رقم 8).

وماذا يريد المواطن العربي، اتفاقا أكثر صراحة والتزاما من اتفاقية اليمن، وهل يريد حقيقة علمية وتاريخية وقومية أقوى من وحدة اليمن، شعباً ووطنا وتاريخا وحضارة..

ليس في الدنيا بأسـرها شـعب أجدر بالوحدة أكثر من شـعب اليمن، ولا وطن أحق أن تكون فيه جمهورية واحدة أكثر من أرض اليمن.. ولكن .. ولكن هذا هو طراز الحكم العربي المعاصـــر، تســـقط تحت نزواته وأهوائه، الوحدة المقدسة، وهي أسمى مراتب الوطنية، ومن غيرها تسقط قيم الحكام بلا استثناء، مع تفاوت التبعات والمسئوليات0

وجاءت عاشـرة الأثافي، ولم يعرف العرب في الماضـي إلا ثلاثاً، ممثلة في المحاولة الوحدوية العربية العاشـــرة في العصـــر الحديث، ففي أوائل عام 1974 (12 كانون الثاني) التقى الرئيس الليبي معمر القذافي، والرئيس التونسي الحبيب أبو رقيبة في جزيرة جربة في تونس، وبعد مباحثات ومداولات تمت بينهما ، وسـبقتهما دراسـات ومشـاورات بين البلدين، أصـدر الرئيسـان الإعلان التاريخي الوحدوي بقيام الجمهورية العربية الإســـلامية، بين الجهورية العربية الليبية، وجمهورية تونس " ... وجاء في ختام البيان بعد الديباجة أن الطرفين قد اتفقا " على أن يكون البلـدان جمهوريـة واحـدة تســـمى الجمهوريـة العربيـة الإســـلامية.. ذات دســـتور واحد، وعلم واحد، ورئيس واحد وجيش واحد، وفي نطاق نظم تشـريعية وتنفيذية وقضـائية واحدة، وأن يكون الاسـتفتاء لقيام الوحدة إن شـــاء الله يوم 25 ذي الحجة الموافق 18 يناير 1974 ميلادية (ملحق رقم 9).

ومضـت الأيام السـتة ولم يتم الاسـتفتاء .. وها قد مر عام وبضـعة أشـهر 1975 دون أن يتم الاسـتفتاء، وعاشـت الجمهورية العربية الإسـلامية المرجوة بضـعة أيام عند الشـعب في ليبيا كأنها أيام ثورة الفاتح.. وعند الشـعب في تونس كأنها أيام الاستقلال.

وقد ابتهجت الأمة العربية لتلك المحاولة الوحدوية، بين قطرين يملكان كل مقومات الوحدة، وكانتا في عهد الدولة العثمانية أيالة تونس وأيالة طرابلس، ولم توضع الحدود بينهما إلا بعد احتلال فرنسا لتونس، وإيطاليا لطرابلس.

ومما ضاعف في ابتهاج الأمة العربية يوم صدور البيان التونسي الليبي أن الرئيس بورقيبة قد عاد إلى الإيمان بالوحدة العربية، وهو صاحب المذكرة الشهيرة التي أرسلها في صيف 1965 إلى مؤتمر القمة في الدار البيضاء يندد بالوحدة.. وهو هو صاحب الخطاب الشهير الذي تصدى فيه للرئيس القذافي حين كان يخطب عن الوحدة في تونس.[1]

وهكذا ذهب البيان التاريخي إلى ذمة التاريخ مأسوفا عليه إنه وئد يوم ولد، وأن آية " بسم الله الرحمن الرحيم" التي تصدرت البيان لم يراع فيها حق الله ولا حق الوطن..

والمواطن العربي، مهما اختلف مع الرئيس القذافي، فإنه يقدر له تفانيه الوحدوي، ويقدر للشعبين الليبي والتونسي إخلاصهما للوحدة.. أما الرئيس التونسي ومعه بعض المسئولين التونسيين فلن يتركهم التاريخ من غير حساب.

وبعد، فإن هذه الخطوات الوحدوية العشر التي قامت في العصر الحديث، ابتداء من الدولة الفيصلية في دمشق، مرورا بالجمهورية العربية المتحدة، واتحاد الجمهوريات العربية، إلى الجمهورية العربية الإسلامية، كل هذه المحاولات تثبت الثابت ، وتؤكد المؤكد.. وهو أن الوحدة العربية حقيقة تاريخية، وحتمية مصيرية، كل مقوماتها متوافرة،ولا ينقصها إلا الحركة العربية

---

[1] راجع الفصل (العيب كل العيب في الحكام) من الكتاب: وكتاب المؤلف **حوار واسرار مع الملوك والرؤساء**.

الواحدة،الباسلة المناضلة، لتقود الجماهير إلى قصور الملوك والرؤساء، وتصنع الوحدة، وتقيم الدولة الواحدة مقام العشرين..

ونكاد نرى الحركة العربية الواحدة تولد، وتنظم ، وتعبئ وتقود ..

ونكاد نرى الأمة العربية من ورائها تتجمع ، وتزحف ، وتهدم وتبني..

وكذلك كان تاريخ الوحدة في كل زمان، وكل مكان

فبأي آلاء ربكما تكذبان

صدق الله العظيم

الوحدة العربية والأقليات

التعابير السياسية الدولية لا تصاغ عفواً أو ارتجالاً، ولكنها تصنع كالحلي، وتنحت كالتماثيل،بروية وقصد وسبب .. وكذلك كان شأن التعابير السياسية منذ أفلاطون " في جمهوريته" إلى كيسنجر في دبلوماسيته المعروفة: الحل خطوة خطوة...

"وحماية الاقليات" واحد من تلك التعابير الدولية، كانت صياغته لأول مرة في العصور الوسطى، ومن أجل الوطن العربي، لاحتلاله والسيطرة على ثرواته وخيراته .. ولا نحسب ان هذا التعبير كان معروفاً قبل تلك الحقبة من الزمان ،وأغلب اليقين أنه صيغ تفسيرا وتبريراً للسيطرة على الأمة العربية.

والحملات الصليبية التي استهدفت احتلال الوطن العربي قد انطلقت من أوروبا في العصور الوسطى، وملوكها وأمراؤها وقساوستها ملأوا الدنيا صراخا تحت شعار واحد، وصيحة واحدة، وتعبير واحد، ونريد " حماية القبر المقدس " .. نريد حماية الأقليات..

والمواطن العربي، يعرف كيف أن أولئك البرابرة الذين أهانوا المسيحية بالانتساب إليها، قد أفشوا الخراب في كنائس القسطنطينية ونهبوها.. وكيف

أنزلوا المظالم بالطوائف المسيحية، وكيف جعلوا بيت المقدس ركاما من الجثث، وأصبح القبر المقدس جزيرة صغيرة في بحيرة من الدماء.[1]

وقفز تعبير "حماية الأقليات" على مسرح التأريخ الدولي، مرة ثانية، في القرن التاسع عشر ومن أجل العرب، مرة ثانية ، وفي تلك الحقبة كانت الدولة العثمانية "الرجل المريض" الذي تترقب الدول الاستعمارية إغفاءته الأخيرة، لتنقض على "تركته" في الوطن العربي تتقاسم أقطاره وأسلابه.

وأثبتت الأيام زور تلك الأكذوبة الكبرى – حماية الاقليات – فقد مات الرجل المريض وأنشب الاستعمار مخالبه في الوطن العربي تمزيقاً وتقطيعاً، وصاحت "الأقليات" تطلب الحماية من حاميها، فقد وقعت هي والفئات الأخرى من الأمة العربية فريسة الاحتلال وضحية العدوان.

وافتضحت الأكذوبة الكبرى مرة ثانية، حينما وقع بيت المقدس ومعها القبر المقدس في قبضة اليهود في حرب الأيام الستة، فلم تتحرك الدول الغربية حامية الأقليات، ومنقذة القبر المقدس!!

وافتضحت الأكذوبة مرة ثالثة، حينما راحت إسرائيل تشن الغارات على لبنان وطن الأقليات، والإنسان المسيحي في الغرب يعلم علم اليقين أن الغارات الإسرائيلية على لبنان قامت بها الفانتوم الأمريكية، والميراج الفرنسية، والدبابات البريطانية.. وكلها دول مسيحية رفعت من وقت لآخر، شعار حماية الاقليات، وحماية المسيحيين بالذات.

ورغما عن أن الأكذوبة الكبرى قد كذبت مرة بعد مرة، فلا يزال الانفصاليون يرددون الحديث عن الأقليات في الوطن العربي يجعلون من الحبة

---

[1] أنظر ، أحمد الشقيري، **معارك العرب**، ص 37 وما بعدها..

قبة حتى ليظن من يقرؤهم أو يســـمعهم، أن الوطن العربي ليس أرضـــا لأمة واحدة، ولكن "وعاء" لاقليات لا حصر لها ولا عد: فيها العرب والأكراد والتركمان والآشــوريون والإيرانيون في العراق، وفيها الدروز والشــيعة والســنة، والنصــارى بطوائفهم المتعددة في سـوريا ولبنان ، وفيها الزنوج من جنوب السـودان، وفيها البربر في المغرب العربي .. وفيها ما فيها .. وما ليس فيها..

ولا نعرف فرية انتشـرت انتشـاراً واسـعا بفضـل الاسـتعمار وأعوانه، أشـد من هذه الفرية بطلانا وبهتانا .. فإن الواقع التاريخي، القديم والوسيط والحديث، كما أثبتنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب، أن هذا الوطن العربي الذي يمتد من المحيط إلى الخليج قد نشــأت فيه عبر التاريخ أمة عربية واحدة، شــأن أية أمة في هذه الدنيا نشـــأت على أية رقعة منها.. فأمتنا هي كغيرها من الأمم، تكوينا وكيانا، بل إن كياننا أقوم من غيرنا من كثير من الأمم.. ودونكم التاريخ لمن أراد الحوار.

وهذه الأمـة العربيـة الواحـدة، لا ينتقص من عروبتهـا، ولا من حتميـة وحدتها، أن بين المئة وعشـــرين مليونا من ســـكانها، نرى بضـــعة ملايين من "الاقليات" الدينية والطائفية والعنصرية.

ولقد اســـتعملت لفظة "الاقليات" من أجل أغراض الحوار فقط..فإن هذه "الأقليات" هم مواطنون أصليون في الأمة العربية، كانوا في القديم القديم وثنيين، وجاءت الأديان السماوية فاختار العرب أن يكونوا مسلمين أو نصارى، وتعددت المذاهب الإســـلامية فتعدد المســـلمون، وتعددت المذاهب المســـيحية فتعدد المسيحيون.

ذلك هو أمر الاقليات الدينية، أما الاقليات العنصرية فإن أمرها واضح وبسيط .. فالقومية العربية في مفهومها الثقافي والحضاري لا تؤمن بالعرق، ولا تدين بالعنصرية.. ولا يعرف أمة غير الأمة العربية عرفت نفسها مثل ما فعلت الأمة العربية بنفسها، فالنسابون العرب، اعتبروا العرب العرباء، والعرب المستعربة، كلهم من العرب، من غير تمييز ولا تفريق، ولا يزال الاستعراب عملية دائمة مستمرة في الأمة العربية.

وكذلك فإننا لا نعرف دولة من الدول المئة والخمسين في هذا العالم سواء كانت اتحادية أو وحدوية، تزعم لنفسها أنها مؤلفة من شعب يستطيع أن يثبت نقاء دمه وصفاء عنصره... أو أن أية دولة تضم سيادتها شعبا بلا عناصر ولا مذاهب ولا طوائف .. حتى الدول الشيوعية فيها أشتات من الأقوام والعناصر، الملحدين قبل المؤمنين.. وكثرة الأولين تطغى على الآخرين..

ويتضح من ذلك كله، أنه لا يوجد في الوطن العربي بكل أقطاره، أقليات تمثل مشكلة تعطل الوحدة العربية، فهذه الأقليات قد عاشت منذ فجر التاريخ على الأرض العربية، وتحت السيادة العربية الواحدة، قبل الإسلام، في الدول الآشورية والبابلية والكلدانية والمصرية، وكلها عربية، وبعد الإسلام، في عهد دولة الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين .. والعثمانيين..[1]

ولكن مشكلة الأقليات، كما نشأت في أوروبا ،في القون التاسع عشر، قد كان سببها الرئيسي تفتت الإمبراطوريات، وقيام حكومات وحدود جديدة، ونشأت عن ذلك كله أقليات أصبحت جزءا من هذه الدولة أو تلك، وأصبح لا بد

---

[1] راجع فصلا سابقا عنوانه: الوحدة العربية من بغداد إلى القسطنطينية.

من حمايتها، كما أعلنت مختلف الاتفاقيات الدولية، وخاصـــة تلك التي انعقدت في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ولهذا فإن المنشأ مختلف جداً بين الاقليات في الوطن العربي، والاقليات في أوروبا، الأولى أصيلة في الوطن، والثانية أدمجت في هذه الدولة، وانفصلت عن تلك .. "والاقليات" في الوطن العربي كان حالها دائماً مع الحكم العربي كحال الأكثرية العربية الكبرى، إذا كان الحكم ظالما فهو ظلم على المســـيحيين والمسلمين والعرب والأكراد والبربر سواء بسواء، كما هو في عهد الحاكم بأمر الله، وإذا كان الحاكم عادلا فهو عدل على الجميع كعهد عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشـدين أو عهد معاوية بن أبي سـفيان مؤسـس الدولة الأموية.. ومع هذا فلا بد من النظر في هذا الذي يسمى مشكلة الأقليات في الوطن العربي.

وأول هذه المشاكل هي قضية الأكراد في شمال العراق، وبقدر ما هي أبرز المشـــاكل في الوطن العراقي، فإنها أكثرها ظلماً على العراق وعلى الأمة العربية .. ذلك أن أحداً في العراق في جميع عهوده الغابرة أو المعاصـــرة، لم يظلم الأكراد أو يمارس عليهم تمييزا من أي نوع كان.. فهم مواطنون عراقيون لم ينكر عليهم أحد مواطنتهم ، وحقوقهم مصونة في الدولة عامة: وفي المناطق التي يعيشون فيها.

فمنذ قيام المملكة العراقية الحديثة، في عهد فيصـــل الأول، إلى قيام الجمهورية العراقية، والأكراد يشـاركون في الحياة العراقية العامة، فكان منهم في العهدين الملكي والجمهوري رؤســاء وزارات، ووزراء وســفراء وقادة في الجيش، ولعله غير لائق أن نقدم إحصـــاء بعددهم لنثبت أن الأكراد كان لهم في الدولة حصـــة أكثر من نســبتهم العددية. فإن مؤلف هذا الكتاب وســائر القوميين

الوحدويين يفاضلون بين مواطن ومواطن على أساس قدراته وكفاءاته وإخلاصه، لا على أساس العنصر الذي ينتمي اليه، أو المذهب الذي يدين به.

ويكفي في هذا الفصل الموجز، أن نشير إشارة عابرة أن جعفر العسكري – الكردي – كان رئيسا للوزارة العراقية، وكان قبلها من قادة الثورة العربية في الحرب العالمية الأولى، وأن نور الدين محمود – الكردي– كان رئيسا للوزراء.. وفي عهد حرب فلسطين كان القائد العام للجيش العراقي، وأن احمد مختار بابان – الكردي – كان رئيسا للوزارة العراقية.. وأن من أربعة عشر محافظا في العراق بأسره كان اثنا عشر منهم من الأكراد.. وأن أشهر رؤساء الأركان في الجيش العراقي كانوا من الأكراد: بكر صدقي صاحب أول انقلاب في الوطن العربي، وحسين فوزي، ومحمد أمين زكي، ورفيق عارف .. وأن من الوزراء الأكراد برزت أسماء لامعة في مختلف العهود أمثال: جمال بابان، وجلال بابان ، بابا علي، وعمر نظمي، وسعيد قزاز، ومسعود محمد، ومصلح النقشبندي، وعوني يوسف.. وأن في الوزارة العراقية الحاضرة عددامن الوزراء الأكراد.. ولا أريد أن أقول أن عددهم أكثر من نسبتهم بين مجموع المواطنين في العراق... فهذه المقارنة لا تتفق مع العروبة الرشيدة.

وفي إشارة عابرة أخرى يكفي أن نعود إلى حقائق لم يسع للحكومة البريطانية حين كانت منتدبة على العراق إلا أن تعترف بها فقد قالت ان " نسبة عالية من الأكراد مستخدمون في وزارات العراق، في المالية والداخلية والعدلية، في المناطق الكردية وغير الكردية.. وللأكراد نصيب كامل في الحكومة المركزية، فلهم عضوان من عشرين في مجلس الأعيان، ولهم 14 نائبا من 88 في مجلس النواب، ومنهم وزيران.. وفي الجيش والشرطة نسبة عالية من

الأكراد، وفي المناطق الكردية خمسة وعشرون مدرسة.. وتستخدم اللغة الكردية في 16 مدرسة، وأكثرية المدرسين أكراد، كما يوجد عدد كبير من المعلمين أكراد في المدارس غير الكردية..[1]

وقد اتســـع نطاق مشـــاركة الأكراد في حياة العراق العامة، وكان رجال الدولة العراقيون حريصـين أن لا يكون للأكراد مشـكلة، وأن لا يكون في العراق شـيء اسمه المشكلة الكردية .. فقد قال الملك فيصل في خطبة له بهذا الصدد : " إن من بين واجبات العراقي الصـــادق تشـــجيع أخيه الكردي العراقي على التمسك بجنسيته والالتحاق به في الانضـواء تحت العلم العراقي.." وفي مطلع عام 1926 خطب رئيس الوزراء العراقي في مجلس النواب مشـيرا إلى موضـوع المواطنين الأكراد فقال "جب على الحكومة العراقية أن تمنح الأكراد حقوقهم، وأن يكون موظفوهم من بينهم، وان تكون الكردية لغتهم الرسمية ".

وكان العهد الجمهوري في العراق أكثر تجاوبا مع المطالب الكردية، ففي عام 1963 أصـــدر مجلس قيادة الثورة في العراق بيانا خاصـــا "بتحقيق أهداف المواطنين الأكراد" جاء فيه أن مجلس قيادة الثورة "يقر الحقوق القومية للشـعب الكردي على أسـاس اللامركزية، وسـوف يدخل هذا المبدأ في الدسـتور المؤقت والدائم عند تشـــريعهما .." وقد تأكد هذا المعنى مرة ثانية بعد الانقلاب الذي قام به المشير عبد السلام عارف فقد أصدر بتاريخ 1964/2/10 بوصفه رئيســـا للجمهورية بيانا أعلن فيه "إقرار الحقوق القومية لإخواننا الأكراد ضـــمن الشعب العراقي في وحدة وطنية واحدة متآخية وتثبيت ذلك في الدستور .." ومرة ثالثة عادت الحكومة العراقية إلى توكيد الحقوق الكردية، فأذاع الســـيد عبد

---

[1] مذكرة الحكومة البريطانية على عصبة الأمم المتحدة في جنيف 2 آذار سنة 1926.

الرحمن البزاز رئيس الوزراء في بيانه الوزاري 1965/9/21 أن الحكومة .. " تعترف بحقوق إخواننا الأكراد القومية ، تلك الحقوق التي جاء الدستور المؤقت تأكيدا جديدا على قيامها.. وأن قانون الإدارة المحلية الجديد، سيؤكد ذاتية القومية الكردية، ويمكن مواطنينا في الشمال من الحفاظ التام على لغتهم وتراثهم الفكري: وتمكينهم من النشاطات المحلية التي لا تتعارض مع وحدة البلاد ولا تمهد بأي حال من الأحوال لانتقاص جزء من أطراف وطننا الواحد.."

ولم يقف الأمر عند حدود البيان الوزاري، بل بدأت مباحثات بين الحكومة العراقية ووفد يمثل الأكراد، وتم الاتفاق الكامل بين الجانبين.. وفي 1966/6/29 أذاع راديو وتليفزيون بغداد بيانا بنصوص الاتفاق، أذاعه السيد البزاز رئيس وزراء العراق باللغة العربية، والسيد حبيب محمد كريم عضو الوفد الكردي باللغة الكردية، وقد أعلن البيان "اعتراف الحكومة العراقية بالقومية الكردية في الدستور الدائم بحيث تصبح هناك قوميتان رئيسيتان هما العرب والأكراد.. والاعتراف باللغة الكردية كلغة رسمية مع اللغة العربية في المناطق التي تكون غالبية سكانها أكرادا.." إلى آخر تلك النصوص.

وبعد إذاعة البيان الواضح، أبرق الملا مصطفى البرزاني– قائد الثورة الكردية إلى رئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف، وإلى رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز يقول: "إن ما جاء في البيان هو تعبير صادق عن رغبة أبناء الشعب– عربا وأكرادا– لتحقيق ما يصبو إليه العراق من سلم وازدهار، ولتحقيق وحدته الوطنية.."

وفي ربيع 1967 أصدرت الحكومة العراقية قانونا نشر بالجريدة الرسمية (11 آذار) بتوقيع رئيس الجمهورية السيد أحمد حسن البكر ينص على "إنشاء

الحكم الذاتي لمنطقة كردســتان" فيه تفاصــيل وافية عن هيئات الحكم الذاتي: المجلس التشـريعي، والمجلس التنفيذي وتكوينهما واختصــاصــاتهما في منطقة كردســتان .. وعن العلاقة بين الســلطة المركزية وإدارة الحكم الذاتي .. وعن الشـــئون المالية والميزانية للمنطقة .. وعن اللغة الكردية وشـــئون التعليم في المنطقة (ملحق رقم 10).

وهذا العرض الســريع لموقف الحكم العراقي من المشــكلة الكردية، من العهد الملكي في أوائل العشرينات إلى العهد الجمهوري في أواسط السبعينات، يكشـف عن حقيقة بارزة في هذه القضـية، وهي أن العراق مظلوم .. والظالمون هم بعض قادة الأكراد..

بل الحق أن نقول، إن الملا مصـــطفى البرازاني واتباعه وحدهم هم الظالمون .. ذلك أن عشـيرة البرازاني وهي واحدة من عشـرات القبائل والعشـائر الكردية، لا تتجاوز 3750 أســرة ،وحين كانت معظم العشـــائر الكردية موالية لـدولتهم ووطنهم في العراق، قـام البرازاني بثوراتـه المتعـددة 1932، 1943، 1945، 1947، إلى آخر حلقات السلسلة إلى عامنا .. ولكن لماذا هذه الثورات ومن وراءها..؟ إنه الاستعمار الذي يغذي مثل هذه الفتن.

ويسـتذكر إخواننا الأكراد في العراق ان صـلاح الدين الأيوبي كان بطل الوحدة العربية في العصـور الوسـطى، وبهذه الوحدة حقق أعظم انتصـاراته على الإفرنج .. وأن الدولـة الأيوبيـة التي نســبت إلى أيوب الجد الكردي، قد امتد حكمها في الوطن العربي قرابـة مئـة عـام.. ولم يقل أي مؤرخ عربي أو غربي انها كانت دولة كردية .

وفي إطار هذه الدولة العربية الواحدة، كان صلاح الدين يتحدث بالكردية إلى جانب العربية، وفي خلافه مع سيده وسلطانه نور الدين زنكي، كتب إليه يستعطفه، مستشهدا ببيت من الشعر باللغة الكردية يقول فيه :-

بهرجة حكم كنى بنده يام قرمانير

بهرجة امر كنى جا كريم وخد منكار

ومعناه بالعربية أنا خاضع لكل ما تصدره من الأحكام .. وكل ما تأمر به من الأعمال فإني فاعلها وخادمها..[1]

ويكفي إخواننا الأكراد أن يستذكروا أن الأكراد في روسيا وتركيا وإيران ليس لهم وجود قومي على الإطلاق، ولا أريد أن أسرد الأحداث الدامية التي جرت لهم في تلك الأقطار، إبادة، وتدميرا وتهجيرا.. ودائرة المعارف البريطانية، لم تتردد أن تؤكد "أن العراق هو البلد الوحيد الذي يعترف للأكراد بحقوقهم القومية".[2]

فإن الأكراد في إيران وتركيا وروسيا ليس لهم وجود قومي على الإطلاق. ولا زيادة بعد ذلك لمستزيد.

تأتي بعد ذلك "مشكلة" النصارى في المشرق العربي، وهي في الواقع ليست مشكلة إلا على لسان الانفصاليين تنديدا بالوحدة، وفي عقل الاستعماريين إثارة للقلاقل والمشاكل في الوطن العربي.

والواقع التاريخي الذي أجمعت عليه المصادر العربية والأجنبية أن النصارى في المشرق العربي، ليسوا طارئين على الوطن العربي، إنهم أبناء

---

[1] أمين سامي الغمراوي، **قصة الأكراد**، ص 42.

[2] دائرة المعارف البريطانية تحت مادة (أقليات).

الوطن، نبتوا فيه هم وأجدادهم منذ فجر التاريخ، شأنهم في ذلك شأن المواطنين المسلمين..

ويكفي أن نشـــير إلى أحدث مرجع تاريخي كتب باللغة الإنجليزية لصاحبه المؤرخ العربي اللبناني الأمريكي، عن تاريخ سوريا ولبنان، يزيد على سبعمائة صفحة، ويخرج القارئ من قراءة كل فصوله أن نصارى سوريا ولبنان هم جزء من الهجرات التاريخية التي انطلقت من الجزيرة العربية إلى ديار الشام وعرفوا بالكنعانيين والفينيقيين .. وأنهم من أنسال الغساسنة الذين أقاموا دولة في ديار الشام في فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان.[1]

وقبل النصرانية بقرنين، نقرأ في التوراة نفسها كثيرا عن العرب في ديار الشام .. فمن هم نصارى الشام إذا لم يكونوا أحفاد أولئك العرب، وأحفاد القبائل العربية التي ظلت الجزيرة العربية تقذف بها إلى سوريا ولبنان[2]..

وليســت الوحدة العربية غريبة على النصـــارى العرب، فهم منها، وهي منهم، فقد ذكر كتاب صـــادر عن وزارة الدفاع اللبنانية أنه في عهد معاوية، مؤسس الدولة الأموية كان النصارى والسريان من رجال دولته، وفي عهده ساهم اللبنانيون في بناء الأسطول العربي، فقطعوا الأخشاب من غابات لبنان واشتركوا في القوة البحرية العربية، قادة وملاحين، في فتح قبرص ورودس..[1]

---

[1] The History of Syair : Hitti

[2] التوراة في الإصحاح 11، 12، 25، وكذلك في سفر أيوب .

[1] قيادة الجيش اللبناني، كتاب **التنشئة الوطنية الإنسانية**، لبنان.

وفي ذلك العهد الأموي نفسه، بنى الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي قصره الشهير في قرية عنجر في لبنان، وهو واحد من المعالم التاريخية الأثرية، مضافاً إلى المعالم الفينيقية العربية المنتشرة هنا وهناك في لبنان.

ويحدثنا التاريخ أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور (754 – 775) أنزل في أواسط لبنان قبائل من تنوخ أنجبت أسرا عديدة معروفة إلى اليوم في لبنان، منها ، الأمراء آل أرسلان، وآل علم الدين، وآل أبي اللمع والمشايخ آ ل عماد، ونكد، وتلحوق، وعبد الملك، ليكونوا مرابطين في وجه أطماع الدولة البيزنطية في الشمال.

وفي غمرة الحروب الصليبية، اندفعت أسرات عربية وكبيرة وكثيرة، إلى أواسط لبنان لمجاهدة الصليبيين وإجلائهم عن البلاد، وفي مقدمتهم الأمراء المعنيون في الحملة الصليبية الأولى،والأمراء الشهابيون في الحملة الصليبية الثالثة، وتوافدت كذلك أسر عربية أخرى منهم آل مزهر، وآل الصواف، وآل حرفوش، وآل صعب ، وآل حصن الدين،وبنو الشاعر، وآل زوين،وآل الدحداح وآل حبيش، والأسرتان الأخيرتان مسيحيتان، ولكنهما تفخران أن الأولى من قريش وتنتسب إلى بني هاشم بن عقبة الصحابي... والأسرة الثانية من قبيلة سفيان الهمدانية باليمن وتنتسب إلى حبيش بن خالد الصحابي .. أما الأمراء الشهابيون فإنهم ينتسبون إلى مالك بن مرة بن كعب القريشي الملقب بشهاب..[2]

وكذلك لقد عاش النصارى العرب في ظل الوحدة العربية في عهد الدولة العباسية، فالمرجع السالف الذكر يشير إلى أن اللبنانيين كان لهم دور كبير في السيطرة العربية على البحر الأبيض المتوسط في الربع الأول من القرن الرابع

---

[2] محمد جميل بيهم، **العروبة في لبنان**، ص 61 وما بعدها.

عشر للميلاد، واشتركوا في الحملة على سلانيك (904) وسبوا ألوفا من سكانها وعادوا بهم إلى طرابلس.

ويضـــيف المرجع نفســـه أن الخلافات في لبنان لم تكن طائفية، بل خلافات عربية بين قيس ويمن وإلى هذه الأحزاب تنتمي مختلف الطوائف .. وأن التحزب الديني والطائفي لم يعرف في لبنان قبل القرن التاســع عشــر، وأن التدخل الأوروبي هو الذي أوقد نار الفتنة بين الطوائف.. كل دولة تدعي الحماية لطائفة، فرنســا حامية الموارنة، وروســيا حامية الأرثوذكس، وبريطانيا حامية للدروز والبروتستانت..

وقبل التدخل الأوروبي لم يكن الخلاف في لبنان بين طائفة وطائفة، ولكن بين عرب وعرب، بين حزب وحزب.. فقد حملت الأســر العربية خلافاتها معها حين هاجرت من الجزيرة العربية إلى لبنان فانقسموا إلى قيسيين ويمنيين، وكان آل معن وآل شــهاب وآل أبو اللمع من الحزب القيســي وشــعارهم العلم الأخضر.. كما كان الأمراء آل علم الدين وآل أرسلان والمشايخ آل حمادة من الحزب اليمني وكان شعارهم العلم الأبيض..

وهذه الأسر لا تزال قائمة حتى الآن في لبنان .. وبقايا علاقاتها الحزبية موجودة إلى يومنا هذا .. والطريف أن في الأسرة الواحدة، عند بعضها، مختلف الأديان والمذاهب.. المسيحي والمسلم والدرزي في أسرة واحدة.

ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أن اللبنانيين في مختلف طوائفهم قد قاتلوا معا تحت قيادة الأمير الكبير فخر الدين المعني الكبير.. والموارنة من عرب سورية، ترجع سوريتهم إلى ما قبل الإسلام بقرون فقد نشأت الطائفة المارونية في وادي العاصي (حماة) ومنه نزحوا مع تعاقب الأيام إلى لبنان، وحبر الطائفة

المارونية الأول مدفون في الدير الماروني القائم على وادي العاصـــي، وهو أول دير للطائفة المارونية.[1]

وفي هذا الدير نفسه وقعت مذبحة رهيبة راح ضحيتها ثلاثمائة وخمسون راهباً مارونيا بسـبب النزاع بين الموارنة واليعاقبة .. ولم يحسـم هذا الخلاف بين النصارى أنفسهم إلا الخليفة العربي معاوية بن أبي سفيان.

ونصارى العرب عاشوا اليقظة العربية الحديثة بكل جوارحهم، واليازجيون والبسـتانيون من الرواد الأوائل في تجديد شـباب اللغة العربية وآدابها، والشـعراء النصـــارى في الوطن والمهجر الـذين تغنوا بـالوحـدة العربيـة لا عـد لهم ولا حصر.[2]

والطائفية في لبنان وغيرها، قد صـنعها الاسـتعمار ولم يصـنعها سـواه، وأخذ منها ومنه طريقه إلى الحكم في لبنان، ومع أن المادة الخامسـة والتسـعين من الدسـتور اللبناني قد نصـت بصـورة صـريحة أنه "وبصـورة مؤقتة" والتماسـا للعدل والوفاق، تمثل الطوائف بصـــورة عادلة في الوظائف العامة وبتشـــكيل الوزارة دون أن يؤدي ذلك إلى الأضـــرار بمصـــلحة الدولة" إلا أن هذه المادة الانتقالية قد مضى عليها ما يزيد على ربع قرن، ولا تزال انتقالية!!

وقد تمنى كتاب وزارة الدفاع اللبناني "أنه سيأتي يوم يشعر فيه اللبنانيون بأن تحميل مســـئولية الحكم والقانون والإدارة للأكفأ والأعدل والأنزه هو الذي يصـــون حقوق جميع المواطنين"، لا التوزيع الطائفي لمناصـــب الدولة، فتزول

---

[1] دائرة المعارف البريطانية تحت مادة مارونية.

[2] أنظر: أحمد الشقيري، **حوار واسرار مع الملوك والرؤساء**.

بذلك الطائفية السياسية وتحل محلها المساواة والعدالة بين جميع المواطنين..[1] وهذه المعاني الكبيرة، من غير شـــك، هي خطوة تقدمية نحو الوحدة العربية، وتشطب الطائفية من قائمة المصاعب التي تواجه قيام الدولة العربية الاتحادية لتضـــم بين ذراعيها الأقطار العربية بأســـرها ولبنان في الطليعة بكل كفاءاته وقدراته.

وسوريا لا تقل عن لبنان من حيث عدد الطوائف والمذاهب والعناصر، ومع هذا فإن الحكم الوطني في سوريا قد أثبت قوميته ، ويكفينا دليل واحد يغني عن العشرات. أن المرحوم الأستاذ فارس الخوري، وهو أصلا من إحدى قرى لبنان، كان لأكثر من مرة رئيسا لمجلس النواب السوري، ورئيساً للوزراء، وفي الأمم المتحدة كان رئيسا للوفد السوري .. وحين خلفته في هذا المنصب وجدت له سجلا رائعا في المنظمة العالمية تفخر به سوريا ومعها الأمة العربية.

وجملة القول أن نصارى العرب ليسوا عقبة في سبيل الوحدة العربية وإنما هم دعامتها، وليسوا عبئا عليها وإنما هم ثروتها.. ويصبح من الواجب على القوى العربية النصرانية التقدمية أن تتجمع مع سائر إخوانهم العرب، ليرفعوا معا علم والوحدة، وليناضلوا معاً من أجل تحقيقها في إطار القومية العربية الواحدة، في منأى عن الطائفية والعنصرية والقبلية.

وتأتي بعد ذلك المشكلة الثالثة وهي مشكلة جنوب السودان.. وهذه تختلف كلية عن قضايا الأقليات حيثما كانت.. ففي المديريات الجنوبية في السودان قبائل بدائية لا تصلح إلا لشيء واحد وهو دراسة حياة الإنسان الأول.. وقد رأى الاستعمار فيهم مشكلة يمكن إثارتها لإزعاج السودان والتشويش على

---

[1] النشأة الوطنية الانسانية ، قيادة الجيش اللبناني، وزارة الدفاع ص104.

مســيرته الوطنية في الداخل، وســياســته العربية في الخارج.. وكان طبيعياً أن يكون المبشــرون هم طليعة التدخل الاســتعماري، شــأنه في كل زمان ومكان.. يضـــاف إلى ذلك بعض جيران الســـودان، لســـبب أو لآخر، ولا ننســـى دور إسرائيل... فحيث تكون المشاكل العربية تكون إسرائيل...

ولقد وجدت هذه "المشــكلة" من يغذي ســكان الجنوب بالمال والســلاح والتدريب.. وقامت " حركة تحرير جنوب الســـودان" في الوقت الذي كان فيه الحكم الوطني في السـودان مشـغولا في تحرير التراب السـوداني وتحرير سـكان الجنوب من بدائيتهم.. وتلك هي معركة التحرير الأولى.

ونشــب القتال قرابة ســتة عشــر عاماً، أدرك فيها ســكان الجنوب في النهاية أن لا جدوى من القتال، فعقدت في شــهر شــباط عام 1972 "اتفاقية "اديس ابابا" بين ممثلي الحكومة الســـودانية وحركة التحرير، منحت بموجبه المديريات الثلاث في الجنوب حكما ذاتيا في إطار الوحدة الســـودانية.. وكانت بداية طيبة يســتطيع معها ســكان الجنوب أن ينعموا بالحياة الإنســانية الحديثة، ويستطيع السودان أن يسير في ركب الوحدة العربية، يشترك فيها شمال السودان وجنوبه على السواء.

ثم تأتي المشـــكلة الرابعة، وهي ما ينبشـــه الاســـتعماريون من كهوف التاريخ، وهو ما ســـمي بمشـــكلة البربر في الشـــمال الإفريقي.. ذلك أن الاســتعماريين الفرنســيين والإيطاليين هم الذين عادوا إلى حفائر التاريخ فوجدوا سيرة البربر في الشمال الإفريقي، واتخذوا منها ذريعة لمحاربة التحرر العربي في الجزائر وتونس والمغرب وليبيــا، والمواطن العربي يــذكر "الظهير البربري" – المرسوم– الذي أصدرته فرنسا "لحماية حقوق البربر" وحاميها حراميها..

وليس هنالك من جدوى في الرجوع إلى المصـــادر التاريخية عن أصـــل البربر، فالآراء متضـــــاربة إلى حد بعيد، وكثير منها غارق في الأســـــاطير أو النزعات الشـعوبية.. ولكن أكثر المصـادر تشـير إلى أن البربر " كانوا في أول أمرهم في الشـــــام مع أبناء عمهم في فلســـــطين، فوقعت بين الطرفين حروب وحدثت فتن فهاجر البربر من الشـــام فســـاروا إلى المغرب فاســـتوطنوه فغمروه بشعوبهم، وعمروه بقبائلهم من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي ومن بحر العرب إلى حدود السـودان، وكانت تلك الهجرة في العصـر الحجري وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بمدة لا تقل عن ثلاثين قرنا.[1]

وعلينا أن نضـيف إلى ذلك الهجرات العربية الكبرى إلى إفريقيا الشـمالية .. وأولها هجرة الفينيقيين الذي أقاموا دولة قرطاجة قبل الإســـلام واســـتقروا في الشـــمال الإفريقي من برقة إلى الأطلنطي، ثم الهجرة العربية الضـــخمة في عهد الفتح الإسلامي، وبعد ذلك هجرات القبائل العربية المتوالية إلى الشمال الإفريقي، وخاصة بني هلال وسليم .

وكثير من البربر يقولون أن أصـــلهم من العرب، فالصـــنهاجيون الذين ملكوا المغرب في القرنين الخامس والســـــادس الهجري، وكذلك ملوك الموحدين، وجميع أولئك وهؤلاء من البربر، قد اعتبروا أنفسـهم من العرب.. وأنهم ينتسـبون إلى قريش .. حتى المؤرخ العالمي الفذ ابن خلدون الذي يقول ان البربر حاميون وليســوا ســاميين يؤكد أن البربر كانوا في الشــام ووقعت بينهم وبين "فلســطين" حروب مذكورة.[1]

---

[1] عثمان الكعاك، كتاب **البربر**، ص 7، مطبعة الترقي بتونس 1956.

[2] ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 97.

وقد توسع مؤرخ جزائري في التركيز على أصل البربر .. ولكنه لم يسعه إلا أن يقول في النهاية "إن امتزاج العرب بالبربر، لما فتح المسلمون المغرب، كان امتزاجا سريعا كما يمتزج الماء بالماء، ويختلط الذهب بالذهب فيصير سبيكة واحدة.. وان ابناء المغرب اليوم مزيج من هذين الجنسين الكريمين ليس فيهم بربري خالص، ولا عربي قح ..[2] وهذا لا يضير القومية العربية، ولا الوحدة العربية ذلك أن الفرنسي الخالص غير موجود، والألماني القح مفقود.

على أن كلمة "البربر" نفسها لا تنبئ عن قومية معروفة، فهذا "اللفظ" متداول قبل المسيحية والإسلام بقرون، وترجعها المصادر اليونانية إلى أقدم العصور فكان اليونانيون القدماء يطلقونه على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة.. وعلى الأمم الغريبة عن لغة اليونانيين وحضارتهم، وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية، خلاف إيطاليا وولاياتها، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على الشعوب التي تعيش خارج الإمبراطورية ثم حرفها العرب بعد الفتح الإسلامي عن اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التي تسكن إفريقيا الشمالية، باستثناء مصر..[3]

وكائنا ما كان الأمر، فإن البربر، إن لم يكونوا عربا في الأصل، فقد استعربوا وأصبحوا عرباً كأي شعب آخر من شعوب الأمة العربية.. وعلى كل حال فإنهم أقدم عروبة من الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي وجده تركي، ومن المصلح العربي قاسم أمين والمؤرخ العربي محمد كرد علي، وكلاهما من الأكراد.. دون أن نرجع إلى الألوف من أعلام العرب السابقين المستعربين..

---

[1] محمد علي دبوز، **تاريخ المغرب الكبير**، ج1 ، ص 26 .

[2] عبد الله عنان، **تاريخ الأندلس**، ص 18.

وأبناء الشـــمال الإفريقي الذين يعتبرون أصـــلهم من البربر، قد مزجهم التاريخ والإســلام في القومية العربية وعاشــوا في ظلال دولة الوحدة العربية من عهد الراشـــدين إلى العباســـيين .. وبعد ذلك في وحدة ثنائية مع العثمانيين .. وليس للبربر على أي حال لغة حية، ولا حضــارة معروفة في التاريخ.. وإذا كان التاريخ يذكرهم بلفظ " البربر" فإنه يفعل ذلك في إطار التاريخ العربي الإسلامي، بقدر ما ســاهموا في الحضــارة العربية، والفتوحات المجيدة في الأندلس وجنوب أوروبا.

وإذا كان علماء القرن التاســـع عشـــر قد جردوا القومية من معانيها العنصرية، فقد كان العرب أسبق في ذلك بقرون.. كما قرأنا للجاحظ في الفصول السابقة عن معنى العروبة، وكما حددها الشاعر العربي الفذ، أبو تمام، في قوله :

إن يختلف مــاء الحيــاة فمــاؤنــا عــذب تحــدر من غمــام واحــد
أو يختلف نســـــب يؤلف بيننـــا أدب أقــمــنـــاه مــقــام الــولــد

وهذا هو أروع تعريف للقومية في أروع شعر، فالأمة العربية الواحدة عند أبي تمام ليســـت بالضـــرورة منحدرة من أب واحد، وإنما يكفي أن تعيش تحت غمام واحد.. ولها أدب واحد .. والغمام هو الوطن ،والأدب هو القومية. وحياة أبو تمام نفســـه (804 – 850) من معالم الوحدة العربية، فهو من أبناء حوران (ســوريا) وولد لأب نصــراني واعتنق الإســلامي في شــبابه، وعاش في ســوريا ومصر والحجاز والعراق، وأصبح شاعر الخليفة المعتصم في عاصمته الجديدة في ســامراء، ومات في الموصــل ودفن فيها.. وهكذا كانت الأرض العربية كلها وطنه، ودار وحيه وإلهامه.

وأمثال أبو تمام من اعلام الوحدة، ألوف وألوف يكفي أن نشير إلى ابن خلدون العالم الاجتماعي والمؤرخ العالمي، فقد عاش في المغرب وتونس، ووضع تاريخه الشهير في الجزائر، وتولى منصب قاضي القضاة في القاهرة، وقام بأعظم سفارة دبلوماسية في القرون الوسطى بمفاوضاته مع التتار في دمشق.. وأخيرا دفن في القاهرة.. وهكذا كانت الأرض العربية مولده وداره ومرقده، يتقلد أعظم المناصب، ويتولى مهام الأمور، كأي مواطن في وطنه. وما هو أعظم من ذلك، فإن ابن خلدون، كان أعظم لاجئ في التاريخ، فقد احتل الأسبان موطنه في الأندلس، وعرضوا عليه أن يعود إلى بلده الأول، تعاد إليه أموال وأملاك آبائه وأجداده فأبى.

وهكذا كان ابن خلدون أعظم عزاء للألوف من اللاجئين المصريين الذين نزحوا من القنال، واللاجئين السوريين الذين نزحوا من الجولان، واللاجئين الفلسطينيين الذين نزحوا من فلسطين. والتاريخ، لن ينسى التاريخ، أن هؤلاء النازحين العرب هم ضحية الانفصال، والجالسين على عروش الانفصالية، سواء كانوا جمهوريين أو ملكيين. ولولا الانفصال في الوطن، والانفصام في العزيمة، لما حلت بنا الهزائم في فلسطين وسيناء والجولان.. ولا خرج أهلنا من ديارهم هائمين على وجوهم ولكن العزاء العظيم، بل اليقين الأعظم، أن دولة الوحدة ستحل محل الملكيات والجمهوريات .. وكل آت آت.

الوحدة العربية..
وثورة ربيع الأول

لو أن سائلا سأل .. وماذا سيكون النظام الاقتصادي لدولة الوحدة.. أهو اشتراكي، أم رأسمالي، أيكون يساريا أو يمينيا، أيكون تقدميا أم رجعيا، أيكون إصلاحياً أم ثوريا..

والجواب، مبادرة ومن غير تردد، ان علم الوحدة العربية فيه عشرون نجمة.. ولكن النظام الاقتصادي للدولة سيكون ويجب أن يكون نظاما اشتراكياً، موحداً واحداً للأمة العربية بأسرها، وللوطن العربي أجمع.

وهذا الجواب عفوي وبديهي، لأنه حاضر في أذهاننا مستقر في وجداننا متأصل في تراثنا، نابع من المثل الروحية والقيم الخلقية الزاخرة في تاريخنا.

ونحن نطلق الجواب من غير تردد، لأن الإسلام، وهو الذي صنع للأمة العربية تاريخاً وأمجاداً وحضارة، قد صنع لها مصدراً فياضاً من الاشتراكية تتمثل في الثورة الكبرى التي أعلنها الإسلام على الفوارق الفاحشة بين الأغنياء والفقراء، والإقطاع على حساب الفلاحين،واستغلال النفوذ في سبيل اكتناز

الأموال وحشد الثروات، وعلى الجملة فإن الإسلام يمثل ثورة أصيلة على عبودية الإنسان للمال وللأرض والسلطان !!

ونحن.. نحن الأمة العربية، كان لنا سهم كبير في الفكر الاشتراكي، غاب إدراكه عن كثيرين، لأن لفظ الاشتراكية لم يكن معروفا، ولأن التاريخ العربي الإسلامي، قد كتبت مصادره الأولى في إطار تعبدي ديني، من غير تركيز على الجوانب الاجتماعية.. ولا لوم على أحد فقد كانت تلك سمات العصر.

والواقع إننا حين نقرأ التاريخ العربي الإسلامي، بالمنظار الاجتماعي، نقف مبهورين أمام تلك القيم الفكرية الشامخة التي تجسد نوعا فريدا من الاشتراكية الرائدة لا تزال الاشتراكية الحديثة مقصرة عن اللحاق به.

بل إننا حين ننعم النظر في سيرة العمالقة من الاشتراكيين العرب الأوائل وما قدموا من فكر، وما مارسوا في التطبيق، نستطيع أن نفخر من غير مفاخرة أن الاشتراكية العربية الإسلامية الفذة، كان من أعظم حوافز خصبها إنها ولدت في أرض قاحلة ماحلة، وكان ذلك السبب الأكبر في ثرائها.. وجدب الطبيعة خلق ثراء الفكر، والنزوع إلى العدل الاجتماعي.

ولقد كان الإسلام هو الثورة الكبرى التي دقت أعلامها في الجزيرة العربية، لتحرر الإنسان العربي روحياً وفكرياً ومادياً، وبهذا لم تكن اشتراكية مادية أو اشتراكية علمية، او اشتراكية جدلية،ولكنها كانت كل ذلك إلى جانب الاشتراكية الروحية والوجدانية. وحين جاء الإسلام كان المجتمع العربي تسوده العبودية، والاستغلال والظلم، لقد كان الإنسان العربي عبدا للأصنام، فهدمها الإسلام، فتحرر من العبودية الكبرى، وكان الإنسان العربي أجيرا حقيرا يعمل

في خدمة ثروة قريش الفاحشة، فحطم الإسلام الاستغلال وكفل للإنسان العربي العدل والكفاية، وكان المجتمع العربي تقوده أرستقراطية طاغية باغية فحطم الإسلام البغي والعدوان وأعلن الأخوة والمساواة فاستوى العبد مع القرشي، والمولى مع الهاشمي والمرأة مع الرجل.

وهذا الذي أكتبه ليس فيه جديد على التاريخ العربي، فقد كتبت فيه مجلدات تملأ مكتبات، والمستشرقون المنصفون وجدوا في الإسلام روائع وبدائع لم تخطر لنا، فقد نظروا بمناظير لم تكن تحت أيدينا، فأبهروا لأمور كنا نراها عادية وطبيعية.. وكانت الاشتراكية العربية الإسلامية من أهم ما وقفوا أمامه في تأمل وإعجاب.

والواقع أن التاريخ العربي الإسلامي فيه ثروة اشتراكية ضخمة، دون ان نجد كلمة "الاشتراكية" مرة واحدة.. وهذا ما جعل الكثيرين من العرب المسلمين يحسبون الاشتراكية غريبة عليهم، وإنها ليست من الإسلام في شيء.. يضاف إلى ذلك أن أعداء الاشتراكية من الملوك والأمراء وأصحاب الثراء الفاحش لم يجدوا حصنا يلوذون به للدفاع عن عروشهم وخزائنهم إلا أن يزعموا ويؤكدوا أن الإسلام ينهي عن الاشتراكية، كما ينهى عن الفحشاء والمنكر.. وأن الطاعة واجبة لأولي الأمر ،فهم ظل الله على الأرض، وطاعتهم من طاعة الله.

ومن هنا انطلق تعبير "المبادئ المستوردة" تنديدا بالاشتراكية ودفاعا عن الاستغلال والاحتكار والإقطاع، وتوكيدا لحرية السلطان في اقتراف الظلم والبغي والعدوان.

هذا مع العلم واليقين، كأنك ترى الشمس إذا كنت بصيرا، أن الاشتراكية ليست من المبادئ المستوردة بالنسبة إلى الحياة العربية الإسلامية، إنها في

صـــميم الإســـلام بل هي لحمته ونواته.. وليس غلوا ان نقول إنها من مبادئنا المصـدرة.. فإنه من الثابت أن كارل ماركس قبل ان يؤلف كتابه "رأس المال" قد قرأ في جملـة مـا قرأ في مكتبـة لنـدن "كتـاب الأموال" لأبن عبيـد الله، العربي الإسلامي وفي ذلك الكتاب أبحاث مستفيضة عن المال في الإسلام.

ولســت أريد ان اســتشــهد بالعشــرات من الآيات القرآنية والمئات من الأحاديث النبوية التي تدعو إلى المســـاواة والعدالـة الاجتمـاعيـة،وهي ركيزتـا الاشـــتراكية، فذلك خارج عن إطار هذا الكتاب، فإن التطبيق الاشـــتراكي الذي مارســه الاشــتراكيون العرب الأوائل يصــلح أن يكون مصــدر الهام للوحدويين العرب حيثما كانوا، وإلى أي مذهب انتســـبوا.. وكائنا ما كان نظام الدولـة الوحدوية التي نتطلع إليها، رئاسـيا أو برلمانياً، فينبغي أن يكون نظاماً اشـتراكياً متكاملاً.. فذلك هو الأصل في الإسلام دعوة وممارسة وثورة .

أقول "هو الأصـــل" حقيقة لا مجازا، فقد تناثرت في القرآن الكريم آيات كثيرة عن "المال والرزق والملك والأرض" .. لعلها أكثر من أي موضـــوع آخر بمفرده.. فقد ورد ذكر "المال" ومشتقاته ترغيبا وترهيباً أن المال مال الله، ما يزيد على عشـــرين مرة.. وورد ذكر الأرض والملك ومشـــتقاتهما، وان الله لـه ملك السموات والأرض ما يزيد على تسـعين مرة.. وورد ذكر "الرزق" ومشـتقاته، وان الرزق من الله، ما يزيد على مائة وعشـرين مرة .. هذا بالإضـافة إلى عشـرات الأحاديث النبوية التي تجري على هذا المنوال.

وتتلخص العقيدة الإســـلامية، ونحن في عصـــر كثر فيه الحديث عن العقائديات، أن "المال" هو مال الله .. وان الخلق عيال الله، وأن الناس يستخلفون في هذه الأرض على مال الله.. وما أحسـب أن اشـتراكية قديمة أو معاصـرة قد

بلغت هذه المعادلة الرفيعة حين تقرر بصورة قاطعة حاسمة أن "المال" هو لخلق الله على الأرض من غير تفريق ولا تمييز.

وحين قرر الإســـلام "شـــيوع" المال على هذا الوجه بين الناس كافة، انطلقت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تضع للفرد حدودا لحيازة المال، ومثلها لإنفاق المال، تجعل من المســتحيل أن يبلغ أي إنســان الثراء الفاحش، أو الفقر المدقع.. فإذا حاز الفرد المال حلالا لا احتكارا ولا اســتغلالا، وإذا أدى من ماله الحق المقرر لله، يتحطم الثراء الفاحش والفقر المدقع معاً، ويعيش الناس جميعا في كفاية ويسر.

ثم ان "الصـــلاح" يجب أن يلازم" المال ويصـــاحبه ، فقد قال الرســـول (صلى الله عليه وسلم) نعم المال الصالح للرجل الصالح، وبذلك وجب أن تكون حيازة المال الصــلاح .. وأن يكون صــاحبه من أهل الصــلاح، مع نفســه وأهله وجماعته وأمته..

ولقد كان هذا هو مفهوم الإســـلام في صـــدر الإســـلام ، فقد روى أحد الصــحابة عن الرســول (صــلى الله عليه وســلم) أنه قال : من كان معه فضــل ظهر(دابة) فليعد به إلى من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومضــى الصــحابي يقول "إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر من أصـــناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضـــل"[1]، وبذلك يملك المرء الكفاف وما زاد على ذلك فإنه لأخيه وللجماعة.

والمال، عند الرســـول (صـــلى الله عليه وســـلم) هو للإنفاق، يجب أن يتخلص صـــــاحبه منه كما يتخلص من الجمر، فقد قال "أي مال في ذهب أو

---

[1] ابن حزم، في كتابه **المحلي**، ج 6، ص 454.

فضة.. فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله" وكان حديثه هذا نابعا من القرآن حين ندد بالذين يكنزون الذهب والفضـــة ولا ينفقونها في ســبيل الله: وتكوى بها جباههم، كما دعا إلى تداول المال بين الأمة" كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم[1] يتداولونه فيما بينهم وكفى.. ولا يتداوله الفقراء.

والرسول (صلى الله عليه وسلم) ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد قرن المال بالإيمان، وهو أعز ما في الإسلام وقال: ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلى جانبه طاو (جوعان) وقال أيضـاً: " أي رجل مات ضـياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسـوله" وبذلك جعل الاشـتراكية في صـميم الإيمان .. وبهم يتم الإيمان: ولا إيمان بدونها وذلك هو الحديث النبوي بنصـــه ومعناه وروحه فلا يجادلن أحد.

بل إن الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم) اعتبر "المال" كثيرا ما "يسـتعبد" الإنســان، فدعا إلى أن يتحرر من هذه العبودية فكان يقول "تعس عبد الدينار والدرهم".. فجعل المال قرين التعاسة والعبودية، وجاءت اشتراكية الإسلام لتحرر الإنسان من التعاسة والعبودية معاً..

وتتجلى الاشـتراكية الإسـلامية في صـور رائعة لا تزال فريدة إلى يومنا هذا، لم تبلغها أكثر النظم الاشـــتراكية تقدماً، وخاصـــة في التكافل الاجتماعي، للأمة كل الأمة.

فلم يكن التكافل الاجتماعي قاصـــرا على الفقراء والمســـاكين واليتامى وذوي القربى بل لقد تعداهم إلى "أبن الســـبيل" وهو الذي انقطعت به الطريق ونفذ ماله، فقد دعا الإســـلام إلى كفالته، وتدبير إقامته ورده إلى موطنه بقوته

---

[1] سورة الحشر آية رقم 7.

وحاجته.. وكذلك تكفل "بالغارمين" وهم الذين يقعون تحت الدين لغير سـفه أو تبذير، فأوجب الإسلام سداد ديونهم، مما يؤهلهم للكسب الحلال مرة ثانية.

وكذلك تكفل الإسـلام في "الرقاب" في تحرير العبيد من بيت المال.. وبذلك استهدفت الاشتراكية الإسلامية تحرير الإنسان لا من الفاقة فحسب ولكن من الرق، وهو أشنع ما وقعت فيه البشرية على مر العصور والأجيال..

ولم تكن الآيات القرآنية لمجرد التلاوة والتجويد، ولا الأحاديث النبوية محض عظات للترديد، ولكنها كانت تسـتهدف إقامة المجتمع الاشـتراكي على أساس أخوي، لا على أساس طبقي ... ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقيم المجتمع الاشتراكي في دولة اشتراكية وكان ذلك في المدينة المنورة .. ففي ربيع الأول من العام الأول للهجرة كان أول ما فعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد أن استقر في المدينة ان دعا المسلمين ليتآخوا في الله أخوين أخوين. فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين.. وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين.. تآخى كل واحد من المهاجرين مع كل واحد من الأنصار، وتقاسم الأنصار مع المهاجرين نخيلهم وأعنابهم، وأعلن الرسول أن هذا الإخاء له حكم الدم والنسب.

ثم كتب الرسول عهدا عاما بين المهاجرين والأنصار، حدد فيه حقوقهم وواجباتهم في هذا المجتمع الاشـتراكي الجديد،ونص فيه على أمور كثيرة منها "أن المؤمنين لا يتركون مفرحا (المثقل بالدين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف.. وأن المؤمنين على من يبقي منهم.. ولو كان ولد أحدهم"، وبذلك تقرر التكافل الاجتماعي بين المسلمين، فلا غنى ومحروم، ولا ظالم ومظلوم.

وكان ربيع الأول من العام الأول للهجرة بداية للمجتمع الاشـــتراكي في الدولة الاشتراكية.

ولكن ما أن توفي رسـول الله (صـلى الله عليه وسـلم) حتى قامت ثورة مضـادة– في تعبير هذا اليوم – على الاشـتراكية وجميع المثل العليا التي دعا إليها الإسـلام، فقد ثارت القبائل في شـبه الجزيرة العربية، وتطلع شـيوخها إلى العودة إلى أرستقراطية الجاهلية ورأسماليتها وإقطاعيتها، فأوفدوا رؤساءهم إلى المدينة ليساوموا الخليفة أبا بكر على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة .. وبذلك يهدمون الاشـتراكية الإسـلامية بإهدار الزكاة .. ويحتالون على الإسـلام بأنهم يقيمون الصلاة .. يمارسون السهل اليسير، ويمتنعون عن الغالي النفيس!!

وجمع أبو بكر صـحابة الرسـول للتشـاور في الأمر، وكان رأي الكثرة وعلى رأســـهم عمر ابن الخطاب.. الموادعة لا المقاتلة.. وكان رأي أبو بكر بوجوب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة ، واشـــتد الحوار، وقال عمر : كيف نقاتل الناس، وقد قال الرســول (صــلى الله عليه وســلم) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه..

ولكن الاشـتراكية جوهر الإسـلام فهي حق الله وحق الأمة، فصـاح أبو بكر بقولته الشـــهيرة: "والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه.. والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة فان الزكاة حق المال".

وتصـدت القوات الإسـلامية للثورة المضـادة في معركة فاصـلة تعرف بمعركة عقرباء في الجنوب الشـرقي لنجد، انتصـرت فيها الاشـتراكية وانهزمت القبائل التي أعلنت عصـــيانها وامتناعها عن أداء الزكاة .. وهي معركة يقول عنها المشـير الركن طه الهاشـمي .. "ولو انكسـر المسـلمون في معركة عقرباء

لبقي العرب منزوين في جزيرتهم، واحتفظ الأكاسرة بملك العراق، ولم يبك هرقل ضياع سورية.. ولم تمر بضع سنوات على هذه المعركة التي انتصر فيها المسلمون حتى كان العرب يصولون بخيولهم في بلاد خراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً.."[1]

ومن المصادفات الزكية، أن هذه المعركة التي توطدت فيها دعائم الاشتراكية في دولة الاشتراكية، قد وقعت في ربيع الأول من العام الثالث عشر للهجرة، كربيع الأول من العام الأول الذي بنى فيه الرسول أسس الاشتراكية الأولى.

وإذا كان للاشتراكيات الحديثة في العالم المعاصر، من ثورات اشتراكية عرفت بأكتوبر وسبتمبر وغيرهما.. فإن من حقنا أن نفخر أن أسلافنا العظام كانت لهم ثورة ربيع الأول،يوم لم يكن في الدنيا اشتراكية ولا ثورات اشتراكية.

وإلى جانب القواعد الاشتراكية العامة، فقد أعطى الإسلام سلطة التنفيذ الصارم.. فأوجب على ولي الأمر ان يعطي "المال" لمن له فيه حق، ويمنعه عمن ليس له فيه حق.

وقد بدأ ولي الأمر بنفسه فهذا أبو بكر(ر) الخليفة الأول يصعد المنبر، ويقول على الملأ من الناس.. "أن رزقي (راتبي) كان خمسين ومائة دينار.. وإن عمر وعليا كملا لي ثلاثمائة دينار أفرضيتم.. فقال المهاجرون: اللهم نعم، قد رضينا"، وهكذا كان راتب الخليفة قليلا، فلم يزده إلا برضاء المسلمين.

---

[1] طه الهاشمي، **خالد بن الوليد**.

أما الخليفة الثاني عمر (ر) فقد كشف أمره أمام المسلمين وأمام التاريخ فقال "سأخبركم بما استحل من هذا المال.. استحل منه حلتين، حلة للشتاء وحلة للصيف، وما يسعني لحجي وعمرتي، وقوت أهل بيتي، وسهمي مع المسلمين كسهم رجل ليس بأرفعهم ولا بأوضعهم، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم."

ويأتي بعد راتب الخليفة حق المواطن والجماعة، فنرى أن التكافل الاجتماعي قد شمل كل إنسان وبالقدر الذي يحتاجه، ووضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) دستور الكفاية فقال "إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم" وأصبحت السعة على الفقراء فريضة لا فرار منها.. وليتأمل الاشتراكيون المعاصرون كلمة "السعة" في شمولها وأبعادها.

وكان من حظ الخليفة عمر بني الخطاب (ر) أن أصدر الأوامر الاشتراكية ففي عهده اتسعت رقعة الدولة وتعددت المطالب والحاجات فأعلن باليمين المغلظة" والله الذي لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق .. وما أحد أحق به من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدهم".. ثم قرر ان العطاء يكون بقدر الحاجة فقال " الرجل وحاجته".. ونذر نفسه ، إذا بقي على قيد الحياة أن يصل الحق إلى صاحبه حيثما كان .. وليأتين الراعي بجبل صنعاء ، حظه من هذا المال، وهو مكانه ، قبل أن يحمر (يخجل) وجهه.

وكان كل هم الخليفة أن يحرر الإنسان من الفقر .. فقد كاد الفقر أن يكون كفراً .. وكان يرى أن الإنسان يفقد أمنه أمام شرور ثلاثة: الجوع والخوف والسجن، فقال " ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته وأخفته أو حبسته" .. وبذلك قرن الاشتراكية بالحرية، وكثير من الأنظمة المعاصرة، تمنح الحرية على

حساب الاشتراكية .. أو تفرض الاشتراكية على حساب الحرية .. ومن هنا كانت الاشتراكية الإسلامية مفخرة من مفاخر الإنسانية جمعاء، فقد قرنت بين النعمتين دون أن تطغى واحدة على الأخرى.

وكلمات عمر هذه لم تقف على عتبات المنبر ليتردد صداها في جنبات المسجد النبوي، ولكنها أصبحت واقعا حيا في حياة المجتمع .. والأمثال على ذلك كثيرة..

من ذلك أنه حدث عام المجاعة ، بسبب القحط، فأصدر عمر أمرا إلى ولاته يقول فيه "..على كل أهل بيت أن يستضيفوا مثل عددهم ويقاسموهم أنصاف بطونهم، فإنهم لن يهلكوا على إنصاف بطونهم"..

والتكافل الاجتماعي عند الخليفة، واجب التطبيق في أيام الشدة واليسر، فقد قال في إحدى خطبه "أني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا، حتى نستوي في الكفاف" ذلك ان التكافل الاجتماعي في نظر الإسلام يقوم على أساس واضح حاسم، وهو أن المال في يد ولي الأمر هو للأمة كلها" ومن أراد أن يسأل عن المال" كما صاح عمر في إحدى خطبه في المسجد "فليأتني فإن الله جعلني له خازنا وقاسما".

ولم يكن أعدل من عمر بن الخطاب "قاسما" للأموال، فقد أعطى المهاجرين والأنصار، ونساء الرسول، وعامة المسلمين،كل حسب حاجته، ملتزما بمبدأ قرره لنفسه حين تولى أمر الخلافة : أخذ الحق من كل أحد عليه حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ولم تستطع الاشتراكية المعاصرة في كل

ما كتبت وفلسفت أن توجز الاشتراكية بأوجز، بل وباعجز، مما صنع عمر ابن الخطاب.

والاشتراكية عند عمر لم تكن أمرا معقداً، ولا فلسفة جدلية، ولكنها كانت حقائق أساسية نابعة من صميم الحياة يتحتم على المسلمين جميعا أن يعيشوها معا.. من غير تمييز.. من ذلك أن أحد الصحابة قال لعمر: هل لك في طعام من لباب البر (القمح) فقال عمر: ويلك.. ويسع المسلمين كلهم؟.. قال لا والله، ولم يأكل ذلك الطعام لأنه ليس ميسورا لجميع المسلمين.

ومن ذلك أن احد الولاة أرسل إلى عمر حلوى من تمر وسمن فقال للرسول: "كل المسلمين يشبعون من هذا ؟؟ فقال الرسول لا ".. فكتب عمر إلى الوالي "أما بعد فإنه ليس من كدك ولا كد أمك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في بيتك" وغير ذلك كثير مما يفرض المساواة بين المواطنين في أطايب الحياة ورغد العيش .. الشظف معاً والرغد معاً، واليسر معاً، والعسر معاً..

ولقد كان عمر صارما في التطبيق، وهو أبن قريش، يعلم أن أهله كما قيل عنهم، يستطيعون أن يحيلوا رمال الصحراء ذهبا، وأنهم يريدون أن يستأثروا بالثراء دون الفقراء.. ولم يتردد في أن يصارحهم بقوله "إن قريشا تريد ان تكون مغويات (مصايد) لها الله تعالى دون عباد الله وأنا حي، فلا والله..".

وكان يريد لقريش ما يسد الحاجة، لا الثراء الفاحش، فإن الحرج كما قال "هو في الرغبة فيما يتجاوز قدر الحاجة، وما زاد على حد الكفاية فإنها فضول لا تجدي وزوايد لا تغني" وهذا الكلام عن "الحاجة" و "الكفاية" هو الذي تحدثت عنه الاشتراكية المعاصرة بعد عشرة قرون.

ولم يكن للاشتراكية عند عمر "قالب" تقفل فيه الاشتراكية، ولكنها كانت مجموعة من المعاني الحية تتطور في موكب الحياة .. ويواجه كل الظروف بما ينبغي لها، فكان إذا رأى امرءا يشـــترى لحماً في يومين متتاليين يضـــربه بالدرة ويقول له: "هلا طويت بطنك يومين لجارك وابن عمك" وهذا هو تكافؤ الفرص، من الخبز واللحم!!

وفي مجال العناية بالأســـرة فرض عمر للمولود بعد فطامه مئة درهم، فإذا ترعرع زاده إلى مئتين، حتى يبلغ أشده ويصبح قادرا على الكسب والعمل، وهنا نفهم صـيحة عمر حين قال "يا معشـر الفقراء ارفعوا رؤوسـكم فقد وضـح الطريق، فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين..".

ولكن .. ولكن سمع عمر أن الأمهات أصبحن يعجلن في فطام أولادهن استيفاء لحظ أولادهن.. فعدل أمره السابق، وكتب إلى ولاته يأمرهم بأن يدفعوا للأولاد "المنفوســين" ســاعة ولادتهم من غير انتظار للفطام.. وقال قولته التي تخلخل لها كيانه "يا بؤســا لعمر، كم قتل من أولاد المســلمين" وكان اســتعجال الفطام عند عمر بمثابة القتل الجماعي لأطفال المسلمين!!

والأولاد هنا شملت اللقيط.. فإن عمر قد فرض له مائة درهم يأخذه وليه كل شـهر.. ويجعل رضـاعته ونفقته من بيت المال.. وهكذا أصـبح اللقيط يرى في الأمة أمه وأباه،وهو لا يعرف البطن الذي حواه.

ولم يكن التكافل الاجتماعي قاصــراً على المســلمين بل تعداه إلى أهل الذمة من اليهود والنصارى، فقد مر الخليفة عمر على يهودي عجوز يتسول، فقال له "أكلنا شـيبتك ثم نضـيعك في هرمك" وأمر خازن بيت المال أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم.. وفي طريقه إلى الشام مر الخليفة

عمر على "قوم مجذوبين من النصـــارى فأمر ان ينفق عليهم من بيت المال، وبان يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شـــئونه.." وكتب التراث الإسلامي مليئة بأمثال هذه المواقف الجليلة.. أشاد بها المؤرخون الأوائل وهم لا يعرفون الاشتراكية إلا أنها كلمة قاموسية.

ومن المبادئ البارزة في الاشتراكية الإسلامية، منع الاستغلال، وخاصة استغلال رجال الدولة لمناصبهم وتجميع الثروة عن طريق سلطتهم .. حتى ولو كانوا من صـحابة رسـول الله ومن أصـحاب السـابقة في الإسـلام والجهاد في سبيله، فإن المبدأ الأساسي الذي أعلنه الخليفة عمر وهو في الجابية (دمشق) "أن صـــلاح المال لا يتم إلا بثلاث: أن يؤخذ بحق ويعطى بحق، ويمنع من باطل" ولم يتردد عمر من أن يمنع مال الباطل، وان يصـــادره من أيدي ولاته.. فقد كتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص فاتح مصـــر العظيم يقول له .. "بلغني أنه نشأت لك ماشية من خيل وإبل وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك، ولا مال لك، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال" ولما لم يقنع عمر من إيضاحات عمرو، بل اعتبرها "أساطير لا تغني عنك ان تزكي نفسك" صادر نصف أمواله وترك له الباقي.

ومر عمر ببناء فخم لعامله على البحرين، فقال عمر "أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها.." فبتر أعناقها وصادر نصف أمواله .. وصادر أموال آخرين من ولاته بمن فيهم ســـعد ابن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأبو هريرة لمجرد الشبهة بأنهم استغلوا نفوذهم في تجميع الثراء الفاحش، وبعد ذلك بقرون شاع القول المعروف في بريطانيا: أنه ليس يكفي أن يكون القاضي في بريطانيا بريئا من الرشوة، ولكن ينبغي أن لا تحوم حوله شبهة الرشوة..

وكان أخشى ما يخشاه عمر على ولاته أن تغريهم الثروات والكنوز التي وجدها العرب في فتوحاتهم في الشام والعراق ومصر، وأن يصبح الولاة أشبه بالملوك في حياتهم وترفهم وبذخهم .. ولم يكن عمر يطيق الملوك وحياتهم وهو الذي يقول فيهم "من دخل على الملوك، خرج وهو ساخط على الله" .. ولهذا فقد كان عمر حريصا أن لا يصبح ولاته ملوكاً، وأن لا تسخط الرعية على الله.

ولكن ذروة التطبيق الاشتراكي كان بين الخليفة عمر وولده.. فقد دخل عمر السوق ووجد إبلا سمانا فعلم إنها لولده عبد الله.. فقال له "ما هذه الأبل" .. فأجابه عبد الله: "أبل هزيلة اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى (المرعى) ابتغي ما يبتغي المسلمون" .. فقال عمر ساخرا: "أرعوا إبل أبن أمير المؤمنين، اسقوا إبل أبن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر خذ رأس مالك و أجعل الربح في بيت مال المسلمين".. وهكذا كان، فقد أعاد الخليفة رأس المال" لولده ودفع الربح لبيت المال.

ذلك شأن المال في الاشتراكية الإسلامية، أما الأرض فقد ربطها الخليفة عمر بالإنتاج وأصبحت ملكيتها منوطة بالصالح العام، وعلى أساس التأميم، ولم يكن هذا التعبير معروفاً لا في لغة الضاد ، ولا في غيرها من اللغات .. وأراد عمر في بادئ الأمر أن يشجع على الإنتاج فأعلن أنه "من أحيا أرضا مواتا فهي له" فأقبل الناس على "إحياء الأرض" ونقبوا حجارتها، وبنى كل واحد سورا حول أرضه وكفى .. ورأى الخليفة عمر أن أصحاب الأرض أصبحوا "إقطاعيين" حازوا الأرض ولم يزرعوها.. فأعلن أن من لا يزرع أرضه ثلاث سنوات متتاليات تنتزع الأرض من يده " وهكذا نزع الأرض ممن لا يزرع

وينتج، وأبقاها بيد من يزرع وينتج. أليس هذا هو الترابط العضوي بين الاشتراكية والإنتاج وبين الأرض والفلاح ..

وفي ذلك العهد كانت الأرض أكثر من الناس، وأعطي عدد من الصحابة "إقطاعات من الأراضي" وكان منه (طلحة) "أقطعه أبو بكر أرضا، وكتب بذلك كتابا وأشهد عليه أناسا".. فجاء طلحة بالكتاب إلى عمر، وقال له "اختم على هذا".. ولكن عمر أبى أن يختم.. فقد استكثر الأرض وقال له: " لا أختم .. أهذا كله لك دون الناس.." فالأرض عند عمر هي "للناس" .. حتى لو قطعها أبو بكر.. والإقطاع يكون بقدر الحاجة .. والباقي "للناس"، والناس هم الشعب، فلم تكن هذه الكلمة متداولة بهذا المعنى!!

ولما افتتح العرب مصر والشام والعراق .. قام جدل عنيف بين الخليفة وأصحابه، هم يريدون قسمتها بين الفاتحين، وهو يريد إبقاءها بيد الفلاحين يعملون فيها.. وألح الكثيرون على اقتسام الأرض فتلك كانت شريعة الحرب، والبلاد المفتوحة واسعة الأرجاء كثيرة الخيرات، ولكن الخليفة عمر حسم الخلاف، فرفض اقتسام الأرض وأبقاها بيد الفلاحين، وأصدر أمره إلى ولاته في الشام والعراق ومصر، بأن " تحبس الأرض بعلوجها" بعمالها.. ليبقى الخراج والجزية فيئا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم.. فإن هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد من شحنها بالجند، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج" .. وبقيت الأرض بيد الفلاحين.. وكان أكثر هؤلاء من نصارى العرب الذين استوطنوا البلاد قبل الإسلام.. وبذلك ثبت عمر دعائم الاشتراكية واستبعد العصبية الدينية ..

وشـــأن كل مجتمع، فقد حدثت نكســـة كبرى أصـــابت الاشـــتراكية في الصـــميم ، فقد توســـعت رقعة الدولة الإســـلامية وتكاثرت معها الغنائم والكنوز والثروات، وتفتحت أبواب الاغراء، حتى على عدد من الصـــــحابة الأوائل الذين أدوا للإســـلام خدمات جلى.. ففي عهد الخليفة عثمان (ر) انحســـرت اشـــتراكية عمر بن الخطاب (ر) وحلت محلها رأسمالية طاغية.. أدت إلى ثورة عارمة..

وموجز الأحداث أن عثمان (ر) خالف سنة سلفه فقد بدأ عهده باستخدام أقربائه في ولاية الأمصـــــار .. فجعل أخاه في الرضـــــاعة، عبد الله، واليا على مصر، وجعل أخاه لأمه الوليد بن عقبة واليا على الكوفة، وعين ابن عمه مروان بن الحكم رئيسا للديوان .. وانهالت الهدايا على الخليفة من ولاته في الأمصار.. حتى أن واليه على العراق، ســـعيد بن العاص، بلغت به الجرأة ان قال على ملأ من الناس إن "العراق بستان هاشم"[1]

وتهيأت الفرصـــة للثراء الفاحش، وبرزت الرأسـمالية الضـخمة، وقد حفل التاريخ العربي بســـرد أخبارها وتفاصـــيلها، فقد ذكر المســـعودي في تاريخه أن الزبير بن العوام بنى عدة دور فخمة بالبصرة والكوفة ومصر والإسكندرية، وانه ترك بعد وفاته ثروة تقدر بخمســـــين ألف دينار، وألف فرس وألف من العبيد والإماء .. وأن طلحة التميمي بنى دارين فخمتين بالكوفة والمدينة المنورة بالآجر والجص، وأن دخله في اليوم الواحد من أملاكه في العراق وحده بلغ ألف دينار في اليوم الواحد، خلاف أملاكه في النواحي الأخرى .. وأن عبد الرحمن بن عوف كان مضرب الأمثال في الثراء .."فعلى مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وقدرت ثروته بعد وفاته بأكثر من مليونين ونصف

---

[1] المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص 246.

درهم.. وأن يعلى بن منية خلف في تركته خمسمأة ألف دينار، وعقارات واملاكا، أما ديونه على الناس فقد قدرت بثلاثمائة ألف دينار..[2]

ولم يكن ممكنا أن تظل هذه الرأسمالية في طريقها، فانبثقت الاشتراكية الإسلامية من جديد، وتولى قيادتها صحابي جليل هو أبو ذر الغفاري الذي قال فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر.." وأعلن أبو ذر بتلك اللهجة الصادقة ثورة الفقراء على الأغنياء، وصاح في وجه ولاة الأمور (لقد أغنيتم الأغنياء وأفقرتم الفقراء) وتجمع الناس من حوله في الشام وفي المدينة المنورة، ووصلت صيحاته وشعاراته إلى سائر الأمصار.

وإلى جانب الرأسمالية الطاغية، واستغلال الولاة من الأقرباء والأبناء، تجمعت أسباب أخرى، فكانت الثورة الكبرى على الخليفة عثمان (ر) (2 حزيران 656) فقد تألب عليه الثوار من كل الامصار، ومن مصر وحدها توافد زهاء خمسمائة ثائر فاقتحموا منزله ، يقودهم ابن أبي بكر الصديق، فقتلوه وهو يقرأ القرآن.

وكما ذكر التاريخ الإسلامي أن الرسول وخليفتيه من بعده، لم يتركوا ثروة ذات بال بعد وفاتهم، بينما قدر المسعودي في تاريخه ثروة الخليفة الثالث (ر) بمئة وخمسين ألف دينار، وألف ألف درهم.. وضياعه بوادي القرى وحنين تقدر بمئة ألف دينار. هذا ما عدا الإبل والخيل وغيرها من الممتلكات والمقتنيات..

---

[2] **مروج الذهب، ص** 241 وما بعدها.

وهذه "الفتنة" كما ســميت في التاريخ الإســلامي، كانت في الواقع ثورة اشـتراكية لمحاربة الإقطاع واسـتغلال النفوذ، والثراء الفاحش.. وكان ضـحاياها رجال أدوا للإسـلام خدمات جليلة، وعلى رأسـهم الخليفة وصـحابة الرسـول .. ولكن الأيام السـابقة، عند الإسـلام لا تعطي عصـمة للأيام اللاحقة، وتلك أعظم سمات الإسلام واشتراكية الإسلام.

وتعاقبت أحداث، فانتهت دولة الخلفاء الراشــدين، وكان آخرهم علي بن أبي طالب (ر) ووقعت فتن وحروب، وقامت الدولة الأموية في دمشــق،وعادت الأسـرة الأموية إلى اسـتغلال النفوذ وجمع الثورات، وامتلاك الإقطاع، ونشـبت الثورة الاشتراكية العربية الإسلامية ، مرة أخرى وعلى يد خليفة عظيم من خلفاء بني أمية، وهو عمر بن عبد العزيز، وشــاركه في الثورة ثائر عظيم، من علماء الشام أسمه غيلان الدمشقي..

وكانت الكلمة هي بداية الثورة، وكان البادئ هو الثائر غيلان، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتابا "ثوريا" شرح فيه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي سقط فيها المجتمع العربي والإسلامي في عهد الأمويين، وقال فيه "أعلم يا عمر، انك أدركت من الإســلام خلقا باليا ورســما عافيا"، يعني أن الإســلام قد أصــبح مظهرا لا جوهرا .. ثم أضــاف "ربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت.."؟

وكان أن اختار عمر بن العزيز أن يكون إمام النجاة لا إمام الهلاك، فوافق عمر أن يكون غيلان رئيس ديوان المظــالم، "ليصــــفي الخزائن ويرد المظالم، وراح غيلان يبيع "القطائع" (اقطاعيات) الأمويين التي وضــــعوا أيديهم عليهم منذ عهد عثمان (ر)، ثم باع الحلي والجواهر التي كانت تملكها زوجات

الأمويين.. وكان البيع يجري بالمزاد العلني، ويصيح غيلان في الناس قائلا لهم "تعالوا إلى متاع الخونة تعالوا إلى متاع الظلمة، من يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، يأكلون والناس يموتون من الجوع"..[1]

ثم إن الاشتراكية العربية الإسلامية قد تميزت بنظام فريد يعتبر ذروة في الاشتراكية، لم يفطن إليه كثير من الباحثين، لانهم حسبوه أمرا تعبديا فقط، ولم ينفذوا إلى جوانبه الاجتماعية.. ذلك هو نظام الأوقاف أو الحبوس.

ولسنا نريد أن ندخل في فقه الأوقاف فالمراجع على ذلك كثيرة، ولكن الذي يجب أن ننبه إليه أن الوطن العربي كان يشتمل مساحات شاسعة من الأراضي والقرى والعقارات كلها موقوفة على النفع العام، وقد اندرس معظمها للإهمال والتبديد والسلب، ولايزال بعضها قائما تحت رعاية وزارات الأوقاف، ولكن من غير رعاية!!

وقد برز دور الخليفة عمر في ربط الاشتراكية بالأرض .. وكانت له مواقف بالغة حد الروعة منها أنه .. "حمى أرضا وخصها لمواشي المسلمين وجعل الانتفاع بها لمواشي الفقراء دون أهل القطعان الكبيرة والعدد الكبير من الأنعام .. لأن مواشي عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف (وهما من كبار الأغنياء) إن تهلك، فإنهما يرجعان إلى زرع ونخيل – يملكانه – وهكذا جعل المرعى لماشية الفقراء دون الأغنياء.

وشاع نظام الوقف في المجتمع العربي الإسلامي، فأوقف كثير من السلاطين والأمراء والأغنياء، وأهل البر والإحسان على مر العصور والأجيال،

---

[1] المصدرالسابق.

كثيراً من الأموال والعقارات والأراضي على جهات الخير، بما يدفع الحاجة ويسد النفع العام.. وامتلأت سجلات المحاكم الشرعية بكتب الوقف، وضاع كثير من الأوقاف، وبقيت السجلات مرجعا ثميناً من مراجع التاريخ الإسلامي !!

وأصبحت الأوقاف مؤسسة اشتراكية كبرى، "والواقفون" لم يتركوا هدفا اشتراكيا إلا وقفوا عليه أموالهم.. فقد أنشأوا الفنادق للمحتاجين، وحفروا الآبار في الصحاري للمسافرين، وبنوا الرباطات للمجاهدين،، وأعدوا السلاح والخيول للمحاربين، وكفلوا المأوى والكساء والغذاء للقطاء والأيتام والمقعدين والعجزة والعميان والمساجين.. وهيأوا للفلاحين، مجانا البذار وأدوات الزراعة من الدواب، وتقديم القروض للتجار، هذه بالإضافة إلى بناء المساجد، والمستشفيات والمدارس وإصلاح الجسور، وغير ذلك مما يدخل في النفع العام.

وقد بلغ السمو الاشتراكي في نظام الأوقاف، كما هو ثابت في سجلات المحاكم الشرعية، ذروة لم تصل إليها الاشتراكيات الحديثة، بل لم تخطر على بال أشد الاشتراكيين حماسة وممارسة.. فقد ابتدع الواقفون أوقافاً تدعو إلى الفخر والاعتزاز بالروح الاشتراكية العربية النابعة من القيم الروحية،العربية الأصيلة .. ولا بد من أن نعرض بعضها بإيجاز ليكون الكلام مقرونا بالشواهد، لا مجرد حديث مجرد عن الوقائع.

من ذلك، ان وقفا في طرابلس – لبنان– تخصص في الطب العلاجي، فقد رصدت أموال هذا الوقف للإنفاق على موظفين، يقومون بزيارة المستشفيات للترفيه عن المرضى، بالتسلية والقصص والمؤانسة.. ومن ذلك أن وقفا في القاهرة، كان مخصصا لإنشاء فرقة للتمثيل الشعبي في مستشفى السلطان

قلاوون لتسلية المرضى، وفرقة أخرى للغناء لإنشاد القصائد الجميلة للمرضى الذين يشكون الأرق لمساعدتهم على النوم .. ومن ذلك أوقاف لمعاونة الشباب والفتيات الفقراء على الزواج بدفع المهر وتكاليف الأفراح.. ومنها وقف "الزبادي" وهو لدفع ثمن الأواني التي يكسرها الأطفال والخدم اتقاء لغضب أصحاب البيت. ومنه ما يسمى بوقف "نقطة الحليب" وهو مرصود لإعطاء الحليب للأطفال، وقد جعل أحد أبواب قلعة دمشق ميزاب يسيل منه الحليب، وآخر منه السكر المذاب بالماء،وتأتي الأمهات كل أسبوع مرتين ليأخذن منه الحليب والسكر.. ومنها وقف الحيوان وهو مخصص لإطعام الحيوانات الأليفة كالقطط، وكان مثل هذا الوقف موجوداً في سوق ساروجه في دمشق، وفيه مالا يقل عن أربعمائة قطة فيه تنام وفيه تأكل.. ومنها أخيراً وقف "المرج الأخضر، في دمشق وكان مخصصا للحيوانات العاجزة لترعى فيه حتى تموت"..[1].

---

[1] المرجع السابق.

الوحدة العربية والاشتراكية المعاصرة

حين تقوم الدولة العربية المتحدة تجد نفسها أمام السؤال الكبير الخطير، ما هو النظام الاشـــتراكي الذي ســـتختاره الدولة في المجتمع العربي.. أيكون مقتبساً من الاشتراكية الماركسية كما تطبق في موسكو، أو في بكين، أو هافانا، أو تيرانا، وسائر عواصم أوروبا الشرقية..أم يكون مستوحى من النظم الاشتراكية كما تطبق في بريطانيا، ودول اســـكندنافيا .. أم يكون اشـــتراكياً منفردا بذاته مستقلاً بكيانه.

ولا مندوحة عن الجواب، إذ ما جدوى الوحدة من غير اشـــتراكية، نحن نختارها، ونحن نحدد أسـلوبها وأهدافها القريبة والبعيدة ..والاشـتراكية لا تزال في دور التجربة في الوطن العربي، ولم تستقر جذورها في حياتنا العامة، فضلا عن

أن دولاً عربية معينة لا نظلمها إذا وصـــفناها بأنها دول رأســـمالية وإقطاعية ورجعية.. والمواطن العربي يعرفها بأسمائها وأسماء حكامها..

والوحدة من غير اشــتراكية هي توحيد للإقطاع، وســيطرة رأس المال.. واســتغلال الإنســان للإنســان، بل إن الوحدة من غير اشــتراكية ســتكون وبالاً ونكالا على الجماهير أشـد هولا في دولة واحدة لها علم واحد، منها في عشـرين دولة مبعثرة في أرجاء الوطن العربي.

والوحدة في الحقيقة والجوهر، ليسـت مطلوبة للضـخامة والفخامة، ولكن من أجل توحيد طاقات الأمة العربية المشتتة وقدراتها المبددة، والاشتراكية بدورها مطلوبة من أجل الانتفاع بهذه القدرات والطاقات من أجل مصـــلحة الأمة العربية في مجموعها.. وبذلك تصـبح الوحدة والاشـتراكية أشـبه بالرئتين للجسـد الواحد .. تجعلان الدم نقيا دائما وأبدا .. والملايين من المواطنين العرب في يومنا هذا، يجري في عروقهم الدم الآسن العفن، منذ زمن وإلى يومنا هذا.

والواقع أن دولة الوحدة، بدستورها ومؤسساتها وخططها، يجب أن تكون في خدمة الاشتراكية، والاشتراكية بدورها، بشعاراتها وبرامجها وقوانينها، يجب أن تكون في خدمة الوطن والمواطن، وان تســتهدف إســعاد الفرد، والجماعة، وان تحقق للمجتمع بأســره الحرية والكرامة، وان تقيم دعائم الحق والعدل. ومن غير ذلك تكون الاشــتراكية خواء وهباء.. وتصــبح الوحدة وحدة اســتغلال واســتعباد وطغيان.

وهنا، وفي مثل وميض البرق، يومض السؤال الكبير، وكيف تحقق دولة الوحدة هذه الأهداف الرفيعة؟..

وانه لغرور فادح، أن يزعم أحد أنه يستطيع الإجابة عن هذا السؤال في فصل واحد.. أو حتى في كتاب واحد، يضعه باحث واحد، ولو تجمع له قسط وافر من المعرفة الإنسانية .

مثل هذا السؤال وما يتفرع عنه من أسئلة أخرى يحتاج إلى "مجمع لدراستها والوصول بها إلى إجابات صحيحة.. ويتجمع في هذا المجمع ، نخبة من العلماء .. فالعلم، والعلم وحده عنده الجواب وليس عند سواه.

وغني عن التوكيد .. أن حياة الأمة والدولة معا قد أصبحت بالغة التعقيد والتطور، وان التخطيط القائم على أساس العلم هوما تلجأ إليه كل دولة في عالمنا المعاصر، ومن هنا دعت الحاجة إلى قيام عشرات المؤسسات المخصصة، لدارسة كل ما يتصل بحياة الشعوب في الحاضر والمستقبل في ميادين الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة.

والأمة العربية ودولة الوحدة العربية أكثر حاجة من أية أمة أو دولة، لأن تبني حياتها العامة على أسس علمية صحيحة، بعد قرون التخلف والانحطاط التي مرت عليها .. وأنه من يمن الطالع أن الأمة العربية، وقليل مثلها، قادرة على بناء الدولة الوحدوية بناء عظيماً، فإنها تملك كنوزاً روحية رفيعة، ومواقع استراتيجية فريدة، وطاقات اقتصادية ضخمة، وقدرات بشرية كبرى. كل هذه هي مقومات فعالة، تصنع حاضراً عظيما ومستقبلا أعظم.. ونحن، حين نخطط لحياتنا العامة وأهدافنا الاشتراكية،لا نبدأ من العدم، فإن لنا تراثاً رائعا في مختلف الإنجازات الإنسانية، وقد سبق أن قدمنا عطاء غنيا في كل ميادين المعرفة والثقافة، وليس مطلوبا اليوم ان نعيد بناءه كما كان، حذوك

النعل بالنعل، كما يقول الاعراب، ولكن ليكون مرتكزا ننطلق منه إلى الأصـــلح، فإن البقاء هو للأصلح.

بل إنه ليس لنا أن نقتصـــر على تراثنا القديم وإنجازاتنا الســـابقة، فهذه وحدها لا تكفي، فإن المثل العليا والقيم الكبرى لا تعرف الحدود، وليســـت حكرا لهذا الشـعب أو ذاك، ولا تقبل التجزئة فهي "مشـاع للبشـرية جمعاء، كما كان الكلأ والماء والنار.. ويأتي على رأس هذه الموضـــوعات الاشـــتراكية، والثورة، والحرية.

والاشـــتراكية الماركســـية ســـواء كانت هي الهدف النهائي أو الهدف المرحلي للوصول إلى الشيوعية العالمية حيث لا قوميات، ولا دول، فإنها ليست من صـــنع أحد بمفرده، ولا من اختراع أمة بذاتها فهي ملك شـــائع لجميع الأمم والشعوب، شاركت فيه بقدر متفاوت، وقد ساهم بالدعوة إلى الاشتراكية والمناداة بتحقيقها في الماضـــي والحاضـــر، الأنبياء والمصـــلحون والمفكرون والفلاســـفة، وعلماء السياسة والاجتماع والاقتصاد .. كل من زاويته.. والكل إلى غاية واحدة هي تحقيق العدالة الاجتماعية، وتحرير الإنسان من العبودية والفاقة والاستغلال.

والواقع أن "الاشـــتراكية" (Socialism) كلمة حديثة العهد لا يزيد عمرها على مئة وخمسين عاما، والمفكرون الفرنسيون هم أول من استعمل هذا للفظ في أواسط القرن التاسع عشر للدلالة على الجماعية مقابل الفردية IndividuIism ولم يكن (للاشـــتراكية) تعريف محدود متفق عليه بين "علماء" الاشـــتراكية الذين يكتبون عنها، ولا بين "عمال" الاشـــتراكية الذين يطبقونها .. ففي عام 1893 نشرت جريدة الفيجارو الفرنسية ما يقرب من ستمائة تعريف للاشتراكية.. وربما

كان التعريف اليوم، بقدر ملايين الاشتراكيين في العالم، فلكل اشتراكي تعريف، والحوار مفتوح، وليس للفكر الإنساني نهاية..

وكذلك "الاشتراكيات" الحاضرة في العالم، فهي متعددة الجذور والجذوع، والأغصان والثمار. فهنالك اشتراكيات المعسكر السوفيتي والصيني ومعهما دول أوروبا الشرقية، وهناك اشتراكيات المعسكر الغربي في بريطانيا والدول الاسكندنافية، بل إن الاشتراكية في الدولة الواحدة قد عبرت من اشتراكية إلى أخرى، فالاتحاد السوفيتي عبر من الماركسية إلى اللينينية، إلى الستالينية إلى الخروشوفية، إلى البرجنيفية، وتبدلت شعاراتها.. فكانت في البداية تستهدف الثورة العالمية وتحطيم النظام الرأسمالي.. تعامل الأحرار مع الأحرار..!!

ولو أن كارل ماركس بعث من مرقده،ليرى هذه الاشتراكيات المتنافرة، في المعسكر الماركسي نفسه، وليرى المؤسسات المالية والاقتصادية الأمريكية تعمل في موسكو وغيرها من الدول الشيوعية، لعاد إلى قبره يحمل معه الماركسية ويدفنها مع رفاقه...

وكارل ماركس فيلسوفا كبيرا ومفكرا عظيما من غير شك، ولكن الاشتراكية كطريق للعدالة الاجتماعية أقدم من ماركس بقرون وقرون. فإن النزوع إلى الحق والعدل قديم قدم الظلم والعدوان، وكذلك فإن النضال من أجل تحرير الإنسان، قديم قدم استغلال الإنسان للإنسان.. والأمثلة على ذلك كثيرة.

ولعل أول تجربة إنسانية سجلها لنا التاريخ كانت على أرض مصر، ففي القرن الثالث قبل الميلاد كان الكهنة والأعيان يملكون إقطاعات واسعة من الأراضي، فاستولت الدولة عليها، ووزعتها بين الفلاحين ليعملوا فيها، وسمحت

للفلاح أن يمتلك البيت الذي يسكنه والحديقة التي تحيط به، وتولت الدولة كذلك أمور الصـــناعة والتجارة الخارجية.. ولقد جرى ذلك كله من غير "شـــعار" ولا "فلسفة" ودون أن يحمل اسم "التأميم" أو "الاشتراكية".. تحقيقاً للعدل الاجتماعي ومن أجل رفاهية الشعب، لا طبقة واحدة تقف على قمة هرم الشعب.[1]

ولعل فجر الاشـــتراكية والعدالة الاجتماعية، بقدر ما خلفه لنا التاريخ الإنسـاني، قد بزغ في الوطن العربي، وكان ذلك في القرن العشـرين، ولكن قبل الميلاد.. أي قبل أربعين قرنا من الاشـــتراكية الحديثة .. وكان ذلك في زمن الدولة البابلية العربية، ففي عهد حمورابي(1918-1955ق.م) وضعت الشريعة المعروفة باسـمه، والتي اكتشـفت في عام 1901م، وتقع في 282 مادة تناولت مختلف شـئون المجتمع، واسـتهدفت رعاية مصـلحة الشـعب وتحقيق المسـاواة والعدالة الاجتماعية.

وقد عقد المؤرخ المعروف، جورجي زيدان، فصـلا قيما، اسـتعرض فيه دولة حمورابي، فأثبت عروبتها، وسـرد إنجازاتها الحضـارية..[2] وكان من الفخر والطرافة في آن واحد، أن الذي قام بتلك التحولات الاجتماعية كان هو الملك بنفسـه فلم يكن باني إمبراطورية عربية فحسـب، ولكنه نزل في التاريخ كمصـلح عظيم، قاد الحركة "الاشتراكية" ولكن من غير الاسم والعنوان.

ثم يذكر التاريخ أنه حتى الشـــيوعية، بحذافيرها، قد انبثقت في اليونان، قبل الف سـنة من الميلاد، ففي عهد ليكوغورس عم ملك اسـبارطة اجرى إلغاء

---

[1] ديورانت، **قصة الحضارة**، ص 65.

[2] جورجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**، ص 62.

الملكية الفردية، وقسمت الأراضي إلى ثلاثين ألف قطعة بقدر عدد الأسرات الاسبارطية_ يؤمئذ _ وكانت تلك أول تجربة شيوعية في التاريخ، وأصبحت الأرض ملكا للمواطنين جميعاً وبالعدالة والمساواة.

ولم تنطفئ شعلة الاشتراكية في اليونان .. ففي القرن الرابع قبل الميلاد، انتصب على مسرح الفكر العالمي، أفلاطون (247 – 347) تلميذ سقراط، ومعلم أرسطو، ودون أول موسوعة في التاريخ عن مبادئ الاشتراكية والحكم والديمقراطية، في كتاب "الجمهورية" وقد دعا أفلاطون إلى إلغاء الملكية الفردية .. ومن المرجح أنه تأثر بالحضارة الفكرية العربية آنئذ، فقد زار مصر وأقام فيها ردحاً من الزمن.

وفي القرن الخامس قبل البلاد ظهر الفيلسوف الصيني العظيم كونفوشوس (479–551) وكان رئيسا لوزراء الصين، فهاله الظلم الاجتماعي الذي يجثم على صدر الشعب، فاستقال من منصبه، ونصب نفسه داعية للعدل الاجتماعي وأصبحت له مدرسة فلسفية اجتماعية واقتصادية ودينية، وقد نادى كونفوشوس بتوزيع الثروة بين الناس، وطالب الدولة بان تقوم بهذه المهمة.

وفي القرن الحادي عشر بعد الميلاد، نرى في الصين اشتراكية أوسع مدى، وظهر في الصين حاكم (دانج آن شي) "102 – 1086" وضع جميع مرافق الصناعة والزراعة والتجارة تحت سلطة الدولة، وأخذ يناصر الطبقة العاملة ومنح القروض الزراعية للفلاحين وأمم التجارة، وأخضع السلع والحاجيات الاستهلاكية لأسعار ثابتة، وحدد أجور العمال، وأعلن أنه من واجب الدولة أن تسيطر على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها

بنفســها.. وان لا تمكن الأغنياء من أن يطحنوا الطبقات العاملة طحن الرحى[1] وكان ذلك الصــبي العظيم قد وصــف العمال " بالمطحونين " قبل الماركســيين المعاصرين بألف عام.

وقد تجدد شباب الاشتراكية في الصين قبل الميلاد بمئة عام، ففي عهد الإمبراطور (وودي) من أسرة هان الشهيرة قامت حركة اشتراكية رائدة، فقد جرى تقسيم الأراضـي بين الفلاحين، وأصبحت موارد الثروة ملكا للأمة، وألغى الرق، ومنع بيع الأراضــي وشــراءها وجرى تحديد الأســعار، ومنع الاحتكار، ووضــع نظاما لتقديم القروض للفلاحين، وكان الإمبراطور هو قائد هذه الثورة الاجتماعية .. وكانت أراضي الصين تشمل كوريا ومنشوريا والهند الصينية والتركستان.

كان ذلك شأن "الاشتراكية" فكرة وممارسة في العصور القديمة.. أما في العصر الحديث بدءا من القرن السادس عشر إلى يومنا هذا من عامنا هذا، فإن الاشتراكيين، العلماء منهم والفلاسفة والحكام والثوار، فهم في غنى عن التعريف والتحديد والإحصــاء .. وهم ينتســبون إلى كل أمة .. وينتمون إلى كل مذهب، من العدمية إلى الفوضـوية إلى التعاونية، إلى الاشـتراكية إلى الشـيوعية. وتحت ذلك كله أفخاذ وبطون تتمثل في الماوية والتروتسـكية واللينينية والسـتالينية وكل ما يقع في إطار الماركسية العام، من الاشتراكية اليوغسلافية إلى الرومانية إلى الكوبية، إلى اتباع شيفارا الذي قاتل في كل مكان.

ولا بد لنا في هذا المجال من أن نقرر أن كارل ماركس (1818-1883) هو واحد من عمالقة الفكر الإنســاني، وأنه أثار قضــايا اقتصــادية

---

[1] وول ديورانت، **قصة الحضارة**، ج 4، ص 148.

واجتماعية وفلسفية لا تزال، وستظل، تثير المجتمع البشري، وأن الاشتراكية الماركسية قد فتحت طريقا جديدا في الحياة العامة تسير عليه في أيامنا دول متعددة لها شأنها في مصير العالم، وأنه .. وهذا هو الأهم، ان الماركسية قد حفزت "الطرف الآخر" إلى ابتداع أنظمة أخرى كان لها أثر كبير في رفع مستوى الكادحين والمطحونين الذين اتجه إليهم كارل ماركس بدعوته وحركته. "والطرف الآخر" يشمل كثيرا من الدول المتقدمة والنامية على السواء.

ولكن كارل ماركس وهو الذي قضى سنين طويلة في مكتبة لندن يقرأ ويدرس ويؤلف،لم يكن "صانع الاشتراكية" والاشتراكية لم تبدأ به، ولا انتهت عند قدميه، إنه صاحب الفضل في أنه وضع الاشتراكية في إطار "العلم" .. تماما كما يفعل علماء اللغة .. إنهم لا يصنعون اللغة، كل ما يفعلونه أنهم يضعون قواعدها وضوابطها مما يتكلم بها أهل اللغة.. وهذا ما فعله علماء النحو والصرف عندنا ، لقد دونوا ما نطق به العرب من صرف ونحو، وبيان وبديع، واوزان وقواف.

وكارل ماركس كان أستاذاً كبيراً، ولكنه قبل ذلك كان تلميذاً نابها فقد قرأ ما وقع تحت يده من المؤلفات الاشتراكية ابتداء من أفلاطون حتى الفيلسوف الاماني فردريك هيكل (1770– 1831) صاحب المدرسة الفلسفية التي عرفت باسمه.

والواقع ان أول من استعمل لفظة الاشتراكية هو الكاتب الفرنسي "ليرو (Laroux)، وكان كارل ماركس يومئذ طالبا ناشئا في الرابعة عشرة من عمره. وفي عصر كارل ماركس– القرن التاسع عشر– كان الحوار عن الاشتراكية في

أوروبا كلها، وأصبحت القارة بأسرها كخلية نحل، والعلماء والفلاسفة يبحثون عن عسل " الاشتراكية".. وعلى مدى ثلاثة قرون – قبل ذلك– كانت الاشتراكية هي الشغل الشاغل للدارسين والباحثين.

ففي عام 1516 نشـــر المفكر البريطاني توماس مور (Thomas Mare) كتابه الشـــهير، "يوتوبيا" وهاجم فيه الملكية الفردية، وندد بالثراء الفاحش، ودعا إلى تحديد العمل بســت ســاعات ،واقترح الملكية الشــيوعية، وأشــاد بالإنتاج الجماعي، وإقامة مجتمع لا تكون فيه نقود ولا أموال مملوكة من قبل الأفراد، وأن تصــبح الأســواق مشــتركة تتوافر فيها المنتوجات للجميع، وبذلك لا يكون حاجة للاستغلال ولا للسرقة.

وفي عام 1620 وضـــع الراهب الإيطالي كابانيلا (Capenalla) روايته "مدينة الشـمس" دعا فيها إلى الشـيوعية في الأموال والنســاء، وإلى تحديد أربع ساعات للعمل، وأن يوزع الإنتاج العام على الجميع ، كل حسب حاجته.. وربما كانت رهبانية الراهب الإيطالية هي الســـبب الكامن وراء دعوته في شـــيوعية النساء!

وفي عام 1652 ألف الكاتب البريطاني ونســـتانلى (Winstanley) كتاباً أسـماه " قانون الحرية " نادى فيه بإقامة مجتمع اشـتراكي، توزع فيه الأراضــي على المزارعين ليزرعوها زراعة مشـتركة، وأن لا تباع الأرض ولا تشـترى، وأن يقضى على الملكية الفردية، وان يعرض الإنتاج في مخازن عامة، يستطيع كل فرد وعائلته أن يأخذ منها حاجته، يملأ ســلته وينصــرف إلى بيته دون أن يدفع الثمن، قليلا أو كثيراً.

وفي عام 1755 وضـــع الكاتب الفرنســـي موريللي (Morelly) مؤلفه الشـهير "تقنين الطبقة" حدد فيه الأسـس الفلسـفية والسـياسـية والأخلاقية للنظام الشـيوعي، ودعا إلى إلغاء الملكية الفردية، ووضـع دسـتوراً مؤلفاً من117 مادة تتضـــمن إقامة الشـــيوعية المطلقة في الأموال، وتوزيع الناتج القومي وفقا لحاجات كل فرد، ويعتبر موريللي أعظم الكتاب الاشـــتراكيين في القرن الثامن عشر، وعنه أخذ الاشتراكيون الفرنسيون.

وفي العام نفســه نشــر "الفيلســوف الفرنســي روســو" (Rouseau) كتاب "انعدام المادة" نادى فيه بإلغاء الملكية الفردية باعتبارها مصـدر الجشـع، ويعتبر هذا الفيلسوف الفرنسي مؤسس الشيوعية الحديثة.

وفي عهد الثورة الفرنســـية، برز الصـــحفي الثائر بابيف (Babeaf) (1760 – 1797) فكتب في جريدة "منبر الشـعب" سـلسـلة مقالات حض فيها على حرب الطبقات، وتصـفية الرأسـمالية، وإلغاء الملكية الفردية، وإقامة الملكية العامة، ثم قام هو وأنصـاره بثورة مسـلحة بلغ عدد أفرادها 17 ألفا لقلب الحكومة الفرنسـية وإقامة المجتمع الشـيوعي.. وكان شـعارهم "الموت أو المسـاواة" ولكن الحركة قد باءت بالهزيمة وأعدم بابيف في ربيع 1797.

وجاء بعد هؤلاء نخبة من المفكرين الاشـــتراكيين، الذين يعتبرون قادة الاشـــتراكية الحديثة ومن بينهم ســـان ســـيمون واتباعه (Saint Simon) (1830) وروبرت اوين (1858–1770) (Robert Owen) ولوي بلان (180 – 1882) (Lovis Blanc) واجســت بلانكي (1805 – 1881) (August Blanqui) ووليام

تومســون (1785 – 1833) (Wiliam Thompson) وهؤلاء وغيرهم من كبار فلاسفة أوروبا وكتابها،وضعوا مؤلفات مسهبة في الاشتراكية ووسائلها وأهدافها.

ولهذا، فإن كارل ماركس، لم يكن مبتدعا للفكر الاشــتراكي، ولاصــانعا للنظام الاشتراكي.. فقد جاء ماركس على الدنيا ووجد نفسه في خضم زاخر من الفكر الاشـتراكي، ولم يكن عليه إلا ان يصـنف ويؤلف ليجعل من الاشـتراكية علماً له فصول وأبواب .. وكان الزعيم الشيوعي لينين منصفاً غاية الإنصاف حين عرف الماركسية بأنها " هي خلاص الفلسفة الألمانية والاقتصاد السياسي الإنجليزي والاشتراكية الفرنسية.."

والأمة العربية، رغماً عن حالة التخلف والانحطاط التي كانت تتحكم في حياتها تحت ســلطان الدولة العثمانية لم تكن متخلفة عن فكرها الاشــتراكي، ورغما عن ان الشقة قد أصبحت بعيدة زمنيا بينها وبين الدولة الاشتراكية الأولى – الخلفاء الراشــدين، إلا أن الفكر الاشــتراكي قد ظل ممتداً يبرز من حين إلى حين على أيدي العلماء والفقهاء والمصــلحين، وعندنا نماذج رائعة ورائدة تثبت أصــالة الفكر الاشــتراكي في الحياة العربية وتؤهلنا حقا أن نكون في الســاحة الاشتراكية عمالا أصلاً، لا إجراء وعملاء...

فهذا أبو نصر الفارابي (950–870م) من أكبر فلاسفة العرب ويعتبر المعلم الثاني بعد أرسـطو قد وضـع رسـالتين "المدينة الفاضـلة" و "السـياسـة المدنية" شــرح فيهما أراءه الاشــتراكية، وتصــور دولة تعاونية قائمة على نظام الطبقات يعاون بعضــها بعضــاً، كما يتعاون أعضــاء الجســم، وهدف الطبقات سعادة الرعية، تحت حاكم يتصف بالكمال في أخلاقه وقواه العقلية.. وبعد ستة

قرون ظهرت مؤلفات على غرار ما كتبه الفارابي، مثل "يوتبيا" و"مدينة الشمس" اللتين أسلفنا إليهما.. وهناك ثلاثة مؤلفات مماثلة: كريستيانو بوليس(Chistianpolis) (1619) واتلانتيس الجديد (New Atlantis) للفيلسوف البريطاني الشهير فرنسيس بيكون (1656) والثالثة أوشيانا (Aceana) (1656) وأسماء هذه المؤلفات تنبئ عن تصور أصحابها للدولة العادلة الرشيدة.

وهذا الإمام ابن حزم (994-1064) قد دعا إلى اشتراكية تفرضها الدولة على المجتمع، ورغماً عن أن الزكاة، وهي دعامة الاشتراكية، قد ورد ذكرها في القرآن سبعين مرة، إلا أن ابن حزم قد أوجب على ولي الأمر أن يكفل لكل مواطن الغذاء والكساء والمأوى، سواء كفت الزكاة او لم تكف، فقد قال: ".. ويجب على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة..[1] .. "وعيون المارة" هذه هي المعنى العصري الرفيع للحرمة" Privacy دعا إليها امامنا قبل عشرة قرون.

وهذا الوليد بن رشد (1126-1198) من عمالقة الفلسفة الإنسانية، وصاحب المدرسة "الرشدية" في أوروبا، فهو يشيد بالحكم الاشتراكي الذي قام في زمن الخلفاء الراشدين، ويندد بعهد الإقطاع الذي ساد الدولة الأموية، فيقول "وتعد جمهورية العرب القديمة نسخة تامة مطابقة لجمهورية أفلاطون.. وقد

---

[1] ابن حزم، **المحلى**، ج 6، ص 452.

أفسد معاوية هذا المثل الأعلى الرائع بإقامته حكم بني أمية المطلق، وفتح تاريخ الانقلابات التي لم تخرج جزيرتنا من نطاقها.[1]

وهذا الفقيه الثائر العز بن عبد السلام (1181- 1261) استفتاه سلطان مصر في الاقتراض من أموال التجار لمواجهة نفقات الحرب ضد التتار، وكانت الثروة الفاحشة، في ذلك العهد، في خزائن السلطان وأمرائه وقواد جيشه، ومماليكه ونسائه، فأعلن الفقيه بن عبد السلام، في جمع من الأمراء والعلماء فتواه الشهيرة مخاطبا السلطان "إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام، وضربته سكة ونقداً وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم، ذلك الوقت أطلب القرض، أما قبل ذلك فلا، وينبغي أن تبيعوا ما لكم من الحوائض المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه، ويتساووا هم والعامة، أما أخذ الأموال من العامة مع بقاء ما في يد الجند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا..[2] وهذه الفتوى الثورية هي الاشتراكية بعينها.

وهذا جمال الدين الأفغاني (1839 – 1897) معاصر كارل ماركس بالذات، يصف القلة المترفة بأنهم سبب تأخر الأمة، وأنهم أصبحوا "سلاسل وأغلالاً في رقاب المسلمين"، فيقول "ما أقعد الهمم عن النهوض إلا أولئك المترفون، يحرصون على طيب في المطعم، ولين في المضجع، وتطاول في

---

[1] ارنست رينان، ترجمة عادل زعيتر، **ابن رشد والرشدية**، ص 170.

[2] **النجوم الزاهرة**، ج 7، ص 72. **طبقات الشافعية الكبرى**، ج5، ص 83.

البنيان، أولئك صـاروا في أعناق المسـلمين سـلاسـل وأغلالا."[1] وعلى حسـاب الفقراء الذين يعيشون من غير مطعم ولا مضجع ولا بنيان!!.

ومن التنديد بالمترفين انتقل الأفغاني إلى التمجيد بالعمال والفلاحين، فهو يقول "لولا الزرع ولولا الضرع لما كان شرف الأغنياء ولا ترف الأمراء .. إن موقف الزراع والصـــناع من الحضـــارة أنفع من موقف الإمارة.. لقد رأينا شـــعباً يعيش بدون ملك، ولكن ما رأينا ملكا بدون شعب .."

ويتناول الأفغاني موضـوع التآخي الذي عقده الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم) بين المهاجرين والأنصـار بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ويشـرح جوانبه الاشـتراكية ويصـفه بأنه " حقق الاشـتراك العمومي في الثروة" .. ثم يشـيد به معتبرا إياه " أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً".

وكان فكر الأفغاني غنياً بالســـمات الاشـــتراكية والنزوع إلى العدالة الاجتماعية فهو يشير إلى الإقطاع في زمن عثمان بن عفان (ر) فيقول "إنه في زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيرا محسوسا .. وصـــار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى " أمراء" وطبقة "أشـــراف" وأخرى "أهل ثروة وبذخ وثراء وانفصـــل عن تلك الطبقات طبقة العمال وأبناء المجاهدين .. وكان أول من تنبه لهذا الخطر الصـحابي الجليل أبو ذر الغفاري .. واجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين .. وشـجعهم على النهضـة" (الثورة) .. وانتهت الثورة بمصرع عثمان (ر).

---

[1] جمال الدين الأفغاني، **الأعمال الكاملة**، ص 344.

وحينما كان كارل ماركس يضع مؤلفاته عن العمل والعمال ورأس المال، كان الأفغاني يلهب الشـــرق العربي والإســـلامي بثورته على الظلم الاجتماعي، ويأخذ يناصـــــر العمال الكادحين، ويندد بالمترفين في الأرض "الذين أثروا من كدهم (العمال) وعملهم وادخروا كنوزهم في الخزائن، واستعملوا ثروتهم في السفه ".

ولقد كان الأفغاني يفهم الإســـــلام بحقائقه الاجتماعية والإنســـــانية، بالإضـــافة إلى جوانبه التعبدية، وقد ربط الاشـــتراكية بقضـــية الســـلام والإخاء الإنسـاني، وهو ما يدعو إليه الإسـلام، فقد كتب يقول "إن دعوى الاشـتراكية وإن قل نصـــراؤها اليوم فلا بد أن تســـود العالم، يوم يعم العالم فيه العلم الصـــحيح، ويعرف الإنســـان أنه وأخاه من طين واحد أو نســـمة واحدة.. وان التفاضـــل إنما يكون بالأنفع من الســـــعي للمجموع، وليس بتاج أو نتاج أو مال يدخره، أو كثرة خدم يســـــتعبدها، أو جيوش يحشـــــدها".. وبهذه العبارة أوجز الأفغاني رأيه في الاشتراكية والإخاء الإنساني، والسلام الدولي..

وحينما كانت الاشـتراكية الأوروبية تخوض أعنف معاركها الفكرية، كان ثائر عربي مجيد هو الســـــيد عبد الرحمن الكواكبي (1902-1854) ينفخ في المجتمع العربي الإسلامي روح الاشتراكية مستمدة من تعاليم الإسلام، ويصبها في قالب العصر.. وفي كتابه "طبائع الاستبداد" دعا الكواكبي إلى تحديد الملكية الزراعية، وأوضـح أن الإسـلام قد ترك معظم الأراضـي الزراعية ملكاً لعامة الأمة يســـتنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط".. وينتقل بعد ذلك إلى تصـــحيح الأوضاع بين الكادحين والمترفين، ورفع الظلم الاجتماعي، ذلك "أن رجال البشر

تقاســموا مشــاق الحياة قســمة ظالمة ... وهذه القمســة جاء بها الاســتبداد السـياسـي.." ويرى أن الحل هو في أن يسـتوحي المجتمع العربي سـيرة الخلفاء الراشدين " الذين فهموا معنى القرآن وعملوا به، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي بينهم أنفســهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشـظفها، وأحدثوا في المسـلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية، وحالات معيشــية اشــتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد، وفي حضانة أم واحدة.."".

وهذه "المعيشــة الاشــتراكية" يعتبرها الكواكبي متفقة مع ســنن الكون "فالاشـتراك" كما يقول "هو أعظم سـنن الكائنات، وبه قيام كل شـيء ما عدا الله وحده، به قيام الأجرام السـماوية، به قيام المواليد، به قيام حياة العالم العضـوي، به قيام الأجناس والأنواع:، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ربط الثروة بالعدل، فيقول "إن تحصيل الثروة في عهد الحكومة العادلة عسر جدا".

ولقد تغلغلت الروح الإشتراكية في وجدان الكواكبي، فطمست من سيرته الحسب والنسب، فهو ابن أسرة سورية رفيعة في حلب، تنتسب إلى سيدنا علي بن أبي طالب (ر) ولكنه اختار أن يسير على نهج عمر بن الخطاب (ر) حين صاح في العرب قائلاً "والله لو جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة .. ومن قصـر به عمله لم يسـرع به نسـبه".. وهذا ما حدا بالكواكبي بعد ثلاثة عشر قرنا أن يصيح في المجتمع العربي "أن الشرف كل الشـــرف في القلم، ثم في المحراث ثم في المطرقة"[1] ويوم تحدث الكواكبي عن المطرقة، لم يكن كارل ماركس قد اتخذها شعارا للاشتراكية.

---

[1] جمال الدين الأفغاني، **الأعمال الكاملة** ، ص، 16، 17، 90، 423.

ولا أريد أن اســترســل كثيرا في الرجوع إلى ســيرة المفكرين العرب في الوطن العربي الذين جاءوا بعد الكواكبي والأفغاني وجعلوا أقلامهم وألســنتهم في خدمة العدالة الاجتماعية، والدعوة إلى الاشــتراكية ، فإن الحقيقة التاريخية التي أردت أن الفت إليها نظر المواطن العربي المعاصــر أن الاشــتراكية هي في صميم الحياة العربية، وأن الانتكاسات التي أصابتها في حياة المجتمع العربي لم تمنع انطلاقها من حين إلى حين على يد مصــلح، أو مفكر، أو ملك أو أمير.. ثم، وهو الأهم، ان الاشــتراكية المعاصــرة في أوروبا كانت تقابلها اشــتراكية معاصرة أخرى في المشرق العربي . ثم أخيراً، وهذه هي النتيجة الكبرى إن الأمة العربية لم تكن غريبة عن الفكر الاشــتراكي ولا كانت عالة عليه.. بل ســاهمت بنصــيب وافر في الفكر الإنســاني، والنضــال العالمي من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية باعتبارها الهدف الأول والأخير للاشتراكية.

ولم تبق الاشـتراكية العربية قاصـرة على الفكر والمفكرين، ولكنها انتقلت إلى ميدان الثورة والثائرين،وقد شــهد منتصــف هذا القرن اشــتراكية عربية تدق أعلامها في عدد من الأقطار العربية.

وكـانـت ثورة يوليو في مصــــر، هي الثورة الرائدة القائدة ،ففي أوائل الستينات شـرع الرئيس الراحل جمال عبد الناصـر في إقامة المجتمع الاشـتراكي في مصــر، فوضــع قوانين الإصــلاح الزراعي، وقام بتأميم المرافق العامة في الدولة، وعرب المصالح الأجنبية، فكانت بداية ثورة اشتراكية عمقت جذورها في

الكواكبي، **طبائع الأستبداد**، ص90، وصفحات أخرى.

مصر وانتقلت بعد ذلك إلى سوريا فالعراق فالجزائر، فتونس، وأخيرا إلى ليبيا بعد ثورة الفاتح.

ولقد وقعت، من غير ريب، أخطاء جسيمة في التطبيق الاشتراكي، ولكن ذلك لا ينتقص من أهداف الاشتراكية، بقدر ما ينتقص من قدر "وسائل الاشتراكيين" الذين تصدوا لممارسة الاشتراكية في هذه الدولة العربية أو تلك.

وكان طبيعياً أن تدخل الاشتراكية العربية وما تزال، في دور التجربة والخطأ، وكان طبيعيا كذلك أن تحيط بها الضغوط الدولية، الرأسمالية الغربية تريد أن تردها إلى الاقتصاد الحر، والاشتراكية الروسية تريد أن "تقطرها" وراءها لتسير في ركبها في فلك الماركسية بكل ما تحمل هذه "العقيدة" من فلسفة وسياسة واقتصاد واجتماع، وإلى نظرة مادية في تفسير الحياة والتاريخ والعلاقات الاجتماعية والقومية والدين، وكل ما يجيش في صدور الناس من خواطر، وما يجول في عقولهم من أفكار.

والوحدة العربية التي نتطلع إلى قيامها يجب أن تكون لها اشتراكية عربية ذات فلسفة خاصة بها، مستفيدين من خبراتنا الخاصة وخبرات الشعوب الأخرى، دون أن نلتزم بالضرورة بالماركسية، فالماركسية عند الماركسيين كل لا يتجزأ، ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا الكل في جملته، وكثيرون من العرب الذين يسمون أنفسهم "ماركسيين" ، لم يقرأوا الماركسية قراءة كاملة، ولا قرأوا المنابع الروحية للاشتراكية العربية.. ولو فعلوا لأجهدوا فكرهم في إبداع الاشتراكية العربية.

فالفلسفة الماركسية جدلية في بحثها ونظرتها لظواهر الطبيعية، ومادية في تفسيرها لهذه الظواهر، وهي مادية تاريخية بتطبيقها هذه الفلسفة على حياة المجتمع، فلا تخلو هذه الفلسفة من نظرات صائبة، كما لا تخلو من أخطاء فاحشة، والأمة العربية قادرة على الاختيار .

ومثلا، فإن الأمة العربية ترفض المبدأ الذي أودعه ماركس في البيان الشيوعي الشهير من "أن الطبقة العاملة لا وطن لها "فإن الوطن" العربي هو وطن العمال العرب ولا وطن لهم سواه.. وكذلك فإننا نرفض ما قرره المؤتمر الشيوعي لعام 1948 من أن "الدفاع عن الاتحاد السوفيتي وهو الوطن الأم للاشتراكية والبروليتاريا في العالم هو واجب مقدس على كل مواطن مؤمن بالماركسية في أي مكان وليس على المقيمين في الاتحاد السوفيتي وحدهم".

فان الدفاع عن الاتحاد السوفيتي هو واجب مقدس على المواطن الروسي، وليس على المواطن العربي أي واجب عام في هذا الصدد، اللهم إلا التأييد السياسي.. هذا إذا كان الاتحاد السوفيتي على صواب .. وأما إذا كان على خطأ فلا يمكن أن نكون إلى جانب الخطأ، كائنا ما كان المخطئ !!

وأخيراً فإننا نرفض ما أعلنه لينين من "أن الدين هو أفيون الشعوب فإن الدين الحق، لأية أمة،هو الغذاء الروحي للشعوب .. وان من واجب الإنسان أن يصقله مما علق به من أساطير وخرافات ورواسب وثنية، وان يحميه من الدعوات الإلحادية، والماركسية من جملتها، في نظراتها إلى الدين.

ولم تستطع الفلسفة الماركسية أن تثبت صوابها، بهذا الزمن الذي مر عليها،ولا بالتطبيق العملي للاشـــتراكية، ســـواء في الاتحاد الســـوفيتي أو في جمهورية الصين الشعبية .. والشواهد الواقعية على ذلك كثيرة..

اولاً: إن الأممية الدولية قد قامت على شكل مؤتمرات، انعقدت من حين إلى حين،ولكن القيادة الشـــيوعية قد توقفت عن الأممية وحلت محلها الدول الشيوعية.. المتعددة..

ثانياً: الفلسفة الماركسية، لم تستطع أن تجعل من الدول الشيوعية، دولة واحدة، وهي التي تحلم في نظام شيوعي يسود العالم أجمع، ليست فيه دولة، ولا قوميات ولا لغات. وحتى الأحزاب الشيوعية العالمية الكثيرة لم تستطع الماركسية أن تجعل منها حزباً شـيوعياً عالمياً واحداً .. وهذا هو حال الأحزاب الشـيوعية في الوطن العربي .. متعددة، ومختلفة الآراء والمواقف .

ثالثا: ان الماركسية تطورت إلى ماركسيات متعددة، ومتنافرة ومتحاربة، فالحشـود العسـكرية على الحدود الصـينية الروسـية، والاتهامات الخطيرة بين موسكو وبكين،وانقسام الدول والأحزاب الشيوعية بين هذين العملاقين، أقل حدة بكثير وكثير، مما هو بين الدول الشـــيوعية في مجموعها والدول الرأســـمالية الغربية.

رابعاً: ان السلوك العام للدول الشيوعية فيما بينها، ومع الدول الأخرى، ومنها الدول النامية، قد تخلى عن كثير من المبادئ الماركســـية فيما يتعلق بقضـايا الحرية والسـلام وتقرير المصـير، ولسـنا ننكر أن الدول الشـيوعية قد اتخذت مواقف شديدة في تأييد الحركات التحررية في العالم،وكان ذلك متفقا مع

مصـــالحها الدولية، ولكنها كذلك قد اتخذت مواقف "انتهازية واســـتعمارية" في قضايا أخرى .. كموقف الاتحاد السوفيتي من قضية فلسطين في الأمم المتحدة في عام 1947.

خامسـاً: إن التطبيق الاشـتراكي في الدول الشـيوعية يختلف من بلد إلى بلد، في الزراعة والصـناعة والقطاع العام والقطاع الخاص، وهو في البلد نفسـه قد تغير من مرحلة إلى أخرى، ومن انغلاق إلى انفتاح.

سـادسـاً: إن وحدة العالم الشـيوعي على صـعيد الشـعوب مفقودة فيما بينها، فإن السـفر من دولة شـيوعية إلى أخرى لا يتم إلا في أضـيق نطاق، واللقاءات لا تتم إلا على الصـعيد القيادي من خلال المؤتمرات، وإذا كـان الاتصـال الجماعي بين الدول الشـيوعية والدول الرأسمالية محظورا، فلم يكن هذا الحظر في الدول الشيوعية فيما بينها..؟

سـابعاً: وهو عندنا أولاً وأولاً، ان الماركسـية لا تعترف بوجود الأمة العربية الواحدة، فإن تعريف سـتالين للأمة لا ينطبق على الأمة العربية، وآخر ما تكرم به علينا فلاسـفة السـوفيت أننا "أمة على طريق التكوين" .. ثم الاتحاد السـوفيتي قد وضـع نفسـه في معسـكر الاسـتعمار الغربي في محاربته للوحدة السـورية المصـرية في عام 1958، كما فعل الحزبان الشـيوعيان السـوري والعراقي..[1].

---

[1] راجع في ذلك مجموع خطب الرئيس عبد الناصـر لعام 1958 وكتاب " **آراء العلماء والقادة السوفيت**" دار الكتاب العربي.

ولا داعي لأن نسترسل في سرد فوارق ومفارقات أخرى، وهي وغيرها تفرض علينا أن تكون لنا اشتراكيتنا النابعة من تراثنا، الملائمة لمتطلبات حياتنا القومية في هذه المرحلة التي نطمع خلالها أن نبني لأمتنا مجتمع الرفاهية والكفاية والعدل.

ودول الوحدة العربية هي التي تضع أسس الاشتراكية العربية، الاشتراكية العلمية، مستهدفة توزيع الثروة العامة توزيعاً عادلاً، وأن تضع أدوات الإنتاج ومرافق البلاد العامة تحت سيطرة الشعب، وأن يتم تحديد الملكية الفردية، وأن يرسم إطار القطاع العام والقطاع الخاص، وأن تشجع الحوافز الشخصية من غير طغيان ولا استغلال، وبالجملة تحويل المجتمع العربي إلى الكفاءة والكفاية، وإلى المساواة والعدالة، مجتمع يستهدف صالح الجماعة، ولا يكون المواطن فيه مجرد أداة للإنتاج، ولكن يكون إنساناً حرا كريما، نشيط الحوافز والقدرات، فإن المجتمع هو المجموع النهائي للمواطنين،تتجمع فيه حصيلة قوتهم أو ضعفهم.

وقوة المجتمع، والمواطن هو خليته الأولى، لا تكون بقوته المادية فحسب، ولكن بقواه الروحية وقيمه الأخلاقية، ومن هنا حرصت الاشتراكية العربية كما بدا من الميثاق الوطني الذي وضعه الرئيس عبد الناصر، مؤكداً على إبراز دور " القيم الروحية الخالدة" في المجتمع الاشتراكي العربي.[1]

ودولة الوحدة العربية التي تناضل الأمة العربية من أجل بنائها على أسس اشتراكية رشيدة لا تسمح لنفسها أن تضيع في خضم "الجدليات"

---

[1] الميثاق الوطني، الباب السابع.

الماركســـية عن الكون، والوجود والعقل، والروح وســـائر قضـــايا الحياة، فإن الإنســان المعاصــر لم يصــل حتى إلى معرفة ذاته،إ لا بقدر الهمزة من الألف من أبجدية الحياة، والطريق لا يزال طويلاً وبعيداً.

وكلما اكتشــف الإنســان كوكبا تكشــفت له عوالم من الكواكب..وأرضــنا هي النقطة الصغيرة المظلمة في هذا العالم العجيب.

إن وحدتنا واشـتراكيتنا وحريتنا وفلسـفتنا، سـتقوم على المادة والروح معاً، فليســـت الحياة مادة كلها، ولا روحاً كلها.. ولكنها مزيج عادل من الاثنين، متلازمين متكافئين.

والدليل القاطع الحاسم يجده المرء في نفسه وفي حواسه بالذات...

العين مادة، فما هو الإبصار؟

الأذن مادة، فما هو السمع؟

اللسان مادة، فما هو الذوق؟

الأعصاب مادة، فما هو الإحساس؟

وأخيراً: المخ مادة فما هو العقل، ما هو الفكر، ما هو الغضــب، ما هو الضحك، ما هو الجبن؟ ما هو .. ما هو.. إلخ.

وإلى أن يجد الجدليون جوابا علميا على هذا، فإن دولة الوحدة العربية سـتقوم على قاعدتين متوازيتين متكافئتين.. القيم الروحية والحقائق الاقتصــادية، وقد وضــعت الأولى اولاً والثانية ثانيا، لأن الحقائق الاقتصــادية هي الوســيلة، والسعادة البشرية هي الهدف، والسعادة أولاً وأخيراً هي ذروة القيم الروحية.

وإنه من الأهمية تأميم المصـــانع والمزارع وســـائر المرافق العامة،ولكن الأهمية القصـوى أن لا تؤمم القيم الروحية، فلا نجد تفسـيراً للحياة إلا من خلال النظرة المادية للكون، فلقد شـــــهد التاريخ العربي قيام دولة القرامطة في القرن التاسـع للميلاد، وبسطت سيادتها على عمان والبحرين واليمامة والإحساء، وبلغ من شأنها أنها أقضت مضاجع الخلافة العباسية في بغداد.. وكانت تلك الدولة "شـيوعية" بالمعنى الحديث وقد أسـماهم عدد من المسـتشـرقين بأنهم بلاشـفة الإسلام، فقد نادوا بشيوعية الأموال والنساء، ولكن قادة هذه الدولة قد فقدوا القيم الروحيـة والخلقيـة، فضـــــلا عن الدينيـة، فـأحرقوا المـدن والقرى، وقتلوا النـاس بـالألوف، وقطعوا الطريق واقترفوا فظـائع رهيبـة، ولم يجـدوا من يمجـد حركتهم ويثني على عقائدهم إلا بعض مستشرقي السوفييت.[1]

والدولة العربية الاتحادية التي نتطلع إلى قيامها لا نريدها دولة قرامطية جديدة، ولكننا نريدها دولة اشتراكية، تكون "المادة" هيكلها، وتكون القيم الإنسانية والمثل العليا هي "الروح".

وفي هذا المزيج من المادة والروح تكون الحياة الرغيدة الســـعيدة للوطن والمواطن.

---

[1] بندلي جوزي ، **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام.**

دولـة عظمى.. بين أيدينـا

أجل.. إن دولة عظمى بين أيدينا، تملكها الأمة العربية بيمينها، وليس عليها إلا أن تهب هبة رجل واحد لتزيح الذين يقفون في طريقها، وتعمل على إقامتها، وتشيد صرحها بإرادة ماضية وعزيمة صادقة.

وهذه الدولة العربية العظمى التي أتحدث عنها، ليســت حلم يقظان، ولا أضـــغاث نـائم ولا هواجس مجذوب، ولكنها حقيقة تتوافر لها كل إمكانات التحقيق، بنفس القدر الذي تتوافر لاية دولة عظمى في هذا العالم الذي نعيش فيه.

والمواطن العربي، وهو يقرأ هذا الكتاب يدرك أن صـــاحبه هائم بالوحدة العربية ملكت عليه جوارحه، ولكن تعلقي بالوحدة العربية ليس قائما على الحب وحده .. ولولا الحب لانتهت الصلة بالأمة والوطن وبكل المعاني الإنسانية .. وإنما هو تعلق يسنده العلم في معزل عن نوازع الحب.

والدولة العربية العظمى التي نملك كل أســباب نشــوئها، وكل مقومات وجودها، هي كذلك حقيقة علمية بذاتها، من غير أن يكون للعاطفة أي دخل في النظر إليها، فالدولة العظمى، أي دولة، هي مجموعة من "العوامل والوقائع" كل واحدة منها هي "عظمى" بمفردها، وتتجمع كلها لتكون الدولة العظمى..

ولو أننا دعونا طائفة من العلماء، غير العرب، لزيارة الوطن العربي زيارة دراســة على الطبيعة لانتهوا إلى نتيجة قاطعة حاســمة، أن الأمة العربية تملك كل مقومات الدولة العربية العظمى، بل إنهم يتســـاءلون في عجب واستغراب، ماذا تنتظرون؟ ولماذا لا تحملون السلاح لتحطيم الحدود القائمة بين أقطاركم، وإزالة الحكم الانفصالي الذي يباعد بينكم.. ومن ثم تعملون على بناء الدولة العربية العظمى، وهي أمام أبصاركم وفي متناول أيديكم.؟

والدول العظمى، في الوقت الحاضـــر، اثنتان هما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تليهما اليابان، ويأتي بعد هؤلاء الاتحاد الأوروبي إذا قدر لهذا

الاتحاد أن يتجاوز المصاعب التي تنتظره .. ويصبح دولة فدرالية يشمل أوروبا الغربية.

والصـــين من غير شـــك، دولة عظمى على طريق المســـتقبل.. وإذا ما ظلت الرياح تهب رخاء في شراعها فستكون الدولة العظمى الأولى في هذا العالم وان كان قادتها يتحدثون بتواضـــع واعتذار أن الصـــين تعتبر نفســـها من الدول النامية!!

نحن لو أمعنا النظر في تاريخ هذه الدول العظمى لوجدنا أن حالة "العظمى" هذه ليســت قديمة في تلك الدول، حتى يقول قائل أنه لا يمكن اللحاق بها.. فليســـت هذه الحالة تاريخية أزلية.. إنها وليدة القرن العشـــرين وقبله ما كانت هذه الدول العظمى،عظمى .. بل كانت دولا متخلفة ، شـــأنها في ذلك شأن الدول المتخلفة المعاصرة، المسماة أدباً وإشفاقاً الدول النامية.

ولســـنا في حاجة أن نضـــرب في أعماق التاريخ لنتعرف على الحقيقة، فإن المعمرين في الولايات المتحدة والاتحاد الســـوفيتي واليابان قد عاشـــوا في شبابهم عهود التخلف في بلادهم، فلا قطارات ولا سيارات ولا راديو ولا تلفزيون، ولا صواريخ ولا دبابات، ولا بنسلين ولا أسبيرين ولا مصانع ولا مختبرات.

أقول هذا للذين يقرأون عنوان هذا الفصـــل، ويتســـاءلون في هزء وسخرية: وأين نحن من الدول العظمى .. وأنى لنا أن نلحق بأولئك العمالقة...؟

ونحن لا نريد أن نســـخر من هذه الســـخرية، فإن العلم والعلم وحده هو الذي يبدد الســـخرية ويكشـــف عن الحقيقة صـــافية نقية.. فماذا يقول العلم عن "عظمة" هذه الدول العظمى.. ما هي أسباب هذه العظمة ومقوماتها.

يقول العلم إن الولايات المتحدة والاتحاد الســـوفيتي إن كلا منهما تملك أرضـاً واسـعة، متنوعة الأقاليم والأجواء، غنية بالثروات الطبيعية وافرة السـكان، وإن عندهما عددا كبيرا من العلماء والمهندسين والخبراء.

ويقول العلم عن اليابان، إنها تملك جزراً مبعثرة، ووفرة من الســـكان .. وثروتها الطبيعية الوحيدة هي إرادة اهلها في التعلم والاقتباس، وتحويل ذلك إلى إنتاج وصناعة وإبداع.

ويقول العلم إن الأمـة العربيـة تملك مـا تملكـه هذه الدول العظمى من مقومات، بل إنها تملك ما لا تملكه دول كاليابان، مثلا وهي التي تشـــتري كل الخامات من العالم بأسـره،وتعيد إلى العالم خاماته مصـنوعة جاهزة للاسـتهلاك والإنتاج.

ولا بد لنا أن ننتقل من التعميم إلى التخصـــيص .. والســؤال المطروح ماذا نملك من مقومات الدول العظمى وفي مقاييس الدول العظمى نفســـها .. ولنتناول مقوماتنا وثرواتنا وقدراتنا، الطبيعية والمادية والحضـــارية، واحدة واحدة .. ولنبدأ بـالوطن العربي، من حيث موقعـه الطبيعي الفذ فإنـه الثروة الكبرى، وهي ثروة فريدة وحيدة.. لا تجارينا فيه أية دولة من دول العالم، حتى ولا الاتحاد السوفيتي، أو الولايات المتحدة .. ولست أقول هذا زهواً أو اختيالا ولكنه الحقيقة العلمية نراها في معالم الوطن العربي من مشــرقه إلى مغربه .. ولنضـــع أمامنا الأطلس العالمي، لنقارن الموقع الطبيعي للوطن العربي مع الموقع الطبيعي لكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

من حيث الموقع العام نلاحظ أن الوطن العربي يحتل مكان "الصـــدر في الكرة الأرضية، على حين يؤلف الاتحاد السوفيتي "الطرف الشرقي لأوروبا

و "الطرف" الشـمالي لآسـيا، والولايات المتحدة تؤلف "الطرف" الشـمالي لأمريكا الشمالية.

وكلمة "الصدر" بالنسبة إلى الموقع الطبيعي للوطن العربي ليست كلمة مجازيـة، ولكنها كلمـة حقيقيـة . فالوطن العربي يقع في "وســـط" العالم لا في "طرفه" إنـه يقع بين القارات الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآســـيا.. وهو كذلك في الطريق إلى القارات الثلاث الأخرى: أمريكا الشـمالية، أمريكا الجنوبية، اسـتراليا، فما من زائر، أو تاجر، أو عابر إلا ويعبر في مطاراتنا من القاهرة إلى بيروت إلى دمشـــق .. وما من باخرة إلا وترســـو في موانينا من الدار البيضـــاء إلى الإســـكندرية إلى حيفا إلى اللاذقية.. وكل ذلك من الغرب إلى الشـــرق، ومن الشرق إلى الغرب. والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لا يتمتع أي منهما بهذا الموقع الفذ الفريـد، وهـذه ميزة كبرى للوطن العربي على الـدولتين العملاقتين، وعلى عملاق الصـناعة الكبيرة اليابان، وهي الجزر المبعثرة في أطراف المحيط الهادي.

ويأتي بعد ذلك الموقع الاســـتراتيجي للوطن العربي، والاســـتراتيجية أصـبحت لغة هذا العصـر، بل هي الميزان الذي توزن به الأمم والشـعوب وتقيم بـه الأحداث الواقعـة والمتوقعـة .. وموقعنـا الاســـتراتيجي، بـل مواقعنـا على الأصـح، هي فريدة وفذة، لذلك لا تملك مثلها أي من الدولتين العظميين،الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة .. فإن شواطئنا المغربية والموريتانية على المحيط الأطلنطي ذات أهمية بالغة .. وشـــواطئنا على البحر الأبيض المتوســـط من مضـيق جبل طارق حتى بور سـعيد، وإلى الإسـكندرية بخلجانها ومرافيها تملك مزايا رائعة في الســـلم والحرب على الســـواء .. ثم تأتي شـــواطئنا على البحر

الأحمر بجانبيه، ومضيق باب المندب إلى البحر العربي ، إلى المحيط الهندي إلى الخليج العربي.. وكل شـــبر فيها له قيمة بالغة في حياة وطننا بل في حياة العالم أجمع .. ويأتي في طليعة ذلك قناة الســويس التي تعتبر شــريان التجارة الدولية ومعبر العالم القديم إلى العالم الحديث، والعكس.

وقناة السويس أهم ممر مائي في العالم ، ولكن أهميتها تصبح أضعافاً مضـــاعفة حينما تكون جزءا من الدولة العربية الواحدة، وحينئذ تصـــدق الكلمة الشهيرة التي قالها الخديوي إسماعيل "لا أحد أكثر تحمساً منى للقناة لكن أريد أن تكون القناة لمصــر لا أن تكون مصــر للقناة، وقد مرت أكثر من فترة كانت فيها مصر للقناة، وليست القناة لمصر.

وإلى جانب مجموعة القيم الاستراتيجية لوطننا العربي ليس لنا أن ننسى الثروة الهائلة، التاريخية والســـياحية التي ســـعد بها الوطن العربي منذ أقدم العصـــور، وتلك ثروة لا يملكها غيرنا على الإطلاق. نحن متفردون بها على أمريكا وروسيا، وعلى العالم أجمع.

فهذا معبد الكرنك ووادي الملوك في الأقصـــر وما حولها من مصـــر، روائع الهندسة والبناء من الهياكل والردهات والقبور والأعمدة والقناطر والسقوف مما يعتبر من أعظم ما خلفته الحضارة الإنسانية. ناهيك عن الملوك المحنطين الذين أقاموا إمبراطوريات امتدت إلى كل أرجاء الوطن العربي.

وهذا سد مأرب (اليمن) الذي يعتبر مفخرة للحضارة العمرانية في كفاح الإنسان على طريق التقدم والبناء، ومعه قصر غمدان – صنعاء– الذي شيده عاهل اليمن من عشرين طابقاً كل طابق في ارتفاعه عشرة أذرع حتى غدا كما

قال الشاعر: "ومن السحاب معصب بعمامة" فكان أول ناطحة سحاب في العالم .. وبه وبغيره من القصور أصبحت تعرف اليمن "ببلاد القصور".

وهذه مدينة البتراء– شـــرق الأردن– عاصـــمة عرب الأنباط، لم تبن بناء، ولكنها قدت من الصخر الصلد، ونحت ديرها في جوف الجبل، ولا تزال تعتبر إلى يومنا هذا من أروع المعالم الأثرية السياحية في العالم.

وهذه مدينة تدمر، بآثارها الفخمة الرابضـــة في الصـــحراء، تروي ســـيرة الملكـة العربيـة "زنوبيـا" قـاهرة الرومـان، ومحررة الوطن العربي من النيـل إلى الفرات..

وهذه الآثار البابلية والآشورية في العراق تتحدث عن إنجازات الحضـارة العربية الأولى في وادي الرافدين.. وظهرت مدرســـة تاريخية جديدة تقول إن حضـارة وادي الرافدين أقدم عهدا من حضـارة وادي النيل، وسـواء كانت هذه أو تلك فإنها حضارة عربية في الحالتين..

وأخيراً هذه بعلبك والمعالم التاريخية الفينيقية العربية في ســـوريا ولبنان تشـهد للسـلالات العربية القديمة ما حققوا من خطوات مجيدة في سـيل المعرفة الإنسانية.

كل هذا وغير هذا يجده المواطن العربي في وطنه، ولا يجد مثله في أي وطن آخر في العالم ، بنفس الوفرة والجمال والإبداع.

وإلى جـانـب هـذا الثراء الطبيعي في موقع وطننـا من النواحي الاسـتراتيجية والأثرية والسـياحية، فقد كان الوطن العربي حافلا منذ القدم بالثراء المادي ففي سـيناء يتحدث مؤرخو اليونان والرومان والعرب عن مناجم النحاس والذهب والفيروز في شبه جزيرة سيناء، وكذلك فقد أشتهر جنوب الجزيرة العربية

بأنواع فاخرة من الطيوب والصـمغ واللبان والقرفة واللاذن، حتى أن هيرودس أبا التاريخ قال إن "بلاد العرب كلها تفوح بالعطر والطيوب" وكان لهذه المواد قيمة تجارية كبرى في العصـــور القديمة، كما كانت الجزيرة العربية غنية بمناجم من الذهب بلغت نقاوته حدا لم تعد معه حاجة إلى تصفيته وصهره. وأصبح الوطن العربي بخيراته الوافرة ومركزه التجاري العالمي بين الشـرق والغرب مصـدر ثراء ويســـار بحيث تكاثرت في جنوب الجزيرة العربية" مدن عامرة تزينها الهياكل الجميلة والقصـور الفخيمة.. وفيها مسـتحدثات الأدوات المصـنوعة من الذهب والفضـــة، منها الأســـرة ومثلثات القوائم والأحواض وأوعية الشـــرب .. ناهيك بمنازلهم الفخمة، وقد تزوقت أبوابها وجدرانها وســـطوحها بالألوان وترصـــعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة".. كما ذكر مؤرخو اليونان والرومان.[1]

كانت تلك ثروة الوطن العربي في الماضـــي، وأما في الحاضـــر فإن ما عرف حتى الآن من الثروة في الوطن العربي يتجاوز الحصـــر والإحصـــاء.. والذي ما يزال غير مكتشـف في جوف الأرض، وخاصـة في باطن الصـحاري العربية ينبئ عن مستقبل زاخر، بطبقات ضخمة من المعادن والمواد الكيمائية.

ولا يتســـع هذا الفصـــل للإســـهاب في بيان ثروات الوطن العربي التي تتنامى كل يوم، فاحتياطي البترول العربي يزيد عن ســـتين في المائة من الاحتياطي العالمي، هذا بالإضـافة إلى الغاز الطبيعي .. ويقدر بنحو خمسـين مليار مكعب، ويؤلف 15 في المائة من الاحتياطي العالمي، ويقدر احتياطي الحديد الخام المكتشـف حتى عام 1974 بحوالى ثمانية آلاف مليون طن ..[1]

---

[1] فيليب حتي، **مقتبسات منقولة عن تاريخ العرب**، ص 60.

[1] جامعة الدول العربية، **تقرير مركز التنمية الصناعية للدول العربية**.

أما الفوســـفات وهو إحدى المواد الأســـاســـية العالمية يكاد أن يصـــبح مادة اسـتراتيجية، ذلك أن الفوسـفات، حين يصـبح سـماداً يكون غذاء للأرض، وهذه بدورها تعطي الغذاء للإنســان. وفي الوطن العربي من الفوســفات ما يزيد على ثلث الاحتياطي العالمي.. هذا بالإضـــافة إلى معادن أخرى متوافرة في الوطن العربي مثل الكوبالت والرصـاص والجبس والكبريت والملح الصـخري،ناهيك عن المواد الكيماوية المتوافرة في البحر الميت، في فلسطين.

وبالإضــافة إلى جوف الأرض وما فيها من كنوز وخيرات، فإن الأرض العربية نفسـها هي ثروة كبرى، ففيها مسـاحات شـاسـعة من الأراضــي الزراعية، ومناطق مترامية من الغابات والأحراش وخاصــة في المغرب والجزائر والسـودان .. والســـودان نفســـه يملك إمكانات زراعية، وثروات حيوانية هائلة، يمكن أن يصـبح مزرعة الوطن العربي تسـد حاجاته من الغلال والثمار واللحوم وكواسـر الوحوش وفرائد الطيور.

ونخلص من ذلك أن الوطن العربي يملك خمس مقومات ضـــخمة، المواقع الاســـتراتيجية، المعالم التاريخية والســـياحية، احتياطي البترول والغاز الطبيعي، والأراضــي الزراعية والغابات الشـاسـعة، احتياطي المعادن والكيمائيات المختلفة.. ولا أعرف دولـة عظمى أو صـــغرى تتجمع فيهـا هـذه المقومـات الضخمة بمثل هذه الوفرة، وكلها لا تزال بكرا على أول طريق الاستثمار . وحين يبلغ مرحلة الاشباع سيصل حساب الدخل القومي العربي إلى أرقام خيالية.

ويـأتي البترول والغـاز الطبيعي على رأس الثروات العربيـة.. فـالبترول يمكن اعتباره المادة الاسـتراتيجية الأولى،من يملكها يملك عصـب الحياة الدولية في الحرب وفي الســـلم على الســـواء، فهي التنمية والتقدم والازدهار في زمن

الحرب،وقد أصـــبحت قيمة البترول العربية الفعلية لا تكمن في ثمنه.. وثمنه مليارات من الدولارات.. ولكن في قيمته الفاعلة في التعامل الســـياســـي والاقتصادي والعسكري مع الدول الأخرى في العالم .

وقد تجســـدت قيمة البترول العربي، بعد حرب رمضـــان، فقد كان أثرة على الاقتصـــاد العالمي أكثر من الحرب نفســـها، فقد كان الشـــرق الأوســـط هو ميدان الحرب بيننا وبين إســـرائيل، ولكن العالم كله كان ميدان حرب البترول .. ولو أن الدول العربية، قد أحسنت استخدام هذا السلاح في حربنا عام 1948 لما قامت إسرائيل أصلاً، ولكانت فلسطين اليوم دولة عربية، وكذلك لو أنها أحسنت اســتخدامه بعد حرب رمضـــان لشـــهد العالم بداية النهاية لإســـرائيل.. ولكن أنى يكون للعرب ارادة واحدة في البترول وغير البترول، قبل قيام الدولة العربية الواحدة..

وأكثر ما يبرز التخلف العربي بشـــأن ثروته البترولية، أننا نقدمه للدولة الصناعية خاما، ليعود إلينا بعد بضعة أيام مصنعا على أشكال مختلفة ونشتريه بعشـــرة أمثال الثمن الذي تقاضـــيناه حين كان عندنا زيتا غشـــيما.. ناهيك عن البتروكيمائيات الأجنبية التي تغمر أســـواقنا بأثمان فاحشـــة، وقد خرجت بالأمس القريب من منابع البترول العربي، وكان الأولى ونحن نملك المادة الخام الأســـاســـية أن نكرره ونصـــفيه ونصـــنعه في بلادنا، ثم نصـــدره إلى الأســـواق الخارجية، زيتا مكرراً، وسلعا متعددة، ومواد كيماوية متنوعة، وتصبح السبعون مليار دولار التي نتقاضـــاها اليوم، ســـبعمائة مليار دولار في الغد، تدخل إلى بيوت مئة مليون من الفلاحين والعمال العرب، فيشـــبعون ويصـــحون ويتعلمون ويسعدون.

والغاز الطبيعي، ثروة هائلة، مالية واقتصـادية وصـناعية، وفي الوطن العربي مخزون عظيم منه، يجد المواطن العربي لهبه المتصـاعد في الأجواء العربية ، فيضـيع مهدورا في الفضـاء، على حين أن الغاز الطبيعي طاقة كبرى للتدفئة والصناعة ولكن التخلف العربي "ينفث" هذه الطاقة الهائلة في الهواء، فلا تسـتفيد منها المصـالح العربية، ويعيش ملايين العرب يئنون من برد الشـتاء وحرارة الصـيف، ما خلا بضـعة آلاف من الموسـرين،على رأسـهم الملوك والرؤساء!!

وإن أمامنا مثلا حيا ينبئ كيف تستغل الدول الصناعية الغاز الطبيعي العربي، فإن فرنسـا تقوم بمشـروع ضـخم لنقل الغاز من الجزائر، وفيها أعظم مخزون في العالم ، عبر البحر الأبيض المتوسـط لاسـتخدامه في الطاقة الصـناعية، وهناك دراسـات ومخططات لإنشـاء شـبكة من الأنابيب في أوروبا الغربية كلها، لجر الغاز الطبيعي إلى كل مصـنع وبيت في أوروبا ، ورحم الله العرب القدامى والمعاصرين فهم سواء في قول الشاعر:

والعيس في البيداء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهورها محمول

والبترول والغاز الطبيعي، من شـأنهما أن يجعلا من الأمة العربية دولة عظمى، دولة عملاقة في الزراعة والصـناعة والتجارة،وأخيرا لا آخراً في صـناعة أسـلحة حديثة متطورة، تحرر الوطن العربي من إسرائيل، وتخرج الأمة العربية من تحكم هذا المعسكر العالمي أو ذاك، بل ومنهما معاً..

وليس هذا الكلام خيالاً، ولكنه حقيقة أكيدة تصبح ماثلة للعيان بعد جيل واحد لا جيلين.. ذلك أن مقوماتنا الضـخمة، مدعمة بالبترول والغاز الطبيعي،

كفيلة في ظل دولة الوحدة العربية أن تجعل القاهرة على مســـتوى واشـــنطن وموسكو .. ولكن من غير أن تشارك أمريكا وروسيا في ما يقذفان على العالم من شرور وويلات.

والأرقام بطبيعتها جافة وباردة، وإذا دخلت في جداول مطولة تكون مدعاة إلى الملل، ولا يصبر عليها إلا العلماء المتخصصون،ولكن حين تقدم موجزة في إطار من المقارنة والمقايسة تصبح أفصح من الشعر، وأبلغ من النثر، وأروع من النحت والتصوير . فلتسلط الأرقام على ثرواتنا ومواردنا.

ولنبدأ بالزراعة، وهي ما تزال العمل الرئيسي لما يقرب من ستين في المائة من الأمة العربية، والأرقام في هذا الميدان تضعنا أمام صورة مذهلة ومفجعة معاً...وتبلغ المساحة المنزرعة في الوطن العربي 440 ألف كيلو متر مربع، تعتمد ثلاثة أرباعها على المطر، وهي لذلك تعطي محصولاً واحداً .. أما الأراضي التي تعتمد على الري فتبلغ مساحتها 88 ألف كيلو متر مربع، وهذه معظمها في مصر والسودان والعراق وسوريا، وتعتمد على مياه النيل ودجلة والفرات.. وهذا القطاع الزراعي من الوطن العربي، يمكن أن يتضاعف إنتاجه إلى خمسة أمثال باستخدام الآلات الزراعية الحديثة والأسمدة الكيماوية، والمبيدات الحشرية والمحاريث الآلية ، بدلا من الحراثة بالجمال والجواميس والحمير .. فقد آن الأوان لهذه الحيوانات الصابرة أن تنعم بنصيبها من الحياة الوادعة!!

وإلى جانب القطاع المنزرع، نجد في الوطن العربي مساحة أكبر غير منزرعة ويمكن إخضاعها للزراعة، وتقدر مساحتها بـ 693 ألف كيلو متر مربع .. معظمها في السودان والعراق والمغرب، وهذه المساحة الشاسعة يمكن جعلها

جنات خضراء من الحبوب والثمار، بإنشاء السدود والخزانات للتحكم في الأنهار في ســـوريا والعراق، أو بوســـائل حفظ المياه في تونس واليمن، أو بالانتفاع بمصادر المياه الجوفية في ليبيا والسعودية ومصر.

ولكن بعض الأرقام، خاصــة بالنســبة لبعض الأقطار العربية على وجه التحديد، تعطي المواطن العربي صـــورة جلية عن الدولة العربية العظمى، التي تنتظرنا، إذا ســـلطنا إرادة الوحدة وتيارها الهائل على طاقاتنا الوفيرة... فإن في سـوريا مثلاً، تبلغ مسـاحة الأراضـي الصـالحة للزراعة 18 مليون فدان، ولكن المستغل منها فعلاً لا يتجاوز سبع المساحة، وتبلغ الأراضـي الصـالحة للزراعة في اليمن أربعة ونصـف مليون هكتار، ولكن المسـاحة المنزرعة فعلا لا تتجاوز مليوني هكتار، وفي جمهورية اليمن الشـــعبية تقدر المســـاحة القابلة للزراعة ما يقرب من مليون فدان ولكن المســـاحة المنزرعة فعلاً لا تتجاوز 150 الف فدان .. وفي المغرب تبلغ الأرض الصالحة للزراعة 41 مليون هكتار ومنها ما يقرب من 24 مليون هكتار يمكن إخضـــاعها للزراعة بإنشـــاء الســـدود والخزانات والقنوات، ونســبة الأرض المزروعة والمســكونة في جمهورية مصــر العربية لا تكاد تتجاوز ثلاثة في المائة من مجموع أراضي مصر كلها.

ولكن الســودان .. وإمكاناته الزراعية والحيوانية والصــناعية في حاجة إلى كتاب قائم بذاته، فيه 120 مليون فدان صـــالحة للزراعة، بالإضـــافة إلى ثمانين مليون فدان صـالحة للمراعي، والمسـاحة المنزرعة لا تكاد تتجاوز سـبعة ملايين فدان!![1]

---

[1] الدكتور جلال يحيى، **التخلف والاشتراكية في العالم العربي** .

كل ما تحتاجه الأمة العربية، ثورة زراعية كبرى، في ظل خطة متكاملة في الوطن العربي بأســره، لا تتم إلا بقيام الدولة العربية الواحدة، فإن التنســيق والتعاون في ظل الجامعة العربية بقراراتها المتعددة ومؤسساتها المتنوعة لم تفلح في أن تضع مشروعاً عربياً واحداً!!

وهذه الثورة الزراعية في حاجة إلى شــيئين غير مســتحيلين، الأول : الآلات الزراعية الحديثة والأســمدة الكيماوية، والآلات الزراعية الحديثة يمكن استيرادها بالآلاف إلى أن نستطيع صنعها في الوطن العربي، فإن دولة صغيرة – رومانيا مثلاً– تصــدر الجرارات الزراعية إلى ســبعين دولة في العالم .. والجرارات الزراعية قد أصبحت تعتبر "مؤشرا علميا إحصائياً" ينبئ عن مبلغ التقدم الزراعي لأية دولة، فإن هولندا مثلا، تملك جراراً واحدا لكل خمســة هكتارات من الأرض، ونيوزيلندا جراراً واحداً لكل ســبعة هكتارات، وبلجيكا جراراً واحداً لكل تســعة هكتارات، والدانمارك جراراً واحداً لكل خمســة عشــر هكتارا، وجنوب إفريقيا جراراً واحداً لكل 52 هكتارا، ونجد بالمقارنة المفزعة المفجعة أن في مصــر جراراً واحداً لكل 227 هكتار، وفي ســوريا جراراً واحداً لكل 361 هكتارا، وفي الســودان جراراً واحداً لكل 900 هكتار، أما اليمن، الســعيد في ماضيه، والشقي في حاضره، فإن فيه جراراً واحداً لكل ثلاثة الآف هكتار .. ويا يمناه .. وامصيبتاه..

أما الأسمدة الكيماوية، وهي العالم الثاني في الثورة الزراعية، فإن موادها الإساسية موجودة في وطننا، فالفوسفات متوافر بأجود أنواعه في المغرب وتونس ومصر والأردن والجزائر وسوريا والعراق، والكبريت متوافر في مصر والجزائر والمغرب والكويت والعراق، والبوتاس متوافر في الأردن.

والأســـمدة الكيماوية أصـــبحت تؤلف أزمة عالمية بذاتها.. فإن الإنتاج العالمي منها لم يعد يكفي الحاجة الزراعية فضـلاً عن ارتفاع أسـعاره،والأراضـي الزراعية الشاسعة في الوطن العربي تتسع لاستخدام الأسمدة على نطاق واسع، فالأرض المنزرعة قد اســتهلكت، وهي تزرع من ســبعة آلاف عام .. والأرض الصالحة للزراعة لا تصلح إلا بالسماد، فهو لها كالزاد.

وصناعة الأسمدة، والآلات الزراعية تنقلنا إلى الصناعة والتصنيع في الوطن العربي، وهذه لا تتم إلا في إطار خطة التكامل الاقتصـــادي بدلاً من الجهود الصـناعية المبعثرة، التي تقام الآن في الأقطار العربية في إطار محدود وعلى مستوى وضـيع .. ودولة الوحدة العربية وحدها هي التي تستطيع أن تقيم في الوطن العربي صـــناعات متعددة، وفي مقدمتها الصـــناعة الثقيلة، أم الصناعات وأبوها.

والواقع أنه باسـتثناء الصـناعات المحدودة في الوطن العربي، فلا يمكن أن نعتبر أن الأمة العربية تملك صـــناعة جديرة بثرواتها وطاقاتها وإمكاناتها، فبالإضـافة إلى الصـناعات الفرعية والثانوية، فإن الكثير من السلع الموجودة في السـوق العربية، يظنها المواطن العربي صـناعة وطنية، وهي في الواقع لا تعدو ان تكون مجرد عملية " تجميع" مثل مصانع تجميع السيارت، تستورد مفككة من الخارج وتجمع في الوطن العربي، أو مثل باكيت الكلنكس يســـتورد ورقه وحتى كرتونـه من الخـارج، ويقطع ويجمع في الوطن العربي، ويبـاع للمواطن العربي على أنه صناعة وطنية، وواخجلاه!!

ونحن نســـتورد هذا الورق وهذا الكرتون، ومعه آلاف من الأطنان لورق الصـحف، على حين أن غاباتنا في الوطن العربي، وخاصـة في السودان، كفيلة

بأن تبنى على جنباتها مصـــانع للورق، لســد حاجة الأســواق العربية ولتتحرر الصــحف العربية من ســيطرة رأســمالية الورق الخارجية، فوق ســيطرة الحكام العرب على الصــحف والمجلات، في ما تكتب من مقالات وتعليقات، وحتى في ما تضع من عناوين، وما تنشر من صور وكريكاتور وافانين!!!

ويتساءل المواطن العربي، وهل نحن مؤهلون لأن نصبح أمة صناعية .. والســـؤال مطروح على الدوام، والعلم هو الذي يوفر له الجواب، بعيداً عن نزعة العاطفة او التفاخر والتباهي.

ولعل الاســتعمار الأوروبي هو الذي زرع في نفوســنا في الأصــل أن الوطن العربي هو بلد زراعي، ولا مجال أن تقوم فيه صناعة ذات شأن وخاصة الصــناعة الثقيلة .. ولكن الحقائق الماثلة في الوطن العربي، رغماً عن تفككه، تثبت العكس تماما.. فإن الصـــناعات المحدودة القائمة في الوطن العربي ومعظمها كان الفضل فيه لجهود فردية وشركات محدودة، قد أثبت أن الإنسان العربي مؤهل لأن يصـــبح صـــانعا بارعا ممتازا في مســـتوى زميله الروســـي والأمريكي .. فإن صــناعات النســيج والأدوية والبلاســتيك قد ســدت الكثير من حاجة السوق العربية واستطاعت ان تنافس بجدارة الصناعات الأجنبية.

ولا بد لنا أن نضــيف هنا، أننا نملك كل المؤهلات التي تجعل منا دولة صـــناعية عظمى .. والمؤهلات التي نملكها متوافرة بين أيدينا كاننا نغرف من بحر.

نملك أولاً رأس المال ..فإن فائض البترول في هذا العالم يتجاوز ستين مليار دولار، وهذه الثروة العربية ليست فائضا في الواقع لأن التصنيع والتنمية الزراعية في الوطن تستطيع استيعاب معظمها، فإن صناعة البتروكيماويات مثلا

تحتاج إلى ما يقرب من سبعة مليارات دولار ،وإنشاء مصافي البترول يحتاج إلى 400 مليون دولار، وإنشاء ترسانات بحرية لصنع ناقلات بترول يحتاج إلى ثلاثة مليارات دولار، وإنشاء صناعة الصلب والحديد تفي بحاجة الوطن العربي تحتاج إلى 15مليار دولار، ومصانع السكر والورق وغير ذلك يستوعب كل الثروة العربية البترولية، وتصبح كلمة " فائض " الثروة العربية، فائض" اللغو والفضول.

وهذا الذي يسمى اليوم فائض الثروة العربية قد اغترب مع المغتربين العرب، وهاجر معهم وأصبح مثلهم يستثمر خارج الوطن العربي، فاندفع البتروليون العرب يستثمرون المال العربي في دور البورصة العالمية، وشركات السيارات والفنادق والبنوك، والقصور التاريخية، والانكى من ذلك كله في شراء جزر الاصطياف في أوروبا وأمريكا، مولين " أدبارهم" عن مصايفنا الجميلة في شواطئنا الإفريقية ومشاتينا الساحرة في أسوان وشواطئ البحر الأحمر، والسودان ومناطق الخليج، ومناطق التزحلق في المغرب ولبنان.

والبتروليون العرب، يضيفون إهانة كبرى للأمة العربية كلما تحدثوا إلى الصحافة العربية عن البترول العربي، فتندلع ألسنتهم بأنهم حريصون أن يكون البترول العربي مصدر رفاه للعالم بأسره.. على حين أن مئة مليون من المائة وعشرين مليون عربي يعيشون مطحونين مسحوقين، وهو التعبير الشيوعي الذي يصدق فيهم، لأن الثروة البترولية لا تصل إليهم إلا عن طريق "أريحيات" الإذاعات والتصريحات.

والمواطن العربي يعلم يقينا أن البترول العربي قد أصبح له أثر كبير على الحياة الاقتصادية والمالية في العالم أجمع، وأن التصريح الواحد الصادر

من أحد وزراء البترول العربي– وهذا ما وقع فعلا – كان كافيا لســقوط الجنيه الإسترليني، ولصعوده في تصريح آخر في اليوم التالي.. ومع هذا فإن مستوى الفقر والمرض والجهل في حياة المواطن العربي قد يبقى على حاله ، بل إنه ينخفض ولا يرتقي .. وأقول ينخفض لأن مســتوى المعيشــة يتصــاعد، ونســبة المواليد تتزايد، والثروة البترولية لا تدخل إلى بيوت الجماهير الكادحة..

وثاني ما تحتاج إليه الصناعة الثقيلة، السوق الكبيرة.. والوطن العربي بالملايين من سكانه المتزايد بالملايين من كل عام، والصناعات الحربية اللازمة لصيانة حريته و أمنه وقوميته، يستوعب كل ما تنتجه مصانعنا الكبرى بل لماذا لا نصـــــدر إلى العالم الثالث من حولنا.. ونحن أجدر بهم، وأولى أن نحرر اقتصادهم من العقائديات الشيوعية والرأسمالية على السواء..

ولكن الســوق العربية الكبرى لا يمكن أن تكون ســوقاً واحدة .. إلا في ظل دولة الوحدة الكبرى، تزول تحت أقدامها الحدود، وقصور الملوك والرؤساء.

وثالث ما تحتاج إليه الصـــــناعة الثقيلة، وفرة الأيدي العاملة .. والأمة العربية فيها كثرة بشرية متنوعة الكفاءات والقدرات.

هذه هي المقومات الثلاثة التي نملكها لإقامة صـــــناعة عملاقة، ولا ينقصنا إلا العامل الرابع وهو العلم التطبيقي– التكنولوجيا.

وحيازة هذا العامل ليس معجزة ولا مستحيلاً، فقد أصبح العلم، نظرياً كان أو تطبيقياً "ســلعة" دولية، ومع الاحترام للعلم، فقد صــار العلماء بضــاعة تبحث عن السوق الأفضل والأكمل... والشواهد على ذلك كثيرة.

من ذلك أن معظم العلماء الألمان قد اســتجلبتهم الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ليعملوا في معاهدها ومصانعها ومختبراتها، وهم يساهمون

الآن في إنجازاتها التكنولوجية، وقد فعلت مثل ذلك روسيا فاستخدمت مجموعة أخرى من العلماء الألمان ليكونوا في خدمة الصناعة السوفيتية وتدل الإحصاءات الأخيرة ان آلافاً من الأطباء والمهندسين وعلماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات، من مختلف الجنسيات توافدوا على الولايات المتحدة في جامعاتها ومؤسساتها العامة، ويلح مخططو السياسة الأمريكية على تهجير الأدمغة العالمية إلى أمريكا، وهم يشكون أن روسيا تملك "رأس مال" أكبر من الكفاءات العلمية.

وإلى جانب الجهود المغرية التي تبذل لإغراء العلماء على الهجرة إلى أوروبا وأمريكا، فإنه من دواعي الأسف البالغ أن الحكم العربي بأوضاعه الحاضرة يعمل على تهجير الأدمغة العربية إلى الخارج ليساهموا في بناء الحضارة والتقدم في العالم الغربي، على حين ان الوطن العربي غارق في التخلف من الرأس حتى القدمين.

وهذه الأدمغة العربية التي هاجرت إلى الخارج تعلب دورا كبيرا في مختلف مجالات العلم في الطب والرياضيات، إلى الفيزياء والكيمياء، إلى العلوم الذرية والفضائية .. وقد ظهرت بينهم أسماء لامعة في الولايات المتحدة خاصة، وكانت لهم إبداعات علمية رائعة في أبحاث الفضاء والبتروكيمائيات، بالإضافة إلى الجراحة والأبحاث النووية، والصناعات الحربية.

وفي ختام عام 1974 التقى في القاهرة ما يزيد على الفي عالم مصري من هذه الأدمغة المهاجرة، قضوا في وطنهم الأول ثلاثة اسابيع استمعوا فيها إلى خطب المسئولين، ثم عادوا إلى وطنهم الثاني في أوروبا وأمريكا، دون أن

يخطر في بال الملوك والرؤســـاء العرب أن يحتفظوا بهذه الثروة العربية في الوطن العربي.

ولقد أشـــرت إلى هجرة الأدمغة العربية، كدليل إضـــافي، يقدم برهانا ســاطعاً أن الإنســان العربي مؤهل لأن يكون عالماً ومبدعا، وأن العقل العربي ليس قاصـرا على الشـعر والفلسـفة والتاريخ وسـائر العلوم النظرية، ولكنه قادر على امتلاك ناصـية العلوم التطبيقية المتقدمة .. وكل ما يدخل تحت موضـوع التكنولوجيا الحديثة، وأخيراً، وهذه هي النتيجة المتوخاة، أن الأمة العربية تستطيع أن تصبح أمة صناعية من الطراز الأول.

ولم لا .. فليس الإنسان الألماني، والفرنسي، أو الأمريكي، أو السوفيتي، إنســـانا متفوقا بتكوينه العقلي .. وليس الإنســـان الغربي متفوقا بطبيعته على الإنسـان الشـرقي، بحيث تكون الصـناعة حكرا على أوروبا وأمريكا.. وكل دور الإنسان الشرقي ان يجعل وطنه سوقا للصناعة الغربية.

ونحن معاشـــر العرب أمامنا مثل حي في اليابان، وهي أمة شـــرقية مثلنا.. وعدد سكانها كعدد سكاننا، ولكننا نمتاز على اليابان في أننا نملك معظم المواد الخام اللازمة للصناعة، على حين أن اليابان تستورد معظم الخامات من الخارج، من أمريكا، وكندا، واســتراليا، والبلاد الغربية، وإندونيســيا.. ومع هذا فاليابان أصـبحت اليوم عملاق الصـناعة العالمية، تسـتورد الخامات من الخارج وتصدرها مصنوعة لتغرق فيها السوق العالمية.

وفي مطلع هذا القرن، لم تكن اليابان دولة صـــناعية، ولكنها عرفت الطريق إلى ذلك، فقد أوفدت بعوثا وافرة من طلابها إلى الجامعات الأوروبية

فعادوا ومعهم " علوم " الصـــــناعة، وهكذا بدأت اليابان حياتها الصـــــناعية.. وبدأتها من العدم، ولم يمض نصف قرن من الزمان حتى أصبحت في القمة..

ومن الطرائف أن اليابان تعتبر أعظم مســـتهلك للبترول في العالم بعد الولايات المتحدة، وتســتورد البترول من الخارج، معظمه من البلاد العربية، ومع هذا فإن اليابان تصـــنع للعالم ناقلات البترول الضـــخمة، واليابان كذلك لاتملك المعادن اللازمة للصـناعة وتسـتورد المعادن من الخارج، ولكن تصـنعه وتصـدره إلى العالم راديوهات وتلفزيونات وكاميرات ولعب أطفال وسيارات وبواخر.. وكلها ، وهذا هو الأهم، بلغت حدا من الإتقان والرخص بحيث أصبحت تنافس السلعة الأمريكية أو الألمانية في عقر دارها، على حين أن الســـلعة اليابانية، محمولة على ظهر البحار من أقصى المحيط الهادي.

وإنها لمقارنة محزنة ومخزية حقاً، أن اليابان لا تملك خامات الصـناعة، ولكنها أصـــبحت إمبراطورية صـــناعية عالمية.. ونحن الذين نملك الخامات الأســاســية وخاصــة البترول والغاز، ليس لنا صــناعة ذات شــأن، ونســتورد "مصـنوعات" الدول الصـناعية بأثمان فاحشـة ونحن الذين صـدرنا إليها الخامات بأسعار عادية.

ونحن مؤهلون أكثر من اليابان لأن نصبح دولة صناعية عظمى.. ذلك بالإضــافة إلى أننا نتفوق عليهم في المواد الخام اللازمة للصــناعة، فإن موقع وطننا العربي وســـطا بين القارات وعلى طريق المواصـــلات البرية والبحرية والجوية بين الشرق والغرب، ويمنحنا مزايا اقتصـادية وتجارية لا تملكها أية دولة أخرى في العالم.

ونحن جديرون بهذا الدور في العصر الحاضر، فهو ليس بداية جديدة، ولكنه استئناف واستكمال لدور تاريخي قامت به الأمة العربية في ظل الوحدة منذ أقدم عصور التاريخ، ولم تتوقف المسيرة إلا في العصور الحديثة.

أجل، نحن جديرون بالدور الصناعي، والحضاري بوجه عام . فقد كان هذا هو دورنا التاريخي تشهد لنا بذلك الحضارة العربية القديمة في وادي النيل والحضارات البابلية و الآشورية والفينيقية في المشرق العربي، وكل هذه أعطت العالم الأسس الأولى في الزراعة والصناعة والقراءة والكتابة والبناء والرسم .. ثم جاءت الحضارة العربية الإسلامية فقدمت العطاء العالمي الثاني في مجالات الطب والصيدلة والفلك والرياضيات والبصريات وما إلى ذلك مما يعتبر القاعدة الأساسية للحضارة الإنسانية المعاصرة، ومنها التكنولوجيا الحديثة.

وسجلنا الحضاري طويل وحافل، يظلمه الإيجاز، ولا ينصفه إلا المجلدات ولكن بضع كلمات تعطي المواطن العربي ومضة عابرة عن الدور الحضاري الضخم الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية في ميدان المدنية المعاصرة التي تنعم بها الدنيا في زماننا .. وهذه بعض الشواهد ..

ففي علم البصريات، يعتبر ابن اسحق الكندي المعلم الأول في هذا العلم وقد سماه علم المناظر، وهو صاحب اللقب المعروف "فيلسوف العرب" من إعلام القرن التاسع بعد الميلاد، وقد قام وهو في بلاط العباسيين بنقل مؤلفات اليونانيين وأضاف إليها، ومن العربية نقلت إلى اللاتينية فكانت أساساً للمعرفة الأوروبية، وهو حجة في علم الفلك، وقد انتفع بمؤلفاته كثير من علماء أوروبا، في مقدمتهم العالم البريطاني الشهير روجر بيكو (1246م) وقد اعتبره الرياضي الإيطالي الشهير، كاردونو (القرن السادس عشر)

واحدا من أثني عشر مفكرا من مفكري الدنيا العظام " وله 27 مؤلفا في الفلسفة و 23 في علم النفس، و22 في الطب ومؤلفات أخرى في الموسيقى والفلك والجغرافيا.

وفي الموسوعيات فقد برز محمد الخوارزمي كصاحب أول موسوعة عربية (780–858) باسم "مفاتيح العلوم" تناول مواضيع الحساب والهندسة والفك والطب، والخوارزمي هو واضع علم الجبر، وعلم اللوغارثمات، وهي مأخوذة عن اسمه، ونحن أخذناها عن التسمية الغربية، وهي في الأصل "الخوارزميات" وكتاب" "حساب الجبر والمقابلة" وقد نقل إلى اللاتينية، وأصله العربي مفقود وقد اعتمدته جامعات أوروبا ككتاب مدرسي حتى القرن السادس عشر بعد الميلاد.

وفي علم الفيزياء والرياضيات والطبيعيات اشتهر الحسن بن الهيثم (965–1029) بأنه أعظم عالم في الفيزياء في العصور الوسطى ومن أعظم علماء البصريات في جميع العصور، ومن مؤلفاته الشهيرة "المناظر" و "وكيفيات الإظلال" و "في المرايا المحرقة بالدوائر" و "في مساحة المجسم الكافي" وقد نقلها الإفرنج إلى لغاتهم، واراؤه في انعكاس وانكسار وسرعة الضوء سبقت آراء نيوتن في هذا المجال.

وفي عالم الطب، اشتهر الرازي وابن سيناء ونقلت مؤلفاتهم إلى اللغة اللاتينية وظلت تدرس في الجامعات الأوروبية حتى أواسط القرن الثامن عشر، وتزدان الصالة الكبرى في جامعة الطب بباريس بصورتين كبيرتين لأبن سيناء والرازي .. وكتاب "القانون" في الطب "لأبن سيناء" ظل توراة الطب أطول من أي كتاب آخر وأعيد طبعه في أوروبا خمس عشرة مرة إحداها طبعة باللغة

العربية، وتضمن كتابه سبعمائة وستين عقارا، وهو أول من دعا إلى أن يجرب الدواء على الحيوانات أولاً .. وكان للرازي شهرة أعظم وهو صاحب الرسالة الشهيرة عن " الجدري والحصباء " وأول من قام بتشخيص أعراض هذين المرضين، وكذلك حسين بن اسحق وهو صاحب أول كتاب في طب العيون.

وفي مجال الفكر العالمي يعتبر ابن رشد صاحب الفلسفة الرشدية في أوروبا وهي تدعو إلى اعتماد العقل للوصول إلى المعرفة الإنسانية، وظهرت لكتبه خمسون طبعة في اللاتينية ، ونال الفيلسوف الفرنسي الشهير أرنست رينان (1852) شهادة الدكتوراه بأطروحته التي وضعها عن الفلسفة الرشدية وقد أعتبره الفيلسوف الإيطالي دانتي في مصاف الفلاسفة العالميين، ووصفه العالم البريطاني روجر بيكون المعلم الثاني بعد ارسطو .. والفيلسوف دانتي تأثر كثيرا بفلسفة ابن رشد والغزالي، وأبي العلاء المعري، واقتبس كثيرا من الأفكار الروحية من المتصوف الإسلامي الشهير محيي الدين بن عربي.

وفي علم النبات، يعتبر ابن البيطار أشهر العلماء في هذا الموضوع في العصور الوسطى، وقد عرف أنه إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، وقد أمتاز بدراسته على الطبيعة، فقد كان طاف بأنحاء المغرب والشام ومصر باحثاً عن الفصائل النباتية دارسا لخصائصها فحدد خصائصها وأسماءها ومواقعها وضاعف من تحقيقاته العلمية أنه كان طبيبا في خدمة الملك الكامل في القاهرة(1230م) بالإضافة إلى منصب "رئيس العشابين".

وفي علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، يعتبر ابن خلدون (1406-1332) الرائد العالمي الأول في هذين العلمين ، ويقول فيه المؤرخ البريطاني العالمي توينبي" إن أبن خلدون قد وضع فلسفة وقاعدة للتاريخ لا نشك في أنها أعظم

عمل من نوعه قام به عقل بشـــري في أي زمان ومكان" وكتابه "المقدمة " في دراسة الظواهر الاقتصادية والعمرانية وأثرها على المجتمع سبق الفيلسوف العالم المعروف آدم ســمث في كتابه " ثروة الأمم " بأربعة قرون، ويقول العالم كلوزيو "إن ابن خلدون دعا إلى مبادئ العدالة الاجتماعية قبل ماركس وماكونين، ويؤكد العلامة روبر تفلنت الأستاذ بجامعة أدنبره أنه " لا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ولا العالم الغربي في العصور الوسطى يستطيع أن يقدم اسماً يضاهي في لمعانه اسـم ابن خلدون الذي يسـتحق لقب مؤسـس علم التاريخ وفلسـفته، واعتبره النقاد أعظم فيلسـوف مؤرخ أنتجه الإسـلام وأنه من أعظم المؤرخين في العالم.[1]

وعلم الكيمياء، يعتبر جابر بن حيان من أعلام القرن التاســع بعد الميلاد من أوائل من اعتمد الأســس العلمية التجريبية في هذا العلم .. وطريقته التي دعا إليها "أن واجب المشـــتغل بالكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وان المعرفة لا تحصل إلا بها. وان لكل صنعة أساليبها الفنية".

والدورة الدموية، يعود الفضـــل في اكتشـــافها إلى العالم العربي ابن النفيس الدمشقي (1288-1210) اكتشفها وعرفها قبل وليم هارفي بزمان وكان رئيس أطباء مصـر، ورسـالته "شـرح تشـريح ابن سـيناء" وصـف فيها دورة الدم الصغرى.

---

[1] فيليب حتي، **تاريخ العرب**، ص 675.

والمجال لا يتســـع لأكثر من هذا الإيجاز الموجز، وقد أفردت دائرة المعارف البريطانية ، فصـلا ممتعا عن الفلسـفة والفلاسـفة العرب يبرز فيه دور العقل العربي في ميدان الفكر العالمي..[1]

وإلى جانب العلماء العرب العباقرة، فقد كان للأمة العربية دور عالمي ضخم في إنشاء الجامعات والمعاهد العامة، منها الجامع الأزهر بني في القاهرة في القرن العاشـــر بعد الميلاد، وجامع القرويين في المغرب أنشـــئ في القرن الثاني عشـر بعد الميلاد، وبيت الحكمة في بغداد في القرن التاسـع بعد الميلاد .. ودار العلم في الموصـل في القرن العاشـر بعد الميلاد، وكلها كانت نموذجاً للجامعات التي أنشئت فيما بعد في أوروبا.

وفي مجـال العمران، فـإن الأمـة العربيـة تعتبر من أعرق الأمم عمرانـا، ففي العصـــور القديمة بنى العرب مكة والمدينة المنورة وصـــنعاء والطائف في الجزيرة العربية، ودمشـــق وحلب وبيروت وبيت المقدس في ديار الشـــام، وبابل وآشـــور في وادي الرافدين، وطيبة وقرطاجة في إفريقيا العربية.. وبعد الإســـلام بنى العرب البصـــرة وبغداد وســـامراء في العراق، والقاهرة في مصـــر، وفاس والقيروان في المغرب ومئات أخرى منتشـــرة في الوطن العربي، أنشـــئت فيها الحمامات والمسـتشـفيات والمراصـد، والقصـور والمسـاجد، على أروع ما يكون البناء جمالاً وهندسة وزخرفة.

ونخلص من هذا كله إلى أن الإنسـان العربي المعاصـر، شـأنه في ذلك شأن لإنسان العربي الغابر، قادر على ان يملك ناصية العلم النظري والتطبيقي، وأن هذا الذي يســمى اليوم التكنولوجيا ليس بعيد المنال عن الإنســان العربي،

---

[1] دائرة المعارف البريطانية تحت مادة الفلسفة العربية.

فكما كان علماؤنا الغابرون يساهمون في صنع الحضارة في القرون الوسطى، فعلماؤنا المعاصرون، المهاجرون والمغتربون، يؤدون الدور نفسه، وهم على حظ وافر في ميدان المعرفة الإنسانية بكل فروعها.

وبهذا يتجلى بما لا يرقى إليه الشك، ومن غير عصبية للإنسان العربي أو تفاخر بمواهبه الذاتية، أن الأمة العربية التي تملك مقومات الدولة الصناعية العظمى الثلاثة: الأرض، الثروات الطبيعية، الأيدي العاملة، قادرة على أن تملك المقوم الرابع – التكنولوجي– وهو الذي ينقصنا في الوقت الحاضر.

ولا يبقى بعد ذلك الا أن تقوم الوحدة الحقيقية ولو بين دولتين اثنتين في البداية، وتكون بذلك البداية لإقامة الدولة العظمى، فإن الوحدة هي الطريق ولا طريق سواه .. والسبب بسيط .

السبب، أن ثروات الأمة العربية، الاستراتيجية والمادية، والبشرية والفكرية منتشرة في الوطن لعربي بأسره، تحكمها وتتحكم فيها عشرون دولة عربية، وكل دولة منها منصرفة إلى شئون قطرها.. وهذا إذا أحسنا الظن بصلاح هذا الحكم القطري أو ذاك.

والوحدة هي السبيل الوحيد لتجميع هذه الثروات والقدرات، وتعبئتها واستخدامها في إطار خطة شاملة تستهدف خير الوطن العربي كله، وخير الأمة العربية كلها ... وهي خيرات وثروات يكمل بعضها بعضاً.. فالغاز الطبيعي في الخليج والجزائر وليبيا، وأراضي السودان وسوريا والمغرب واليمن، والطاقات العلمية والعمالية في مصر، وموانى بيروت والإسكندرية، وقناة السويس ومضيق جبل طارق وباب المندب، والحديد والفوسفات والبوتاس والكبريت في العراق والمغرب ومصر وتونس والسعودية.. كل هذا وغير هذا لا يمكن الانتفاع به

مجزأ منفرداً، وكل قطر يقعد على ما عنده من ثروات، ولكنه يصـــبح نافعاً للوطن العربي كله، ولأقطاره واحدا واحدا، إذا اجتمع في بيت المال العربي، في الدولة العربية الواحدة.

وهنالك اعتبار على جانب من الأهمية القصـــوى، وهو أمن الوطن العربي وسلامة الأمة العربية وسيادتها الكاملة على مصيرها وثرواتها ومقدراتها، ولا ســـبيل للدفاع عن ذلك إلا بالدولة العربية الواحدة .. وهذه الثروات العظمى التي يملكها الوطن العربي لا يمكن الدفاع عنها إلا بإقامة الدولة العظمى، المتمثلة بالدولة الصـــناعية والزراعية والتجارية، فإن قطرا واحدا، أي قطر حتى ولو كان جمهورية مصر العربية لن يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلا عن الوطن العربي بأســره في وجه المطامع الاســتعمارية والصـــهيونية التي تتزايد كل يوم بتزايد ثرواتنا .. وثروة البترول بالذات، لا يمكن أن تصـــبح نعمة كبرى إلا في ظلل الوحدة، وتحت راية دولة الوحدة، وفي ظل التجزئة والانفصـــال يمكن أن ينقلب البترول العربي إلى نقمة بل ولعنة .. حين يتحول إلى قوة تعمق الانفصال وتدافع عن التجزئة وتكافح الوحدة وأنصار الوحدة في الوطن العربي. وكذلك فإن البترول العربي، في ظل التجزئة، يزيد من الإغراء بالعدوان على البترول نفسه في منابعه .. وقد كان يظن أن هذا الخوف هو ضرب من الخيال، ولكن الشـــهور الأخيرة من عام 1974 قد شـــهدت تحركا عســـكريا في منطقة الخليج العربي رافقته تصـــريحات من البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية تهدد باحتلال منابع النفط، اذا وقع كيت وكيت.. وكيت وكيت هذا يصـــفه الاستعمار كما يشاء وحينما يشاء وعلى هواه ..

ثم إن هذه الثروة البترولية لا ينتظر لها أن تعيش طويلاً، فالخبراء مجمعون ان لها عمرا محدودا مكدودا، والدولة العربية الواحدة هي التي تستطيع أن تبني اقتصادا عربيا يسد حاجة الأمة العربية بعد نضوب منابع البترول .. ولا يصح أن تعود الأمة العربية إلى أيام الفاقة، حينما كانت ميزانية العراق السنوية 25 مليون جنيه استر ليني، وميزانية ليبيا أربعة ملايين جنيه نصفها مساعدة من الخزانة البريطانية، وميزانية المملكة العربية السعودية تعتمد على مبلغ خمسة آلاف جنيه ذهب تدفع من الخزانة البريطانية سنوياً لتسديد مرتبات الموظفين الذين يعملون في خدمة الملك عبد العزيز آل سعود!! تلك هي حقائق التاريخ بالوقائع والأرقام.. وليرجع من شاء إلى المراجع !!

إن الأمة العربية تعيش وسط ظاهرتين ضخمتين تفصل بينهما مسافة شاسعة، بعيدة بعد القطب الشمالي عن الجنوبي .. الظاهرة الأولى يتمثل فيها الثراء الفاحش في أيدي قلة قليلة تستثمره في أوروبا وأمريكا، بينما يقابله فقر مدقع، وجهل شامل، وأمراض دائبة ناشبة تنطحن تحت أثقالها، وتنسحق تحت رحاها الجماهير المطحونة المسحوقة.. والظاهرة الثانية: توافر إمكانات التقدم والحضارة والقوة والوحدة، يقابلها واقع التخلف والتجزئة والتفكك.

ولقد شهد الوطن العربي منذ عهد الاستقلال العربي ما يقرب من أربعين ثورة وانقلابا، انحرف معظمها عن أهدافه المعلنة،أو استبعد أغراضه، أو أصابه الإعياء.. وكان أمل الجماهير ورجاؤها أن تتولى تلك الثورات والانقلابات معالجة هاتين الظاهرتين المتناقضتين..

ولقد حققت بعض تلك الثورات بعض الإنجازات الوطنية والقومية ولكن التناقض الكبير بين الظاهرتين إياهما لا يزال قائما، يوجه دعوة صارخة إلى

جماهير الأمة العربية، إلى عمالها وفلاحيها إلى طلابها وشـــبابها إلى طلائعها وقياداتها، أن تثور على الظواهر الرهيبة، ظاهرة الثروة والفقر، وظاهرة التخلف الواقع، والتقدم الكامن، ظاهرة التجزئة القائمة والوحدة الماثلة.. وأخيرا ظاهرة الدول العشرين، والدولة العربية الواحدة ..

إن الواقع العربي القائم بظواهره المتناقضة، هو ما خطط له الاستعمار، وخطط له ليبقى في الوطن العربي حتى بعد جلاء الاســتعمار، والشــواهد على ذلك أكثر من أن تحصـــى، ولكن شـــاهدا واحدا بالغ الدلالة والحيرة، أريد أن أضعه أمام المواطن العربي في ختام هذا الفصل وفي ختام هذا الكتاب..

هذا الشــاهد الواحد كشــفت عنه وثيقة ســرية كان قد وضــعها لورنس صــاحب الســيرة الأســطورية في تحالف العرب مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وأصـــبح يعرف بســـببها "ملك العرب غير المتوج" فقد كتب في كانون الثاني من عام 1916 يقول "إن الثورة العربية ســـتكون مفيدة لبريطانيا لأنها تتمشـــى مع أهدافنا الحالية، في تحطيم الكتلة الإســـلامية والتغلب على الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها، أما الدول التي ســتخلف الأتراك فســتكون غير ضـــارة لنا. وإن العرب إذا أحســنت معاملتهم ظلوا في حالة تمزق ســياســي.. ولايات صغيرة عاجزة عن الاتحاد.."

تلك كانت خطة الســـياســـة الاســـتعمارية البريطانية، يومئذ، أن يبقى العرب في حالة تفرق سياسي، وأن يكونوا دويلات صغيرة عاجزة عن الاتحاد... وقد انقضـى على كلام لورنس صـديق العرب سـتون عاما ليشـهد الجيل العربي المعاصر أن الاستعمار قد خطط وأن خططه ما تزال باقية بعد أن حمل عصاه

وارتحل عن الوطن العربي.. وان الذي يحمل أمانة هذه الخطة الاســـتعمارية وينفذها هو الحكم العربي المعاصر، إنها أمانة استعمارية ولكنها خيانة عربية.

ولقد آن الأوان لتضــع الأمة العربية حدا لهذه الخطة الاسـتعمارية، وأن تضـــع حداً للذين يقومون على تنفيذها بوعي أو من غير وعي.. ولا مناص إلا بـإقامـة الدولـة العربيـة الواحدة، ففيهما الخلاص كل الخلاص. من الشـــرور الأربعة، الفقر، والمرض، والجهل، ومن إسرائيل أولاً لا أخيراً.

وهذه الدولـة العظمى التي تنتظرنـا على الأبواب وتتوافر كل مقوماتها هي ملك أيدينا، لا ينقصــها إلا أن تتشــابك أيدينا ونســير معاً في موكب الثورة الأم، الثورة الكبرى لتحقيق الدولة العربية العظمى.

فيا شباب مصر، يا طلابها، يا عمالها، يا فلاحيها، ويا طلائعها الفكرية والوطنية، إنكم تملكون أن تجعلوا من القاهرة عاصـــمة الدولة العظمى.. الدولة العربية المتحدة.

ويا شـــباب العرب، وطلاب العرب، وعمال العرب، وفلاحي العرب ويا طلائع العرب الفكريـة والقوميـة، إنكم تملكون أن تبنوا الـدولـة العربيـة العظمى، دولة كل العرب.

هيا إلى النضـــال .. فإن الوحدة نضـــال وأن جيلاً من العرق والدموع والدماء .. يصون كل أجيال الأمة العربية من العرق والدموع والدماء .

ليس هذا فحســـب بل إنه يضـــع الأمة العربية كل الأمة العربية أمام مستقبل سعيد، وعيش رغيد، في ظل دولة واحدة تصون السيادة العربية، وتكفل الأمن والطمأنينة للأمـة العربيـة، وتهيئها لأداء دورها التـاريخي في بنـاء عـالم

يســوده الأمن والســلم، والكرامة والحرية، على أســاس ممكن من الحق والعدل والأخوة والإنسانية.

هذا هو الهدف الأعظم الأكرم للأمة العربية جمعاء.

وأرجو أن يكون هذا الكتاب حبة رمل في هذا الهرم الأكبر.

الملاحق

الملحق رقم (1)

المساحة والسكان في الدول العربية تقديرات الأمم المتحدة

الدولـة	المساحة كم2	السكان (منتصف 71)
الجزائر	3.381.741	14.769.000
العراق	434.924	9.750.000
الأردن	97.740	3.383.000
الكويت	16.000	831.000
لبنان	10.400	2.010.000
ليبيا	1.759.540	2.873.000
موريتانيا	1.030.700	1.200.000
المغرب	445.050	15.234.000
السعودية	2.149.690	7.965.000
الصومال	637.657	2.864.000
اليمن الديمقراطية	287.683	1.475.000
السودان	2.505.813	16.087.000
سورية	185.180	6.451.000
تونس	164.150	5.137.000(عام 70)

مصر	1.001.449	34.130.000
اليمن	195.000	5.900.000
البحرين	662	220.000
عمان	212.380	750.000
قطر	1.400	160.000
الإمارات العربية	83.657	197.000
المجموع	13.610.816	130.384.000

ملاحظة: هذه الإحصاءات السكانية هي في منتصف عام 1971

الملحق رقم (2)

بيان إعلان الجمهورية العربية المتحدة

في جلسة تاريخية عقدت في قصر القبة في القاهرة في 13 من رجب سنة 1377هـ الموافق أول فبراير سنة 1958 اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر، بممثلي جمهوريتي سوريا ومصر السادة: صبري العسلي، عبد اللطيف البغدادي، خالد العظم ، زكريا محي الدين ، حامد الخواجة، أنور السادات ، فاخر الكيالي، مأمون الكزبري، حسين الشافعي، أسعد هارون، الفريق عبد الحكيم عامر، صلاح الدين البيطار، كمال الدين حسين، خليل الكلاس، نور الدين طراف، صلاح عقيل، فتحي رضوان، واللواء عفيف البزري، محمود فوزي، كمال رمزي استينو، علي صبري،عبد الرحمن العظم، محمود رياض .

وكانت غاية هذا الاجتماع أن يتداولوا في الإجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربي ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين، من أن شعب كل منهما جزء من الأمة العربية، لذلك تذاكروا ما قرره كل من مجلس الأمة

المصري، ومجلس النواب السوري من الموافقة الإجماعية، على قيام الوحدة بين البلدين: خطوة نحو تحقيق الوحدة العربية الشـــاملة، كما تذاكروا ما توالى في الســـنين الأخيرة من الدلائل القاطعة على أن القومية العربية كانت روحا لتاريخ طويل، ســاد العرب في مختلف أقطارهم ولحاضــر مشــترك بينهم .. ومســتقبل مأمول من كل فرد من أفرادهم، وانتهوا إلى هذه الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية، وهي طريق العرب إلى الحرية والســـيادة وســـبيل الإنســـانية للتعاون والســـلام، لذلك فإن واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأماني إلى حيز التنفيذ في عزم ثابت وإصرار قوي ..

ثم خلص المجتمعون، من هذا كله إلى أن عناصـــر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية، وأسباب نجاحهما قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشـترك زاد معنى القومية وضـوحا وأكد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة وتعاون.

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام، وايمانهم الكامل، وثقتهم العميقة في وجوب توحيد سوريا ومصر في دولة واحدة اسمها "الجمهورية العربية المتحدة".

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعي على أن يكون نظام الحكم في الجمهورية العربية ديمقراطيا رئاســيا يتولى فيه الســلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسـئولين أمامه، كما يتولى السـلطة التشـريعية مجلس تشـريعي واحد ويكون لهذه الجمهورية علم واحد يظل شـعباً واحداً في وحدة يتسـاوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات،ويدعون جميعا لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح ويتســابقون لتثبيت وتأكيد منعتها.. وســيقدم كل من فخامة الرئيســين شــكري القوتلي وجمال عبد الناصـر ببيان إلى الشـعب يلقى أمام مجلس النواب السـوري

ومجلس الأمة المصري في يوم الأربعاء 16 من رجب سنة 1377هـ الموافق 5 من فبراير 1958 يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان أسس الوحدة التي تقوم عليها دولة العرب الفتية، كما سيدعى الشعب في مصر وسوريا إلى استفتاء خلال ثلاثين يوما على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية، والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة وأجمل ألوان الفخر إذ شاركوا في الخطوة الإيجابية في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل، والمجتمعون إذ يبررون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معهما في وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها.

والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة وبفضل عنايته السابغة وأن يكتب للعرب في ظل الوحدة العزة والسلام.

القاهرة في 12 من رجب 1377 هـ الموافق أول فبراير 1958 ميلادية.

الملحق رقم (3)

الباب التاسع
الوحدة العربية

إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة في صنع التقدم وفي دعمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية كلها.

إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها.

لقد جاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته.

يكفي أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل .

ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان.

ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير.

إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية، ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية.

إن مجرد وجود هذه الخلافات هو في حد ذاته دليل على قيام الوحدة.

إن هذه الخلافات تنبع من الصـــراع الاجتماعي في الواقع العربي .. واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية في كل مكان من العالم العربي والتجمع الذي تقوم به العناصـــر الرجعية والانتهازية في العالم العربي، هو الدليل على وحدة التيارات الاجتماعية التي تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسقها عبر الحدود المصطنعة

إن التقاء القوى التقدمية الشـــعبية على الأمل الواحد في كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة في كل مكان من الأرض العربية، هو في حد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة.

إن مفهوم الوحدة العربية قد جاوز النطق الذي كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات.

إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم الســـطحي للوحدة العربية ودفعت به خطوة إلى مرحلة أصـــبحت فيها وحدة الهدف هي صـــورة الوحدة.

إن وحدة الهدف حقيقة قائمة عند القواعد الشـــعبية في الأمة العربية كلها.

و اختلاف الأهداف عند الفئات الحاكمة هو صـورة من صـور التطور الحتمي الثوري واختلاف مراحله بين الشعوب العربية.

لكن وحدة الهدف عند القواعد الشعبية هي التي ستتكفل بسد الفجوات الناشئة من اختلاف مراحل التطور.

إن وحدة الأمة العربية قد وصلت في صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية.

ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب، ولا أساليب الانتهازية الفردية ولا أساليب الرجعية المتحكمة ، على شيء إلا على دلالتها بأن النظام القديم في العالم العربي يعاني جنون اليأس وأنه يفقد أعصابه تدريجياً وهو يسمع من بعيد في قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها.

إن وحدة الهدف لا بد أن تكون شعار الوحدة العربية في تقدمها من مرحلة الثورة السياسية إلى الثورة الاجتماعية.

ولا بد أن ينبذ الشعار الذي جرت تحته مرحلة سابقة من النضال الوطني، هي مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار.

ان الاستعمار الان غير مكانه ولم يعد قادرا على مواجهة الشعوب مباشرة، وكان مخبؤه الطبيعي بحكم الظروف داخل قصور الرجعية .

إن الاستعمار نفسه، دون أن يدري ساهم في تقريب يوم الثورة الاجتماعية، وذلك حين توارى بمطامعه وراء العناصر المستغلة يوجهها ويحركها.

وليس من شك أن الثورات الأصيلة تستفيد من حركات خصومها في مواجهتها وتكتسب منها قوة دافعة.

إن الاستعمار كشف نفسه وكذلك فعلت الرجعية بتهالكها على التعاون معه، وأصبح محتما على الشعوب ضربهما معا، تأكيدا لانتصار الثورة السياسية

في بقية أجزاء الوطن العربي ودعماً لحق الإنســـان العربي في حياة اجتماعية أفضل لم يعد قادراً على صنعها بغير الطريق الثوري.

والعمل العربي في هذه المرحة يحتاج إلى كل خبرة الأمة العربية مع تاريخها الطويل المجيد، ويحتاج إلى حكمتها العميقة بقدر حاجته إلى ثوريتها وإرادتها على التغيير الحاسم.

إن الوحدة لا يمكن بل ولا ينبغي أن تكون فرضـــا، فإن الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفاً مع غاياتها، ومن ثم فإن القسر بأي وسيلة من الوسائل عمل مضاد للوحدة .

إنـه ليس عملاً غير أخلاقي فحســـب، وإنما هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل شـــعب من الشـــعوب العربية ومن ثم بالتالي فهو على وحدة الأمة العربية في تطورها الشامل.

وليســت الوحدة العربية صــورة دســتورية واحدة لا مناص من تطبيقها، لكن الوحدة العربية طريق طويل قد تتعدد عليه الأشــكال والمراحل وصــولاً إلى الهدف الأخير.

إن أي حكومة وطنية في العالم العربي، تمثل إرادة شـعبها ونضـاله في إطار من الاســـتقلال الوطني، هي خطوة نحو الوحدة من حيث أنها ترفع كل سبب للتناقض بينها وبين الآمال النهائية في الوحدة .

إن أي وحدة جزئية في العالم العربي تمثل إرادة شـــعبين أو أكثر من شـعوب الأمة العربية هي خطوة وحدوية متقدمة، تقرب من يوم الوحدة الشـاملة، وتمهد لها وتمد جذورها في أعماق الأرض العربية.

إن مثل هذه الظروف تمهد الطريق للدعوة إلى الوحدة الشاملة.

وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة ترى في رســـالتها العمل من أجل الوحدة الشاملة، فإن الوصول إلى هذا الهدف يساعد عليه وضوح الوسائل التي لا بد من تحديدها تحديداً قاطعا وملزما في هذه المرحلة من النضال العربي.

إن الدعوة السلمية هي المقدمة والتطبيق العلمي لكل ما تتضمنه الدعوة من مفاهيم تقدمية للوحدة هو الخطوة الثانية للوصول إلى نتيجة محققة..

إن اســـتعجال مراحل التطور نحو الوحدة يترك في خلفه– كما أثبتت التجارب – فجوات اقتصـادية واجتماعية تسـتغلها العناصـر المعادية للوحدة كي تطعنها من الخلف. إن تطور العمل الوحدوي نحو هدفه النهائي الشـــامل يجب أن تصـــحبه بكل وســـيلة جهود عملية لملء الفجوات الاقتصـــادية والاجتماعية الناجمة من اختلاف مراحل التطور بين شـــعوب الأمة العربية،هذا الاختلاف الذي فرضته قوى العزلة الرجعية والاستعمارية.

إن جهودا عظيمة وواعية يجب أن تتجه أيضـــا إلى فتح الطريق أمام التيارات الفكرية الجديدة حتى تســـتطيع أن تحدث أثرها في محاولات التمزيق، وتتغلب على بقايا التشـــتت الفكري الذي أحدثه ضـــغط الظروف في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وما تركته دسائسه ومناوراته من رواسب تحجب الرؤية الصافية في بعض الظروف .

والجمهورية العربية المتحدة وهي تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية لا بد لها أن تنقل دعوتها والمبادئ التي تتضـمنها لتكون تحت تصـرف كل مواطن عربي، ولا ينبغي الوقوف لحظة أمام الحجة البالية القديمة التي قد تعتبر ذلك تدخلا منها في شئون غيرها.

وفي هذا المجال، فإن الجمهورية العربية المتحدة لا بد لها أن تحرص على أن لا تصبح طرفا في المنازعات الحزبية المحلية في أي بلد عربي .. إن ذلك أمر يضع دعوة الوحدة ومبادئها في أقل من مكانها الصحيح.

وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تشعر أن واجبها المؤكد يحتم عليها مساندة كل حركة شعبية وطنية فإن هذه المساندة يجب أن تظل في إطار المبادئ الأساسية تاركة مناورات الصراع ذاته للعناصر المحلية تجمع له الطاقات الوطنية وتدفعه إلى أهدافه وفق التطور المحلي وإمكانياته.

كذلك فإن الجمهورية العربية المتحدة مطالبة بأن تفتح مجال التعاون بين جميع الحركات الوطنية التقدمية في العالم العربي.

إنها مطالبة بأن تتفاعل معها فكريا من أجل التجربة المشتركة لكنها في نفس الوقت لا تستطيع أن تفرض عليها صبغة محددة لصنع التقدم.

إن قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية في العالم العربي أمر سوف يفرض نفسه على المراحل القادمة من النضال .

إن ذلك لا يؤثر – ولا ينبغي له أن يؤثر– على قيام جامعة الدول العربية، وإذا كانت الجامعة العربية غير قادرة على أن تحمل الشوط العربي إلى غايته العظيمة البعيدة فإنها تقدر على السير به خطوات .

إن الشعوب تريد أملها كاملا .. والجامعة العربية– بحكم كونها جامعة للحكومات – لا تقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن .

إن الممكن خطوة في طريق المطلوب الشامل. إن تحقيق الجزء مساهمة في تقريب يوم الكل.

لهذا فإن الجامعة العربية تســتحق كل التأييد على ما يبذله من طاقاتها العملية التي تحدها ظروف قيامها وطبيعتها..

إن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربي في المرحلة الحاضـــرة، لكنها في نفس الوقت تحت أي ســـتار وفي مواجهة أي ادعاء لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به

30/ يونيو 1962

ملحق رقم (4)

بناء الدولة الاتحادية واختصاصاتها

وقد تم بعون الله وتوفيقه الاتفاق على المبادئ الرئيسية التالية:

1- أن تقوم دولة اتحادية باسم " الجمهورية العربية المتحدة" على أساس الاتحاد الحر بين كل من مصر وسورية والعراق وتكون أسماء الأعضاء بالدولة الاتحادية القطر المصري والقطر السوري والقطر العراقي.

2- أن يكون لكل جمهورية عربية مستقلة تؤمن بمبادئ الحرية والاشتراكية والوحدة الحق في أن تنضم إلى هذه الدولة بإرادة شعبية حرة ويتم الانضمام بعد موافقة السلطة الدستورية في الدولة الاتحادية.

3- أن تكون السيادة الدولية المكتملة للدولة الاتحادية.

4- أن يكون لمواطني الدولة الاتحادية جنسية واحدة هي الجنسية العربية، يتمتع بها كل من يتمتع وقت قيام الدولة بجنسية الأقطار الأعضاء وتنظم أحكامها بقانون اتحادي.

5- أن تكون السيادة في الدولة الاتحادية للشعب يمارسها طبقا للدستور .

6- أن يكون الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية.

7- أن يكون علم الدولة، علم الجمهورية العربية الحالي، وفيه ثلاث نجوم بدلا من نجمتين وتزاد نجمة كلما انضمت دولة إلى الدولة الاتحادية.

8- أن تكون عاصمة الدولة القاهرة.

9- أن تختص سلطات الدولة الاتحادية بالشؤون الآتية:

- السياسة الخارجية بكل جوانبها بما فيها التمثيل الخارجي والمعاهدات مع الدول والهيئات الدولية على أن تنظم القوانين الاتحادية بقاء بعض الشؤون التجارية والثقافية بصفة مؤقتة تتولاها سلطات الأقطار.

- الدفاع والأمن القومي باعتبار القوات المسلحة بالدولة الاتحادية جزءاً من الشعب وولاؤها للشعب ولا تأتمر إلا بأوامره عن طريق السلطات الدستورية المختصة على النطاق القومي الاتحادي ويدخل في شؤون الدفاع والأمن القومي موضوعات الحرب والسلم وإعداد القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية وتدريبها واستخدامها ومجلس الدفاع والقيادة العامة للقوات المسلحة والقيادات العسكرية بالأقطار على أن يوكل أمرها خلال الفترة المناسبة لكل قطر أثناء فترة الانتقال حسبما يجري عليه الاتفاق، وكذلك الموضوعات المتعلقة بالصناعات الحربية ومؤسسات الأمن القومي وحالات إعلان الطوارئ والأحكام العرفية

والحالات الخاصـــة التي تمنح فيها الســلطات المحلية للأقطار حق اســتخدام القوات المسلحة بتفويض من سلطات الاتحاد.

– المالية والخزانة: وتتناول الضرائب الاتحادية ، وميزانية الاتحاد، وإصدار أذونات الخزانة أو السندات الاتحادية لتمويل المشروعات الاتحادية ، والقروض الخارجية والداخلية وكذلك القوانين والسـياسـة الجمركية مسـتهدفة تكوين وحدة جمركية وسوق عربية مشتركة تتطور إلى سوق عربية موحدة.

– الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي والتنمية : وتتناول التخطيط الاقتصادي في شؤون الصناعة والزراعة والتجارة والمواصلات والتنسيق بين خطط التنمية في الأقطار ورسم السياسة الاقتصادية والتبادل التجاري، والشؤون المصرفية وتنظيم العلاقات بالمؤسسات الاقتصادية الدولية وشؤون العملة وتنظيم استغلال مصادر الثروات الطبيعية.

– الإعلام والثقافة: وتتناول إنشـاء جهاز اتحادي مركزي يقوم على تخطيط الشـــؤون الإعلامية في أقطار الاتحاد، على أن يكون التنفيذ الإعلامي اتحاديا في بعضه وقطريا في بعضه الآخر.

– وإنشاء مجلس أو مجالس عليا تعمل على تخطيط ورسم السياسة العامة للتربية والتعليم والبحث العلمي والثقافة والفنون في الاتحاد بما يضـــمن وحدة الفكر والاتجاه القومي العربي الوحدوي والإعداد الروحي والعلمي والأخلاقي للأجيال الصاعدة.

– العدل وتنسيق القوانين: وتتناول وضع أسس موحدة للعدالة في أقطار دولة الاتحاد وتضـــمين القوانين(مثل قوانين العقوبات والقانون المدني والقانون التجاري وقانون الإجراءات وقوانين العمل والتأمينات الاجتماعية .. الخ)

المبادئ الأساسية والتنسيق بينها بغية الوصول إلى توحيدها على مراحل، هذا إلى جانب القضاء الاتحادي.

– المواصلات الاتحادية: وتتناول تنظيم شؤون المواصلات الاتحادية والمشتركة البرية والبحرية والجوية والبريد والبرق والهاتف واللاسلكي والأرصاد على المستوى الاتحادي.

– الشؤون الأخرى: وتتناول المشروعات المشتركة بين الأقطار، والسلطات الاستثنائية أثناء الحرب والطوارئ، والفصل بين الأقطار من خلاف، وتشكيل المجالس المشتركة لأنواع الخدمات المختلفة في حدود التشريعات الاتحادية على أن تلتزم الأقطار بتنفيذ القوانين والقرارات الاتحادية في كل ما يتعلق هذه الشؤون.

10– تختص الأقطار بجميع السلطات التي لا تدخل في اختصاص الدولة الاتحادية، ويمكن تفويض الأقطار بقانون اتحادي في ممارسة بعض اختصاصات السلطات الاتحادية لأجل معين وفي هذه الحالة يكون لسلطات الاتحاد الإشراف على السلطات في الأقطار عند مباشرة هذه الاختصاصات.

كما يمكن الاتفاق على أن يوكل إلى هذه السلطات أمر تنفيذ بعض القوانين الاتحادية .

المؤسسات الدستورية للدولة الاتحادية:

كما تم الاتفاق على أن تكون مؤسسات الدولة الاتحادية والعلاقات بينها وفقا لما يلي : –(ولما هو وارد بالملحق ب المرفق بهذا الإعلان).

أولاً – مجلس الأمة:

1– هو أعلى هيئة لسلطة الدولة في الجمهورية العربية المتحدة .

2- هو الهيئة التي تمارس السلطة التشريعية.

3- يتكون مجلس الأمة من مجلسين:

أ- مجلس النواب : ويتكون من عدد من الأعضاء بنسبة عدد السكان في كل قطر، وينتخب انتخاباً حرا مباشرا بالاقتراع السري العام، ومدة العضوية فيه 4 سنوات.

ب- مجلس الاتحاد : ويتكون من عدد متساو من الأعضاء من كل قطر وينتخب انتخابا حرا مباشرا أو بالاقتراع السري العام ومدة العضوية فيه 4 سنوات.

ويكون عدد أعضائه ربع عدد أعضاء مجلس النواب على الأقل أو ثلث عدده على الأكثر.

4- ينتخب مجلس الأمة رئيس الجمهورية ونواب الرئيس(بالطريقة التي يحددها الدستور).

5- يناقش كل من المجلس المسائل الأساسية الخاصة بسياسة الدولة الداخلية والخارجية وخطط التنمية ، ويتخذ القرارات بشأنها .

6- لرئيس الجمهورية ولكل من أعضاء المجلسين حق اقتراع القوانين (ويبين الدستور الإجراءات والنسب الخاصة بذلك).

7- لا يصدر قانون إلا إذا أقره كل من المجلسين وإذا اختلف الرأي بين المجلسين بالنسبة لقانون يعرض على لجنة توفيق مكونة من عدد متساو من المجلسين.

8- يصدر رئيس الجمهورية القوانين بعد إقرارها من المجلسين وله أن يرد القانون خلال مدة يحددها الدستور إلى كل من المجلسين فإذا أقر منهما بأغلبية ثلاثة أرباع الأعضاء لكل، اعتبر قانونا وأصدر.

9- لكل عضو من المجلسين أن يوجه إلى رئيس الوزراء وإلى الوزراء أسئلة واستجوابات (وينظم الدستور والقانون الاتحادي طريقة ذلك).

10- مجلس الوزراء مسئول مسئولية تامة أمام مجلس الأمة ويكون منح الثقة أو سحبها بالأغلبية المطلقة لمجموع أعضاء مجلس الأمة.

11- يكون حل أي من المجلسين أو كليهما بقرار من رئيس الجمهورية .

12- يختص مجلس الأمة بنظر طلبات انضمام كل دولة جديدة إلى الاتحاد وتكون الموافقة عليه بأغلبية ثلاثة أرباع كل مجلس على حدة.

13- يتم تعديل الدستور الاتحادي بأغلبية ثلاثة أرباع كل مجلس على حدة.

14- دساتير الأقطار يجب أن لا تتعارض مع دستور الاتحاد ويتفق عليها قبل عرض دستور الاتحاد على الاستفتاء.

15- يكون تعديل دستور القطر بواسطة المجلس التشريعي بالقطر بالطريقة التي يحددها الدستور ولا تصبح هذه التعديلات نافذة إلا إذا أقرتها المجالس الاتحادية بأغلبية ثلاثة أرباع كل مجلس على حدة .

ثانياً : رئيس الجمهورية:

1- رئيس الدولة هو رئيس الجمهورية الذي ينتخبه مجلس الأمة ليمثل سلطة الدولة.

2- كل مواطن في الدولة تتوافر فيه الشروط لانتخابه عضوا في مجلس الأمة يجوز انتخابه رئيسا للجمهورية ، ويعلن انتخاب المرشح إذا حصل على ثلثي أصوات جميع أعضاء مجلس الأمة فإذا لم يحصل على هذه الأصوات يعاد الانتخاب ويعلن انتخاب المرشح إذا حصل على الأغلبية المطلقة لمجموع عدد أعضاء مجلس الأمة، وينظم الدستور باقي الأحكام الخاصة بالانتخاب.

3- مدة الرئاسة 4 سنوات وإذا انتهت المدة في فترة تجديد مجلس الأمة يستمر الرئيس في ممارسة سلطاته حتى يتم تجديد مجلس الأمة واختيار الرئيس الجديد.

4- الرئيس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ويرأس مجلس الدفاع القومي.

5- يحدد الدستور اختصاصات رئيس الجمهورية ولكنه على وجه الخصوص:-

أ- يمثل الدولة.

ب- يصدر القوانين.

ج- يقترح القوانين .

د- يعترض على القوانين.

هـ- يعين رئيس الوزراء والوزراء الذين يجب أن يحوزوا ثقة مجلس الأمة ويقبل استقالتهم.

و- يعين الضباط ويعزلهم ويرقي قواد القوات المسلحة.

ز- يعين قضاة المحكمة الاتحادية العليا.

ح- يعين كبار موظفي الاتحاد في الحالات التي ينص عليها القانون

نواب الرئيس:

1- ينتخب 3 نواب للرئيس واحد عن كل قطر بنفس الطريقة التي ينتخب بها رئيس الجمهورية وفي نفس الوقت.

2- يعاون نواب الرئيس الرئيس في أعماله، وله أن ينيبهم عنه أو يفوضهم بعض اختصاصاته ويستشيرهم في الأعمال الموكولة إليه.

3- ينظم الدستور باقي الأحكام الخاصة بنواب الرئيس

مجلس الوزراء:

1- يتكون مجلس الوزراء من رئيس مجلس الوزراء والوزراء.

2- مجلس الوزراء والوزراء مسؤولون عن أعمالهم أمام مجلس الأمة.

3- يتولى رئيس الوزراء والوزراء مناصبهم ما داموا محل ثقة الرئيس .

4- يتولى مجلس الوزراء الاتحادي تنظيم وتنفيذ مهام الدولة الاتحادية ويصدر القرارات اللازمة لذلك(حسب الدستور والقوانين الاتحادية).

5- تقدم الوزارة بعد تعيينها برنامجا إلى مجلس الأمة للموافقة عليه.

6- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية الأحكام الخاصة بمجلس الوزراء والوزارات ومؤسسات الحكومة الأخرى المختلفة.

7- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية الأحكام الخاصة بالوزراء.

ثالثاً: السلطات القضائية:

1- تكون للاتحاد محكمة عليا تسمى المحكمة الاتحادية العليا تنشأ بمقتضى أحكام الدستور بقانون اتحادي .

2- يختار مجلس الأمة أعضاء المحكمة الاتحادية العليا بناء على ترشيح رئيس الجمهورية من بين رجال القضاء والقانون.

3- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية اختصاصات المحكمة الاتحادية العليا وتوفير الحصانة الخاصة بأعضاء المحكمة ومدة تعيينهم وحالات إعفائهم، كما تم الاتفاق على أن تكون الأجهزة في الأقطار:

أولاً: رئيس القطر :

1- ينتخبه المجلس التشريعي للقطرة لمدة 4سنوات ويوافق عليه رئيس الجمهورية.

2- يتولى الاختصاصات التي يحددها الدستور ودساتير الأقطار.

3- يعين وزارة القطر ويقبل استقالتها.

ثانياً: المجلس التشريعي للقطر:

1- يكون لكل قطر مجلس تشريعي منتخب انتخابا حرا مباشرا وسريا

2- يحدد الدستور اختصاصات المجلس التشريعي

3- يصدر المجلس التشريعي بالقطر التشريعات الخاصة بالقطر.

4- يعدل دستور القطر بالطريقة التي يحددها الدستور، ولا تصبح هذه التعديلات نافذة إلا بعد إقرارها بالأغلبية الخاصة لكل من مجلس النواب ومجلس الاتحاد.

5- يناقش الوزراء والوزراء ويسأل ويستجوب الوزراء بالقطر ويسحب الثقة بالطريقة التي يحددها الدستور.

ثالثاً: وزارة القطر:

1- تكون لكل قطر وزارة مكونة من رئيس وزراء ووزراء.

2-وزارة القطر مسؤولة أمام المجلس التشريعي بالقطر ويجب أن تحوز ثقته.

3- ينظم الدستور حالات سحب الثقة من الوزارة.

4-يبين الدستور والقوانين اختصاصات الوزارات وطريقة عملها والأحكام الخاصة بالوزارة

رابعاً: القضاء بالقطر:

ينظم دستور القطر القضاء بالقطر ويضمن له استقلاله وحصانته وقد اتفق على أن تتبع في مرحلة الانتقال الأحكام الانتقالية التالية:

- في دولة الاتحاد:

1- يستفتى على دستور الاتحاد وعلى الاتحاد وعلى رئيس الجمهورية في مدة أقصاها خمسة أشهر من تاريخ إعلان هذا البيان.

2- تعتبر دولة الاتحاد (الجمهورية العربية المتحدة) قائمة دستورياً عند إعلان نتائج الاستفتاء.

3- تستكمل المؤسسات الدستورية الاتحادية جميع عناصرها التي نص عليها الدستور في مدة أقصاها 20 شهراً من تاريخ إعلان الاستفتاء وتنتهي بذلك فترة الانتقال.

4- لكل قطر أن يقيم قبل هذا الموعد ما يراه من المؤسسات الدستورية الخاصة به تمهيداً لقيام المؤسسات الاتحادية بشكل كامل خلال فترة الانتقال، وينظم بتشريع اتحادي دستورية مؤسسات الأقطار التي تقوم خلال هذه المدة .

5- تتفق الدول الأعضاء على برنامج استكمال توحيد المؤسسات الاتحادية العسكرية أو الخارجية أو التشريعية أو الاقتصادية أو الثقافية. الخ حتى يمكن أن ينص على هذا البرنامج في مادة انتقالية من مواد الدستور.

6- يتولى جميع السلطات التشريعية والتنفيذية في دولة الاتحاد خلال فترة الانتقال مجلس رئاسة يرأسه رئيس الجمهورية ويكون نواب الرئيس أعضاء فيه.

7- تشكيل مجلس الرئاسة : يشكل مجلس الرئاسة من عدد متساو من الأعضاء من كل قطر من الأقطار.

8- يختار أعضاء مجلس الرئاسة بمعرفة الجهات التي لها السلطة التشريعية في الدول الأعضاء عند قيام الاتحاد.

9- يعين رئيس الجمهورية رئيس الوزراء والوزراء ويعفيهم من مناصبهم.

10-تكون قرارات المجلس بأغلبية أعضائه.

11-لرئيس الجمهورية حق الاعتراض على أي قرار أو قانون يصدره مجلس الرئاسة

12-يختص مجلس الرئاسة بالآتي:

أ- تعيين نواب رئيس الجمهورية (نائباً من كل قطر) وذلك بالاتفاق مع الجهة التي لها سلطة التشريع في القطر أثناء فترة الانتقال.

ب- يعين رئيس لكل قطر بالاتفاق مع الجهة التي لها سلطة التشريع في القطر أثناء فترة الانتقال.

ج- تعيين مجلس الدفاع القومي ومتابعة أعماله.

د- رسم السياسة العامة للدولة وتخطيطها وتكليف الوزارة بتنفيذها.

هـ- تنسيق المصالح العامة بين الأقاليم.

و- تعيين المجالس العليا التي جاء ذكرها في المبادئ العامة.

13- الوزارة الاتحادية- تشكل من :

أ- رئيس الوزراء

ب- وزارة الخارجية

ج- وزارة الدفاع.

د- وزارة الإعلام والإرشاد القومي والثقافة.

هـ- وزارة التربية والتعليم والتعليم العالي والبحث العلمي

و- وزارة الخزانة والمالية

ز- وزارة الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي (وتضاف إليها أعمال المواصلات)

ح- وزارة العدل

ط- وزارة الدولة

14- يجوز بقانون اتحادي إنشاء وزارات أخرى.

15- ما يجوز عمل اجتماعات مشتركة للوزارة الاتحادية مع مجلس الرئاسة.

- كما اتفق على اتباع الأحكام التالية:-

1- تبقى كل التشريعات المعمول بها في أي قطر سارية المفعول فيه إلى أن يتم تعديلها أو إلغاؤها من السلطة الدستورية المختصة.

2- المعاهدات والاتفاقات التي سبق أن أبرمتها حكومة أي قطر تبقى سارية المفعول في نطاق القطر الذي أبرمها.

3- تبقى كل المؤسسات والمصالح الحكومية الحالية قائمة على عملها وفق اللوائح والنظم الموجودة الآن إلى أن يتم عمل أنظمة جديدة.

4- إلى أن يتم الاستفتاء على الدستور الاتحادي تقوم الدول الأعضاء بتكوين اللجان والهيئات آلاتية حتى يكون تكوينها وبدؤها في العمل سبيلا للتمهيد وللقيام الصحيح للمؤسسات الاتحادية ضمن قيام الوحدة:

أ- قيادة عسكرية موحدة.

ب- لجنة للشئون الخارجية ..

ج- لجنة التنسيق الاقتصادي والسوق العربية المشتركة.

د- أي لجان أخرى.

وقد أرفق بهذا الإعلان ملحق في شأن المؤسسات الدستورية وبناء الدولة الاتحادية والعلاقات فيما بينها وتعتبر مكملا لهذا الإعلان وجزءاً لا يتجزأ منه.

صدر في القاهرة في يوم الأربعاء 23 من ذي القعدة 1382هـ الموافق 17 من ابريل نيسان 1963م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسات الدولة الاتحادية والعلاقات بينها

أولاً: مجلس الأمة

1- هو أعلى هيئة لسلطة الدولة في الجمهورية العربية المتحدة.

2- هو الهيئة التي تمارس السلطة التشريعية.

3- يتكون مجلس الأمة من مجلسين:

أ- مجلس النواب: ويتكون من عدد من الأعضـــاء بنســـبة عدد الســـكان في كل قطر وينتخب انتخابا حرا مباشـــراً وبالاقتراع السري العام، ومدة العضوية فيه 4 سنوات.

ب- مجلس الاتحاد: ويتكون من عدد متســاو من الأعضــاء من كل قطر، وينتخب انتخاباً حرا مباشرا بالاقتراع السري العام، ومدة العضوية فيه 4 سنوات.

ويكون عدد أعضــائه ربع عدد أعضــاء مجلس النواب على الإطلاق وثلث عدده على الأكثر.

4- شروط العضوية في المجالس، وحالات خلو المكان والإجراءات الداخلية في هذه المجالس تحدد في الدستور والقوانين الاتحادية.

5- لا يجوز الجمع بين عضوية مجلس النواب أو مجلس الاتحاد أو المجالس التشريعية في الأقطار.

6- لا يؤاخذ أعضاء المجالس عما يبدون من الأفكار والآراء عند أدائهم لأعمالهم النيابية وينص الدستور على الحصانات الخاصة بأعضاء المجالس.

7 - مكان انعقاد المجالس الاتحادية، عاصـــمة دولة الاتحاد ويجوز جعل مكان انعقادها في جهة أخرى بقانون اتحادي كما يجوز عند الضـــرورة دعوتها للانعقاد في أية جهة أخرى بمرسوم اتحادي.

واجتماع المجالس في غير المكان القانوني لا يكون شرعياً، وتعتبر قراراته باطلة حكماً

8- دورات انعقاد المجالس تحدد في الدستور وتكون الدعوة للدورة من رئيس الجمهورية وإذا لم تدع تجتمع بحكم الدستور في اليوم المحدد.

9- يجوز أن ينعقد أي مجلس في دورة غير عادية ، بناء على طلب رئيس الجمهورية أو بناء على طلب ربع الأعضاء ويعلن رئيس الجمهورية في الاجتماع غير العادي.

10- يجتمع مجلس الأمة في الأحوال التي ينص عليها الدستور.

11- يناقش كل من المجلسين المسائل الأساسية الخاصة بسياسة الدولة الداخلية والخارجية وخطط التنمية وتتخذ القرارات بشأنها.

12- لرئيس الجمهورية ولكل من أعضاء المجلسين حق اقتراح القوانين، ويبين الدستور الإجراءات والنسب الخاصة بذلك.

13- لا يصدر قانون إلا إذا أقره كل من المجلسين وإذا اختلف الرأي بين المجلسـين بالنسـبة لقانون يعرض على لجنة توفيق مكونة من عدد متسـاو من المجلســـين على أن يراعى في العدد المختار من مجلس النواب نفس التكوين النسـبي للمجلس، فإذا وصـلت اللجنة إلى رأي يعاد عرض القانون (أو القانون بعد تعديله) إلى كل من المجلســين، أما إذا لم يوافق عليه أحد المجلسين فإن القانون يؤجل عرضه إلى دورة تالية (أو فترة انعقاد تالية).

14- يصدر رئيس الجمهورية القوانين بعد إقرارها من المجلسين وله أن يرد القانون خلال مدة يحددها الدستور إلى كل من المجلسين، فإذا أقر منها بأغلبية ثلاثة أرباع الأعضاء اعتبر قانونا وأُصدر .

15- لا يجوز لأي مجلس أن يتخذ قرارا إلا إذا حضر الجلسة أغلبية أعضائه وفي غير الحالات التي تشترط فيها أغلبية خاصة تصدر القرارات بالأغلبية المطلقة للحاضرين.

16- لكل عضو من أعضاء المجلسين أن يوجه إلى الرئيس الوزراء وإلى الوزراء أسئلة واستجوابات(وينظم الدستور والقانون الاتحادي طريقة ذلك).

17 مجلس الوزراء مسؤول مسئولية تامة أمام مجلس الأمة ويكون منح الثقة أو سحبها بالأغلبية المطلقة لمجموع أعضاء مجلس الأمة.

18- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية حالات جواز الجمع بين عضوية المجالس والأعمال العامة.

19- يكون حل أي من المجلسين أو كليهما بقرار من رئيس الجمهورية.

20- لرئيس الجمهورية حق الكلام في مجلس الأمة أو في مجلس النواب أو في مجلس الاتحاد، كلما طلب ذلك، وله أن يوجه لها الرسائل أو التقارير.

21- لرئيس الوزراء والوزراء حق الكلام في أي مجلس، والاشتراك في المناقشات (وينظم الدستور ذلك).

22- يجوز الجمع بين الوزارة وعضوية أي من المجلسين.

23- ينتخب مجلس الأمة رئيس الجمهورية ونواب الرئيس (بالطريقة التي يحددها الدستور)

24- يوافق مجلس الأمة على انضـــمام عضـــو جديد إلى الاتحاد، على أساس موافقة أغلبية ثلاثة أرباع كل من المجلسين على حدة.

25- يتم تعديل الدستور الاتحادي ويتفق عليها قبل عرض دستور الاتحاد على الاستفتاء.

26- دسـاتير الأقطار يجب ألا تتعارض مع دسـتور الاتحاد ويتفق عليها قبل عرض دستور الاتحاد على الاستفتاء.

27- يكون تعديل دســـتور القطر بواســـطة المجلس التشـــريعي بالقطر بالطريقة التي يحددها الدستور ولا تصبح هذه التعديلات نافذة إلا إذا أقرتها المجالس الاتحادية بأغلبية ثلاثة أرباع كل مجلس على حدة.

28- يصـــدق كل من المجلســـين على المعاهدات بالطريقة التي ينظمها الدستور والقانون.

29- لمجلس الأمة سلطة إعلان الحرب (حسب الدستور).

30- ينظم الدســـتور حالات اتهام رئيس الجمهورية بالخيانة العظمى أو عدم الولاء بناء على اقتراح نسبة معينة من مجلس الأمة .

31- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية محاكمة الوزراء.

32- في فترات عدم انعقاد المجالس التشريعية يجوز أن يقوم مجلس رئاسة لمجلس الأمة ينتخبه مجلس الأمة من أعضـــائه (بالطريقة التي يحددها الدستور) بإصدار قوانين على أن يصدق عليها المجلسان عند اجتماعهما.

ثانياً: رئيس الجمهورية

1- رئيس الدولة هو رئيس الجمهورية الذي ينتخبه مجلس الأمة ليمثل سلطة الدولة.

2- كل مواطن في الدولة تتوافر فيه الشروط لانتخابه عضوا في مجلس الأمة يجوز انتخابه رئيسا للجمهوري ، ويعلن انتخاب المرشح إذا حصل على ثلثي أصوات جميع أعضاء مجلس الأمة فإذا لم يحصل على هذه الأصوات فيعاد الانتخاب ويعلن انتخاب المرشح إذا حصل على الأغلبية المطلقة لمجموع عدد أعضاء مجلس الأمة،وينظم الدستور باقي الأحكام الخاصة بالانتخاب.

3- مدة الرئاسة 4 سنوات وإذا انتهت المدة في فترة تجديد مجلس الأمة يستمر الرئيس في ممارسة سلطاته حتى يتم تجديد مجلس الأمة واختيار الرئيس الجديد.

4- الرئيس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ويرأس مجلس الدفاع القومي.

5- يحدد الدستور اختصاصات رئيس الجمهورية ولكنه على وجه الخصوص:

أ- يمثل الدولة في العلاقات الخارجية ويرسل ويعتمد المبعوثين السياسيين ويصدق على المعاهدات الدولية.

ب- يستقبل ويعتمد أوراق المبعوثين السياسيين.

ج- يدعو ويفض دورات انعقاد مجلس النواب والاتحاد.

د- يعين رئيس الوزراء والوزراء الذين يجب أن يحوزوا ثقة مجلس الأمة.

هـ- يقبل استقالة رئيس الوزراء والوزراء من مناصبهم.

و- يصدر القوانين التي يقرها المجلسان.

ز- يقترح القوانين .

ح- يعترض على القوانين

ط- يلقى البيانات ويرسل الرسائل والتقارير لمجلس الأمة أو لأي مجلس.

ى- يعين الضباط ويعزلهم ويرقي قواد القوات المسلحة (حسب الدستور والقوانين الاتحادية).

ك- يكون له حق حضور ورئاسة جلسات مجلس الوزراء وطلب التقارير منه ومن أعضاء الوزارة منفردين ومناقشة الشؤون التي يقتضي العمل أن تناقش مع الوزارة وأعضائها.

ل- يعلن حالة الطوارئ (حسب ما ينص الدستور).

م- يعلن الحرب (حسب ما ينص الدستور).

ن- يعين كبار موظفي دولة الاتحاد في الحالات التي ينص عليها القانون.

س- يضع بالاشتراك مع الوزارة السياسة العامة لشؤون الاتحاد.

ع- يعين قضاة المحكمة الاتحادية العليا (حسب ما ينص الدستور).

ف- حق العفو الخاص.

6- لا يتولى رئيس الجمهورية أي منصب في حكومة قطر أو يكون عضوا في أي مجلس تشريعي.

7- ينظم الدستور حالات منصب رئيس الجمهورية

نواب الرئيس:

1- ينتخب 3 نواب للرئيس (واحد عن كل قطر) بنفس الطريقة التي ينتخب بها رئيس الجمهورية وفي نفس الوقت.

2- يعاون نواب الرئيس الرئيس في أعماله، وله أن ينيبهم عنه أو يفوضهم بعض اختصاصاته ويستشيرهم في الأعمال الموكولة إليه.

3- لا يتولى نائب رئيس الجمهورية أي منصب في حكومة قطر ولا يكون عضوا في أي مجلس تشريعي.

4- ينظم الدستور باقي الأحكام الخاصة بنواب الرئيس.

مجلس الوزراء :

1- يتكون مجلس الوزراء من رئيس مجلس الوزراء والوزراء (ويجوز أن يكون هناك نواب رئيس وزراء ونواب وزراء).

2- مجلس الوزراء والوزراء مسؤولون عن أعمالهم أمام مجلس الأمة.

3- يتولى رئيس الوزراء والوزراء مناصبهم ما داموا محل ثقة الرئيس.

4- يتولى مجلس الوزراء الاتحادي تنظيم وتنفيذ مهام الدولة الاتحادية ويصدر القرارات اللازمة لذلك (حسب الدستور والقوانين الاتحادية).

5- تقدم الوزارة بعد تعيينها برنامجا إلى مجلس الأمة للموافقة عليه.

6- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية الأحكام الخاصة بمجلس الوزراء والوزارات ومؤسسات الحكومة الأخرى المختلفة.

ثالثاً: السلطة القضائية:

1- تكون للاتحاد محكمة عليا تسمى المحكمة الاتحادية العليا تنشأ بمقتضى أحكام الدستور بقانون اتحادي.

2- للدولة الاتحادية أن تنشئ محاكم اتحادية أخرى وتنظم بقوانين اتحادية.

3- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية اختصاصات المحكمة الاتحادية العليا.

4- يختار مجلس الأمة أعضاء المحكمة الاتحادية العليا بناء على ترشيح رئيس الجمهورية من بين رجال القضاء والقانون (حسبما ينص عليه الدستور والقوانين الاتحادية).

5- ينظم الدستور والقوانين الاتحادية توفير الحصانة الخاصة بأعضاء المحكمة ومدة تعيينهم وحالات إعفائهم.

الأجهزة في الأقطار

أولاً: رئيس القطر

1- ينتخبه المجلس التشريعي للقطر لمدة 4 سنوات ويوافق عليه رئيس الجمهورية (وينظم الدستور بطريقة الترشيح والانتخاب).

2- يتولى رئيس القطر الاختصاصات التي يحددها الدستور الاتحادي ودساتير الأقطار.

3- هو الذي يعين وزارة القطر ويقبل استقالتها.

ثانياً: المجلس التشريعي للقطر.

1- يكون لكل قطر مجلس تشريعي منتخب انتخابا حرا مباشرا وسرياً.

2- يحدد الدستور اختصاصات المجلس التشريعي.

3- يصدر المجلس التشريعي بالقطر التشريعات الخاصة بالقطر.

4- يعدل دســـتور القطر بالطريقة التي يحددها الدســـتور ولا تصـــبح التعديلات نافذة إلا بعد إقرارها بأغلبية ثلاثة أرباع كل من النواب ومجلس الاتحاد.

5- يناقش الوزارة والوزراء ويسأل ويستجوب الوزراء بالقطر ويسحب الثقة من الحكومة بالطريقة التي يحددها الدستور.

6- يحل المجلس التشريعي في القطر حسب الآتي:

أ- بناء على قرار من رئيس القطر.

ب- بقرار من رئيس الجمهورية بناء على قرار من المجلس الاتحادي بأغلبية ثلثي الأعضاء

ثالثاً: وزارة القطر:

1- تكون لكل قطر وزارة مكونة من رئيس وزراء ووزراء

2- وزارة القطر مسئولة أمام المجلس التشريعي بالقطر ويجب أن تحوز ثقته.

3- ينظم الدستور حالات سحب الثقة من الوزارة.

4- يبين الدستور والقوانين اختصاصات الوزارات وطريقة عملها والأحكام الخاصة بالوزراء .

رابعاً: القضاء بالقطر

ينظم دســـتور القطر وقوانينه القضـــاء بالقطر ويضـــمن له اســـتقلاله وحصانته.

الأحكام الانتقالية:

أولاً: في دولة الاتحاد:

1- يستفتى على دستور الاتحاد وعلى رئيس الجمهورية في مدة أقصاها خمسة أشهر من تاريخ إعلان هذا البيان.

2- تعتبر دولة الاتحاد (الجمهورية العربية المتحدة) قائمة دستوريا عند إعلان نتائج الاستفتاء.

3- تستكمل المؤسسات الدستورية الاتحادية جميع عناصرها التي نص عليها الدستور في مدة أقصاها 30 شهراً من تاريخ إعلان نتائج الاستفتاء وتنتهي بذلك فترة الانتقال.

4- ولكل قطر أن يقيم قبل هذا الموعد ما يراه من المؤسسات الدستورية الخاصة به تمهيداً لقيام المؤسسات الاتحادية بشكل كامل خلال فترة الانتقال، وينظم بتشريع اتحادي دستور المؤسسات القطرية التي تقوم خلال هذه المدة.

5- يتولى جميع السلطات التشريعية والتنفيذية في دولة الاتحاد خلال فترة الانتقال مجلس رئاسة يرأسه رئيس الجمهورية ويكون نواب الرئيس أعضاء فيه.

6- يشكل مجلس الرئاسة من عدد متساو من الأعضاء من كل قطر من الأقطار.

7- يختار أعضاء مجلس الرئاسة بمعرفة الجهات التي لها السلطة التشريعية في الدول الأعضاء عند قيام الاتحاد.

8- يعين رئيس الجمهورية رئيس الوزراء والوزراء ويعفيهم من مناصبهم.

9- تكون قرارات المجلس بأغلبية أعضائه.

10- لرئيس الجمهورية حق الاعتراض على أي قرار أو قانون يصـــــدره مجلس الرئاسة.

11- يختص مجلس الرئاسة بالآتي:

أ - يعين نواب رئيس الجمهورية (نائباً من كل قطر) وذلك بالاتفاق مع الجهة التي لها سلطة التشريع في القطر أثناء فترة الانتقال.

ت- يعين رئيس لكل قطر بالاتفاق مع الجهة التي لها سـلطة التشـريع في القطر أثناء فترة الانتقال.

ج- عيين مجلس الدفاع القومي ومتابعة أعماله.

د- رسم السياسة العامة للدولة وتخطيطها وتكليف الوزارة بتنفيذها .

هـ- تنسيق المصالح العامة بين الأقاليم

و- تعيين المجالس العليا التي جاء ذكرها في المبادئ العامة.

ثانياً: الوزارة الاتحادية:

أ- رئيس الوزراء ب- الخارجية ج- الدفاع د- الإعلام والإرشـــاد القومي والثقافة هـــــــ- التربية والتعليم والتعليم العالي والبحث العلمي و- الخزانة والمالية ز- الاقتصـــاد والتخطيط (وتضـــاف اليها اعمال المواصلات) ح- العدل ط- وزارة الدولة

12- يجوز بقانون اتحادي إنشاء وزارات أخرى.

13- يجوز عمل اجتماعات مشتركة للوزارة الاتحادية مع الرئاسة.

أحكام عامة

1- تبقى كل التشـــريعات المعمول بها في أي قطر ســـارية المفعول في القطر الذي صدرت فيه إلى أن يتم تعديلها أو إلغاؤها من السلطة الدستورية المختصة.

2- المعاهدات والاتفاقيات التي ســـبق أن عقدتها حكومة أي قطر تبقى سارية المفعول في نطاق القطر الذي أبرمها.

3- تبقى كل المؤســـسات والمصـــالح الحكومية الحالية قائمة على عملها وفق اللوائح والنظم الموجودة الآن إلى أن يتم عمل أنظمة جديدة أو تعديلها.

4- تتفق الدول الأعضـــاء على برنامج اســـتكمال توحيد المؤســـســـات الاتحادية، العسكرية أو الخارجية أو التشريعية أو الاقتصادية أو الثقافية.. الخ حتى يمكن أن ينص على هذا البرنامج في مادة انتقالية من مواد الدستور

5- إلى أن يتم الاســـتفتاء على الدســـتور الاتحادي تقوم الدول الأعضـــاء بتكوين اللجان والهيئات آلاتية حتى يكون تكوينها وبدؤها في العمل ســـبيلا للتمهيد وللقيام الصحيح للمؤسسات الاتحادية عند قيام الوحدة

أ- قيادة عسكرية موحدة ب- لجنة الشئون الخارجية جـ- لجنة للتنسيق الاقتصادي والسوق العربية المشتركة د-أي لجان أخرى.

الملحق الثاني

بناء الدولة والمؤسسات الدستورية بها

أولاً: نقاط عامة:

1- تقوم دولة اتحادية باسم الجمهورية العربية المتحدة على أساس الاتحاد الحر بين كل من مصر والعراق وسورية وتكون أسماء الأعضاء بالدولة الاتحادية "القطر المصري" "القطر العراقي" "القطر السوري".

2- لكل جمهورية عربية مستقلة تؤمن بمبادئ الحرية والاشتراكية والوحدة أن تنضم إلى هذه الدولة بإرادة شعبية حرة ويتم الانضمام بعد موافقة السلطة الدستورية المختصة في الدولة الاتحادية.

3- للدولة الاتحادية دون سواها السيادة الدولية الكاملة.

4- يتمتع بجنسية الدولة الاتحادية الجمهورية العربية المتحدة كل من يتمتع بجنسية البلاد الأعضاء وقت قيام الدولة الاتحادية أو وقت الانضمام إليها وتنظم بقانون اتحادي الأحكام الخاصة باكتساب جنسية الدولة الاتحادية وفقدها وكل ما يتعلق بها.

5- السيادة للشعب ويمارسها وفقا للدستور

6- الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية.

7- العلم: علم الجمهورية العربية المتحدة الحالي وفيه ثلاث نجوم بدلاً من نجمتين وتزاد نجمة كلما انضمت دولة جديدة

8- الشعار: ينظم بقانون اتحادي

9- النشيد: ينظم بقانون اتحادي

10- الجنسية : واحدة ، عربي وينظم شئونها قانون اتحادي

11- العاصمة: القاهرة.

ثانياً: اختصاصات الدولة الاتحادية:

تختص سلطات الدولة الاتحادية بالآتي:

1- السياسة الخارجية.
2- الدفاع
3- الأمن القومي
4- المالية والخزانة (ميزانية جمارك .. الخ)
5- الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي والتنمية
6- الإعلام والإرشاد القومي (على المستوى الاتحادي)
7- التخطيط الثقافي
8- تخطيط التربية والتعليم والتعليم العالي والبحث العلمي
9- العدل وتنسيق القوانين
10- المواصلات الاتحادية
11- يمكن إضافة اختصاصات جديدة للاتحاد بالطريقة التي يبينها الدستور.

1- السياسة الخارجية

أ- التمثيل الخارجي بكل جوانبه " مراعاة الناحية الإقليمية في بعض النواحي كالتجارة والثقافة بقانون اتحادي ينظمها بالتدرج من الناحية الإقليمية إلى الناحية الاتحادية .

ب- شؤون هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى.

ج- المعاهدات مع الدول الأجنبية (ويمكن للأقطار أن تعقد بعض الاتفاقات التجارية بتصديق الدولة الاتحادية).

د- تسليم المجرمين واللجوء السياسي.

هـ- إصدار جوازات السفر العربية والتأشيرات.

و- دخول الأجانب أراضي الدولة الاتحادية وأقامتهم فيها وإبعادهم عنها وفقا لما تنظمه القوانين الاتحادية.

ز- شؤون الجنسية وجميع الشؤون الخارجية الأخرى.

2- الدفاع

من المبادئ المقررة أن القوات المسلحة من الشعب وولاؤها للشعب ولا تأتمر إلا بأوامره عن طريق السلطات الدستورية المختصة على النطاق القومي الاتحادي.

أ- شؤون الحرب والسلم .

ب- إعداد القوات البرية والبحرية والجوية وتسليحها وتدريبها واستخدامها.

ج- القيادة العسكرية (قيادة عسكرية واحدة مع لا مركزية محلية في السلطات للقيادة المحلية التابعة مباشرة للقيادة العامة) على أن يوكل أمرها لسلطات الأقطار خلال الفترة المناسبة لكل قطر أثناء فترة الانتقال.

د- مجلس الدفاع والقيادة العامة للقوات المسلحة والقيادات الإقليمية.

هـ- شؤون التعبئة العامة.

و- الصناعات الحربية.

3- الأمن القومي

أ- مؤسسات الأمن القومي التي يتفق عليها في الدستور أو القوانين الاتحادية.

ب- إعلان الأحكام العرفية في الأحوال التي تتعرض فيها الدولة الاتحادية أو أحد الأقطار للخطر.

ج- حالات الطوارئ التي تحدد بقانون اتحادي تفوض بمقتضاه السلطات الإقليمية في استخدام القوات المسلحة حتى تزول حالة الطوارئ.

4- المالية والخزانة

أ- الضرائب الاتحادية

ب- ميزانية الاتحاد (من الضرائب الاتحادية أو من مساهمة الأقطار بالطريقة وللأغراض التي يتفق عليها أو من القروض أو غيرها من الموارد).

ج- إصدار أذون خزانة أو سندات اتحادية لتمويل مشروعات اتحادية.

د- الاقتراض من الخارج أو من الداخل (ويحظر على الأقطار الاقتراض من الخارج إلا بموافقة الاتحاد).

هـ- القوانين والسياسة الجمركية(تتدرج إلى تكوين وحدة جمركية وسوق عربية مشتركة).

5- الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي والتنمية

أ- مجلس أعلى للتخطيط

ب- التخطيط الاقتصادي في شؤون الصناعة والزراعة والتجارة والمواصلات والتنسيق بين خطط التنمية في الأقطار

ج- مجلس اقتصادي أعلى لبحث الشؤون الاقتصادية المشتركة والتنسيق بينها وعلاقتها بالخارج.

د- سياسة الاقتصاد

هـ- التبادل التجاري مع الخارج (تنظيمه ومعاهداته واتفاقياته)

و- تنظيم التجارة بين أقطار الدولة الاتحادية.

ز- تنظيم الدفع بين أقطار الدولة الاتحادية ومع الخارج

ح- العملة

ط- الشؤون المصرفية الاتحادية

ي- العلاقات بالمؤسسات الاقتصادية الدولية

ك- الصناعات التابعة للاتحاد

ل- المشروعات المشتركة

م- الطاقة النووية ومصادر الثروات الطبيعية اللازمة لإنتاجها

6- الإعلام والإرشاد القومي على المستوى الاتحادي

أ- جهاز اتحاد مركزي للتخطيط الاتحادي للإعلام.

ب- التنفيذ الإعلامي بعضه مركزي وبعضه إقليمي.

7- التخطيط الثقافي

أ- مجلس أعلى للفنون والآداب

ب- الثقافة العربية ومكانها وصلاتها بالثقافات الأخرى

8- تخطيط التربية والتعليم والتعليم العالي والبحث العلمي

أ- مجلس أو مجالس عليا للتربية والتعليم والبحث

ب- السياسة العامة للتربية والتعليم والبحث

ج- المناهج التعليمية

د- الضـــمانات، وحدة الفكر والاتجاه القومي العربي الوحدوي، والإعداد الروحي والعلمي والأخلاقي للأجيال الصـاعدة التي تبني الوحدة الشـاملة وتقيم المجتمع العربي الاشتراكي الحر الموحد.

هـ- إدارة المؤسسات الاتحادية لأي من شؤون التربية والتعليم والبحث

9- العدل وتنسيق القوانين

أ- أسـس موحدة للعدالة(وضـع المبادئ الأسـاسـية للقوانين مثل: قوانين العقوبات والقانون المدني والقانون التجاري وقانون الإجراءات وقوانين العمل والتأمينات الاجتماعية الخ).

ب- التنسيق بين القوانين بغية الوصول إلى توحيدها على مراحل

ج- القضاء الاتحادي

10- المواصلات الاتحادية

جميع طرق ووسـائل النقل والمواصـلات الاتحادية والمشـتركة البرية والحرية والجوية كالسـكك الحديدية والبواخر والطائرات والبريد والبرق والهاتف واللاسلكي والأرصاد على المستوى الاتحادي

1- ما يستجد طبقاً للطريقة التي يحددها دستور الدولة الاتحادية.

أ- جميع الشؤون والمشروعات المشتركة بين الأقطار

ب- السلطات الاستثنافية أثناء الحرب والطوارئ على الأقطار (طبقاً لقانون اتحادي)

ج- إلزام الأقطار بتنفيذ القوانين والقرارات الاتحادية أو الوفاء بالتزام معين وإعطاء التعليمات للأقطار لضمان التنفيذ الجبري لقرار صادر من سلطة اتحادية.

د- الفصل فيما يقع بين الأقطار من خلاف.

هـ- المجالس المشتركة لأنواع الخدمات المختلفة طبقاً لتشريع اتحادي.

و- حق العفو الشامل عن الجرائم تمارسه الدولة الاتحادية طبقاً لقانون اتحادي.

ز- حق العفو الخاص لرئيس الجمهورية.

ثالثاً: اختصاصات للأقطار:

1- يبقى في اختصاص الأقطار جميع السلطات التي لا تدخل في اختصاص الدولة الاتحادية.

2- تفوض السلطات الإقليمية بقانون اتحادي في ممارسة بعض اختصاصات السلطة الاتحادية لأجل معين وتكون الدولة الاتحادية مسؤولة حينئذ عن تصرف الأقطار بغير حاجة إلى تصديق عليها ويكون لسلطات الاتحاد الإشراف على السلطات الإقليمية عند مباشرة هذه الاختصاصات.

3- يمكن الاتفاق على أن يوكل إلى السلطات الإقليمية أمر تنفيذ بعض القوانين الاتحادية.

الملحق رقم (5)

إعلان بنغازي عن قيام اتحاد الجمهوريات العربية

من موقع الصمود العربي، وفي ظلال صراع حاسم ومصيري تخوضه الأمة العربية اليوم دفاعاً عن أرضها وشرفها ووجودها وأمنها ومصيرها ضد كل قوى السيطرة الاستعمارية والصهيونية العنصرية.

وانطلاقاً من الحقيقة الكبرى التي عبر عنها التاريخ الطويل، وهي ان وحدة الوطن العربي بما تتيحه من إمكانات، وبما توفره من طاقات سياسية وعسكرية واقتصادية هي الرد الحاسم على تحديات الاستعمار والصهيونية وهي السبيل إلى استرداد الكرامة وتحرير الأرض والإجهاز على كل صور الاستعمار والاستغلال والتخلف في وطننا العربي.

وتصميما على بناء الوطن العربي المتحرر، القادر على مواجهة تحديات العصر ومقتضيات التقدم وأداء دوره الحضاري والإنساني داخل مجتمعه وفي المجتمع الدولي.

وتقديراً وعرفانا لتضحيات أجيال بعد أجيال من أمتنا العربية، خاضت بشرف وكرامة معارك تحقيق الذات القومية، وتثبيت الاستقلال والحرية السياسية والاجتماعية، دون أن يتزعزع إيمانها بأملها الكبير.

والتقاء بين الثورات الثلاث في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية الليبية والجمهورية العربية السورية، والتي يمثل التقاؤها مطلباً جماهيريا وضرورة نضالية تعطي لحركة النضال الشعبي طاقات وأبعادا جديدة تؤكد الحتمية التاريخية لانتصار الثورة العربية.

وتأكيداً وامتداداً لمقررات دول ميثاق طرابلس ، ودعما للتكامل والترابط بين دولها، وتأمينا لمسيرة النضال العربي التي رفع لواءها القائد الخالد جمال عبد الناصر.

فإنه من ذلك كله ووفاء لذلك كله، فقد اتفق:

الرئيس أنور السادات، رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

الرئيس العقيد معمر القذافي، رئيس مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية

الرئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية.

على إقامة اتحاد الجمهوريات العربية بين دولهم الثلاث على أن ينضم السودان الشقيق إليهم في أقرب فرصة تمكنه منها ظروفه الخاصة .

إن توقيع الرؤساء الثلاثة على هذا الإعلان، يصدر عن الإيمان الراسخ بضرورة قيام الدولة التي تجمع القوى والطاقات العربية، وبأن هذه الدولة ستكون بفضل قدرة جماهير شعبنا، وبفضل إمكانات الدول الثلاث، القاعدة الصلبة لحركة النضال العربي، وأحد الروافد الهامة لحركة التحرر العالمية، والرد الطبيعي والعملي على كل المؤامرات الاستعمارية والصهيونية التي تدبر ضد أمتنا العربية لضرب حضارتها الإنسانية والتاريخية ووضعها في إسار التخلف والتبعية.

ولقد انطلق الرؤســـاء الثلاثة في اتفاقهم على إقامة اتحاد الجمهوريات العربية من منطلقات أساسية تشكل حجر الأساس في بناء دولة الاتحاد وهي :

أولاً: أن تكون هذه الدولة النواة التي تستقطب نضـال الجماهير العربية الوحدوي وبالتالي أن تكون نواة لوحدة عربية أشمل .

ثانياً: أن تكون ســـبيل الجماهير العربية لتحقيق هدفها في إقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد.

ثالثاً: أن تكون هذه الدولة هي الأداة الرئيســية للأمة العربية في معركة التحرير.

وعلى أساس من هذه المنطلقات فقد قرر الرؤساء الثلاثة بالإجماع ما يلي:

1- إن تحرير الأرض العربية المحتلة هو الهدف الذي ينبغي أن تسخر في سبيله كل الإمكانات والطاقات.

2- إنه لا صـــلح ولا تفاوض ولا تنازل عن أي شـــبر من الأرض العربية المحتلة.

3- إنه لا تفريط في القضية الفلسطينية ولا مساومة عليها.

ويؤكد الرؤســاء الثلاثة أن جمهورية الســودان الديمقراطية وشــعبها العربي المناضل الذي أسهم بقيادة الأخ الرئيس جعفر محمد نميري وإخوانه أعضاء مجلس قيادة الثورة، مســـاهمة جادة وفعالة في دفع عجلة العمل في إطار ميثاق طرابلس .. ستبقى فاعلة في النضـال الوحدوي، وذات صـلة وثيقة باتحاد الجمهوريات العربية، حتى يتسنى لها الانضمام إليه.

وإذ يضـــع الرؤســـاء الثلاثة نصـــب أعينهم أن تكون دولة اتحاد الجمهوريات العربية ملبية لتطلعات جماهير شـــعبنا، محققة لآمالها، وقادرة على تنفيذ أمانيها ورغباتها القومية، فإنهم يؤكدون أن دعم الاتحاد وأهدافه وقيمه ومبادئه يتطلب من القوى القيادية في الجمهوريات الثلاث تكوين جبهة أساسية فيما بينها ترتبط بميثاق للعمل القومي في اتحاد الجمهوريات العربية من أجل تحقيق التفاعل والترابط بين جماهير الشـــعب في إطار الاتحاد، وترسيخ أسس الديمقراطية فيها، وتوحيد منطلقات وأساليب العمل السياسي في الجمهوريات الثلاث، وخلق المناخ الملائم لقيام الحركة العربية الواحدة.

إن المسئولية التاريخية في هذه الأيام العصيبة والمصيرية تفرض علينا كأبناء مخلصين لوطننا الكبير، وأمناء على قضية القومية العربية ومستقبل الأمة العربية أن نعمل معاً، ومع غيرنا بروح التجرد والإيثار من أجل إذابة كافة الحواجز والفوارق الإقليمية التي تعوق التفاعل الذاتي للمنطقة العربية تحقيقا للوحدة الشاملة.

إن الانطلاق إلى المســـارعة في تنفيذ هذا الاتحاد، ما هو إلا حركة موفقة للوصـول إلى هدف مرحلي على طريق الوحدة العربية الشـاملة، وهو من أجل ذلك ســـيظل مفتوح الأبواب لكل دولة عربية متحررة تؤمن بالوحدة العربية، وتعمل من أجل إقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد.

وبعون الله وتطلعاً إلى المستقبل بثقة الواثق المؤمن بالله، وتجسيداً لكل هذه المعاني فقد تم الاتفاق بين الرؤســـاء الثلاثة على اعتبار الأحكام الأســاسـية المرفقة بهذا الإعلان أســسـاً لإقامة اتحاد الجمهوريات العربية،

وعلى تشكيل لجنة ثلاثية تتولى وضع دستور اتحاد الجمهوريات العربية، في إطار من هذه الأحكام الأساسية، على أن يتم إقراره في كل جمهورية وفق الصيغ الدستورية المعمول بها لديها، كما تقرر عرض الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية على الاستفتاء الشعبي في كل جمهورية وفي تاريخ واحد.

إن واجبنا– ونحن في سعينا على طريق أملنا – أن نظل مفتوحي الأعين منتبهي الحس والوجدان تحت رعاية الله وتوفيقه..ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.

معمر القذافي

رئيس مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية

أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

صدر في بنغازي 21 صفر 1391 هـ الموافق 17 ابريل نيسان 1971

ملحق رقم (6)

الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية

1- إن الشعب العربي في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية الليبية والجمهورية العربية السورية قد أقر على أساس من الاختيار الحر المتساوي في الحقوق إقامة دولة اتحادية تسمى اتحاد الجمهوريات العربية.

2- الهدف من قيام اتحاد الجمهوريات العربية ، هو العمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة وحماية الوطن العربي، والدفاع عن استقلاله وبناء المجتمع العربي الاشتراكي والعمل على تحرير الأراضي العربية المحتلة، ودعم حركة التحرر الوطني العربية، وحركات التحرر الوطني في العالم.

3- الشعب في اتحاد الجمهوريات العربية جزء من الأمة العربية .

4- لاتحاد الجمهوريات العربية علم واحد وشعار واحد، ونشيد واحد وعاصمة واحدة.

5- نظام الحكم في اتحاد الجمهوريات العربية ديمقراطي اشتراكي.

6- يكون هذا الاتحاد مفتوحا لجميع الدول العربية الأخرى التي تؤمن بالوحدة العربية، وتعمل من أجل تحقيق المجتمع الاشتراكي الموحد.

7- يختص اتحاد الجمهوريات العربية بالأمور التالية:

أ- وضع أسس السياسة الخارجية .

ب- مسائل السلم والحرب

ج- تنظيم وقيادة الدفاع عن اتحاد الجمهوريات العربية مع قيام قيادة عسكرية مسئولة عن التدريب والعمليات ويتم نقل القوات بين الجمهوريات بقرار من مجلس الرئاسة أو من يفوضه في ذلك أثناء العمليات.

د- حماية الأمن القومي، ووضع أسس لتنظيم تأمين سلامة الاتحاد، وإذا وقعت اضطرابات من الداخل أو الخارج في إحدى الجمهوريات تهدد أمنها أو تهدد أمن الاتحاد، تخطر حكومة هذه الجمهورية الحكومة الاتحادية فوراً لكي تقوم هذه الأخيرة باتخاذ الإجراءات الضرورية، ضمن حدود صلاحياتها لحفظ الأمن والنظام، وفي حالة ما إذا كانت حكومة إحدى الجمهوريات الأعضاء في وضع لا يسمح لها بطلب العون من الحكومة الاتحادية أو إذا كان أمن الاتحاد في خطر، فللسلطات الاتحادية المختصة أن تتدخل وبدون طلب لحفظ النظام وإعادة الأمور إلى نصابها.

هـ- تخطيط الاقتصاد القومي ووضع خطط التنمية العامة المشتركة وقيادة المؤسسات الاقتصادية ذات الطابع الاتحادي.

و- وضع سياسة تعليمية وتربوية تهدف لبناء جيل قومي عربي اشتراكي مؤمن.

ز- وضع سياسة إعلامية اتحادية تخدم أهداف دولة الاتحاد واستراتيجيتها في السلم والحرب.

ح- وضـــع ســـياســـة موحدة للبحث العلمي والتنســـيق بين أجهزته في الجمهوريات.

ط- قبول أعضـــاء جدد في الاتحاد، ويكون ذلك بإجماع الرأي في مجلس رئاسة الاتحاد.

مؤسسات اتحاد الجمهوريات العربية

8- تقوم في اتحاد الجمهوريات العربية المؤسسات الآتية:

أ- مجلس رئاســـة الاتحاد: ويعتبر الســـلطة العليا في الاتحاد ويتكون من رؤســـاء الجمهوريات وينتخب هذا المجلس رئيســـاً له من بين أعضـــائه ويتخذ قراراته بالأغلبية.

ب- عدد من الوزراء يعينهم مجلس الرئاسة وهم مسئولون أمامه.

ج- مجلس الأمة في الاتحاد، ويتولى مهمة التشريع للاتحاد، ويشكل من ممثلين عن مجالس الشـــعب لكل من الجمهوريات، بعدد متســـاو من الأعضاء تنتخبهم مجالس الشعب في الجمهوريات.

د- محكمة دســـتورية اتحادية تعين بقرار من مجلس رئاســـة الاتحاد وتتكون من عضـــوين عن كل جمهورية، وتختص بالفصـــل في دســـتورية القوانين، والبت في المنازعات بين المؤســـســـات وســـلطات الاتحاد والجمهوريات.

9- لا يترتب على قيام الاتحاد أي إخلال بأحكام المعاهدات والاتفاقات الدولية المبرمة بين الجمهوريات الداخلة في الاتحاد وبين إحداها والدول الأخرى وتظل هذه المعاهدات والاتفاقات سارية في الإطار المقرر لها وقت إبرامها وفقا لقواعد القانون الدولي.

10- يجوز لكل جمهورية في حدود اختصاصها التشريعي أن تبرم المعاهدات والاتفاقات مع الدول الأجنبية وأن تتناول معها التمثيل الدبلوماسي والقنصلي.

11- تكون القيادة العامة للقوات المسلحة في كل من الجمهوريات الداخلة في الاتحاد لرئيس الجمهورية أو لمن تحدده النظم المعمول بها في كل جمهورية.

12- تختص الجمهوريات بكل ما لم يدخل في اختصاصات الاتحاد وفقا لهذه الأحكام الأساسية.

13- إلى أن يتحقق قيام الحركة العربية الواحدة داخل الاتحاد تكون القيادة السياسية في كل جمهورية هي المسئولة عن تنظيم ممارسة النشاط السياسي داخل الجمهورية، ويحظر على أي تنظيم سياسي قائم في إحدى جمهوريات الاتحاد ممارسة أي نشاط سياسي في جمهوريات الاتحاد الأخرى إلا عن طريق ممثليه في قيادة الجبهة السياسية التي تضم قيادات التنظيم السياسي لجمهوريات الاتحاد.

14- يعتبر إعلان قيام اتحاد الجمهوريات العربية الصادر في بنغازي في 21 صفر 1391 الموافق 17 ابريل (نيسان) 1971 جزءاً لا يتجزأ من الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية.

15- لا يجوز تعديل الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية إلا بعد الموافقة الاجماعية لمجلس رئاسة الاتحاد وعرضه للاستفتاء الشعبي وتوافر الأغلبية له في كل جمهورية.

16- يجري التصديق على الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية قبل طرحها للاستفتاء الشعبي من قبل اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ومجلس الوزراء ومجلس الأمة في الجمهورية العربية المتحدة، ومن قبل مجلس قيادة الثورة، في الجمهورية العربية الليبية، ومن قبل القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي ومجلس الشعب في الجمهورية العربية السورية.

معمر القذافي	**أنور السادات**	**حافظ الأسد**
رئيس مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء الجمهورية العربية الليبية	**رئيس جمهورية مصر العربية**	**رئيس الجمهورية العربية السورية**

ملحق رقم (7)

دستور دولة اتحاد الجمهوريات العربية

مقدمة:

إن الشعب العربي في الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية الليبية وجمهورية مصر العربية، إيماناً منه بأنه جزء لا يتجزأ من الأمة العربية وأن الجمهوريات الثلاث تؤمن بالمصير العربي الواحد، وأن القومية العربية هي دعوة تحرير وبناء وعدل وسلام، وأنها طريق العرب إلى الوحدة الشاملة، وبناء نظام ديمقراطي واشتراكي يحمي حقوق المواطن ويصون حرياته الأساسية ويدعم سيادة القانون.

واستجابة منه لنداء الوحدة العربية التي تحتل مكان الصدارة في الوجدان العربي، والتي عززها الكفاح العربي المشترك ضد الاستعمار والصهيونية والنزعات

الإقليمية والحركات الانفصالية، وأكدتها الثورة العربية المعاصرة ضد التسلط والاستغلال وإهدار حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية.

وثقة منه بأن جميع الإنجازات التي حققها أو يمكن أن يحققها أي قطر في واقع التجزئة تظل مقصرة عن بلوغ كامل أبعادها،ومعرضة للتشوه والانتكاس ما لم تعززها وتصنها الوحدة العربية.

وإيماناً بدور الأمة العربية الحضاري في قهر التخلف والتبعية، ومساهمة منها في دفع عجلة التقدم الإنساني وصيانة السلام والأمن الدوليين وإرساء قواعد العلاقات بين الدول والشعوب على أساس من العدل والقانون,

وتنفيذا للأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الصادرة في بنغازي بتاريخ 21 صفر سنة 1391 الموافق 17 من ابريل – نيسان سنة 1971 ميلادية..

قد أقر – بعد التوكل على الله – قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية على أساس المبادئ والأحكام الآتية :

الباب الأول

المقومات الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية

مادة 1- أقام الشعب العربي في كل من الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية الليبية وجمهورية مصر العربية على أساس من الاختيار الحر المتساوي في الحقوق، دولة اتحادية تسمى" اتحاد الجمهوريات العربية".

مادة2- السيادة في الاتحاد للشعب وتمارس السلطات الاتحادية اختصاصاتها باسمه على الوجه المبين في هذا الدستور.

مادة 3- الشعب في اتحاد الجمهوريات العربية جزء من الأمة العربية.

مادة 4- نظام الحكم في اتحاد الجمهوريات العربية ديمقراطي واشتراكي.

مادة 5- اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الاتحاد.

مادة 6- تؤكد دولة الاتحاد على القيم الروحية وتتخذ الشريعة الإسلامية مصدرا رئيسيا للتشريع.

مادة 7- للاتحاد وجمهورياته علم واحد وشعار واحد، ويصدر قانون اتحادي بتنظيم هذه الأمور ..

مادة 8- للاتحاد عاصمة واحدة تحدد بقانون ..

مادة 9- تقبل في عضوية الاتحاد، بقرار إجماعي من مجلس الرئاسة الجمهوريات العربية التي تؤمن بالوحدة العربية، وتعمل من أجل تحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الموحد، وترتضي العمل بالأحكام المقررة في هذا الدستور

مادة 10- إلى أن يتم صدور قانون اتحادي ينظم شئون الجنسية الموحدة للاتحاد، تتولى كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد تنظيم الشئون المتعلقة بجنسية مواطنيها في نطاق الأسس العامة التي يصدر بها قانون اتحادي.

مادة 11- تلتزم كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد بألا يتعارض دستورها مع أحكام هذا الدستور.

مادة 12- تكفل دســـاتير الجمهوريات وقوانينها -كحد أدنى- المبادئ والحقوق التالية:

أ- المواطنون أمام القانون والقضـــاء متســـاوون، ولا تمييز بينهم بســـبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين.

ب- حرمة السكن.

ج- لا جريمة ولا عقوبة إلا بقانون، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته بحكم قضائي.

د- عدم جواز القبض على المواطنين إلا في حدود القانون.

هـ- شخصية العقوبة.

و- حق التقاضي وسلوك سبل الطعن والدفاع أمام جهات القضاء

ز- حرية التنقل واختيار محل الإقامة.

ح- حظر الإبعاد عن الوطن.

ط- حرية الاعتقاد وإقامة الشعائر الدينية.

ي- حرية البحث العلمي.

ك- حرية الرأي والصحافة والنشر.

ل- حرية الاجتماع

م- سرية المراسلات.

ن- حق المواطنين في اختيار حكامهم ومحاسبتهم.

س- حرمة الملكية الخاصـــة في حدود القانون بما لا يتعارض مع المجتمع في الملكية العامة والتعاونية.

ع- حق العمل.

ف- حق التعليم

ص- الحق في الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية.

ق- الحق في الرعاية الصحية

ر- حماية الطفولة والأمومة والأسرة.

مادة 13- حق الانتقال والإقامة والعمل مكفول لمواطني الاتحاد بين جمهورياته، وينظم قانون اتحادي كيفية ممارسة هذا الحق.

الباب الثاني

اختصاصات الاتحاد ومؤسساته وماليته

الفصل الأول

اختصاصات الاتحاد..

مادة 14- يتولى الاتحاد ممارسة الاختصاصات التالية:

أولاً: في المجال الخارجي:

أ- وضع أسس السياسة الخارجية والعمل على توحيد السياسات التي تتبعها الجمهوريات في علاقاتها الدولية.

ب- مسائل السلم والحرب وتصدر فيها قرارات مجلس الرئاسة بالإجماع.

ج- التنسيق بين الجمهوريات الأعضاء في مجال التمثيل الدبلوماسي والقنصلي مع الدول الأجنبية

د- إبرام المعاهدات والاتفاقات الدولية مع الدول الأجنبية والمنظمات الدولية في الأمور الداخلية في اختصاص الاتحاد .

ثانياً: في مجال الدفاع:

أ- تنظيم وقيادة الدفاع عن اتحاد الجمهوريات العربية.

ب- قيام قيادة عسكرية مسئولة عن التدريب والعمليات.

ج- تحريك القوات بين الجمهوريات بقرار من مجلس الرئاسة أو من يفوضه في ذلك أثناء العمليات.

د- التنسيق بين الصناعات العسكرية في الجمهوريات الأعضاء..

ثالثاً: في مجال الأمن القومي :

حماية الأمن القومي ووضع خطة تأمين سلامة الاتحاد وفقاً لما يقرره مجلس الرئاسة.

رابعاً: في مجال الاقتصاد:

أ- وضع خطط التنمية العامة المشتركة على النحو الذي يكفل تحقيق التكامل فيما بين اقتصاديات الجمهوريات الأعضاء وتلتزم هذه الجمهوريات بأن تراعي في وضع الخطط الوطنية مقتضيات تنفيذ الخطط العامة.

ب- تنظيم انتقال السلع والخدمات ورؤوس الأموال بين الجمهوريات الأعضاء، وتنظيم إقامة واستخدام مواطني إحدى الجمهوريات الأعضاء في جمهورية أخرى عضو في الاتحاد.

ج- العمل على توحيد النظم والسياسات الاقتصادية والمالية في الجمهوريات الأعضاء، وتقديم الخدمات الإحصائية والمحاسبية التي تهم مجموع هذه الجمهوريات.

د- التنسيق بين اقتصاد الاتحاد واقتصاد الدول العربية الأخرى بما يحقق التكامل الاقتصادي العربي، وذلك وفقاً لوسائل التنظيم التي يقررها مجلس الرئاسة.

هـ- العمل على توحيد السياسات الاقتصادية للجمهوريات الأعضاء في علاقاتها مع الدول الأخرى وتنسيق التعاون مع المنظمات الاقتصادية والمالية الدولية.

و- إنشاء المرافق ذات النفع المشترك للجمهوريات الأعضاء والمشروعات المشتركة بينها والإشراف عليها.

ز- إنشاء المؤسسات الاقتصادية والاتحادية والإشراف عليها.

خامساً: في مجال التربية والتعليم والثقافة:

أ- وضع سياسة تعليمية وتربوية وثقافية تستهدف بناء جيل قومي عربي اشتراكي مؤمن.

ب- وضع سياسة موحدة للبحث العلمي تكفل ملاحقته للتطور العلمي، والتنسيق بين مؤسسات البحث العلمي في الجمهوريات الأعضاء.

ج- وضع سياسة إعلامية اتحادية تخدم أهداف الاتحاد.

سادساً: في مجال التنسيق بين التشريعات وتوحيدها.

تتولى السـلطات الاتحادية التنسـيق بين التشـريعات والأنظمة في الجمهوريات الأعضاء وتعمل على توحيدها.

الفصل الثاني

مؤسسات الاتحاد

الفرع الأول

السلطة التنفيذية للاتحاد

أولاً: مجلس رئاسة الاتحاد:

مادة 15- يتكون مجلس رئاسة الاتحاد من رؤساء الجمهوريات الأعضاء وهو السلطة العليا في ممارسة الاختصاصات المقررة للاتحاد في هذا الدستور.

مادة 16- ينتخب مجلس الرئاسة رئيسا له من بين أعضائه وذلك لمدة سنتين قابلة للتجديد، ويضع المجلس لائحة داخلية تنظم عمله.

مادة 17- يؤدي كل من أعضاء مجلس الرئاسة أمام مجلس الأمة الاتحادي اليمين التالي:-

أقسم بالله العظيم أن أحافظ مخلصا على اتحاد الجمهوريات العربية، وان أحترم الدستور والقانون وأن أناضل لخدمة مصالح الشعب وتحقيق أهداف الأمة العربية .

مادة 18- تصدر قرارات مجلس الرئاسة بالأغلبية فيما عدا الحالات التالية:

أ- المسائل التي يشترط فيها الدستور والأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الإجماع.

ب- المسائل الهامة الأخرى التي يرى أحد أعضاء مجلس الرئاسة ضرورة الإجماع فيها، وذلك خلال سنتين من تاريخ نفاذ هذا الدستور.

مادة 19- إذا حدث فيما بين أدوار انعقاد مجلس الأمة الاتحادي أو في فترة حله، ما يوجب الإسراع في اتخاذ تدابير لا تحتمل التأخير، جاز لمجلس رئاسة الاتحاد أن يصدر في شأنها بالإجماع قرارات تكون لها قوة القانون .

ويجب عرض هذه القرارات على مجلس الأمة الاتحادي لإقرارها في أول دورة انعقاده، فإذا لم تعرض على المجلس زال ما لها من أثر من تاريخ

انعقاد المجلس، أما إذا عرضت ورفضها المجلس فيزول ما كان لها من أثر من تاريخ الرفض.

مادة20- يصدر مجلس رئاسة الاتحاد اللوائح اللازمة لتنفيذ القوانين الاتحادية، ولتنظيم المؤسسات والمرافق التي يشرف عليها.

مادة 21- لا تنفذ قرارات مجلس رئاسة الاتحاد إلا بعد نشرها في الجريدة الرسمية الاتحادية ما لم ينص على غير ذلك في صلب القرار.

مادة 22- ينعقد مجلس رئاسة الاتحاد في عاصمة الاتحاد، ويجوز بقرار منه عقده في أي مكان آخر داخل الاتحاد.

ثانياً: المجلس الوزاري الاتحادي.

مادة 23- يعين مجلس رئاسة الاتحاد عددا من الوزراء يتكون منهم مجلس وزاري اتحادي برئاسة رئيس يعينه مجلس الرئاسة.

ويحدد مجلس الرئاسة اختصاصات كل وزير اتحادي ولا يجوز الجمع بين منصب الوزير الاتحادي وبين أي منصب عام أو وظيفة عمومية في إحدى الجمهوريات إلا في حالات استثنائية يوافق عليها مجلس الرئاسة.

مادة 24- الوزراء الاتحاديون مسئولون أمام مجلس الرئاسة في ممارسة مهامهم .. ويؤدون أمامهما اليمين المنصوص عليها في المادة 17 من هذا الدستور.

مادة 25- يعقد المجلس الوزاري الاتحادي اجتماعات دورية وطارئة للنظر في الشئون التنفيذية للاتحاد ولتنسيق أعمال الوزراء الاتحاديين ويمارس مجلس الوزراء المسائل التالية على وجه الخصوص..

أ- إعداد مشروعات القوانين والقرارات الاتحادية.

ب- إعداد الدراسات التي يقتضيها تحقيق المهام المنوطة بالاتحاد

ج- الاتصال بالوزراء المختصين في الجمهوريات الأعضاء لممارسة اختصاصات الاتحاد وفقاً للقواعد التي يقررها مجلس الرئاسة.

د- متابعة تنفيذ القوانين والقرارات الاتحادية واعداد تقارير دورية لرفعها لمجلس الرئاسة.

هـ- إعداد مشروع موازنة الاتحاد.

مادة 26- يضع مجلس الرئاسة بقرار منه نظام عمل المجلس الوزاري الاتحادي

ثالثاً: المجالس والهيئات المتخصصة واللجان الفنية:

مادة 27- ينشئ مجلس الرئاسة مجالس اتحادية للشئون التخطيطية والاقتصادية والاجتماعية ولشئون الأمن القومي والسياسة الخارجية والتعليم والثقافة والبحث العلمي والإعلام وأية مجالس أو هيئات متخصصة أو لجان فنية أخرى يراها لازمة لتحقيق أهداف الاتحاد ، ويتحدد تشكيل واختصاصات تلك المجالس والهيئات واللجان وعلاقاتها بالوزراء الاتحاديين بموجب قرارات تصدر عن مجلس الرئاسة.

رابعاً: الموظفون الاتحاديون.

مادة 28- يصدر قانون اتحادي بنظام الموظفين الاتحاديين يبين شروط توظفهم وواجباتهم والمزايا المادية والمعنوية المقررة لهم وما يكفل لهم الاستقلال في أداء أعمالهم.

الفرع الثاني

السلطة التشريعية:

مادة 29- يتكون مجلس الأمة الاتحادي من عشـرين عضـوا عن كل جمهورية ينتخبهم مجلس الشعب فيها من بين أعضائه، وتكون مدة مجلس الأمة الاتحادي أربع سـنوات، ويؤدي عضـو مجلس الأمة الاتحادي أمام المجلس اليمين المنصوص عليها في المادة 17 من هذا الدستور.

ولا يجوز الجمع بين عضـوية مجلس الأمة الاتحادي وعضـوية مجلس الشـعب. وفي حالة غياب مجلس الشـعب في إحدى الجمهوريات وإلى أن يتكون ذلك المجلس فإن القيادة السياسية في تلك الجمهورية تضـع قواعد اختيار ممثلي جمهوريتها في مجلس الأمة الاتحادي.

مادة 30- ينتخب مجلس الأمة الاتحادي رئيسـا له ونائبا أو أكثر للرئيس من أعضائه.

مادة 31- يعقد مجلس الأمة الاتحادي دورتين في العام وذلك بناء على دعوة من رئيس مجلس رئاسـة الاتحاد ، وتحدد اللائحة الداخلية مدة كل دورة وموعد انعقادها .

ويجوز دعوة المجلس لدورة غير عادية إذا دعت الضـرورة إلى ذلك بناء على طلب من رئاسة الاتحاد أو ثلث أعضاء المجلس.

مادة 32- يعقد مجلس الأمة الاتحادي اجتماعاته في المكان المحدد له في عاصـمة الاتحاد، ويجوز بعد موافقة مجلس رئاسـة الاتحاد أن يعقد المجلس اجتماعاته في أي مكان آخر داخل الاتحاد .

مادة 33- لا يصـح انعقاد مجلس الأمة الاتحادي إلا إذا حضـر الاجتماع ثلثا أعضائه على الأقل .

مادة 34- تصـــــدر قرارات مجلس الأمـة الاتحـادي بموافقـة الأغلبيـة المطلقة لأعضائه إلا إذا اشترط الدستور خلاف ذلك.

مادة 35- لمجلس رئاسـة الاتحاد ولأعضـاء مجلس الأمة الاتحادي حق اقتراح القوانين

مادة 36- يدخل في اختصاصات مجلس الأمة الاتحادي ما يلي :

أ- مناقشة وإقرار القوانين الاتحادية

ب- مناقشة وإقرار موازنة الاتحاد

ج- مناقشـــة وإقرار المســـاعدات والاتفاقات التي يبرمها الاتحاد، والتي يشترط هذا الدستور إقرارها من المجلس

د- مناقشة السياسة العامة لدولة الاتحاد واقتراح كل ما من شأنه تدعيم الاتحاد وتطبيق أهدافه.

هـ- توجيه الأسئلة والاستفسارات إلى الوزراء الاتحاديين.

مادة 37- تنفذ القوانين بعد التصـديق عليها من مجلس رئاسـة الاتحاد بالإجماع ويعمل بها بعد شـهر من تاريخ نشـرها بالجريدة الرسـمية للاتحاد، إلا إذا نص على خلاف ذلك في صلب القانون.

وللقوانين الاتحـاديـة الأولويـة على قوانين الجمهوريـات فيمـا يتعلق باختصاصات الاتحاد.

مادة 38- تقوم الســلطات المختصـــة في الجمهوريات بتنفيذ القوانين الاتحادية في إقليم كل منها، ولمجلس رئاسة الاتحاد أن يعين الموظفين اللازمين لمراقبة سـلامة تنفيذ القوانين الاتحادية في الجمهوريات الأعضـاء وتقديم تقارير دورية إلى كل من مجلس رئاسة الاتحاد ومجلس الأمة الاتحادي.

مادة 39- جلسات مجلس الأمة علنية، ويجوز انعقاده في جلسة سرية بناء على طلب مجلس الرئاسة أو ثلث أعضائه، وللوزراء الاتحاديين حق حضور جلسات المجلس.

مادة 40- يصدر مجلس الأمة الاتحادي لائحته الداخلية.

مادة 41- يتولى رئيس مجلس الأمة حفظ النظام والأمن داخل المجلس .

مادة 42- لا يسأل أعضاء مجلس الأمة الاتحادي عما يبدونه من آراء داخل المجلس، ولا يجوز القبض عليهم في غير حالة التلبس إلا بإذن من المجلس.

مادة 43- يصدر قانون اتحادي ببيان المزايا المادية والمعنوية التي يتمتع بها أعضاء مجلس الأمة الاتحادي ولا يجوز لعضو المجلس أن يشغل منصبا عاما أو وظيفة عمومية في إحدى الجمهوريات الأعضاء في الحكومة الاتحادية أو أن يحصل على أية ميزة غير منصوص عليها في القانون الاتحادي المشار إليه.

مادة 44- تعود لعضو مجلس الأمة الاتحادي عضويته في مجلس الشعب الذي انتخبه إذا انتهت عضويته في مجلس الأمة الاتحادي لأي سبب كان وفقاً للقواعد التي ينظمها دستور جمهوريته.

وإذا فقد أحد أعضاء مجلس الأمة الاتحادي عضويته في مجلس الشعب الذي انتخبه بسبب حل المجلس أو انتهاء مدته يستمر العضو في ممارسة عمله في مجلس الأمة الاتحادي حتى يتم انتخاب بديل عنه.

مادة 45- لمجلس الرئاســـة أن يقرر حل مجلس الأمة الاتحادي على أن يتم تشـكيل المجلس الجديد خلال ثلاثة أشـهر على الأكثر من صـدور قرار الحل.

وإذا لم يجتمع المجلس الجديد في هذا الموعد لأي سبب اجتمع المجلس القديم تلقائيا إلى أن تتم دعوة المجلس الجديد للاجتماع.

وإذا حل مجلس الأمة لسبب فلا يجوز حله لذات السبب مرة أخرى.

الفرع الثالث

السلطة القضائية للاتحاد

مادة 46- يشكل مجلس رئاسة الاتحاد محكمة دستورية من عضوين عن كل جمهورية ، ويعين المجلس رئيساً للمحكمة من بين أعضائها، ويكون له صوت مرجح عند تساوي الأصوات .

ولمجلس رئاسة الاتحاد أن يعين بالمحكمة أعضاء آخرين إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك بشرط مراعاة مبدأ التساوي بين الجمهوريات.

وتكون مدة العضوية أربع سنوات قابلة للتجديد.

المادة 47- يقسم أعضاء المحكمة اليمين التالية:

اقسم بالله العظيم أن أحترم الدستور والقانون وأن أحكم بالعدل..

مادة 48- تختص المحكمة الدستورية الاتحادية بالأمور الآتية:-

أ- الفصل في الطعون التي تقدم في دستور القوانين الاتحادية.

ب- الفصـــل في مدى مطابقة قوانين الجمهوريات لدســـتور الاتحاد وقوانينه.

ج- الفصل في المنازعات ذات الطابع القانوني التي تقوم بين سلطات الاتحاد وسلطات الجمهوريات، أو فيما بين جمهورية وأخرى عضو في الاتحاد.

د- الفصل في الطعون الموجهة ضد القرارات الإدارية الاتحادية.

هـ- إبداء الرأي الاستشاري في أية مسألة دستورية أو قانونية بطلب من مجلس رئاسة الاتحاد أو الوزراء الاتحاديين أو إحدى الجمهوريات الأعضاء.

و- أية اختصاصات أخرى يصدر بها قانون اتحادي.

مادة 49- تصدر المحكمة الدستورية قراراتها بالأغلبية وباسم الشعب.

مادة 50- قرارات المحكمة الدستورية واجبة النفاذ في جميع أراضي الجمهوريات الأعضاء في الاتحاد.

مادة 51- تعقد المحكمة الدستورية جلساتها في عاصمة الاتحاد، ويجوز لها أن تعقد جلساتها في أي مكان آخر داخل الاتحاد.

مادة 52- يصدر قانون اتحادي ببيان نظام المحكمة وإجراءاتها، والشروط التي يجب توافرها فيمن يعين عضوا فيها، والحصانات والمزايا المادية والمعنوية التي يتمتع بها أعضاء المحكمة العاملون بها.

الفصل الثالث

مالية الاتحاد:

مادة 53- يعد مجلس رئاسة الاتحاد مشروع موازنة الاتحاد، ويحيله إلى مجلس الأمة الاتحادي لمناقشته وإقراره بقانون اتحادي .

مادة 54- تبين الموازنة السنوية للاتحاد المبالغ التي تساهم بها كل من الجمهوريات الأعضاء في نفقات الاتحاد على أساس حصص ذات قيمة متساوية، وتنظيم الموارد الأخرى للاتحاد بقانون اتحادي.

مادة 55- يصدر قانون اتحادي ببيان تاريخ بدء وانتهاء السنة المالية للاتحاد وطريقة إعداد الموازنة الاتحادية.

وعلى الجمهوريات الأعضاء أن توحد بداية ونهاية السنة المالية في كل منها بما يتفق وبداية السنة المالية للاتحاد.

مادة 56- يعرض الحساب الختامي على مجلس الأمة الاتحادي لمناقشته وإقراره .

مادة 57- يبين بقانون اتحادي كيفية مراقبة الحسابات الاتحادية ومراجعتها.

الباب الثالث

أحكام عامة انتقالية

مادة 58- تختص الجمهوريات الأعضاء بكل ما لا يدخل في اختصاص الاتحاد وفقاً لأحكام هذا الدستور، ولكل جمهورية من الجمهوريات الأعضاء أن تعهد إلى سلطات الاتحاد بممارسة أي من اختصاصاتها على أن يقر ذلك مجلس رئاسة الاتحاد.

مادة 59- يعقد مجلس الرئاسة باسم الاتحاد المعاهدات والاتفاقات الدولية المتعلقة بالمسائل الداخلية في اختصاص الاتحاد، ويبلغها إلى مجلس الأمة الاتحادي مشفوعة بالبيان المناسب، وتكون هذه المعاهدات والاتفاقات الدولية نافذة في الجمهوريات الأعضاء بعد التصديق عليها من مجلس الرئاسة ونشرها وفقا للأوضاع المقررة في هذا الدستور.

غير أن المعاهدات والاتفاقات الدولية التي تمس السيادة، أو يترتب عليها تعديل في أحكام القوانين الاتحادية، أو تحمل خزانة الاتحاد نفقات غير واردة في ميزانيته لا تكون نافذة إلا إذا أقرها مجلس الأمة الاتحادي .

مادة 60- تظل المعاهدات والاتفاقات الدولية التي أبرمتها الجمهوريات الأعضاء قبل قيام الاتحاد نافذة طبقاً لأحكامها، وفي المجال المقرر لها وقت إبرامها وفقاً لقواعد القانون الدولي.

مادة 61- دون إخلال بالاختصاصات المقررة للاتحاد في هذا الدستور يحق لكل جمهورية أن تبرم المعاهدات والاتفاقات الدولية طبقاً لأوضاعها الدستورية وتبلغها إلى مجلس رئاسة الاتحاد.

مادة 62- يتكون بقرار إجماعي من مجلس رئاسة الاتحاد جبهة سياسية تضم ممثلين عن قيادة التنظيم السياسي في كل من الجمهوريات الأعضاء وترتبط هذه الجبهة بميثاق للعمل القومي في اتحاد الجمهوريات العربية من أجل تحقيق التفاعل والترابط بين جماهير الشعب في جمهوريات الاتحاد وترسيخ أسس الديمقراطية وقيمها، وتوحيد منطلقات وأساليب العمل السياسي في الجمهوريات الأعضاء وخلق المناخ الملائم لقيام الحركة العربية الواحدة، وإلى أن يتحقق ذلك

تكون القيادة السياسية في كل جمهورية وحدها المسئولة عن تنظيم ممارسة النشاط السياسي داخل الجمهورية.

مادة 63- تكون القيادة العامة للقوات المسلحة في كل من الجمهوريات الأعضاء لرئيس الجمهورية أو لمن تحدده النظم المعمول بها في كل منها.

مادة 64- إذا وقعت اضطرابات من الداخل أو الخارج في إحدى الجمهوريات تهدد أمنها أو تهدد أمن الاتحاد تخطر حكومة هذه الجمهورية السلطات الاتحادية فورا لكي تقوم الأخيرة باتخاذ الإجراءات الضرورية ضمن حدود صلاحيتها لحفظ الأمن والنظام وفي حالة ما إذا كانت حكومة إحدى الجمهوريات الأعضاء في وضع لا يسمح لها بطلب العون من الاتحاد أو إذا كان أمن الاتحاد في خطر فللسلطات الاتحادية المختصة أن تتدخل وبدون طلب لحفظ النظام وإعادة الأمور إلى نصابها.

مادة 65- للاتحاد أن يمتلك أو يحوز العقارات الضرورية في العاصمة وفي غيرها من أراضي الجمهوريات الأعضاء لإقامة مؤسساته ولا تخضع ممتلكات الاتحاد وأمواله للضرائب والرسوم المقررة في قوانين الجمهوريات الأعضاء وينظم ذلك قانون اتحادي .

مادة 66- ينشئ مجلس رئاسة الاتحاد جريدة رسمية اتحادية تنشر فيها القوانين والقرارات واللوائح والاتحادية.

مادة 67- إلى أن تقوم المؤسسات الاتحادية المنصوص عليها في هذا الدستور ، يشكل مجلس الرئاسة لجنة للمتابعة تضم ممثلاً عن كل جمهورية تكون مهمتها متابعة العمل على وضع الدستور الاتحادي موضع التنفيذ في أسرع وقت.

مادة 68- لا يجوز تعديل هذا الدستور إلا بموافقة ثلثي أعضاء مجلس الأمة الاتحادي وتصديق مجلس الرئاسة على هذا التعديل بالإجماع.

فإذا كان التعديل يمس حكما من الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية فلا ينفذ إلا بعد عرضه على الاستفتاء الشعبي، وتوفر الأغلبية له في كل جمهورية.

مادة 69- تعتبر مقدمة هذا الدستور جزءا لا يتجزأ منه .

مادة 70- يستمد هذا الدستور مبادئه من الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية ويفسر في ضوئها.

مادة 71- يتم التصديق على هذا الدستور من قبل المؤسسات الدستورية المختصة في كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد ويطرح على الاستفتاء الشعبي مع الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الصادرة في بنغازي بتاريخ 21 صفر سنة 1391 هجرية الموافق 17 من ابريل – نيسان سنة 1971 – ميلادية، وتكتسب الأحكام الأساسية للاتحاد ونصوص هذا الدستور قوة النفاذ بعد توفر الأغلبية لها في كل جمهورية من الجمهوريات الأعضاء.

مادة 72- يتم تبليغ هذا الدستور فور نفاذه كوثيقة رسمية إلى كل الدول العربية وإلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

معمر القذافي

رئيس مجلس قيادة الثورة

ومجلس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية

أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

حافظ الأسد

ملحق رقم (8)

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

اتفاقية الوحدة بين شطري اليمن

الموقعة بجامعة الدول العربية بتاريخ 1972/10/28

إن حكومتي الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، باسم شعب اليمن الواحد، وباسم الأمة العربية.

وانطلاقاً من واقع المسؤولية التاريخية والمسؤولية القومية.

وإيماناً بأن شعب اليمن وأرضه وحدة واحدة لا تقبل التجزئة والانقسام.

وأن هذه الحقيقة قد أثبتت نفسها على مر التاريخ برغم كل محاولات ترسيخ الانفصال وخلق الحواجز والسدود والحدود.

ووفاء لنضال وتضحيات الشعب اليمني على طول التاريخ في سبيل القضاء على نظام الإمامة الملكي المتخلف في شمال الوطن والسيطرة الاستعمارية في جنوبه ..

وحرصاً على تعزيز وتدعيم النضال الوطني التقدمي في اليمن.

وتأكيداً بأن الوحدة اليمنية هي الأساس في بناء مجتمع يمني حديث يضمن الحريات الديمقراطية لكافة القوى الوطنية المعادية للاستعمار والصهيونية وهي الأساس لبناء اقتصاد وطني مستقل ولحماية استقلال وسيادة اليمن من أي تدخل أو عدوان خارجي..

وتأكيداً بأن الوحدة اليمنية الشاملة بالإضافة إلى أنها قضية المصير الحتمي هي قضية التقدم والحضارة والازدهار للشعب اليمني.

وثقة بأن الوحدة اليمنية الشاملة فوق أنها أمل كل يمني على طول رقعة اليمن هي حاجة أساسية لتوطيد دعائم الاستقلال السياسي وبناء اقتصاد وطني مستقل، وهي أيضاً ضرورة قومية لأنها تمكن اليمن من المساهمة في الكفاح الذي تخوضه الأمة العربية ضد التحاف الإمبريالي الصهيوني، كما أنها تشكل خطوة جادة نحو تحقيق وحدة الأمة العربية بأسرها.

وتجاوباً مع الجهود الصادقة التي بذلتها لجنة التوفيق العربية- المشكلة بقرار مجلس جامعة الدول العربية رقم 2961 بتاريخ 1972/9/13، من أجل تسوية الخلافات بين شطري اليمن، وهي الجهود التي تمثل اهتمام الأمة العربية بواقع شعب اليمن ومستقبله.

وعملاً بأحكام المادة التاسعة من ميثاق جامعة الدول العربية.

فقد اتفقت الحكومتان على قيام دولة موحدة، تجمع شطري اليمن، وشماله وجنوبه، وذلك وفقاً للأسس والمبادئ الواردة فيما بعد .

المبادئ والأسس

لقيام وحدة يمنية بين كل من

الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

شكل الدولة

مادة 1- تقوم وحدة بين دولتي الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تذوب فيها الشخصية الدولية لكل منهما في شخص دولي واحد وقيام دولة يمنية واحدة.

مادة 2- يكون للدولة الجديدة :

أ- علم واحد وشعار واحد.

ب-عاصمة واحدة.

ج- رئاسة واحدة.

د- سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية واحدة.

نظام الحكم

مادة 3- نظام الحكم في الدولة الجديدة نظام جمهوري وطني ديمقراطي يقوم على أساس الاقتراع الحر المباشر لكافة أفراد الشعب اليمني.

ب) يضمن دستور الوحدة جميع الحريات الشخصية والسياسية والعامة للجماهير كافة ولمختلف مؤسساتها ومنظماتها الوطنية والمهنية والنقابية، وتتخذ جميع الوسائل الضرورية لكفالة ممارسات الحريات.

ج) تضمن دولة الوحدة حماية جميع المكاسب التي حققتها ثورتا سبتمبر وأكتوبر.

وسائل تحقيق الوحدة وقيام الدولة الجديدة:

مادة 4- كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة تتخذ الإجراءات اللازمة نحو عقد مؤتمر قمة يجمع رئيسي الدولتين للنظر في الإجراءات الفورية اللازمة لإتمام الوحدة على أن يعقد هذا المؤتمر في الموعد الذي يحدده رئيسا الحكومتين.

مادة 5- يختار كل من رئيسي الدولتين ممثلا شخصيا له ويشرف هذان الممثلان على أعمال اللجان الفنية الواردة في المادة (7)

مادة 6- تستمر جامعة الدول العربية في تقديم مساعداتها اللازمة لإنجاح هذه الوحدة بناء على رغبة الدولتين.

مادة 7- يشكل مؤتمر القمة للدولتين اللجان الفنية المشتركة من عدد متساو من ممثلي الدولتين لتوحيد الأنظمة والتشريعات القائمة في كل منهما، وتحدد فترة زمنية أقصاها سنة لانتهاء هذه اللجان من المهام المعهود بها إليها, وتبدأ هذه السنة من تاريخ توقيع هذا الاتفاق.

مادة 8- تشكل اللجان الفنية المشتركة من ممثلي الدولتين على مستوى عال ومن المختصين ويحق لهذه اللجان تكوين لجان فرعية لتسهيل أعمالها.

وتتألف هذه اللجان من :-

1- لجنة الشئون الدستورية وتختص بوضع مشروع الدستور.

2- لجنة الشؤون الخارجية والتمثيل الدبلوماسي والقنصلي، وتختص بتوحيد إدارة السياسة الخارجية للدولتين ووضع الأسس للسياسة الخارجية للدولة الجديدة الموحدة.

3- لجنة الشئون الاقتصادية والمالية، وتختص بالشئون الاقتصادية والجمارك والتنمية الاقتصادية والنظام النقدي الموحد وميزانية الدولة .

4- لجنة الشئون التشريعية والقضائية، وتختص بتوحيد التشريعات ووضع الأنظمة الموحدة للقضاء.

5- لجنة شئون التربية والثقافة والإعلام، وتختص بشئون التعليم في كافة مراحله والثقافة والإعلام.

6- لجنة الشئون العسكرية، وتختص بالدفاع والقوات المسلحة وتوحيدها.

7- لجنة الشئون الصحية، وتختص بالشئون العلاجية والمستشفيات وما إلى ذلك.

8- لجنة الإدارة والمرافق العامة، وتختص بنظام الحكم المحلي ومرافق الدولة وتسييرها.

مادة 9- عند انتهاء لجنة الشئون الدستورية من وضع مشروع الدستور يطرح من قبل الدولتين على المجالس التشريعية المختصة للموافقة عليه طبقا للأنظمة الدستورية لكل منهما.

مادة 10 :

أ- يقوم رئيسا الدولتين بتفويض من السلطتين التشريعيتين في القطرين بتنظيم عمليتي الاستفتاء على الدستور وانتخاب سلطة تشريعية موحدة للدولة

الجديدة طبقاً للدستور الجديد.

ب- تنفيذا لذلك يشكل رئيسا الدولتين لجنة وزارية مشتركة تضم إلى عضويتها وزيري الداخلية في كلا الشطرين لكي تقوم بالإشراف على هذه الأعمال وذلك خلال ستة أشهر على الأكثر من تاريخ موافقة السلطات التشريعية في الدولتين على مشروع الدستور، ويكون لهذه اللجنة كافة الصلاحيات اللازمة للقيام بمهمتها.

ج- ويدعو رئيسا الدولتين جامعة الدول العربية لإيفاد ممثلين عنها للمشاركة في أعمال اللجنة.

مادة 11- تحل المجالس التشريعية في الدولتين فورا إقرر مشروع الدستور الجديد بالاستفتاء الشعبي.

مادة 12- في حالة موافقة الشعب على مشروع الدستور يعلن قيام الدولة الجديدة فورا طبقا للدستور.

مادة 13- يعمل بأحكام الدستور الجديد فور إقراره.

أحكام ختامية

مادة 14- تنفيذا لما ورد في بيان لجنة التوفيق وعملا بأحكام المواد السابقة يقرر الطرفان التزامهما الكامل بهذه الأحكام وتنفيذها.

مادة 15- حررت هذه الوثيقة من ثلاث نسخ يسلم كل طرف النسخة الخاصة به وتحفظ النسخة الثالثة لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

وقع هذه الوثيقة المندوبون المفوضون بذلك

عن جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

السيد/ علي ناصر محمد

رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع

السيد/ عبد الله الخامري

عضو اللجنة المركزية ووزير الإعلام

عن الجمهورية العربية اليمنية

السيد / محسن العيني

رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية.

السيد / احمد جابر عفيف

وزير التربية والتعليم

وقع هذا الاتفاق بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية يوم السبت 21 من رمضان 1396 هجرية الموافق من 28 أكتوبر (تشرين الأول) 1972 ميلادية.

ملحق رقم (9)

نص الإعلان التاريخي الوحدوي لقيام الجمهورية العربية الإسلامية
بين الجمهورية العربية الليبية - وجمهورية تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

في ســاعة فاصــلة، وفي فترة مليئة بالتحديات ، وفي يوم خالد، وتحت شـعور مثقل بالمسـئولية التاريخية، اسـتجاب المجاهد الأكبر لنداء الوحدة العربية

الذي أحس فيه نفس النداء عندما دعا داعي الجهاد لتحرير الأرض العربية الإسلامية.

وقد استجاب له مرة أخرى عندما دعا لتوحيد تلك الأرض فوقع الزعيم الحبيب بورقيبة مع العقيد معمر القذافي إعلان الوحدة بين القطرين العربيين التونسي والليبي على أساس المبادئ الدستورية المعمول بها في البلدين..

على أن يكون البلدان جمهورية واحدة تسمى الجمهورية العربية الإسلامية ذات دستور واحد وعلم واحد ورئيس واحد وجيش واحد وفي نطاق نظم تشريعية وتنفيذية وقضائية واحدة وأن يكون يوم الاستفتاء لقيام الوحدة إن شاء الله يوم 25 ذي الحجة الموافق 18 يناير 1974 ميلادية 1974/1/12

ملحق رقم (10)

قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان

الباب الأول

أسس الحكم الذاتي

القسم الأول :

الأسس العامة

المادة الأولى

أ- تتمتع منطقة كردستان بالحكم الذاتي وتسمى المنطقة حيثما وردت بهذا القانون

ب- تتحدد المنطقة بحيث يكون غالبية سكانها .. ويثبت الإحصاء العام حدود المنطقة وفقا لما جاء في بيان 11 آذار ...وتعتبر قيود إحصاء عام 1957 أساسا لتحديد الطبيعة القومية للأغلبية السكانية في الأماكن التي سيجري فيها الإحصاء العام.

ج- تعتبر المنطقة وحدة إدارية واحدة لها شخصية معنوية تتمتع بالحكم الذاتي في إطار الوحدة القانونية والسياسية والاقتصادية للجمهورية العراقية وتجري التقسيمات الإدارية فيها وفقاً لأحكام قانون المحافظات مع مراعاة أحكام هذا القانون

د- المنطقة جزء لا يتجزأ من أرض العراق، وشعبها جزء لا يتجزأ من شعب العراق.

هـ- تكون مدينة أربيل مركزا لإدارة الحكم الذاتي

و- هيئات الحكم الذاتي جزء من هيئات الجمهورية العراقية.

المادة الثانية

أ- تكون اللغة الكردية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية في المنطقة.

ب- تكون اللغة الكردية لغة التعليم للأكراد في المنطقة ويكون تدريس اللغة العربية إلزاميا في جميع مراحل التعليم ومرافقه.

ج- تنشأ مرافق تعليمية في المنطقة لأبناء القومية العربية يكون التعليم فيها باللغة العربية وتدرس اللغة الكردية إلزامياً.

د- لأبناء المنطقة كافة حق اختيار المدارس التي يرغبون التعليم فيها بصرف النظر عن لغتهم الأم.

هـ- يخضع التعليم في جميع مراحله في المنطقة للسياسة التربوية والتعليمية العامة للدولة.

المادة الثالثة

أ- حقوق وحريات أبناء القومية العربية والأقليات في المنطقة مصونة وفق أحكام الدستور والقوانين والقرارات الصادرة بشأنها وتلتزم إدارة الحكم الذاتي بضمان ممارستها.

ب- يمثل أبناء القومية العربية والأقليات في المنطقة في جميع هيئات الحكم الذاتي بنسبة عددها إلى سكان المنطقة ويشاركون في تولي الوظائف العامة وفق القوانين والقرارات المتضمنة لها.

المادة الرابعة

القضاء مستقل لا سلطان عليه لغير القانون وتشكيلاته في المنطقة جزء لا يتجزأ من التنظيم القضائي في الجمهورية العراقية.

القسم الثاني – الأسس المالية

المادة الخامسة

المنطقة وحدة مالية مستقلة ضمن وحدة مالية الدولة

المادة السادسة

أ- للمنطقة ميزانية خاصة ضمن الميزانية الموحدة للدولة.

ب- يتبع في إعداد وتنظيم ميزانية نفس القواعد والأســـس التي تتبع في إعداد الميزانية الموحدة للدولة.

المادة السابعة

تتكون ميزانية المنطقة من الأجزاء التالية:

1- الميزانية الاعتيادية

2- الميزانية الاستثمارية السنوية للمنطقة.

3- ميزانيات المؤسسات والمصالح الإنتاجية ذات الطابع المحلي المؤسسة في المنطقة.

4- ميزانيات الإدارات المحلية والبلديات في المنطقة

المادة الثامنة

تتألف موارد ميزانية المنطقة من العناصر التالية:

أ- بموجب القوانين المختصة الموارد الذاتية وتتكون من:

1- إيرادات الضرائب والرسوم المقررة للبلديات والإدارات المحلية.

2- أثمان المبيعات وأجور الخدمات.

3- الحصة المقررة من أرباح المصالح والمؤسسات المشمولة بميزانية المنطقة

4- ضريبة العقار الأساسية والإضافية ضن المنطقة

5- ضريبة الأراضي الزراعية وحصة الإصلاح الزراعي من المحاصيل

6- ضريبة العرصات.

7- ضريبة التركات.

8- رسوم تسجيل العقار.

9- رسوم المحاكم والغرامات التي تفرضها.

10-الطوابع المالية.

11- رسوم تسجيل السيارات ونقل ملكيتها.

ب- يخصص في الميزانية الاعتيادية للدولة والمنهاج الاستثماري السنوي من خطة التنمية القومية لتغطية نفقات ميزانية المنطقة بما يضمن نموها وتطورها المتوازن مع كافة أرجاء الجمهورية العراقية.

المادة التاسعة

تخضع حسابات المنطقة لرقابة ديوان الرقابة المالية والتفتيش المالي.

الباب الثاني- هيئات الحكم الذاتي

الفصل الأول – المجلس التشريعي

المادة العاشرة

المجلس التشريعي هو الهيئة التشريعية المنتخبة في المنطقة ويتحدد تكوينه وتنظيمه وسير العمل فيه بقانون .

المادة الحادية عشرة

أ- ينتخب المجلس التشريعي رئيسا ونائبا للرئيس وأميناً للسر من بين أعضائه.

ب- تنعقد جلسات المجلس بحضور أغلبية أعضائه وتتخذ قراراته بأغلبية عدد الحاضرين إلا إذا نص على خلاف ذلك في هذا القانون أو في قانون المجلس التشريعي.

المادة الثانية عشرة

يمارس المجلس التشريعي في حدود الدستور القوانين والصلاحيات التالية:_

أ- وضع نظامه الداخلي.

ب- اتخاذ القرارات التشـــريعية اللازمة لتطوير المنطقة والنهوض بمرافقها الاجتماعية والثقافية والعمرانية والاقتصـــادية ذات الطابع المحلي في حدود السياسة العامة للدولة.

ج- اتخاذ القرارات التشـــريعية التي تتعلق بتطوير الثقافة والخصـــائص والتقاليد القومية للمواطنين في المنطقة.

د- اتخاذ القرارات التشريعية الخاصة بالدوائر شبه الرسمية والمؤسسات والمصالح ذات الطابع المحلي بعد التشاور مع الجهات المركزية المختصة .

هـ- التصـــديق على مشـــروعات الخطط الفصـــلية التي يعدها المجلس التنفيذي في الشـؤون الاقتصـادية والاجتماعية والمشـاريع الإنمائية وشـؤون التربية والتعليم والصـــحة والعمل وفقا لمقتضـــيات التخطيط المركزي العام للدولة ومتطلبات تطبيقه.

و- اقتراح الميزانية الخاصة بالمنطقة .

ز- إقرار الحســـابات الختامية بعد تدقيقها من قبل ديوان الرقابة المالية ورفعها الى السلطة التشريعية للتصديق عليها.

ح- إدخال التعديلات على الميزانية الخاصـــة بالمنطقة بعد التصـــديق عليها في حدود المبالغ المختصة والأغراض التي خصصت من أجلها على أن لا يتعارض ذلك مع القوانين وخطط التنمية في الدولة.

ط- مناقشة ومساءلة أعضاء المجلس التنفيذي في الشؤون التي تدخل في اختصاصاتهم.

ي- طرح الثقة بالمجلس التنفيذي وبواحد أو أكثر من أعضائه ويعفى من مهمته من سحبت الثقة منه.. ويتخذ قرار سحب الثقة بأغلبية عدد الأعضاء المكونين للمجلس التشريعي.

الفصل الثاني – المجلس التنفيذي

المادة الثالثة عشرة

أ- المجلس التنفيذي هو الهيئة التنفيذية لإدارة الحكم الذاتي في المنطقة .

ب- يتكون المجلس التنفيذي من الرئيس ونائبه وعدد من الأعضاء مساو لعدد الإدارات الوارد ذكرها في المادة الرابعة عشرة أو يزيد عليه بعضوين .

ج- يكلف رئيس الجمهورية أحد أعضاء المجلس التشريعي برئاسة وتشكيل المجلس التنفيذي.

د- يختار الرئيس المكلف أعضاء المجلس التنفيذي نائبا له من بين أعضاء المجلس التشريعي أو من تتوفر فيهم شروط العضوية فيه ويتقدم إلى المجلس التشريعي بطلب الثقة وعند حصول الثقة بأغلبية عدد الأعضاء المكونين للمجلس يصدر مرسوم جمهوري بتشكيل المجلس التنفيذي .

هـ-يكون رئيس وأعضاء المجلس التنفيذي بدرجة وزير .

و- لرئيس الجمهورية إعفاء رئيس المجلس التنفيذي من منصبه وفي هذه الحالة يعتبر المجلس منحلا .

ز- في حالة حل المجلس التنفيذي أو ســـحب الثقة منه يســـتمر المجلس بتصريف الأمور الجارية فقط إلى حين تشكيل مجلس جديد على ألا يتجاوز ذلك مدة خمسة عشر يوماً.

المادة الرابعة عشرة

أ- ترتبط محافظات المنطقة برئيس المجلس التنفيذي.

ب- يستعين المجلس التنفيذي في ممارسة صلاحياته بالمكاتب التالية:

1- مكتب المجلس التنفيذي.

2- مكتب المتابعة والتفتيش.

3- مكتب الإحصاء والتخطيط

أولاً: ترتبط بالمجلس التنفيذي الإدارات التالية:

1- إدارة التربية والتعليم

2- إدارة الأشغال والإسكان

3- إدارة الزراعة والإصلاح الزراعي

4- إدارة الشؤون الداخلية

5- إدارة الثقافة والشباب

6- إدارة البلديات والمصايف

7- إدارة الشؤون الاجتماعية

8- إدارة الشؤون الاقتصادية والمالية.

9- إدارة شؤون الأوقاف

ثانياً: يتحدد اختصاص الإدارات التالية على النحو التالي :

1- إدارة الشؤون الداخلية : الشرطة والدفاع المدني والأحوال المدنية.

2- إدارة الشؤون الاجتماعية: الصحة والعمل والشؤون الاجتماعية

3- إدارة الشـــؤون الاقتصـــادية والمالية: الدوائر المالية والمرافق التجارية والصناعية والمحلية.

د-يتولى مســؤولية الإدارات الوارد ذكرها في الفقرة الســابقة أعضــاء من المجلس التنفيذي يدعون (الأمناء العامون) ويكون لكل منهم نائب يعين بدرجة خاصة.

المادة الخامسة عشرة

يمارس المجلس التنفيذي الصلاحيات التالية:

أ- ضمان تنفيذ القوانين والأنظمة.

ب- الالتزام بأحكام القضاء.

ج- إشاعة العدالة وحفظ الأمن والنظام العام وحماية المرافق العامة الوطنية والمحلية وأموال الدولة العامة والخاصة.

هـــ-إعداد مشروعات الخطط التفصيلية للشؤون الاقتصادية والاجتماعية والمشـــاريع الإنمائية وشـــؤون التربية والتعليم والصـــحة والعمل وفقا لمقتضـــيات التخطيط المركزي العام للدولة ومتطلبات تطبيقه ورفعها إلى المجلس التشريعي للتصديق عليها.

و-الإشراف على المرافق والمؤسسات العامة المحلية في المنطقة .

ز- تعيين موظفي إدارة الحكم الذاتي الذين لا يتطلب تعيينهم إصدار مرسوم جمهوري أو موافقة رئيس الجمهورية وفق قوانين الخدمة والملاك وتســري عليهم أحكام القوانين المطبقة على موظفي الجمهورية العراقية على أن يكون الموظفون في التقســيمات الإدارية التي تســكنها أغلبية كردية من

الأكراد أو من يحســـنون اللغة الكردية مع مراعاة ما جاء في المادة الثالثة من هذا القانون.

ح- تنفيذ ميزانيـة المنطقـة وفق القوانين والأســـس المعتمـدة في النظـام المحاسبي للدولة.

ط- إعداد تقرير ســـنوي عن أوضـــاع المنطقة يرفع لرئيس الجمهوريـة وللمجلس التشريعي.

الباب الثالث- العلاقة بين السلطة المركزية وإدارة الحكم الذاتي.

المادة السادسة عشرة

ما خلا الصـلاحيات التي تمارسـها هيئات الحكم الذاتي وفقاً لأحكام هذا القانون تعود ممارســة الســلطة في جميع أرجاء الجمهورية العراقية إلى الهيئات المركزية أو من يمثلها.

المادة السابعة عشرة

أ- ترتبط تشكيلات الشرطة والأمن والجنسية في المنطقة بمديرياتها العامة في وزارة الداخلية وتسري على منتسبيها أحكام القوانين والأنظمة والتعليمات المطبقة في الجمهورية العراقية.

ب- لرئيس المجلس التنفيذي أو لمن يخوله من أعضـــاء المجلس أن يعهد إلى التشـكيلات الوارد ذكرها في الفقرة (أ) من هذه المادة بواجبات ضـمن المنطقة في حدود وظائفها وفي إطار السياسة العامة للدولة.

ج- يعين وينقل مديرو التشـــكيلات الوارد ذكرها في الفقرة(أ) من هذه المادة بأمر من وزير الداخلية بعد التشاور مع رئيس المجلس التنفيذي.

د- ينقل منتسبو الشرطة ضمن المنطقة بأمر من أمين إدارة الشؤون الداخلية أو من يخوله مع مراعاة ما جاء في الفقرة (ج) من هذه المادة.

هـ- يعين وينقل منتسبو التشكيلات الوارد ذكرها في الفقرة (أ) من هذه المادة وفق القواعد والصلاحيات المعمول بها في الجمهورية العراقية مع مراعاة ما جاء في الفقرات السابقة.

المادة الثامنة عشرة

أ- دوائر السلطة المركزية في المنطقة تخضع للوزارات التابعة لها وتمارس عملها في حدود اختصاصاتها ولهيئات الحكم الذاتي رفع التقارير عنها إلى الوزارات التابعة لها.

ب- للسلطة المركزية في حدود اختصاصاتها حق التوجيه العام للإدارات المحلية الوارد ذكرها في المادة الرابعة عشرة من هذا القانون.

ج- تعين السلطة المركزية وزيرا للدولة يقوم بالتنسيق بين النشاط الذي تمارسه في المنطقة كل من السلطة المركزية وهيئات الحكم الذاتي وله أن يحضر جميع اجتماعات هذه الهيئات وللسلطة المركزية أن تندب أياً من الوزراء الآخرين للقيام بذات المهمة.

د-تبلغ قرارات هيئات الحكم الذاتي لوزير الدولة فور صدورها.

المادة التاسعة عشرة

أ- تمارس الرقابة على مشروعية قرارات هيئات الحكم الذاتي محكمة تمييز العراق في هيئة خاصة تتكون من رئيس المحكمة وأربعة أعضاء يختارهم أعضاء محكمة التمييز من بينهم لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة.

ب- لوزير العدل أو لوزير الدولة أن يطعن في قرارات هيئات الحكم الذاتي أمام هيئة الرقابة الوارد ذكرها في الفقرة السابقة لمخالفتها الدستور أو القوانين أو الأنظمة وذلك خلال ثلاثين يوما من تاريخ تبليغ وزير الدولة بها.

ج- الطعن في قرارات هيئات الحكم الذاتي أمام هيئة الرقابة بوقف تنفيذها حتى نتيجة الفصل فيه.

هـ- تعتبر قرارات هيئات الحكم الذاتي التي تقرر هيئة الرقابة عدم مشروعيتها ملغاة كلا او جزءا من تاريخ صدورها وتزال جميع الآثار القانونية التي ترتبت عليها.

و-تبلغ هيئة الرقابة قراراتها إلى الجهة الطاعنة وإلى رئيس المجلس التشريعي والمجلس التنفيذي وتنشر في الجريدة الرسمية .

المادة العشرون

أ- لرئيس الجمهورية أن يحل المجلس التشريعي في حالة تعذر ممارسته لصلاحياته بسبب استقالة نصف أعضائه أو عدم توافر النصاب القانوني خلال ثلاثين يوماً من تاريخ دعوته للانعقاد أو بسبب عدم منحه الثقة المنصوص عليها في الفقرة (د) من المادة الثالثة عشرة من هذا القانون لأكثر من مرتين متتاليتين أو في حالة عدم امتثاله لقرارات هيئة الرقابة المنصوص عليها في المادة التاسعة عشرة من هذا القانون.

ب- في حالة حل المجلس التشريعي يستمر المجلس التنفيذي في ممارسة صلاحياته إلى حين انتخاب المجلس التشريعي الجديد في فترة أقصاها تسعون يوما من تاريخ صدور المرسوم الجمهوري بحله.

المادة الحادية والعشرون

ينفذ هذا القانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

صدر في بغداد في اليوم السابع عشر من شهر صفر لسنة 1394 الهجرية المصادف لليوم الحادي عشر من شهر آذار سنة 1974 الميلادية.

أحمد حسن البكر

رئيس مجلس قيادة الثورة